
باعت أكثر من
6 ملايين نسخة
وتُرجمت إلى أكثر
من 35 لغة
إيمي تان
نادي
بهجة الحظ
نادي قراءة مكتبة
رواية
ترجمة: إيناس التركي

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

نادي
بهجة الحظ

الكرمة

alkarmabooks.com
facebook.com/alkarmabooks
x.com/alkarmabooks
instagram.com/alkarmabooks

الطبعة الأولى ٢٠٢٦
حقوق النشر © دار الكرمة ٢٠٢٦
العنوان الأصلي: *The Joy Luck Club*
Joy Luck Club © 1989 by Amy Tan. First published in the United States of America by G.P. Putnam's Sons.
Translation rights arranged by Sandra Dijkstra Literary Agency working in conjugation with Arabian leopards Literary Agency.

الحقوق الفكرية للمؤلفة محفوظة
حقوق الترجمة © إيناس التركي

مكتبة
t.me/soramnqraa

تان، إيمي.
نادي بهجة الحظ: رواية/ إيمي تان؛ ترجمتها عن الإنجليزية إيناس التركي - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٦.

تدمك: 9789779603575
١- القصص الأمريكية.
أ- التركي، إيناس (مترجمة).
ب- العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٣٢٤٤٨ / ٢٠٢٥

٢٤٦٨١٠٩٧٥٣١

تصميم الغلاف: أحمد فرج

قالوا عن هذه الرواية

«رائعة... قوية كالأسطورة».

- واشنطن بوست بوك وورلد

«مذهلة... الشيء السلبي الوحيد الذي يمكنني قوله عن هذه الرواية هو أنني لن أتمكن من قراءتها مجددًا للمرة الأولى».

- لوس أنجلوس تايمز

«تتبع الرواية المصائر المؤثرة لجيلين من النساء القويات والذكيات، وكل صفحة مكتوبة ببراعة ترحِّب بالقارئ وتُفضي إلى تنوير، كأي حكمة حقيقية، تجلب أحيانًا المتعة وأحيانًا الحزن... لسرد هذه القصة المعقدة، أبدعت إيمي تان، الكاتبة ذات الموهبة الباهرة، روايةً كالنسيج المتشابك - قصة منسوجة في الأخرى، بانوراما من الأصوات المتميزة التي تنادي بعضها بعضًا على مر الزمن».

- شيكاغو تريبيون

«رواية رائعة».

- نيويورك تايمز

«صادقة ومؤثرة وشجاعة بشكلٍ غاية في الجمال. تُقدِّم لنا إيمي تان لغز رابطة الأم والابنة بطرق لم نعرفها من قبل».

- أليس ووكر

«مثيرة للإعجاب... تصف هذه الرواية مستنقع الحب العنيف وسوء الفهم الكامن بين الجيلين».

- النيويوركر

«لا توجد كتبٌ كثيرة تنهي قراءتها وترغب فورًا في إعادة قراءتها، ولكن هذا الكتاب واحد منها. «نادي بهجة الحظ» أشبه بعلبة أحجية صينية - معقدة وغامضة ومترابطة بطريقة تبدو بسيطة... تكاد تكون أسطورية في بنيتها، مثل حكايات شهرزاد الأسطورية الساحرة، لكنها أيضًا واقعية جدًّا. في الرواية قصصٌ كثيرة، كل تفصيلة فيها أكثر إثارةً وتشويقًا من سابقتها، كلٌّ منها يعكس قصة شخص آخر».

- كوزموبوليتان

«دقيقة وحساسة».

- سان دييغو يونيون تريبيون

إيمي تان

نادي بهجة الحظ

رواية

مكتبة
t.me/soramnqraa

ترجمتها عن الإنجليزية

إينـــاس التـــركي



إلى أمي
وذكرى والدتها

لقد سألتِني ذات مرة
عما سأتذكره.

هذا، وأكثر بكثير.

المحتويات



نادي بهجة الحظ

ريش من على بُعد ألف لي

جينغ-ماي وو: نادي بهجة الحظ ١٧
آن-ماي شو: ندبة ٤٨
ليندو جونغ: الشمعة الحمراء ٥٧
ينغ-ينغ سانت كلير: سيدة القمر ٧٩

البوابات الست والعشرون المشؤومة

ويفرلي جونغ: قواعد اللعبة ١٠٥
لينا سانت كلير: الصوت القادم عبر الجدار ١٢٢
روز شو جوردان: نصف ونصف ١٤٠
جينغ-ماي وو: نوعان ١٥٩

ترجمة أمريكية

لينا سانت كلير: زوج الأرز ١٨١
ويفرلي جونغ: أربع جهات ٢٠٤
روز شو جوردان: من دون خشب ٢٣٠
جينغ-ماي وو: أفضل جودة ٢٤٦

الملكة الأم للسماوات الغربية

آن-ماي شو: طيور العقعق ٢٦٩
ينغ-ينغ سانت كلير: الانتظار بين الأشجار ٣٠٢
ليندو جونغ: وجه مزدوج ٣١٥
جينغ-ماي وو: زوج من التذاكر ٣٣٣

شكر وتقدير ٣٦١

نادي بهجة الحظ

الأمهات	البنات
سويوان وو	جينغ-ماي «جون» وو
آن-ماي شو	روز شو جوردان
ليندو جونغ	ويفرلي جونغ
ينغ-ينغ سانت كلير	لينا سانت كلير



ريش من
على بُعد ألف لي(*)



(*) الميل الصيني: وحدة قياس تساوي خمسمائة متر، وتُعرف باسم «لي». (المترجمة).

تذكرت المرأة العجوز بجعةً اشترتها منذ سنوات عديدة في شنغهاي مقابل مبلغ زهيد. كان هذا الطائر، كما تفاخر البائع في السوق، بطة مدت عنقها ذات مرة على أمل أن تصبح إوزة، والآن انظروا! صارت أجمل من أن تؤكل.

ثم أبحرت المرأة والبجعة عبر محيط عرضه ألف ألف لي، وعنقاهما ممدودان صوب أمريكا. وخلال رحلتها، همست المرأة إلى البجعة:

- في أمريكا، سأنجب ابنة تشبهني تمامًا، لكن لن يزعم أحد هناك أن قيمتها تُقاس بقوة تجشؤ زوجها. ولن ينظر إليها أحد باحتقار هناك، لأنني لن أجعلها تتحدث إلا الإنجليزية الأمريكية بطلاقة. وهناك، ستكون دومًا شبعى بدرجة أكثر من أن تتمكن معها من تجرع أي حزن! وسوف تفهم مقصدي، لأنني سأمنحها هذه البجعة: مخلوقًا فاق كل التوقعات.

لكن عندما وصلت إلى البلد الجديد، انتزع مسؤولو الهجرة البجعة منها، تاركين المرأة ترفرف بذراعيها، ولم يبقَ لها سوى ريشة بجعة واحدة للذكرى. ثم تعين عليها بعد ذلك ملء الكثير من الاستمارات، حتى نسيت سبب مجيئها وما الذي خلفته وراءها.

صارت المرأة عجوزًا الآن، ولديها ابنة نشأت وهي لا تتحدث إلا الإنجليزية، وتجرع الكوكاكولا أكثر مما تجرع الحزن. أرادت المرأة منذ زمن طويل أن تعطي ابنتها ريشة البجعة الوحيدة وتقول لها: «قد تبدو هذه الريشة عديمة القيمة، لكنها أتت من مكان بعيد، وتحمل معها كل نياتي الطيبة». وانتظرت عامًا بعد عام حتى يأتي اليوم الذي تستطيع فيه أن تخبر ابنتها بذلك بلكنة إنجليزية أمريكية متقنة.

جينغ-ماي وو

نادي بهجة الحظ

طلب مني أبي أن أكون العضو الرابع في نادي بهجة الحظ. سأحل محل أمي، التي ظل مقعدها على طاولة الماه جونغ شاغرًا منذ وفاتها قبل شهرين. يعتقد أبي أنها ماتت بسبب أفكارها الخاصة.

قال أبي:

- خطرت في بالها فكرة جديدة، لكن قبل أن تتفوَّه بها، نمت الفكرة بشكل زائد على الحد وانفجرت. لا بد أنها كانت فكرة سيئة جدًّا.

قال الطبيب إنها توفيت بسبب تمدُّد في الأوعية الدموية في الدماغ، أما صديقاتها في نادي بهجة الحظ فقلن إنها ماتت مثل الأرنب تمامًا: بسرعة، تاركة وراءها أمورًا لم تُنجز. كان من المفترض أن تستضيف والدتي الاجتماع التالي لنادي بهجة الحظ.

في الأسبوع السابق لوفاتها، اتصلت بي وهي مفعمة بالفخر والحيوية.

- لقد طهَت عمتكِ لين حساء الفاصوليا الحمراء من أجل اجتماع نادي بهجة الحظ، أما أنا فسأطهو حساء السمسم الأسود.

قلت لها:

- لا تتباهي.

- هذا ليس تباهيًا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

قالت إن الحساءين متشابهان تقريبًا، تشابودوو، أو ربما قالت بوتونغ، أي لا يشبهان بعضهما على الإطلاق. كان أحد تلك التعبيرات الصينية التي تعني الجانب الطيب من النيات المتناقضة. لا يمكنني أبدًا تذكر الأشياء التي لم أفهمها من الأساس.

مكتبة
t.me/soramnqraa

* * *

أسست والدتي النسخة الخاصة بسان فرانسيسكو من نادي بهجة الحظ عام ١٩٤٩، قبل عامين من ولادتي. كان هذا هو العام الذي غادرت فيه أمي وأبي الصين، ومعهما صندوق جلدي صلب واحد ممتلئ فقط بالفساتين الحريرية الفاخرة. أوضحت أمي لأبي بعد صعودهما على متن القارب أنه لم يكن هناك وقت لحزم أي شيء آخر. ومع ذلك، تحركت يداه على نحو محموم بين الحرير الزلق، بحثًا عن قمصانه القطنية وسراويله الصوفية.

عندما وصلا إلى سان فرانسيسكو، جعلها والدي تخفي تلك الملابس اللامعة. ظلت ترتدي نفس الفستان الصيني بني اللون المنقوش بالمربعات، حتى منحتها جمعية الترحيب باللاجئين فستانين مستعملين، كلاهما أكبر بكثير من مقاسات النساء الأمريكيات. تألفت الجمعية من مجموعة من السيدات المبشرات الأمريكيات ذوات الشعر الأشيب من الكنيسة المعمدانية الصينية الأولى. وبسبب هداياهن، لم يستطع والداي رفض دعوتهن للانضمام إلى الكنيسة، كما أنهما لم يستطيعا تجاهل نصيحة السيدات المسنات العملية لتحسين لغتهما الإنجليزية من خلال دروس الكتاب المقدس مساء أيام الأربعاء، ولاحقًا من خلال تدريب الجوقة صباح أيام السبت. هكذا التقى والداي بآل شو وآل جونغ وآل سانت كلير. شعرت أمي بأن نساء هذه العائلات كانت لديهن أيضًا مآسٍ لا توصف تركنها وراءهن في الصين، وآمال لم يتمكنَّ من التعبير عنها بلغتهن الإنجليزية الضعيفة. أو على الأقل، لاحظت أمي التبلد في وجوه هؤلاء النساء، ورأت كيف تحركت أعينهن بسرعة عندما أخبرتهن بفكرتها عن نادي بهجة الحظ.

كان نادي بهجة الحظ فكرة تذكرتها أمي من أيام زيجتها الأولى في كويلين، قبل مجيء اليابانيين. لهذا السبب أفكر في نادي بهجة الحظ بوصفه قصتها في كويلين. كانت تلك هي القصة التي ترويها لي دائمًا عندما تشعر بالملل، عندما لا يكون هناك ما يمكن فعله، بعد غسل كل الأطباق ومسح الطاولة ذات السطح الفورميكا مرتين، وعندما يجلس أبي ليقرأ الصحيفة ويدخن سجائر «بال مول» واحدة تلو الأخرى، كتحذير بعدم إزعاجه. حينها كانت أمي تخرج صندوقًا من كنزات التزلج القديمة التي أرسلها إلينا أقارب مجهولون من فانكوفر، وتقص الجزء السفلي من إحدى الكنزات ثم تسحب خيطًا مجعدًا من الصوف وتثبته بقطعة من الورق المقوى. وعندما تبدأ في لفه بإيقاع انسيابي واحد، كانت تبدأ قصتها. على مر السنين، روت لي نفس القصة، باستثناء النهاية التي ازدادت قتامة، وألقت بظلالها الطويلة على حياتها، وفي النهاية على حياتي أنا أيضًا.

* * *

بدأت أمي تتحدث بالصينية قائلة:

- لقد حلمت بكويلين قبل أن أراها. حلمت بقمم مدببة تحيط بنهر متعرج، تكسو طحالب سحرية ضفافه باللون الأخضر. ساد الضباب الأبيض أعلى تلك القمم، وإذا تمكن المرء من الطفو عبر ذلك النهر وتناول الطحالب كغذاء، فسوف يصير قويًّا بما يكفي لتسلق القمة. وإذا انزلق، فسيسقط فحسب فوق فراش من الطحالب الناعمة، ويضحك. وبمجرد الوصول إلى القمة، سيتمكن من رؤية كل شيء، وسيشعر بسعادة غامرة إلى درجة تكفي كي لا يساوره القلق مجددًا طوال حياته.

في الصين، كان الجميع يحلمون بكويلين. وعندما وصلت إلى هناك، أدركت مدى وضاعة أحلامي، ومدى بؤس أفكاري. عندما رأيت التلال، ضحكت وارتجفت في نفس الوقت. بدت القمم مثل رؤوس أسماك

مقلية عملاقة تحاول القفز من إناء زيت. وراء كل تل، رأيت ظلال سمكة أخرى، ثم غيرها، وغيرها. وحينها تحركت السحب قليلًا، وبدت التلال فجأة كأفيال ضخمة تسير نحوي ببطء! هل يمكنك تخيُّل ذلك؟ وعند سفح التل، كانت هناك كهوف سرية، نمت بداخلها حدائق صخرية معلقة بأشكال وألوان الكرنب والبطيخ الشتوي واللفت والبصل. كانت هذه أشياء غريبة وجميلة للغاية بدرجة لا يمكن تخيُّلها أبدًا.

لكنني لم أذهب إلى كويلين لأرى جمالها، بل إن زوجي أحضرني وطفلتينا إلى كويلين ظنًّا منه أننا سنكون بأمان هناك. كان ضابطًا في الكومينتانغ(*)، وبعد أن أنزلنا في غرفة صغيرة داخل منزل من طابقين، انطلق إلى الشمال الغربي، إلى تشونغكينغ.

كنا نعلم أن اليابانيين ينتصرون، حتى عندما زعمت الصحف عكس ذلك. في كل يوم، وكل ساعة، أخذ آلاف الناس يتدفقون إلى المدينة، واكتظت بهم الأرصفة وهو يبحثون عن أماكن للسكن. جاءوا من الشرق والغرب والشمال والجنوب، كانوا من الأغنياء والفقراء، من شنغهاي وكانتون ومن الشمال، ولم يكونوا صينيين فحسب، بل كان بينهم أجانب ومبشرون من جميع الأديان. وكان هناك بالطبع الكومينتانغ وضباط جيشهم الذين ظنوا أنفسهم أعلى شأنًا من الجميع.

شكَّلنا مدينة من البقايا المختلطة ببعضها بعضًا، ولولا وجود اليابانيين لكان هناك الكثير من الأسباب التي أدت إلى نشوب القتال بين هؤلاء الناس المختلفين. هل يمكنك تخيُّل ذلك؟ سكان شنغهاي مع فلاحي الشمال، والمصرفيون مع الحلاقين، وسائقو عربات الريكشا مع لاجئي بورما. نظر كل شخص بازدراء إلى شخص آخر، ولم يكن يهم أن الجميع يتشاركون البصق على نفس الأرصفة، ويعانون نفس الإسهال الشديد. عانينا

(*) الكومينتانغ: حزب قومي صيني يدعو إلى الوحدة الصينية، وهو معادٍ للشيوعية، ومحافظ. (المترجمة).

جميعًا نفس الرائحة الكريهة، لكن كل شخص اشتكى كون شخص آخر أسوأ رائحة. ماذا عني أنا؟ أوه، لقد كرهت ضباط سلاح الجو الأمريكي الذين اعتادوا إصدار الأصوات المبتذلة كي يجعلوني أتخضب خجلًا. لكن الأسوأ هم فلاحو الشمال الذين كانوا يتمخطون في أيديهم ويدفعون الناس وينقلون أمراضهم القذرة إلى الجميع.

هكذا يمكنك أن تري كيف فقدت كويلين جمالها سريعًا بالنسبة إليَّ. لم أعد أتسلق القمم لأبدي الإعجاب بمدى جمال التلال، بل تساءلت فقط عن التلال التي وصل إليها اليابانيون. جلست في أركان بيتي المعتمة، حاملة رضيعة تحت كل ذراع، أنتظر بقدمين متوترتين. وعند دوي صافرات الإنذار لتحذيرنا من القاذفات، كنت أهب أنا وجيراني على أقدامنا ونهرع إلى الكهوف العميقة للاختباء مثل الحيوانات البرية. لكن لا يمكنك البقاء في الظلام فترة طويلة، حيث يبدأ شيء ما بداخلك في الذبول، وتصبحين كشخص يتضور جوعًا، متعطش للضوء بجنون. كنت أسمع دوي القصف بالخارج: بوم! بوم! يلي ذلك صوت الصخور وهي تتساقط. وفي الداخل، لم أعد أشتهي الكرنب أو اللفت من حديقة الصخور المعلقة. لم أعد أرى سوى أحشاء تل عتيق تقطر ماءً، قد تنهار فوقي. هل يمكنك تخيُّل ذلك الوضع: عدم الرغبة في الوجود سواء بالداخل أم بالخارج، بل الرغبة في الاختفاء وعدم الوجود في أي مكان؟

لذا عند ابتعاد أصوات القصف، كنا نخرج كقطط صغيرة حديثة الولادة نشق طريقنا إلى المدينة. ودائمًا ما كنت أندهش عندما أجد التلال في مواجهة السماء اللاهبة لم تتفجر.

خطرت لي فكرة نادي بهجة الحظ في ليلة صيفية شديدة الحرارة، حتى إن فراشات العث تساقطت أرضًا، وأجنحتها مثقلة بشدة بفعل الحرارة الرطبة. اكتظت جميع الأماكن حتى لم يَعُد هناك مجال للهواء النقي، وانبعثت روائح لا تُطاق من المجاري وصعدت إلى نافذتي في الطابق الثاني، ولم تجد

الرائحة الكريهة سبيلًا سوى أنفي. سمعت أصوات الصراخ في كل ساعات الليل والنهار، ولم أكن أعرف إن كان ذلك فلاحًا يذبح خنزيرًا هاربًا أم ضابطًا يضرب فلاحًا نصف ميت لأنه اعترض طريقه على الرصيف. لم أذهب إلى النافذة لأعرف، فما الفائدة من ذلك؟ وحينها فكرت في أنني بحاجة إلى شيء يشجعني على التحرك.

انطوت فكرتي على عقد اجتماع يضم أربع نساء، واحدة لكل ركن من أركان طاولة الماه جونغ خاصتي، وعرفتُ النساء اللاتي أردت التوجه إليهن بطلبي. كنَّ جميعهن شابات مثلي، بوجوه مفعمة بالأمنيات. كانت إحداهن زوجة ضابط في الجيش، مثلي، والأخرى فتاة ذات أخلاق رفيعة للغاية من عائلة ثرية في شنغهاي، هربت ومعها قليل من المال فحسب، كما كانت هناك فتاة من نانجينغ لديها شعر حالك السواد لم أرَ مثيلًا له في حياتي. كانت تنحدر من عائلة متواضعة، لكنها تتسم بالجمال واللطف، وتزوجت زيجة جيدة، رجلًا عجوزًا توفي وترك لها حياة أفضل.

في كل أسبوع، كانت واحدة منا تستضيف الجمع للفوز بالمال ولرفع روحنا المعنوية. كان على المضيفة تقديم مقبلات خاصة مرتبطة بالاحتفال برأس السنة القمرية، لجلب الحظ السعيد بجميع أنواعه: فطائر على شكل سبائك فضية، ونودلز الأرز الطويلة من أجل العمر المديد، والفول السوداني المسلوق من أجل إنجاب الذكور، وبالطبع الكثير من برتقال الحظ السعيد من أجل حياة رغدة وطيبة.

يا لها من أطعمة فاخرة، تلك التي دللنا بها أنفسنا، على الرغم من مصروفنا الزهيد! لم نلاحظ أن الفطائر كانت محشوة في معظمها بالقرع اليابس، ولا أن البرتقال كان ممتلئًا ببقع وثقوب من أثر الديدان. اكتفينا بأكل القليل، ليس كأننا لا نملك ما يكفينا، بل كأننا نحتج على عدم قدرتنا على تناول لقمة أخرى، وأننا شبعنا حتى التخمة في وقت سابق من اليوم. أدركنا أننا نمتلك ترفًا لا يقدر عليه كثيرون. كنا من فئة المحظوظين.

بعد ملء بطوننا، كنا نملأ وعاءً بالمال ونضعه حيث يمكن للجميع رؤيته، ثم نجلس إلى طاولة الماه جونغ. ورثت طاولتي عن عائلتي، وقد صُنعت من خشب أحمر عطري، ليس ما يُسمَّى خشب الورد، بل من خشب يعرف باسم هونغ مو، وهو نفيس للغاية إلى درجة أنه لا يوجد له اسم مقابل في اللغة الإنجليزية. وكانت الطاولة مغطاة ببطانة سميكة جدًّا، حتى إنه عند سكب بلاطات الماه جونغ فوقها، كان الصوت الوحيد الذي يصدر هو ارتطام القطع العاجية ببعضها.

بمجرد بدء اللعب، لم يكن يُسمح لأحد بالحديث إلا لقول بونغ! أو تشر!(*) عند أخذ إحدى بلاطات اللعب. كان علينا التزام الجدية خلال اللعب، وعدم التفكير في شيء آخر سوى زيادة بهجتنا من خلال الفوز. لكن بعد ست عشرة جولة، كنا نعود إلى الوليمة، هذه المرة احتفالًا بحظنا السعيد. وبعد ذلك كنا نتحدث طوال الليل حتى بزوغ الفجر، ونروي قصصًا عن الأوقات الطيبة الماضية، وتلك التي لا تزال قادمة في الطريق.

يا لها من قصص رائعة! تدفقت الحكايات من كل جانب، وكدنا نموت من الضحك. كانت هناك حكاية عن ديك اندفع داخل المنزل صائحًا فوق أطباق العشاء، وهي نفس الأطباق التي احتوته في اليوم التالي في هدوء، مقطعًا إلى أجزاء! كما كانت هناك حكاية عن فتاة كتبت رسائل الحب نيابة عن صديقتين أحبتا نفس الرجل، وحكاية عن سيدة أجنبية سخيفة فقدت الوعي في أثناء الجلوس على المرحاض عندما انفجرت المفرقعات النارية بجوارها.

ظن الناس أننا كنا مخطئات في إقامة الولائم كل أسبوع بينما كثير من الأشخاص في المدينة يتضورون جوعًا ويأكلون الجرذان، وفي مرحلة

(*) تُستخدم صيحتا «بونغ» و«تشر» خلال لعب الماه جونغ، حيث تُعَدان من آليات اللعب، وتسمحان للاعبين بمقاطعة الأدوار للحصول على إحدى البلاطات التي استغنى عنها اللاعبون الآخرون بهدف تشكيل مجموعة رابحة. (المترجمة).

لاحقة القمامة التي كانت الجرذان الأشد بؤسًا تقتات عليها. ورأى آخرون أن الشياطين مستنا، فكيف لنا أن نحتفل في حين أننا نحن أنفسنا فقدنا أجيالًا من عائلاتنا، وفقدنا منازل وثروات، وتفرقنا: الزوج عن زوجته، والأخ عن أخته، والابنة عن أمها. هاه! تساءل الناس كيف يمكننا أن نضحك.

ليس الأمر أننا لم يكن لدينا قلب أو أعين ترى الألم، فقد شعرنا جميعًا بالخوف، وحملت كلٌّ منا مآسيها الخاصة. لكن الاستسلام لليأس كان يعني تمني استعادة شيء فُقد بالفعل، أو إطالة أمد ما لا يُطاق تحمُّله. إلى أي مدى يمكنك تمني استعادة معطفك الدافئ المفضل المعلق في خزانة منزل احترق ووالدتك ووالدك بداخله؟ إلى متى يمكنك أن تحملي في ذهنك مشاهد الأذرع والسيقان المعلقة من أسلاك الهاتف، والكلاب الجائعة تركض في الشوارع بينما تتدلى من أفواهها أيدٍ نصف مأكولة؟ تساءلنا فيما بيننا: أيهما أسوأ، أن نجلس وننتظر موتنا بوجوه تعلوها الجدية على نحو لائق؟ أم أن نختار سعادتنا بأنفسنا؟

لذا قررنا إقامة الاحتفالات، والتظاهر بأن كل أسبوع هو بداية العام الجديد. في كل أسبوع، كان بوسعنا نسيان المآسي التي تعرضنا لها في الماضي. لم يكن مسموحًا لنا بالتفكير في شيء سيئ، بل كنا نحتفل، ونضحك، ونلعب، ونربح ونخسر، ونحكي أجمل القصص. وفي كل أسبوع، أملنا أن يحالفنا الحظ. كان ذلك الأمل هو بهجتنا الوحيدة، وهكذا أطلقنا على احتفالاتنا البسيطة اسم بهجة الحظ.

اعتادت أمي إنهاء الحكاية بنبرة مرحة، متباهية بمهارتها في اللعب، فكانت تقول:

- لقد فزت مرات عديدة وكنت محظوظة للغاية، إلى درجة أن الأخريات مازحنني قائلات إنني تعلمت الخداع من لص ذكي. ربحت عشرات الآلاف من اليوانات، لكنني لم أكن ثرية. لا، فبحلول ذلك الوقت صارت النقود الورقية عديمة القيمة. وحتى ورق المرحاض كان أكثر قيمة، ودفعنا ذلك

إلى الضحك أكثر، عند التفكير في أن ورقة نقدية من فئة ألف يوان لم تكن جيدة بما يكفي حتى لمسح مؤخراتنا.

لم أظن يومًا أن حكاية أمي عن كويلين تزيد شيئًا على كونها مجرد قصة خيالية صينية. كانت النهاية تتغير دائمًا، إذ قالت في بعض الأحيان إنها استخدمت تلك الورقة النقدية عديمة القيمة من فئة الألف يوان لشراء نصف كوب من الأرز. بعد ذلك، حوَّلت ذلك الأرز إلى قدر من العصيدة، وقايضت تلك العصيدة مقابل كارعَي خنزير. ثم صار ذَانِك الكارعان ست بيضات، وتحوَّلت تلك البيضات إلى ست دجاجات. دائمًا ما كانت القصة تكبر أكثر فأكثر.

وفي إحدى الأمسيات، بعد أن توسلتُ إليها أن تشتري لي راديو ترانزستور، رفضت طلبي، فجلستُ عابسة في صمت لأكثر من ساعة، حتى قالت لي:

- لماذا تعتقدين أنك تفتقدين شيئًا لم تمتلكيه في الأساس؟

ثم روت لي نهاية مختلفة تمامًا للقصة.

قالت:

- جاء ضابط من الجيش إلى منزلي في وقت مبكر من صباح أحد الأيام، وطلب مني الذهاب بسرعة إلى زوجي في تشونغكينغ، فأدركت أنه يطلب مني الهرب من كويلين. كنت أعرف ما حلَّ بالضباط وعائلاتهم عند وصول اليابانيين. كيف لي بالذهاب؟ لم تكن هناك قطارات تغادر كويلين. تصرفت صديقتي القادمة من نانجينغ بكرم بالغ معي، حيث قدمت رشوة إلى رجل لسرقة عربة يدوية تستخدم لنقل الفحم، ووعدت بتحذير صديقاتنا الأخريات.

حزمتُ أغراضي وطفلتَي الرضيعتين في هذه العربة اليدوية وبدأت أدفعها إلى تشونغكينغ قبل أربعة أيام من دخول اليابانيين إلى كويلين. وعلى الطريق سمعت أخبار المذابح من الناس الذين كانوا يركضون متجاوزيَّ. كان الأمر مروعًا. حتى اليوم الأخير، أصرَّ الكومينتانغ على أن كويلين آمنة

وأن الجيش الصيني يحميها. لكن في وقت لاحق من ذلك اليوم، امتلأت شوارع كويلين بالصحف التي تعلن عن انتصارات الكومينتانغ العظيمة، وفوق تلك الصحف، كما لو كانت أسماكًا طازجة من عند الجزار، تراصت صفوف من الجثث، رجال ونساء وأطفال لم يفقدوا الأمل قَطُّ، لكنهم فقدوا حياتهم بدلًا من ذلك. عندما سمعت هذه الأخبار، تسارعت خطواتي أكثر فأكثر، وسألت نفسي في كل خطوة، هل كانوا حمقى؟ هل كانوا شجعانًا؟ دفعت العربة نحو تشونغكينغ حتى انكسرت العجلة، وتخليت عن طاولة الماه جونغ الجميلة خاصتي المصنوعة من خشب الهونغ مو. لم يكن لديَّ حينها ما يكفي من الإحساس في جسدي حتى أبكي. عقدت بعض الأوشحة على شكل حمالتين، ووضعت رضيعة على كل كتف، وحملت حقيبة في كل يد، واحدة فيها ملابس، والأخرى فيها طعام. حملت هذه الأشياء حتى تشكَّلت أخاديد عميقة في راحتَي، وفي النهاية، أسقطت الحقيبتين الواحدة تلو الأخرى، حين بدأت يداي تنزفان وأصبحتا زلقتين إلى درجة أنني لم أعد أستطيع الإمساك بشيء.

على طول الطريق، رأيت الآخرين قد فعلوا نفس الشيء، وفقدوا الأمل تدريجيًّا. بدا الأمر أشبه بطريق مرصوف بالكنوز التي ازدادت قيمتها كلما تقدمنا: لفائف من الأقمشة الفاخرة والكتب، ولوحات الأجداد وأدوات النجارة، حتى بات المرء يرى أقفاص فراخ البط وقد خمدت عطشًا، وفي وقت لاحق، جرارًا فضية ملقاة في الطريق، حيث تعب الناس من حملها، بعدما لم يَعُد لديهم أي أمل في المستقبل. وبحلول الوقت الذي وصلت فيه إلى تشونغكينغ كنت قد فقدت كل شيء ما عدا ثلاثة أثواب حريرية فاخرة ارتديتها واحدًا فوق الآخر.

شهقتُ في النهاية، وصُدمت عندما أدركت أن القصة كانت حقيقية طوال الوقت.

– ما الذي تعنينه بـ«كل شيء»؟ ما الذي حدث للرضيعتين؟

لم تتوقف حتى للتفكير، بل قالت ببساطة بطريقة أوضحت أن القصة انتهت:
- لم يكن والدكِ هو زوجي الأول، وأنتِ لست واحدة من هاتين الرضيعتين.

* * *

عندما وصلتُ إلى منزل آل شو، حيث سيجتمع أعضاء نادي بهجة الحظ هذا المساء، كان أول شخص رأيته هو والدي، الذي أعلن قائلًا:
- ها هي ذي! إنها لا تصل في الموعد أبدًا!
كان هذا صحيحًا. وجدت الجميع هناك بالفعل: سبعة من أصدقاء العائلة في الستينيات والسبعينيات من عمرهم، نظروا إليَّ وضحكوا عليَّ، أنا المتأخرة دائمًا، ولا أزال طفلة على الرغم من كوني في السادسة والثلاثين من العمر.
أخذت أرتجف، بينما أحاول كتم شيء ما بداخلي. في المرة الأخيرة التي رأيتهم فيها، في الجنازة، انهرت وانفجرت في البكاء، بنشيج عميق متقطع. لا بد أنهم يتساءلون الآن كيف يمكن لشخص مثلي أن يأخذ مكان أمي. أخبرتني إحدى صديقاتي ذات مرة بأنني وأمي متشابهتان، وأن لدينا نفس إيماءات اليدين الرقيقة ونفس الضحكة الطفولية والنظرة الجانبية. عندما أخبرتُ أمي بذلك بخجل، بدت كأنها شعرت بالإهانة وقالت:
- أنتِ لا تعرفين عني شيئًا، ولو بنسبة ضئيلة! كيف يمكن أن تكوني أنا؟
كانت محقة في ذلك. كيف يمكنني أن أحل محل أمي في نادي بهجة الحظ؟
أومأت برأسي لكل شخص من الحاضرين، وقلت مرارًا وتكرارًا:
- عمتي، عمي.
لطالما ناديت هؤلاء الأصدقاء القدامى للعائلة بـ«عمتي» و«عمي». بعد ذلك، تقدمت ووقفت بجانب أبي.
انشغل بمطالعة صور الزوجين جونغ من رحلتهما الأخيرة إلى الصين، وقال بأدب وهو يشير إلى صورة للفوج السياحي الذي رافقه الزوجان جونغ وهم يقفون على درجات حجرية عريضة:

- انظري إلى هذه.

لم يكن هناك في الصورة ما يدل على أنها التُقطت في الصين وليس في سان فرانسيسكو، أو في أي مدينة أخرى، لكن لم يبدُ أن أبي يطالع الصورة حقًّا على أي حال. بدا الأمر كأن كل الأمور سيان بالنسبة إليه، ولا شيء يلفت الانتباه. لطالما اتسم باللامبالاة، لكن على نحو مهذب. لكن ما الكلمة الصينية التي تعبر عن اللامبالاة لأنك لا ترى أي فروقات؟ أعتقد أن هذا نتج عن التأثر الشديد الذي شعر به عقب وفاة أمي.

قال وهو يشير إلى صورة أخرى غير مميزة:

- هلَّا نظرتِ إلى هذه؟

عبق منزل آل شو بالروائح الدهنية الثقيلة، حيث طُهيت الكثير من الوجبات الصينية في مطبخ صغير للغاية، وتكثفت الكثير من الروائح التي كانت يومًا عطرة، وتراكمت فوق طبقة رقيقة من الدهون غير المرئية. أذكر كيف كانت أمي تدخل بيوت الآخرين والمطاعم، وتغضن أنفها، ثم تهمس بصوت عالٍ جدًّا:

- يمكنني أن أرى وأشعر باللزوجة من خلال أنفي.

لم أدخل منزل آل شو منذ سنوات طويلة، لكن غرفة المعيشة ظلت كما هي تمامًا مثلما أتذكرها. عندما انتقلت عمتي آن-ماي وعمي جورج إلى حي صن ست من الحي الصيني قبل خمسة وعشرين عامًا، اشتريا أثاثًا جديدًا، ولا يزال كل شيء هناك، ويبدو جديدًا في المجمل تحت الأغطية البلاستيكية التي اصفر لونها: الأريكة الفيروزية نفسها، المصممة على شكل نصف دائرة ومكسوة بقماش تويد خشن، والطاولات الجانبية ذات الطراز الكولونيالي المصنوعة من خشب القيقب الثقيل، ومصباح من الخزف المقلد الذي يظهر كأنه متشقق. الشيء الوحيد الذي يتغير كل عام هو التقويم الطويل كاللفافة، الذي يقدمه بنك كانتون مجانًا.

أذكر هذه الأشياء لأن عمتي آن-ماي لم تكن تسمح لنا حينما كنا أطفالًا بلمس أي قطعة من أثاثها الجديد إلا من خلال أغطية البلاستيك الشفافة. وفي أمسيات

اجتماع نادي بهجة الحظ، اعتاد والداي اصطحابي إلى منزل آل شو. وبما أنني كنت ضيفة، فقد كان من واجبي الاعتناء بجميع الأطفال الأصغر سنًّا الذين كان عددهم كبيرًا، إلى درجة بدا معها كأن هناك دائمًا طفلًا يبكي بسبب ارتطام رأسه برجل الطاولة.

قالت أمي:

- أنتِ المسؤولة.

وكان ذلك يعني أنني سأقع في ورطة إذا انسكب شيء، أو احترق، أو ضاع، أو انكسر، أو اتسخ. كنت المسؤولة، بصرف النظر عمن فعل ذلك. ارتدت هي وعمتي آن-ماي فساتين صينية غريبة، ذات ياقات عالية صلبة، تزينها أغصان حريرية مزهرة مطرزة على صدريهما. ظننتُ تلك الملابس متكلفة للغاية بالنسبة إلى الصينيين الحقيقيين، وأكثر غرابة من أن تناسب الحفلات الأمريكية. في تلك الأيام، قبل أن تروي لي أمي حكايتها عن كويلين، تخيلتُ أن نادي بهجة الحظ ما هو إلا عادة صينية مخجلة، أشبه بالاجتماعات السرية لجماعة كو كلوكس كلان أو الرقصات التي يصاحبها قرع الطبول التي يؤديها الهنود على شاشة التلفزيون استعدادًا للحرب.

لكن لم يكن هناك أي غموض في هذا المساء. ارتدت جميع العمات من أعضاء نادي بهجة الحظ بنطلونات وبلوزات منقوشة بألوان زاهية، وأنواعًا مختلفة من أحذية المشي المتينة. جلسنا جميعًا حول مائدة الطعام تحت مصباح يشبه الشمعدان الإسباني، وارتدى عمي جورج نظارته ثنائية البؤرة، وبدأ الاجتماع بقراءة محضر الجلسة:

- يبلغ حساب رأس المال لدينا ٢٤٨٢٥ دولارًا أمريكيًّا، أي ما يعادل نحو ٦٢٠٦ دولارات لكل زوجين، أو ٣١٠٣ دولارات لكل فرد. بعنا أسهم شركة «سوبارو» بخسارة مقابل ستة وثلاثة أرباع دولار للسهم، واشترينا مائة سهم من شركة «سميث إنترناشيونال» بسعر سبعة دولارات للسهم. ونتقدم بالشكر إلى ليندو وتين جونغ على المأكولات الشهية. كان حساء

الفاصوليا الحمراء لذيذًا على وجه الخصوص. وقد اضطررنا إلى إلغاء اجتماع شهر مارس حتى إشعار آخر، وشعرنا بالأسف لتوديع صديقتنا العزيزة سويوان، ونتقدم بتعازينا الحارة إلى آل كانينغ وو. مع خالص الاحترام، جورج شو، الرئيس والأمين العام.

هكذا ظللت أعتقد أن الآخرين سيبدأون بالحديث عن أمي والصداقة الرائعة التي جمعتهم، وعن سبب وجودي هنا مكانها لأكون العضو الرابع، وأواصل الفكرة التي ابتدعتها أمي في يوم حار في كويلين.

لكن الجميع أومأوا فحسب موافقين على محضر الجلسة، حتى إن أبي أومأ برأسه على نحو روتيني، وبدا أن حياة أمي قد نُحيت جانبًا لإفساح المجال لأمور جديدة.

نهضت عمتي آن-ماي من أمام المائدة وتحركت ببطء إلى المطبخ لإعداد الطعام. وانتقلت عمتي لين، صديقة أمي المقربة، إلى الأريكة الفيروزية وعقدت ذراعيها وراقبت الرجال الذين ظلوا جالسين إلى المائدة. أما عمتي ينغ، التي بدت كأنها تزداد انكماشًا في كل مرة أراها فيها، فمدت يدها إلى حقيبة الحياكة خاصتها وأخرجت كنزة زرقاء صغيرة بدأت في صنعها.

شرع أعمامي من أعضاء نادي بهجة الحظ بالحديث عن الأسهم التي يهتمون بشرائها. وبدا عمي جاك، الشقيق الأصغر لعمتي ينغ، متحمسًا للغاية لشركة تعمل في تعدين الذهب في كندا.

قال بثقة:

- إنها وسيلة رائعة للتحوط ضد التضخم.

كان أفضل مَن يتحدث الإنجليزية بينهم، بلا لكنة تقريبًا. أعتقد أن لغة أمي الإنجليزية كانت الأسوأ، لكنها لطالما اعتقدت أن لغتها الصينية هي الأفضل. كانت تتحدث الماندرين بلهجة ممزوجة قليلًا بلكنة شنغهاي.

قلتُ بصوت عالٍ لعمتي ينغ، التي تعاني صممًا خفيفًا:

- ألن نلعب الماه جونغ الليلة؟

أجابت:

- لاحقًا، بعد منتصف الليل.

قال عمي جورج:

- سيداتي، هل أنتن حاضرات في هذا الاجتماع أم لا؟

وبعد أن صوَّت الجميع بالإجماع لصالح أسهم الذهب الكندية، ذهبتُ إلى المطبخ لأسأل عمتي آن-ماي عن سبب بدء نادي بهجة الحظ بالاستثمار في الأسهم.

انشغلَت بحشو فطائر الوانتون، وأخذت تضع قطعًا من اللحم المتبل بالزنجبيل باستخدام عود طعام واحد على قطعة رقيقة من العجين، ثم تدير يدها بحركة سلسة واحدة لتغلق العجين على شكل قبعة ممرضة صغيرة، وقالت:

- كنا نلعب الماه جونغ، والفائز يأخذ كل شيء. لكن نفس الأشخاص كانوا يفوزون دائمًا، ونفس الأشخاص يخسرون دائمًا. لا يمكن أن يحالفك الحظ عندما يمتلك شخص آخر المهارة. لذا قررنا منذ وقت طويل الاستثمار في سوق الأسهم. لا يحتاج ذلك إلى المهارة، وحتى والدتك وافقت على هذا.

تفقدت عمتي آن-ماي صينية الطعام أمامها. كانت قد صنعت بالفعل خمسة صفوف، في كل صف ثماني فطائر وانتون. قالت بصوت مرتفع وهي تحسب:

- أربعون فطيرة وانتون، ثمانية أشخاص، عشرة لكل واحد، أي خمسة صفوف إضافية.

ثم واصلت الحشو وتابعت قائلة:

- أصبحنا أذكى. الآن يمكننا جميعًا أن نربح ونخسر على قدم المساواة. يمكن أن يكون لنا حظ في سوق الأسهم. ويمكننا أن نلعب الماه جونغ للمتعة مقابل بضعة دولارات فقط، والفائز يأخذ كل شيء، بينما الخاسرون يأخذون بقايا الطعام معهم! هكذا يمكن أن يحظى الجميع ببعض البهجة. هذه فكرة ذكية، أليس كذلك؟

راقبت عمتي آن-ماي وهي تصنع مزيدًا من فطائر الوانتون. بدت أصابعها

سريعة وماهرة، ولم تكن بحاجة إلى التفكير فيما تفعله. وكان هذا هو ما اعتادت أمي الشكوى منه: أن عمتي آن-ماي لا تفكر أبدًا فيما تفعله.

قالت أمي ذات مرة:

- إنها ليست غبية، لكنها تفتقر إلى الشجاعة. في الأسبوع الماضي، خطرت لي فكرة جيدة بالنسبة إليها. قلت لها إن علينا الذهاب إلى القنصلية وطلب أوراق لأخيها، وكادت ترغب في ترك كل شيء والذهاب على الفور. لكنها تحدثت مع شخص ما لاحقًا. من عساه يعرف من يكون؟ وأخبرها ذلك الشخص بأنها يمكن أن توقع أخاها في ورطة كبيرة في الصين. وقال ذلك الشخص إن مكتب التحقيقات الفدرالي سيضعها على قائمة ويسبب لها المتاعب في الولايات المتحدة لبقية حياتها. قال ذلك الشخص إنها قد تطلب قرضًا لشراء منزل، فتُقابل بالرفض، لأن أخاها شيوعي. قلت لها إنها تملك منزلًا بالفعل! لكنها مع ذلك ظلت خائفة.

تابعت أمي:

- عمتك آن-ماي تركض بلا هدف في كل اتجاه، من دون أن تدري سببًا لذلك.

بينما أراقب عمتي آن-ماي، رأيت امرأة قصيرة ومحنية في السبعينيات من عمرها، ذات صدر ثقيل وساقين نحيلتين غير متناسقتين، وبدت أطراف أصابعها مسطحة وناعمة كأصابع العجائز. تساءلتُ ماذا فعلت عمتي آن-ماي لتستحق هذا السيل المتواصل من الانتقادات من أمي طوال حياتها؟ لكن بدا أن أمي دائمًا ما كانت مستاءة من جميع صديقاتها، ومني، وحتى من أبي. دائمًا ما كان هناك شيء مفقود، أو شيء يحتاج إلى تحسين، أو شيء غير متوازن. كان هذا الشخص أو ذاك يتسم بقدر زائد من عنصر ما، أو يفتقر إلى عنصر آخر.

كانت هذه العناصر مستمدة من فكرة أمي الخاصة عن علم الكيمياء العضوية. أخبرتني بأن كل شخص مكون من خمسة عناصر.

كانت زيادة عنصر النار تعني أن الشخص عصبي المزاج، مثل أبي الذي لطالما اعتادت أمي انتقاده بسبب إدمانه السجائر، والذي دائمًا ما كان يصيح فيها قائلًا

إن عليها الاحتفاظ بأفكارها لنفسها. أعتقد أنه يشعر الآن بالذنب لأنه لم يسمح لأمي بالتعبير عن رأيها.

أما إذا قلَّ عنصر الخشب عما ينبغي، فهذا يعني أن المرء يميل بسرعة كبيرة ويرضخ لآراء الآخرين، ولا يستطيع التمسك بموقفه، مثل عمتي آن-ماي.

وإذا زاد عنصر الماء، يتدفق المرء في اتجاهات عديدة، مثلما كانت الحال معي، لأنني بدأت بدراسة علم الأحياء، ثم بدأت دراسة الفنون، ولم أنتهِ من أيٍّ منهما، ثم ذهبت للعمل في وكالة إعلانية صغيرة سكرتيرةً، ثم أصبحت فيما بعد كاتبة إعلانات.

اعتدت الاستخفاف بانتقاداتها، واعتبارها مجرد خرافات صينية أخرى، معتقدات تُفصِّلها حسب الظروف بما يناسبها. في العشرينيات من عمري، وبينما كنت أدرس مدخلًا إلى علم النفس، حاولتُ أن أشرح لها لماذا لا ينبغي لها أن تفرط في الانتقاد، ولماذا لا يؤدي ذلك إلى بيئة تعليمية صحية.

قلت:

- هناك مدرسة فكرية ترى أنه لا ينبغي للآباء انتقاد أبنائهم، بل عليهم تشجيعهم. كما تعلمين، يرتقي الناس إلى مستوى توقعات الآخرين. وعندما توجهين الانتقادات، فهذا يعني ببساطة أنكِ تتوقعين الفشل.

قالت أمي:

- هذه هي المشكلة، فأنتِ لا ترتقين أبدًا. أنتِ أكثر كسلًا من أن تنهضي، وأكثر كسلًا من أن ترتقي إلى مستوى التوقعات.

أخرجت عمتي آن-ماي قدرًا ساخنًا من فطائر الوانتون التي أعدتها للتو، وأعلنت بسعادة:

- حان وقت الطعام.

تكدست على المائدة أكوام من الطعام المقدم على طريقة البوفيهات، تمامًا كما كانت الحال في ولائم كويلين. انهمك أبي في تناول التشاو مين، الذي كان لا يزال موضوعًا في مقلاة ألومنيوم كبيرة الحجم محاطة بأكياس بلاستيكية صغيرة

من صلصة الصويا. لا بد أن عمتي آن-ماي اشترته من شارع كليمنت. فاحت رائحة رائعة من حساء فطائر الوانتون، الذي طفت فوق سطحه فروع رقيقة من الكزبرة. انجذبت أولًا إلى طبق كبير من تشاسوي، وهو لحم خنزير مشوي حلو مُقطع إلى شرائح بحجم العملة المعدنية، ثم إلى تشكيلة واسعة مما اعتدت أن أسميه دائمًا «مقبلات الأصابع»، وهي معجنات رقيقة محشوة بلحم الخنزير المفروم، ولحم البقر، والجمبري، وحشوات غير معروفة كانت أمي تصفها بأنها «أشياء مغذية».

لكن تناول الطعام هنا ليس مناسبة تتسم باللباقة أو الأناقة، حيث يبدو كما لو أن الجميع يتضورون جوعًا. كانوا يدفعون لقمًا كبيرة بالشوك إلى أفواههم، ويلتقطون مزيدًا من قطع لحم الخنزير، واحدة تلو الأخرى. لم يكونوا مثل سيدات كويلين، اللائي تخيلتهن دائمًا يتلذذن بطعامهن بنوع من الرقي والخصوصية.

وبعد ذلك، وبنفس السرعة التي بدأوا بها، نهض الرجال وغادروا المائدة. كأنها إشارة متفق عليها، التقطت النساء اللقيمات الأخيرة، ثم حملن الأطباق والأوعية إلى المطبخ ووضعنها في الحوض. تناوبت النساء على غسل أيديهن وفركها بقوة. من بدأ هذه الطقوس؟ وضعت طبقي في الحوض أيضًا، وغسلت يدَي. انشغلت النساء بالحديث عن رحلة الزوجين جونغ إلى الصين، ثم اتجهن نحو غرفة في الجزء الخلفي من الشقة. مررنا بغرفة أخرى كانت غرفة نوم يتقاسمها أبناء الزوجين شو الأربعة. كانت الأسِرَّة ذات الطابقين مع سلالمها المتشققة والمتهالكة لا تزال موجودة هناك. وكان الأعمام من أعضاء نادي بهجة الحظ قد جلسوا بالفعل إلى طاولة الورق، وأخذ عمي جورج يوزع الأوراق بسرعة كأنه تعلم هذه الطريقة في الكازينو. وزع أبي سجائر «بال مول»، وقد تدلت واحدة بالفعل من بين شفتيه.

ثم وصلنا إلى الغرفة الخلفية، التي كانت تتشاركها بنات الزوجين شو الثلاث. كنا جميعًا صديقات طفولة، والآن كبرن جميعهن وتزوجن، وهأنذا موجودة هنا لألعب في غرفتهن مرة أخرى. وباستثناء رائحة الكافور، بدا المكان كما هو، كما

لو أن روز وروث وجانيس قد يدخلن قريبًا بشعورهن الملفوفة في علب عصير البرتقال الكبيرة ويرتمين على أسرتهن الضيقة المتماثلة. كانت شراشف السرير المصنوعة من قماش الشانيل الأبيض مهترئة إلى درجة أنها كادت تبدو شفافة. اعتدت أنا وروز نتف النتوءات البارزة من النسيج، بينما نتحدث عن مشكلاتنا مع الأولاد. ظل كل شيء كما هو، باستثناء طاولة الماه جونغ بلون الماهوجني في منتصف الغرفة، وبجانبها مصباح أرضي، عبارة عن عمود أسود طويل بثلاثة مصابيح بيضاوية متصلة به مثل الأوراق العريضة لنبات مطاط.

لم يقل لي أحد: «اجلسي هنا، حيث اعتادت أمك الجلوس»، لكنني أدركت ذلك حتى من قبل أن يجلس الجميع. بدا الكرسي الأقرب إلى الباب كأنه يحمل شعورًا بالفراغ، لكن ذلك الشعور لم تكن له في الواقع علاقة بالكرسي نفسه. كان ذلك هو مكانها على الطاولة، ومن دون أن يخبرني أحد، كنت أعرف أن الركن الشرقي من الطاولة هو ركنها الخاص.

أخبرتني أمي ذات مرة بأن الشرق هو مبتدأ الأشياء، الاتجاه الذي تشرق منه الشمس، وتهب منه الريح.

سكبت عمتي آن-ماي، الجالسة إلى يساري، البلاطات على سطح الطاولة المغطى باللباد الأخضر، ثم قالت لي:

- سنخلط البلاطات الآن.

حركناها بأيدينا في حركة دائرية، فأصدرت صوتًا خفيفًا وهي تصطدم ببعضها.

سألتني عمتي لين الجالسة قبالتي من دون أن تبتسم:

- هل اعتدتِ الفوز مثل أمك؟

- لعبتُ قليلًا فقط في الكلية مع بعض الأصدقاء اليهود.

قالت بنبرة امتعاض:

- آه! ماه جونغ يهودي! هذا ليس الشيء نفسه.

كان هذا ما اعتادت أمي قوله، على الرغم من أنها لم تستطع قَطُّ أن تشرح السبب بالتحديد.

عرضتُ قائلة:

- ربما لا يجب أن ألعب الليلة. سأكتفي بالمشاهدة.

بدت عمتي لين ساخطة، كما لو كنت طفلة ساذجة.

- كيف يمكننا اللعب بثلاثة أشخاص فقط؟ سيكون الأمر أشبه بطاولة بثلاث أرجل، تفتقر إلى التوازن. عندما توفي زوج عمتك ينغ، طلبت من أخيها الانضمام، كما طلب منكِ والدك ذلك، لذا فقد حُسم الأمر.

سألتُ أمي ذات مرة:

- ما الفرق بين الماه جونغ اليهودي والصيني؟

لكنني لم أستطع أن أحدد من إجابتها ما إذا كانت اللعبتان مختلفتين، أم مجرد موقفها تجاه الصينيين واليهود.

قالت بنبرتها التي تستخدمها للتوضيح باللغة الإنجليزية:

- أسلوب اللعب مختلف تمامًا. في لعبة الماه جونغ اليهودية، يراقب اللاعبون بلاطاتهم الخاصة فقط، ويلعبون بأعينهم فقط.

ثم تحولت إلى استخدام اللغة الصينية وتابعت:

- في لعبة الماه جونغ الصينية، عليكِ أن تلعبي بعقلك، إنها لعبة ممتلئة بالحيل. كما يجب أن تراقبي ما يتخلص منه الآخرون، وتحتفظي بذلك في ذهنك أيضًا. وإذا لم يلعب أحد بشكل جيد، فستصبح اللعبة مثل لعبة الماه جونغ اليهودية. لماذا نلعب؟ لا توجد استراتيجية، بل تشاهدين الآخرين يرتكبون الأخطاء فحسب.

جعلني هذا النوع من التفسيرات أشعر كأنني أنا وأمي نتحدث لغتين مختلفتين، وكنا كذلك بالفعل، فقد اعتدت الحديث معها باللغة الإنجليزية، وكانت ترد عليَّ باللغة الصينية.

سألتُ عمتي لين:

- ما الفرق إذن بين الماه جونغ الصينية واليهودية؟

صاحت بنبرة توبيخ ساخر:

- آي-ياه! ألم تعلمكِ أمك أي شيء؟

ربتت عمتي ينغ على يدي قائلة:

- أنتِ فتاة ذكية، راقبينا وافعلي مثلنا. ساعدينا على ترتيب البلاطات وتكوين أربعة جدران.

تابعتُ عمتي ينغ، لكنني التزمت بمراقبة عمتي لين معظم الوقت، لأنها كانت الأسرع، مما يعني أنه كانت بوسعي مجاراة الأخريات تقريبًا من خلال مشاهدة ما تفعله هي أولًا. رمت عمتي ينغ النرد، وقيل لي إن عمتي لين صارت هي التي تمثل الريح الشرقية، بينما صرت أنا ريح الشمال، أي آخر من يلعب. كما صارت عمتي ينغ ريح الجنوب، وعمتي آن-ماي ريح الغرب. بعد ذلك، بدأنا نأخذ البلاطات، ونرمي النرد، ثم نَعُد إلى الخلف على الجدار حتى نصل إلى الموضع الصحيح حيث تقع قطعنا المختارة. أعدت ترتيب بلاطاتي: مجموعات متسلسلة من الخيزران والكرات، وأزواج من البلاطات التي تحمل أرقامًا ملونة، وقطع شاذة لا مكان لها بين الباقي.

قالت عمتي آن-ماي وهي ترتب بلاطاتها بتأنٍّ، وتدرس كل قطعة بعناية:

- كانت أمك هي الأكثر براعة، مثل المحترفين.

بدأنا اللعب، ونظرنا إلى ما بين أيدينا من قطع، وألقينا البلاطات، والتقطنا غيرها بوتيرة هادئة ومريحة. وشرعت العمات من عضوات نادي بهجة الحظ في تبادل أطراف الحديث، من دون أن يُصغين إلى بعضهن في الواقع. تحدثن بلغتهن الخاصة: نصفها بالإنجليزية الركيكة، ونصفها الآخر بلهجتهن الصينية. ذكرت عمتي ينغ أنها اشترت خيوطًا بنصف الثمن من مكان ما في الضواحي، بينما تباهت عمتي آن-ماي بكنزة صنعتها لمولود ابنتها روث الجديد، وقالت بفخر:

- لقد ظنت أنني اشتريتها من أحد المتاجر.

وحكت عمتي لين كيف غضبت من بائع متجر رفض السماح لها بإعادة تنورة بسحاب مكسور، وقالت وهي لا تزال حانقة:

- لقد شعرت بالغضب، كدت أموت غضبًا.

مازحتها عمتي ينغ قائلة:

- لكنكِ ما زلت معنا يا ليندو، لم تموتي.

وبينما هي تضحك، قالت عمتي لين:

- بونغ! ماه جونغ!

ثم فرشت بلاطاتها وبادلت عمتي ينغ الضحك وهي تحسب نقاطها. شرعنا نخلط البلاطات مرة أخرى، وساد الهدوء. بدأت أشعر بالملل والنعاس.

فاجأت عمتي ينغ الجميع وهي تقول بصوت عالٍ:

- أوه، لديَّ قصة.

لطالما كانت عمتي ينغ هي غريبة الطباع من بين باقي العمات، مستغرقة في عالمها الخاص. كانت أمي تقول:

- العمة ينغ ليست ضعيفة السمع، بل هي ضعيفة الإصغاء.

قالت عمتي ينغ بنبرة بدت معها كأنها فخور بكونها أول من ينقل مثل هذا الخبر المهم:

- ألقت الشرطة القبض على ابن السيدة إيمرسون في نهاية الأسبوع الماضي. أخبرتني السيدة تشان بذلك في الكنيسة. وجدوا الكثير من أجهزة التلفزيون في سيارته.

أسرعت عمتي لين قائلة:

- آي-ياه، السيدة إيمرسون امرأة طيبة.

أي إن السيدة إيمرسون لم تكن تستحق ابنًا سيئًا كهذا. لكنني أدركت أن هذا قيل أيضًا من باب المجاملة لعمتي آن-ماي، التي أُلقي القبض على ابنها الأصغر قبل عامين بتهمة بيع مسجلات سيارات مسروقة. فركت عمتي آن-ماي بلاطتها بعناية قبل أن تتخلى عنها، وبدا عليها الألم.

قالت عمتي لين، وهي تغير الموضوع:

- الجميع في الصين يمتلكون أجهزة تلفزيون الآن. جميع أفراد عائلتنا هناك يمتلكون أجهزة تلفزيون، ليس فقط تلفزيونات بالأبيض والأسود، بل

تلفزيونات ملونة ولها أجهزة تحكم عن بُعد! لديهم كل شيء. لذا عندما سألناهم عما يجب أن نشتريه لهم، قالوا لا شيء، ويكفي أن نأتي لزيارتهم. لكننا اشترينا لهم أشياء مختلفة على أي حال: جهاز فيديو، وجهاز «سوني ووكمان» للأطفال. قالوا: لا، لا تهدونا إياها، لكنني أعتقد أنها أعجبتهم.

فركت عمتي آن-ماي المسكينة بلاطتها بقوة أشد. تذكرتُ أن أمي حكت لي عن رحلة الزوجين شو إلى الصين قبل ثلاث سنوات. كانت عمتي آن-ماي قد ادخرت ألفَي دولار، خصصتها بالكامل لتنفقها على عائلة شقيقها. وقد أطلعت أمي على ما بداخل حقائبها الثقيلة. اكتظت إحداها بحلوى من ماركة «سيز»، وحلوى «إم آند إمز»، والكاجو المغطى بالسكر، وشوكولاتة ساخنة سريعة التحضير مع حبات مارشميلو صغيرة. وأخبرتني أمي بأن حقيبة أخرى احتوت على ملابس سخيفة للغاية، وكلها جديدة: ملابس للشاطئ بألوان زاهية على الطراز السائد في كاليفورنيا، وقبعات البيسبول، والسراويل القطنية ذات الخصر المطاطي، وسترات قصيرة مبطنة، وقمصان رياضية تحمل شعار جامعة ستانفورد، وجوارب رياضية.

قالت لها أمي:

- من عساه يرغب في تلك الأشياء عديمة الفائدة؟ إنهم لا يريدون سوى المال فحسب.

لكن عمتي آن-ماي أجابت قائلة إن شقيقها فقير جدًّا، إلى درجة أنهم يبدون أغنياء جدًّا بالمقارنة. لذا تجاهلت نصيحة أمي، وأخذت معها الحقائب الثقيلة والألفَي دولار الخاصة بهم إلى الصين. وعندما وصلت جولتهما في الصين أخيرًا إلى هانغتشو، وجدا العائلة بأكملها أتت من نينغبو لاستقبالهما. لم يقتصر الأمر على الشقيق الأصغر لعمتي آن-ماي فحسب، بل كان هناك أيضًا إخوة وأخوات زوجته غير الأشقاء، وابنة عم بعيدة، وزوج ابنة العم تلك، وعم الزوج. وقد أحضروا معهم جميعًا حمواتهم وأطفالهم، وحتى أصدقاءهم من القرية الذين لم يحالفهم الحظ في أن يكون لهم أقارب صينيون في الخارج يمكنهم التباهي بهم.

كما روت لي أمي:

- بكت العمة آن-ماي قبل أن تغادر إلى الصين، معتقدة أنها ستجعل أخاها ثريًّا وسعيدًا جدًّا وفقًا للمعايير الشيوعية. لكن عقب عودتها إلى الوطن، بكت لي قائلة إن الجميع مدوا لها أيديهم، وكانت هي الوحيدة التي غادرت خالية الوفاض.

تأكدت شكوك أمي، حيث لم يرغب أحد في القمصان الرياضية وتلك الملابس عديمة الفائدة. نُثرت حلوى «إم آند إمز» في الهواء واختفت، وعند إفراغ الحقائب سأل الأقارب عما أحضره الزوجان شو أيضًا.

تعرضت عمتي آن-ماي وعمي جورج للاستغلال ليس فقط مقابل أجهزة تلفزيون وثلاجات بقيمة ألفَي دولار، بل أيضًا مقابل مبيت ليلة كاملة لستة وعشرين شخصًا في فندق «أوفرلوكنج ذا ليك»، وثلاث موائد ولائم في مطعم مخصص للأجانب الأثرياء، وثلاث هدايا خاصة لكل شخص من الأقارب، وأخيرًا قرض بقيمة خمسة آلاف يوان بالعملة الأجنبية لعم مزعوم لأحد أولاد العمومة، أراد شراء دراجة نارية، لكنه اختفى إلى الأبد لاحقًا وبحوزته المال. وعندما انطلق القطار مغادرًا مدينة هانغتشو في اليوم التالي، وجد الزوجان شو أنهما فقدا ما قيمته نحو تسعة آلاف دولار بدافع من نياتهما الحسنة. وبعد أشهر، وفي أعقاب قداس مؤثر في الكنيسة المعمدانية الصينية الأولى، حاولت عمتي آن-ماي تعويض خسارتها بقولها إن العطاء أكثر بركة من الأخذ، ووافقتها أمي على ذلك، حيث إن صديقتها القديمة نالت بركات تكفي لعدة حيوات.

في أثناء استماعي الآن إلى عمتي لين وهي تتفاخر بفضائل عائلتها في الصين، أدركت أن عمتي لين غافلة تمامًا عن ألم عمتي آن-ماي. فهل كانت عمتي لين قاسية حقًّا، أم أن أمي لم تخبر أحدًا غيري بالقصة المخزية لعائلة عمتي آن-ماي الجشعة؟

قالت عمتي لين:

- هل تدرسين الآن إذن يا جينغ-ماي؟

قالت عمتي ينغ:

- اسمها جون. جميعهن يستخدمن أسماءهن الأمريكية.

أجبت وأنا أعني ذلك حقًّا:

- لا بأس.

في الواقع، صار من المألوف الآن أن يستخدم الصينيون المولودون في أمريكا أسماءهم الصينية.

تابعتُ قائلة:

- لكنني لم أعد أدرس الآن، كان ذلك منذ أكثر من عشر سنوات.

ارتفع حاجبا عمتي لين في دهشة، وقالت:

- ربما اختلط عليَّ الأمر مع ابنة شخص آخر.

لكنني أدركت على الفور أنها تكذب. أعلم أن أمي قد أخبرتها على الأرجح بأنني سأعود إلى الجامعة لإكمال دراستي، لأننا في وقت ما، ربما قبل ستة أشهر فقط، خضنا مجددًا ذلك الجدال حول كوني فاشلة، «منقطعة عن الدراسة الجامعية»، وحول ضرورة عودتي لإكمال دراستي.

مرة أخرى، قلت لأمي ما أرادت سماعه:

- أنتِ محقة، سوف أنظر في الأمر.

لطالما افترضتُ أن بيننا تفاهمًا غير معلن حول هذه الأمور: فهي لم تكن تعني حقًّا أنني فاشلة، وكنت أعني حقًّا أنني سأحاول احترام آرائها أكثر. لكن الاستماع إلى عمتي لين الليلة ذكرني مرة أخرى: أنا وأمي لم نفهم بعضنا حقًّا قَطُّ. اعتادت كلٌّ منا ترجمة معنى ما تقصده الأخرى، وبدا أنني أسمع أقل مما قيل، في حين كانت أمي تسمع أكثر. لا شك أنها أخبرت عمتي لين بأنني سأعود إلى الجامعة لأحصل على الدكتوراه.

كانت عمتي لين وأمي صديقتين حميمتين، وفي الوقت نفسه عدوتين لدودتين، قضتا حياتهما في مقارنة أولادهما. كنت أكبر بشهر واحد من ويفرلي جونغ، الابنة الأثيرة لعمتي لين. منذ أن كنا رضيعتين، قارنت والدتانا ثنايا سرتينا، ومدى تناسق

شحمتَي أذنينا، وسرعة شفائنا عند جرح ركبنا، ومدى كثافة شعرنا وسواده، وعدد الأحذية التي نستهلكها في سنة واحدة، وبعد ذلك، مدى براعة ويفرلي في لعب الشطرنج، وعدد الجوائز التي فازت بها الشهر الماضي، وعدد الصحف التي نشرت اسمها، وعدد المدن التي زارتها.

أعلم أن أمي كانت تكره الاستماع إلى عمتي لين وهي تتحدث عن ويفرلي، بينما لم يكن لديها ما ترد به. في البداية، حاولت أمي أن تنمي بعض العبقرية الكامنة في داخلي. قامت ببعض الأعمال المنزلية لمعلم بيانو عجوز متقاعد يسكن في نهاية الردهة، أعطاني في المقابل دروسًا مجانية وسمح لي بالتدرب على البيانو. وعندما فشلتُ في أن أصبح عازفة بيانو محترفة، أو حتى مرافقة لجوقة شباب الكنيسة، أخبرتني أخيرًا بأنني متأخرة في النضج، مثل أينشتاين الذي اعتقد الجميع أنه متأخر عقليًّا حتى اكتشف القنبلة.

فازت عمتي ينغ بهذه الجولة من لعبة الماه جونغ، لذا أحصينا النقاط وبدأنا من جديد.

سألَت عمتي ينغ بفخر واضح، ونظرها موجه إلى البلاطات، من دون أن توجِّه حديثها إلى شخص محدد:

- هل علمتِ أن لينا انتقلت إلى وودسايد؟

سرعان ما محت ابتسامتها وحاولت أن تتحلى ببعض التواضع، وتابعت:

- إنه ليس أفضل منزل في الحي بالطبع، كما أنه ليس منزلًا فاخرًا، ليس بعد. لكنه استثمار جيد، أفضل من دفع الإيجار، وأفضل من أن يُخضعك أحدهم لسيطرته كي يستغلك.

هكذا عرفت الآن أن ابنة عمتي ينغ، لينا، أخبرتها بشأن طردي من شقتي الكائنة أسفل راشان هيل. وعلى الرغم من أنني ولينا لا نزال صديقتين، فإننا أصبحنا بطبيعة الحال حذرتين في الحديث مع بعضنا، لا نفصح عن الكثير. ومع ذلك، فإن القليل الذي نخبر به بعضنا غالبًا ما يعود إلينا بشكل مختلف. إنها نفس اللعبة القديمة، حيث يتحدث الجميع على نحو مراوغ.

قلت بعد أن انتهينا من الجولة:

- لقد تأخر الوقت.

هممت بالوقوف، لكن عمتي لين دفعتني للجلوس مجددًا على الكرسي. قالت:

- ابقي، ابقي. لنتحدث قليلًا، لنتعرف عليكِ من جديد. لقد مضى وقت طويل.

أدركت أن هذه مجرد بادرة مجاملة من جانب عماتي عضوات نادي بهجة الحظ، مجرد احتجاج ظاهري، في حين أنهن في الواقع متلهفات لرؤيتي أذهب كما أنا متلهفة للمغادرة. قلت وأنا سعيدة لأنني تذكرت كيف تسير طقوس المجاملة:

- لا، يجب عليَّ الذهاب حقًّا الآن، شكرًا، أشكركن.

اندفعت عمتي ينغ قائلة بصوتها العالي جدًّا:

- لكن عليكِ البقاء! فلدينا شيء مهم نريد أن نخبرك به، من والدتك.

بدا الانزعاج على الأخريات، كأن هذه لم تكن الطريقة التي أردن إبلاغي من خلالها بنوع ما من الأخبار السيئة.

جلستُ، فغادرت عمتي آن-ماي الغرفة مسرعة وعادت بوعاء من الفول السوداني، ثم أغلقَت الباب بهدوء. التزم الجميع الصمت، كأن لا أحد يعرف من أين يبدأ الحديث.

كانت عمتي ينغ هي من تحدثت أخيرًا، وقالت بلغة إنجليزية متعثرة:

- أعتقد أن أمكِ ماتت وفي ذهنها فكرة مهمة.

ثم شرعت تتكلم بالصينية، بهدوء ورفق.

- كانت والدتك امرأة قوية جدًّا، وأمًّا صالحة. لقد أحبتك كثيرًا، أكثر من حياتها. ولهذا يمكنك أن تفهمي لماذا لم تستطع أمٌّ كهذه أن تنسى ابنتيها الأخريين. كانت تعلم أنهما على قيد الحياة، وقبل أن تموت أرادت أن تجد ابنتيها في الصين.

فكرت: الرضيعتان في كويلين. لم أكن من بين هاتين الرضيعتين؛ الرضيعتين

اللتين كانتا في حمالتين على كتفيها، ابنتيها الأخريين. وهأنذا أشعر الآن كأنني في كويلين وسط القصف، وأرى هاتين الرضيعتين ممددتين على جانب الطريق، وقد أخرجتا إبهاميهما الحمراوين من فميهما وهما تصرخان طالبتين استعادتهما. لقد أخذهما شخص ما، وصارتا بأمان. والآن تركتني أمي إلى الأبد، وعادت إلى الصين لجلب هاتين الرضيعتين. بالكاد استطعت سماع صوت عمتي ينغ.

قالت عمتي ينغ:

- لقد ظلت تبحث طوال سنوات، وتبادلت كتابة الرسائل، حتى حصلت على عنوان في العام الماضي. كانت ستخبر والدك قريبًا. آه-ياه، يا للأسف! عمر كامل من الانتظار.

قاطعتها عمتي آن-ماي بنبرة متحمسة:

- لذا كتبت أنا وعماتك إلى هذا العنوان، وقلنا إن طرفًا محددًا، وهو والدتك، يريد مقابلة طرف آخر محدد، فكتب إلينا ذلك الطرف ردًّا. إنهما شقيقتاك، يا جينغ-ماي.

رددتُ قائلة لنفسي: «شقيقتاي»، وأنا أتفوَّه بهذه الكلمة للمرة الأولى.

أمسكت عمتي آن-ماي ورقة رقيقة مثل ورق تغليف الهدايا، رأيت عليها أحرفًا صينية مكتوبة بقلم حبر أزرق في صفوف عمودية مستقيمة تمامًا. كانت هناك كلمة ملطخة. هل هذا بسبب دمعة؟ تناولتُ الرسالة بيدَي المرتعشتين، متعجبة من ذكاء شقيقتَي اللتين تستطيعان قراءة وكتابة الصينية.

ابتسمت إليَّ جميع عماتي، كما لو كنت شخصًا يحتضر وقد تعافى الآن بأعجوبة. ناولتني عمتي ينغ ظرفًا آخر، بداخله شيك باسم جون وو بمبلغ ١٢٠٠ دولار أمريكي. لم أستطع تصديق ذلك.

سألتها:

- هل أرسلت شقيقتاي المال إليَّ أنا؟

قالت عمتي لين بنبرة من الاستياء الساخر:

- لا، لا. في كل عام ندخر أرباحنا في لعبة الماه جونغ لمأدبة كبيرة في مطعم

فاخر. اعتادت أمك الفوز في معظم الأحيان، لذا فمعظم هذا المال يخصها. لقد أضفنا القليل فحسب، كي تتمكني من الذهاب إلى هونغ كونغ، وركوب القطار إلى شنغهاي، ومقابلة شقيقتيك. علاوة على ذلك، لقد صرنا جميعًا أثرياء للغاية، وفائقي البدانة.

ربتت على بطنها على سبيل الإثبات.

قلت بجمود:

- أقابل شقيقتَي.

شعرت بالرهبة من هذا الاحتمال، وحاولت تخيُّل ما سأراه. كما أحسست بالحرج من كذبة مأدبة نهاية العام التي رددتها عماتي لتمويه كرمهن. شرعت أبكي، أبكي وأضحك في آنٍ واحد، وأنا أرى ولا أفهم هذا الوفاء لأمي.

قالت عمتي ينغ:

- لا بد أن تقابلي شقيقتيك، وتخبريهما بوفاة أمك. لكن الأهم من ذلك، يجب أن تخبريهما عن حياتها. يجب أن تتعرفا الآن على هذه الأم التي لم تعرفاها من قبل.

قلت وأنا أومئ برأسي:

- أقابل شقيقتَي وأخبرهما عن أمي. ماذا سأقول؟ ما الذي يمكنني أن أخبرهما به عن أمي؟ لا أعرف شيئًا. لقد كانت أمي.

نظرت إليَّ عماتي كما لو أنني جننت أمام أعينهن مباشرة.

صاحت عمتي آن-ماي باستنكار:

- ألا تعرفين أمك؟ كيف يمكنكِ أن تقولي ذلك؟ أمك تسكن عظامك!

اقترحت عمتي لين قائلة:

- أخبريهما قصصًا عن عائلتك هنا، وكيف حققت أمك النجاح.

قالت عمتي ينغ:

- أخبريهما القصص التي روتها لك، والدروس التي علمتك إياها، وما تعرفينه عن عقلها الذي أصبح عقلك. كانت أمك سيدة ذكية جدًّا.

سمعت مزيدًا من هتافات:

- أخبريهما، أخبريهما.

بينما كل واحدة من عماتي تحاول بلهفة التفكير فيما يجب أن يُقال.

- لطفها.

- ذكاؤها.

- طبيعتها المخلصة للعائلة.

- آمالها، والأشياء التي كانت تهمها.

- الأطباق الرائعة التي كانت تعِدها.

- تخيلن، ابنة لا تعرف أمها!

ثم خطر ببالي أنهن يشعرن بالخوف، لأنهن يرين فيَّ بناتهن، جاهلات بنفس القدر، وغافلات تمامًا مثلي عن كل الحقائق والآمال التي جلبنها إلى أمريكا. رأين بناتٍ ينفد صبرهن عندما تتحدث أمهاتهن بالصينية، ويعتقدن أنهن ضيقات الأفق عندما يشرحن الأشياء بلغة إنجليزية ركيكة. رأين أن البهجة والحظ لا يعنيان الشيء نفسه لبناتهن، وأن «بهجة الحظ» بالنسبة إلى هذه العقول المنغلقة المولودة في أمريكا ليست كلمة، ولا وجود لها. رأين بناتٍ سينجبن أحفادًا سيولدون من دون أي أمل موصول، يُورث من جيل إلى جيل.

قلت ببساطة:

- سوف أخبرهما بكل شيء.

مكتبة
t.me/soramnqraa

فنظرت إليَّ عماتي بوجوه متشككة.

قلت بصوت أكثر حزمًا:

- سأتذكر كل شيء عنها، وأخبرهما به.

وشيئًا فشيئًا، واحدة تلو الأخرى، ابتسمن وربتن على يدي. ظل القلق باديًا عليهن، كأن هناك اختلالًا في توازن شيء ما، لكنهن بَدَون متفائلات أيضًا، كأن ما أقوله سوف يتحقق. ماذا يمكنهن أن يطلبن أكثر من ذلك؟ وبماذا يمكنني أن أعدهن أكثر من ذلك؟

عدن إلى تناول الفول السوداني المسلوق الطري، وتبادل القصص فيما بينهن. صرن فتيات شابات مرة أخرى، يحلمن بالأوقات الطيبة التي مضت، والأوقات الطيبة المقبلة: أخ من نينغبو يدفع شقيقته للبكاء فرحًا عندما يعيد إليها تسعة آلاف دولار بالإضافة إلى الفوائد، وابن أصغر يعمل في إصلاح أجهزة الاستريو والتلفزيون، ويسير عمله على ما يرام إلى درجة أنه يرسل ما يفيض لديه من مال إلى الصين، وابنة يجيد أطفالها السباحة ببراعة كالأسماك في مسبح فاخر في وودساید. قصصٌ رائعة حقًّا، أفضل قصص على الإطلاق. يا لهن من محظوظات!

وهأنذا جالسة مكان أمي إلى طاولة الماه جونغ، في جهة الشرق، حيث تبدأ الأشياء.

آن-ماي شو

ندبة

عندما كنت فتاة صغيرة في الصين، أخبرتني جدتي بأن أمي شبح. لم يكن هذا يعني أن أمي ماتت، ففي تلك الأيام، كان الشبح هو أي شيء يُحظر علينا التحدث عنه. لذلك عرفت أن بوبو(*) أرادتني أن أنسى أمي عن قصد، وهكذا لم أعد أتذكر شيئًا عنها. بدأت الحياة التي عرفتها في نينغبو في المنزل الكبير ذي الممرات الباردة والسلالم العالية. كان هذا منزل خالي وزوجته، حيث عشت مع بوبو وأخي الصغير.

لكنني كثيرًا ما سمعت قصصًا عن شبح يحاول اختطاف الأطفال، ولا سيما الفتيات الصغيرات العنيدات اللاتي لا يُطعن الأوامر. وكثيرًا ما قالت بوبو بصوت عالٍ يسمعه كل من حولها إنني وأخي قد سقطنا من أحشاء إوزة غبية، بيضتان لا يرغب فيهما أحد، ولا تصلحان حتى للكسر على عصيدة الأرز. قالت هذا حتى لا تخطفنا الأشباح. لذا كما ترى، كنا أيضًا غاليين جدًّا بالنسبة إليها.

شعرت بالخوف من بوبو طوال حياتي، وازددت خوفًا منها عندما أصابها المرض. كان هذا في عام ١٩٢٣، عندما كنت في التاسعة من عمري. انتفخت

(*) «بوبو» بالصينية تُستخدم بمعنى الجدة للأم. (المترجمة).

جدتي كثمرة من القرع الناضج بدرجة زائدة على الحد، وتضخمت حتى صار جسدها رخوًا وعفنًا، تفوح منه رائحة كريهة. اعتادت أن تناديني إلى غرفتها ذات الرائحة النتنة، وتروي لي القصص. كانت تناديني باسمي المدرسي، وتقول:

- آن-ماي، اسمعيني جيدًا.

ثم تروي لي قصصًا لم أفهمها.

دارت إحدى القصص حول فتاة جشعة أخذ بطنها يكبر أكثر فأكثر، وقد سممت نفسها بعد أن رفضت الإفصاح عن هوية والد الطفل الذي تحمله. وعندما شق الرهبان جثتها، وجدوا بداخلها ثمرة شمام شتوية بيضاء كبيرة.

قالت بوبو:

- إذا كنتِ جشعة، فإن ما بداخلك هو ما يجعلك جائعة على الدوام.

في مرة أخرى، أخبرتني بوبو عن فتاة رفضت الاستماع إلى الذين يكبرونها سنًّا. وفي أحد الأيام، هزت هذه الفتاة العاصية رأسها بعنف شديد رافضة طلبًا بسيطًا من خالتها، فسقطت كرة بيضاء صغيرة من أذنها، وانسكب دماغها كله من رأسها، صافيًا مثل مرق الدجاج.

قالت لي بوبو:

- تنشغل أفكارك الخاصة بالسباحة داخل عقلك، إلى درجة أن كل شيء آخر يُطرد خارجًا.

قبل اشتداد المرض على بوبو بدرجة عجزَت معها عن الكلام، جذبتني إليها وحدثتني عن أمي، وحذرتني قائلة:

- لا تنطقي اسمها أبدًا، فذكر اسمها بمنزلة البصق على قبر والدك.

كان الأب الوحيد الذي عرفته هو لوحة كبيرة معلقة في الردهة الرئيسية. بدا رجلًا ضخمًا، متجهمًا، غير سعيد لكونه مجبرًا على البقاء ساكنًا فوق الجدار. كانت عيناه المضطربتان تتبعانني في أرجاء المنزل، وحتى من غرفتي عند نهاية الردهة، كانت بوسعي رؤية عينَي أبي تراقبانني. قالت بوبو إنه يراقبني

بحثًا عن أي علامات على عدم الاحترام. ولهذا، عندما كنت أرشق الأطفال الآخرين بالحجارة في المدرسة أحيانًا، أو أضيع كتابًا من باب الإهمال، كنت أمر مسرعة أمام أبي بنظرة بريئة، ثم أختبئ في زاوية من غرفتي حيث لا يستطيع رؤية وجهي.

شعرت بأن منزلنا تغلب عليه التعاسة، لكن أخي الصغير لم يكن يعتقد ذلك. اعتاد ركوب دراجته في فناء المنزل، يطارد الدجاج والأطفال الآخرين، ويضحك على الأعلى صياحًا من بينهم. أما داخل المنزل الهادئ، فكان يتقافز على أفخر أرائك خالي وزوجته المحشوة بالريش في أثناء غيابهما لزيارة الأصدقاء في القرية.

لكن حتى سعادة أخي تلاشت. ففي أحد أيام الصيف الحارة عندما كانت بوبو مريضة جدًّا، وقفنا في الخارج نشاهد موكب جنازة في القرية يمر بالقرب من فناء منزلنا. وما إن مر الموكب أمام بوابتنا حتى سقطت صورة الرجل الميت ذات الإطار الثقيل من فوق حاملها وهوت على الأرض الترابية. صرخت سيدة عجوز وفقدت الوعي، وضحك أخي فصفعته زوجة خالي.

قالت له زوجة خالي، التي كانت حادة الطباع مع الأطفال، إنه ليس لديه أي شو، أي إنه يفتقر إلى احترام الأسلاف والعائلة، تمامًا مثل والدتنا. بدا لسان زوجة خالي أشبه بمقص جائع يلتهم القماش الحريري، لذلك عندما رمقها أخي بنظرة غاضبة، قالت زوجة خالي إن أمنا كانت طائشة إلى درجة أنها هربت إلى الشمال في عجلة من أمرها، من دون أن تأخذ معها أثاث جهازها الذي جلبته عند زواجها من أبي، ومن دون أن تأخذ عشرة أزواج من عيدان الطعام الفضية التي تخصها(*)، ومن دون إبداء الاحترام الواجب لقبر أبي وقبور أسلافنا. وعندما اتهم أخي زوجة خالي بأنها هي من أخافت أمنا فدفعتها للهرب، صاحت فيه

(*) كانت عيدان الطعام هذه جزءًا من جهازها، وتُعَد رمزًا إلى الانسجام الزوجي والالتزام العائلي. (المترجمة).

زوجة خالي قائلة إن أمنا تزوجت رجلًا يُدعى وو تسينغ، كانت لديه بالفعل زوجة ومحظيتان وأولاد سيئون آخرون.

وعندما صاح أخي قائلًا إن زوجة خالي دجاجة ناطقة بلا رأس، دفعته نحو البوابة وبصقت على وجهه.

قالت زوجة خالي:

- أنت ترميني بالكلمات الجارحة، لكنك لا تساوي شيئًا. أنت ابن أم لا تحترم أحدًا، إلى درجة أنها أصبحت بي، خائنة لأسلافنا. لقد انحطت إلى درجة أن الشيطان نفسه يجب عليه خفض نظره كي يراها.

حينها بدأت أفهم القصص التي علمتني إياها بوبو، والدروس التي كان عليَّ أن أتعلمها من أجل أمي. كثيرًا ما كانت بوبو تقول:

- عندما تضيعين كرامتك يا آن-ماي، يبدو الأمر أشبه بإسقاط قلادتك داخل بئر، والطريقة الوحيدة لاستعادتها هي السقوط وراءها.

بات بوسعي تخيُّل أمي، امرأة طائشة تضحك وتهز رأسها وتغمس عيدان طعامها في الطبق مرارًا وتكرارًا لتتناول قطعة أخرى من الفاكهة الحلوة، سعيدة بتحررها من بوبو، وزوجها المتجهم المعلق على الجدار، وطفليها المتمردين. شعرت بسوء الحظ أنها أمي، وسوء الحظ أنها تركتنا. كانت هذه هي الأفكار التي تراودني وأنا مختبئة في زاوية غرفتي حيث لا يستطيع أبي مراقبتي.

* * *

كنت جالسة أعلى الدرج عندما وصلَت. عرفتُ أنها أمي، على الرغم من أنني لم أتذكر أنني رأيتها من قبل على الإطلاق. وقفَت عند مدخل الباب مباشرة، فبدا وجهها ظلًّا داكنًا. كانت أطول بكثير من زوجة خالي، تكاد تشارف خالي طولًا. كما بدت غريبة أيضًا، مثل النساء المبشرات في مدرسة الإرسالية التي نرتادها، اللاتي كنَّ متغطرسات ومتسلطات بأحذيتهن العالية للغاية، وملابسهن الأجنبية، وشعورهن القصيرة.

أشاحت زوجة خالي بنظرها بسرعة، ولم تنادِها باسمها أو تقدم لها الشاي، وأسرعت الخادمة العجوز مبتعدة بنظرة استياء. حاولتُ البقاء ساكنة تمامًا، لكن قلبي بدا كصراصير الليل التي تنبش قفصًا لمحاولة الخروج. لا بد أن أمي سمعت، لأنها رفعت رأسها، وعندما فعلَت، رأيت وجهي يبادلني النظر: عينان مفتوحتان على اتساعهما، وتريان أكثر مما ينبغي.

في غرفة بوبو، احتجت زوجة خالي قائلة عندما اقتربت أمي من الفراش:

– فات الأوان، فات الأوان.

لكن هذا لم يمنع أمي.

غمغمت أمي قائلة لبوبو:

– عودي، وابقي هنا. نوير هنا، لقد عادت ابنتك.

كانت عينا بوبو مفتوحتين، لكن عقلها صار يتشتت في اتجاهات كثيرة مختلفة، ولا يستقر طويلًا بما يكفي كي ترى أي شيء. لو كان ذهن بوبو صافيًا، لرفعت ذراعيها وطردت أمي من الغرفة.

راقبتُ أمي وأنا أراها لأول مرة، هذه المرأة الجميلة ببشرتها البيضاء ووجهها البيضاوي، الذي لم يكن كامل الاستدارة مثل وجه زوجة خالي، ولا حادًّا كوجه بوبو. رأيت أن لها عنقًا طويلًا أبيض، تمامًا كالإوزة التي وضعتني. بدت كأنها تطفو جيئة وذهابًا كالشبح، وهي تغمس قطع القماش الباردة لتضعها على وجه بوبو المنتفخ. وبينما هي تحدق إلى عينَي بوبو، أصدرَت أصواتًا خافتة قلقة. راقبتها بعناية، لكن صوتها هو الذي حيرني، صوت مألوف من حلم منسي.

عندما عدتُ إلى غرفتي في وقت لاحق من عصر ذلك اليوم، وجدتها واقفة هناك، شامخة. ولأنني تذكرت أن بوبو طلبت مني عدم التفوُّه باسمها، وقفتُ في صمت. أمسكَت يدي وقادتني إلى الأريكة، ثم جلسَت هي أيضًا كما لو أننا اعتدنا فعل ذلك كل يوم.

بدأت أمي تفك ضفائري وتمشط شعري بحركات طويلة وواسعة.

سألتني وهي تبتسم بنظرة غامضة:

- آن-ماي، هل كنتِ ابنة صالحة؟

طالعتها بنظرتي البريئة، لكن في داخلي كنت أرتجف. كنت الفتاة التي تحمل في بطنها شمامة شتوية بلا لون.

قالت بنبرة توبيخ خفيفة:

- آن-ماي، أنتِ تعرفين من أكون.

ولم أنظر إليها هذه المرة، خوفًا من أن ينفجر رأسي ويسيل دماغي من أذني.

توقفَت عن تمشيط شعري، ثم شعرتُ بأصابعها الطويلة الناعمة وهي تفرك وتتحسس تحت ذقني، حتى عثرَت على موضع الندبة الملساء في عنقي. وبينما كانت تفرك هذه البقعة، سكنتُ تمامًا. بدا الأمر كأنها تفرك الذكرى وتعيدها إلى بشرتي. ثم سقطت يدها وأجهشَت بالبكاء، ولفت يديها حول عنقها. بكت بصوت نائح شديد الحزن، وعندها تذكرتُ الحلم الذي كان فيه صوت أمي.

* * *

كنت في الرابعة من عمري، وكان ذقني بالكاد يعلو حافة مائدة العشاء، فرأيت أخي الصغير جالسًا على حجر بوبو، يبكي ووجهه غاضب. سمعت أصواتًا تثني على الحساء الداكن الساخن الذي قُدم على المائدة، وأصواتًا تتمتم بأدب:

- تشينغ! تشينغ! رجاءً، كلوا!

ثم توقف الحديث، ونهض خالي من كرسيه. التفت الجميع لينظروا إلى الباب، حيث وقفت امرأة طويلة القامة، وكنت أنا الوحيدة التي تكلمت.

صحت وأنا أندفع لأنزل من مقعدي:

- أمي!

لكن زوجة خالي صفعتني ودفعتني كي أجلس مجددًا. حينها وقف الجميع وأخذوا يتصايحون، وسمعت صوت أمي وهي تبكي قائلة:

- آن-ماي! آن-ماي!

وفوق كل هذا الضجيج، ارتفع صوت بوبو الحاد.

- من هذه الشبح؟ ليست أرملة شريفة، بل مجرد محظية ثالثة. إذا أخذتِ ابنتك فستصبح مثلك، بلا كرامة، ولن تستطيع رفع رأسها أبدًا.

مع ذلك، ظلت أمي تصيح وهي تناديني كي آتي. أتذكر صوتها بوضوح الآن. آن-ماي! آن-ماي! رأيت وجه أمي عبر المائدة، وكانت بيننا قِدر الحساء على قاعدتها الثقيلة الشبيهة بالمدخنة، وهي تتمايل ببطء إلى الأمام وإلى الخلف. ثم انسكب هذا الحساء الداكن المغلي بصيحة واحدة، وسقط على عنقي. بدا الأمر كأن غضب الجميع انهمر عليَّ دفعة واحدة.

كان ذلك النوع من الألم فظيعًا، إلى درجة أنه لا يجب أن يتذكره طفل صغير أبدًا، لكنه لا يزال يسكن ذاكرة جلدي. أطلقتُ صيحة صغيرة فحسب، لأن لحمي بدأ يتفسخ من الداخل والخارج، وانقطعت أنفاسي.

عجزتُ عن الكلام بسبب ذلك الشعور الرهيب بالاختناق، كما عجزتُ عن الرؤية بسبب كل الدموع التي انهمرت لتغسل الألم. لكنني سمعت صوت بكاء أمي، وبوبو وزوجة خالي تصيحان، ثم اختفى صوت أمي.

في وقت لاحق من ذلك المساء، جاءني صوت بوبو، وكان فيه نفس نبرة التوبيخ التي اعتادت استخدامها عندما أركض في الردهة ذهابًا وإيابًا.

- آن-ماي، اسمعيني جيدًا. آن-ماي، لقد أعددنا لكِ الحذاء والملابس التي ستلبسينها عند وفاتك، وكلها من القطن الأبيض.

أصغيت إليها وأنا خائفة.

ثم همسَت بصوت أكثر لطفًا:

- آن-ماي، إن الملابس الخاصة بوفاتك بسيطة للغاية، وليست فاخرة، لأنك لا تزالين طفلة. وإذا متِّ، فستكون حياتك قصيرة، وستبقين مدينة لعائلتك. ستكون جنازتك صغيرة جدًّا، وستكون فترة حدادنا عليك قصيرة للغاية.

ثم قالت بوبو شيئًا كان أقسى من الشعور الحارق في عنقي:

- حتى أمك استنفدت دموعها ورحلت، وإذا لم تشفي سريعًا، فسوف تنساك.

كانت بوبو ذكية جدًّا، حيث عدت مسرعة من العالم الآخر لأجد أمي.

بكيت كل ليلة حتى احترقت عيناي وعنقي معًا. وجلست بوبو بجانب فراشي تسكب الماء البارد على عنقي من ثمرة جريب فروت كبيرة مجوفة كالكوب. كانت تسكب وتسكب، حتى تهدأ أنفاسي، وأستطيع الذهاب في النوم. وفي الصباح، كانت بوبو تستخدم أظفارها الحادة كملاقط لتنزع أغشية الجلد الميت.

في غضون عامين، أصبح أثر الندبة باهتًا ولامعًا، ولم أعد أذكر شيئًا عن أمي. هذه هي حال الجراح: يبدأ الجرح في الانغلاق على ذاته، ليحمي ما كان يؤلم بشدة، وحين ينغلق تمامًا، لا تعود ترى ما تحته، الشيء الذي بدأ الألم في الأساس.

* * *

أحببت هذه الأم التي كانت في حلمي حبًّا جارفًا، لكن المرأة الواقفة بجانب فراش بوبو لم تكن الأم التي أتذكرها. ومع ذلك، أحببتُ هذه الأم أيضًا. ليس لأنها جاءتني وتوسلت إليَّ أن أسامحها، فهي لم تفعل. لم تكن بحاجة إلى شرح كيف طردتها بوبو من المنزل عندما كنت أحتضر، حيث كنت أعلم ذلك. كما لم تكن بحاجة إلى إخباري بأنها تزوجت وو تسينغ لتستبدل تعاسة بأخرى، إذ كنت أعرف هذا أيضًا.

هكذا أحببت أمي، ورأيت فيها طبيعتي الحقيقية، ما تحت جلدي، وما يسكن عظامي.

كانت ساعة متأخرة في الليل، عندما ذهبتُ إلى غرفة بوبو. قالت زوجة خالي إن أجل بوبو قد حان، وعليَّ أن أظهر لها ما تستحقه من الاحترام. ارتديت ثوبًا نظيفًا، ووقفتُ بين خالي وزوجته عند طرف فراش بوبو. بكيت قليلًا، لكن ليس بصوت عالٍ.

رأيت أمي في الجانب الآخر من الغرفة، هادئة وحزينة. كانت تطهو حساءً وتصب الأعشاب والأدوية في القدر التي يتصاعد منها البخار، ثم رأيتها ترفع

كُمها وتأخذ سكينًا حادة، ووضعَت السكين على أنعم جزء من ذراعها. حاولتُ أن أُغمض عينَي، لكني لم أستطع.

قطعت أمي جزءًا من لحم ذراعها. انهمرت الدموع على وجهها، وسال دمها على الأرض.

أخذت أمي لحمها ووضعته في الحساء. أعدت الوصفة السحرية على الطريقة القديمة، كي تحاول علاج أمها هذه المرة الأخيرة. فتحَت فم بوبو، الذي انغلق بشدة وهي تحاول الإبقاء على روحها بالداخل، وأطعمتها ذلك الحساء. لكن بوبو طارت بعيدًا مع مرضها في تلك الليلة.

وعلى الرغم من صغر سني، فإنني رأيت ألم الجسد، وقيمة ذلك الألم.

هكذا تكرم الابنة أمها. إنه شو عميق للغاية، يسكن داخل العظام. فالألم الجسدي مجرد شيء لا يذكر، ويجب نسيانه، لأنه في بعض الأحيان تكون هذه هي الطريقة الوحيدة لتذكر ما يسكن داخل العظام. عليك نزع جلدك، وجلد أمك، وجلد أمها من قبلها، حتى لا يبقى شيء، لا ندبة، ولا جلد، ولا لحم.

ليندو جونغ

الشمعة الحمراء

لقد ضحيت بحياتي ذات مرة لأفي بوعد قطعه والداي. لكن هذا لا يعني لك شيئًا، لأن الوعود لا تعني شيئًا بالنسبة إليك. يمكن للابنة أن تعِد بالمجيء إلى العشاء، لكن إذا أصابها صداع، أو إذا علقت وسط زحام مروري، أو إذا أرادت مشاهدة فيلمها المفضل على التلفزيون، فلا تعود ملتزمة بذلك الوعد.

شاهدتُ نفس هذا الفيلم عندما لم تأتِ. وعد الجندي الأمريكي بالعودة والزواج بالفتاة. كانت تبكي بمشاعر صادقة، وقال لها: «هذا وعد! أعدك! عزيزتي، حبيبتي، وعدي يساوي الذهب». ثم دفعها فوق الفراش، لكنه لم يَعُد. ذهبه مثل ذهبك، مجرد عيار ١٤ فحسب فقط.

بالنسبة إلى الصينيين، فإن الذهب عيار ١٤ ليس ذهبًا حقيقيًّا. تحسسي أساوري، لا بد أن تكون عيار ٢٤، نقية من الداخل والخارج.

لقد فات الأوان لتغييرك، لكنني أخبرك بهذا لأنني قلقة على طفلتك. أخشى أن تقول يومًا ما: «شكرًا لكِ يا جدتي على السوار الذهبي. لن أنساك أبدًا». لكنها ستنسى وعدها لاحقًا، ستنسى أن لديها جدة.

* * *

في نفس ذلك الفيلم الحربي، يعود الجندي الأمريكي إلى وطنه، ويخر على ركبتيه طالبًا الزواج بفتاة أخرى. تدور عينا الفتاة يمينًا ويسارًا في خجل بالغ، كأنها لم تفكر في الأمر من قبل. وفجأة توجه نظرها إلى الأسفل مباشرة وتدرك في تلك اللحظة أنها تحبه، إلى درجة تشعر معها بالرغبة في البكاء. أخيرًا، تجيبه بالموافقة، ويرتبطان بالزواج الأبدي.

لم تكن هذه هي الحال معي، بل أتت خاطبة القرية إلى عائلتي عندما كنت في الثانية من عمري فقط. لا، لم يخبرني أحد بذلك، فأنا أتذكر كل شيء. كان الوقت صيفًا، والجو متربًا وشديد الحرارة في الخارج، وسمعت أزيز حشرات الزيز في الفناء. جلسنا تحت بعض الأشجار في بستاننا، والخدم وإخوتي يقطفون الكمثرى من فوقي بالأعلى. جلست بين ذراعَي أمي الدافئتين المبللتين بالعرق، ألوح بيدَي في هذا الاتجاه وذاك، لأن عصفورًا صغيرًا طفا أمامي، له قرنان وجناحان ملونان رقيقان من الورق. ثم طار العصفور الورقي بعيدًا، ووجدت أمامي سيدتين. أتذكرهما لأن إحدى السيدتين أخذت تصدر أصواتًا ناعمة كالماء: «ششش، ششش». وعندما كبرت، أدركت أن هذه هي لهجة بكين، التي تبدو غريبة جدًّا بالنسبة إلى آذان أهل تاي يوان.

حدقت السيدتان إلى وجهي من دون أن تنطقا بكلمة. كان وجه السيدة ذات الصوت الناعم مصبوغًا بالمساحيق التي أخذت تذوب بفعل الحرارة، بينما بدا وجه السيدة الأخرى جافًّا مثل جذع شجرة عجوز. نظرَت إليَّ أولًا، ثم إلى السيدة ذات الوجه المصبوغ.

أعلم الآن بالطبع أن السيدة ذات الوجه الشبيه بجذع الشجرة كانت خاطبة القرية العجوز، وأن الأخرى هي هوانغ تايتاي، والدة الفتى الذي سأُجبر على الزواج به. لا، ليس صحيحًا ما يقوله بعض الصينيين عن أن المواليد من البنات لا قيمة لهن، إذ إن الأمر يعتمد على أي نوع من البنات أنت. في حالتي، رأى الناس قيمتي، حيث بدت رائحتي ومظهري كأنني كعكة ثمينة، حلوة جميلة اللون ونظيفة.

تباهت بي الخاطبة قائلة:

- مولودة من برج الحصان الترابي، لمولود من برج الخروف الترابي، هذه هي أفضل توليفة للزواج.

ربتت على ذراعي فدفعتُ يدها بعيدًا، وهمست هوانغ تايتاي بصوتها الناعم كالوشوشة أنني ربما أتمتع بـ«بيتشي» سيئ بشكل غير عادي، أي مزاج سيئ. لكن الخاطبة ضحكت وقالت:

- هذا غير صحيح، غير صحيح. إنها حصان قوي. ستكبر لتصبح عاملة نشيطة، تخدمك جيدًا في شيخوختك.

وهنا نظرت إليَّ هوانغ تايتاي نظرة ملتبسة كما لو كانت تستطيع اختراق أفكاري ورؤية نياتي المستقبلية. لن أنسى نظرتها أبدًا: اتسعت عيناها وهي تتفحص وجهي بعناية، ثم ابتسمت. رأيت سنًّا ذهبية كبيرة تلمع نحوي كالشمس الساطعة، ثم فتحت أسنانها على اتساعها، كما لو كانت تستعد لابتلاعي دفعة واحدة.

هكذا خُطبتُ لابن هوانغ تايتاي، الذي اكتشفت فيما بعد أنه كان طفلًا رضيعًا يصغرني بعام واحد. كان اسمه تيان-يو: تيان بمعنى «السماء»، لأنه كان مهمًّا جدًّا، ويو بمعنى «بقايا»، لأن والده كان مريضًا جدًّا عندما وُلد، وظنت العائلة أنه سيموت، فكان تيان-يو بمنزلة بقايا روح والده. لكن والده نجا، وخشيت جدته أن تحول الأرواح انتباهها إلى هذا الطفل وتأخذه بدلًا منه. لذا راقبوه بعناية، واتخذوا جميع القرارات نيابة عنه، فشبَّ مدللًا جدًّا.

لكن حتى لو كنت أعرف أنني سأنال زوجًا سيئًا كهذا، فلم يكن لديَّ أي خيار، حينها أو فيما بعد. هكذا كانت حال العائلات في الريف متخلفة. كنا دائمًا آخر من يتخلى عن العادات القديمة الحمقاء. في المدن الأخرى، كان بإمكان الرجل بالفعل أن يختار زوجته بنفسه، بموافقة والديه بالطبع. لكننا كنا منعزلين عن هذا النوع من الفكر الجديد. لم نسمع قَطُّ عن الأفكار في المدن الأخرى إذا كانت أفضل، بل كنا نسمع عنها إذا كانت أسوأ فقط. رُويت لنا حكايات عن أبناء تأثروا بزوجاتهم السيئات إلى درجة أنهم رموا آباءهم العجائز الباكين في الشارع. لذا، استمرت الأمهات في تاي يوان في اختيار زوجات أبنائهن، زوجات يربين أبناء

صالحين، ويعتنين بالشيوخ، ويكنسن قبور العائلة بإخلاص حتى بعد فترة طويلة من مواراة العجائز في قبورهن.

نظرًا إلى أنني خُطبت لابن آل هوانغ، بدأت عائلتي تتعامل معي كأنني أنتمي إلى عائلة أخرى. كانت أمي تقول لي، عندما أرفع وعاء الأرز إلى فمي مرات عديدة:

- انظروا كم تأكل ابنة هوانغ تايتاي!

لم تعاملني أمي على ذلك النحو لأنها لا تحبني، بل كانت تقول هذا وهي تعض لسانها كي لا تتمنى شيئًا لم يَعُد ملكًا لها.

كنت في الواقع طفلة مطيعة جدًّا، لكن في بعض الأحيان كانت ترتسم على وجهي نظرة متجهمة، فقط لشعوري بالحر أو التعب أو المرض الشديد. عندها كانت أمي تقول:

- يا له من وجه قبيح! لن يقبل بكِ آل هوانغ، وستكلل أسرتنا كلها بالعار.

فكنت أبكي أكثر، لأجعل وجهي أكثر قبحًا.

كانت أمي تقول:

- لا فائدة من ذلك، لقد أبرمنا عقدًا ولا يمكن نقضه.

وكنت أبكي حينها بحرقة أشد.

لم أرَ زوجي المستقبلي حتى بلغت الثامنة أو التاسعة من عمري. اقتصر العالم الذي أعرفه على منزل عائلتنا في القرية خارج تاي يوان. عاشت عائلتي في منزل متواضع مكون من طابقين مع بيت أصغر مجاور، كان في الحقيقة مجرد غرفتين متجاورتين لطباخنا وخادمتنا وعائلتيهما. كان منزلنا يقع على تلة صغيرة، أطلقنا عليها اسم «ثلاث درجات إلى السماء»، لكنها في الحقيقة لم تكن سوى طبقات من الطين التي جرفها نهر فين، تصلبت عبر القرون. وعند الجدار الشرقي لمنزلنا، امتد النهر الذي قال والدي إنه يحب ابتلاع الأطفال الصغار، وقال إنه ابتلع ذات مرة مدينة تاي يوان بأكملها. كان النهر يتحول إلى اللون البني في الصيف، وفي الشتاء يصير أزرق مائلًا إلى الأخضر في

الأماكن الضيقة سريعة الجريان. أما في الأماكن الأوسع فكان النهر يتجمد ساكنًا، أبيض اللون من شدة البرد.

آه، ما زلت أذكر رأس السنة ذلك العام، حين ذهبت عائلتي إلى النهر واصطادت الكثير من الأسماك، كائنات ضخمة وزلقة، انتُشلت بينما كانت لا تزال نائمة في قاع النهر المتجمد، طازجة إلى درجة أنه حتى بعد أن انتُزعت أحشاؤها، أخذت ترقص على ذيولها حين أُلقيت في المقلاة الساخنة.

كان ذلك أيضًا العام الذي رأيت فيه زوجي لأول مرة وهو صبي صغير. عندما دوت المفرقعات النارية، صرخ بصوت عالٍ - واه! - وفمه مفتوح عن آخره، على الرغم من أنه لم يَعُد رضيعًا.

لاحقًا كنت أراه في احتفالات البيض الأحمر، حين يُمنح الأطفال الذكور أسماءهم الحقيقية، بعد مرور شهر على ولادتهم. كان يجلس على ركبتَي جدته العجوز، يكاد يكسرهما من ثقل وزنه. وكان يرفض أكل أي شيء يُقدم له، ويدير أنفه بعيدًا دائمًا كأن أحدهم يقدم له مخللًا كريه الرائحة، لا قطعة حلوى شهية.

لذا لم أشعر بالحب الفوري تجاه زوجي المستقبلي بالطريقة التي ترينها في التلفزيون اليوم. فكرت في هذا الصبي بوصفه ابن عم مزعجًا، لكنني تعلمت التزام الأدب مع آل هوانغ، ولا سيما مع هوانغ تايتاي. كانت والدتي تدفعني نحو هوانغ تايتاي وتقول:

- ماذا تقولين لأمك؟

فكنت أرتبك ولا أعرف أي أُمٍّ تقصد. لذلك كنت ألتفت إلى أمي الحقيقية وأقول:

- معذرة يا أمي.

ثم ألتفت إلى هوانغ تايتاي وأقدم لها قطعة صغيرة من الحلوى لتأكلها قائلة:

- هذه من أجلكِ يا أمي.

أذكر أنني قدمت لها في إحدى المرات قطعة من شاوماي، وهي نوع من الفطائر الصغيرة كنت أحب تناولها. قالت أمي لهوانغ تايتاي إنني صنعت هذه

الفطيرة خصيصًا من أجلها، على الرغم من أنني لم أقم إلا بوخز جوانبها الساخنة بإصبعي عندما وضعها الطباخ في طبق التقديم.

تغيرت حياتي تمامًا عندما كنت في الثانية عشرة من عمري، في ذلك الصيف الذي هطلت فيه الأمطار بغزارة. فقد فاض نهر فين الذي كان يجري في وسط أرض عائلتي، وغمر السهول، ودمر كل القمح الذي زرعته عائلتي في ذلك العام، وجعل الأرض غير صالحة للزراعة لسنوات طويلة. وحتى منزلنا الواقع على قمة التل الصغير أصبح غير صالح للعيش. عندما نزلنا من الطابق الثاني، رأينا الأرضيات والأثاث مغطاة بالطين اللزج، وامتلأت الأفنية بالأشجار المقتلعة وركام الجدران المهدمة والدجاج النافق. صرنا فقراء وسط كل هذا الخراب.

في ذلك الوقت، لم يكن بإمكانك الذهاب إلى شركة التأمين كي تقولي لهم: «تسبب أحدهم في هذه الأضرار، ادفعوا لي مليون دولار». في تلك الأيام، كان المرء يُعَد سيئ الحظ إذا استنفد كل إمكانياته الخاصة. قال والدي إنه ليس أمامنا خيار سوى نقل العائلة إلى ووشي، جنوبًا بالقرب من شنغهاي، حيث كان شقيق والدتي يمتلك مطحنة دقيق صغيرة. وأوضح والدي أن العائلة بأكملها، باستثنائي، ستغادر على الفور. كنت في الثانية عشرة من عمري، كبيرة بما يكفي لأفترق عن عائلتي وأعيش مع آل هوانغ.

كانت الطرق موحلة للغاية وممتلئة بالحفر الضخمة، إلى درجة أننا لم نجد شاحنة توافق على القدوم إلى المنزل. اضطررنا إلى ترك كل الأثاث الثقيل والمفروشات خلفنا، وتعهدنا لآل هوانغ أن تكون هذه الأشياء جزءًا من مهري. وبهذه الطريقة، كانت عائلتي عملية تمامًا. قال والدي إن المهر كان كافيًا، بل أكثر من كافٍ. لكنه لم يستطع منع والدتي من إعطائي تشانغ خاصًا بها، وهو عقد مصنوع من قطعة من اليشم الأحمر. عندما وضعته حول عنقي، تصرفَت بصرامة شديدة، فعلمتُ أنها كانت حزينة للغاية. قالت لي:

- أطيعي عائلتك، ولا تجلبي إلينا العار، وأظهري السعادة عندما تصلين. حقًّا، أنتِ محظوظة جدًّا.

* * *

كان منزل آل هوانغ أيضًا يقع بجوار النهر، لكن بينما غمرت المياه منزلنا، لم يتأثر منزلهم، وذلك لأن منزلهم كان يقع في مكان أعلى من الوادي. وكانت هذه هي المرة الأولى التي أدركت فيها أن آل هوانغ يتمتعون بمكانة أفضل بكثير من عائلتي. كانوا ينظرون إلينا بتعالٍ، وهو ما جعلني أفهم لماذا كان لدى هوانغ تايتاي وتيان-يو أنفان طويلان.

عندما مررت من تحت قوس بوابة آل هوانغ المبنية من الحجر والخشب، رأيت فناءً واسعًا به ثلاثة أو أربعة صفوف من المباني الصغيرة المنخفضة. كان بعضها لتخزين المؤن، وبعضها الآخر للخدم وعائلاتهم. وخلف هذه المباني المتواضعة انتصب المنزل الرئيسي.

اقتربت أكثر، وحدقت إلى المنزل الذي سيصير مسكني لبقية حياتي. كان المنزل ملكًا للعائلة منذ عدة أجيال. لم يكن قديمًا جدًّا أو مميزًا حقًّا، لكنني رأيت أنه كبر مع العائلة. كانت هناك أربعة طوابق، طابق لكل جيل: الأجداد الأكبر سنًّا، والأجداد، والآباء، والأبناء. وبدا مظهر المنزل مشوشًا، إذ بُني على عجل، ثم أُضيفت إليه الغرف والطوابق والأجنحة والزخارف بطريقة عشوائية تعكس آراء كثيرة ومتضاربة. بُني الطابق الأول من صخور نهرية مثبتة مع بعضها بالطين المخلوط بالقش. أما الطابقان الثاني والثالث فقد بُنيا من الطوب الأملس مع ممر مكشوف يُضفي عليه مظهر برج قصر، كما بُنيت جدران الطابق العلوي من الأحجار الرمادية التي يعلوها سقف من القرميد الأحمر. ولإضفاء لمسة من الأهمية على المنزل، كان هناك عمودان دائريان ضخمان يدعمان شرفة المدخل الرئيسي. طُلي هذان العمودان باللون الأحمر، وكذلك إطارات النوافذ الخشبية. وأضاف شخص ما، على الأرجح هوانغ تايتاي، رؤوس تنانين إمبراطورية عند زوايا السقف.

في الداخل، اتسم المنزل بنوع مختلف من المظاهر الزائفة. كانت الغرفة الوحيدة الجميلة هي غرفة الاستقبال في الطابق الأول، والتي استخدمها آل هوانغ لمقابلة الضيوف. وقد احتوت هذه الغرفة على طاولات وكراسي منحوتة مطلية بالورنيش الأحمر، ووسائد فاخرة مطرزة باسم عائلة هوانغ على الطراز القديم، والعديد من الأشياء الثمينة التي أعطت انطباعًا بالثراء والهيبة القديمة. أما باقي المنزل فكان بسيطًا وغير مريح، ويسوده الصخب بفعل شكاوى عشرين من الأقارب. وأعتقد أن المنزل ازداد ضيقًا من الداخل مع كل جيل، كما ازداد اكتظاظًا، حتى قُسِّمت كل غرفة إلى نصفين لتصبح غرفتين.

لم يُقَم احتفال كبير عند وصولي، ولم تضع هوانغ تايتاي لافتات حمراء للترحيب بي في الغرفة الفخمة في الطابق الأول، كما لم يكن تيان-يو موجودًا لاستقبالي. بدلًا من ذلك، أسرعت بي هوانغ تايتاي إلى الطابق الثاني، وأدخلتني إلى المطبخ، وهو مكان لم يكن أطفال العائلة يذهبون إليه عادة. كان هذا مكانًا مخصصًا للطهاة والخدم، وهكذا عرفتُ مكانتي.

في ذلك اليوم الأول، وقفت مرتدية أفضل ثوب مبطن لديَّ عند الطاولة الخشبية المنخفضة، وبدأت أُقطع الخضراوات. لم أستطع إبقاء يدَي ثابتتين، واشتقت إلى عائلتي، وشعرت بألم في معدتي، لأنني أدركت أنني وصلت أخيرًا إلى المكان الذي كتبت عليَّ الحياة الانتماء إليه. لكنني عزمت أيضًا على الوفاء بوعد والدَي، كي لا تتمكن هوانغ تايتاي أبدًا من اتهام أمي بفقدان ماء الوجه. لن تتمكن من النيل من عائلتنا على هذا النحو.

بينما كنت أفكر في ذلك، رأيت خادمة عجوزًا تنحني فوق نفس الطاولة المنخفضة وهي تنظف أحشاء سمكة، وتنظر إليَّ بطرف عينها. كنت أبكي، وخشيت أن تخبر هوانغ تايتاي، فابتسمتُ ابتسامة عريضة وصحت قائلة:

- يا لي من فتاة محظوظة! سأحظى بأفضل حياة.

وبهذه الطريقة السريعة في التفكير لا بد أنني لوحت بسكيني بالقرب من أنفها أكثر من اللازم، لأنها صرخت بغضب:

- شيما بندي رن! أي نوع من الحمقى أنتِ؟

وعرفتُ على الفور أن هذا كان تحذيرًا، لأنني عندما صحت بذلك الإعلان عن السعادة، كدت أخدع نفسي لأصدق أنه قد يتحقق بالفعل.

رأيت تيان-يو على مائدة العشاء. كنت لا أزال أطول منه ببضع بوصات، لكنه تصرف كما لو أنه أحد كبار أمراء الحرب. أدركت أي نوع من الأزواج سيكون، لأنه بذل جهدًا خاصًّا كي يدفعني للبكاء. تذمر من أن الحساء لم يكن ساخنًا بما فيه الكفاية، ثم سكب الوعاء كما لو كان حادثًا عرضيًّا. وانتظر حتى أجلس لأتناول الطعام، ثم طلب وعاءً آخر من الأرز، وسألني لماذا أبدو كئيبة الوجه عندما أنظر إليه.

على مدى السنوات القليلة التالية، أمرت هوانغ تايتاي الخادمات الأخريات بتعليمي كيفية خياطة الزوايا الحادة على أغطية الوسائد وتطريز اسم عائلتي المستقبلية. كيف يمكن للزوجة الحفاظ على ترتيب منزل زوجها إذا لم تُلوِّث يديها قَطُّ؟ هكذا اعتادت هوانغ تايتاي أن تقول لي، كلما قدمت لي مهمة جديدة. لا أعتقد أن هوانغ تايتاي قد لوَّثت يديها قَطُّ، لكنها كانت بارعة في إصدار الأوامر والنقد.

كانت تقول للطاهية:

- علميها كيف تغسل الأرز بشكل صحيح حتى يصبح الماء صافيًا، فلا يمكن لزوجها أن يأكل أرزًا موحلًا.

وفي مرة أخرى، طلبت من خادمة أن تعلمني كيف أنظف قدر التبول.

- اجعليها تضع أنفها داخل الوعاء لتتأكد من نظافته.

هكذا تعلمتُ أن أكون زوجة مطيعة. وتعلمت الطهو بإتقان، حتى إنني كنت أستطيع شم رائحة حشوة اللحم لأعرف ما إذا كانت مالحة أكثر من اللازم قبل أن أتذوقها. كما كانت بإمكاني خياطة غرز صغيرة للغاية، إلى درجة أن التطريز بدا كأنه مرسوم. وحتى هوانغ تايتاي اعتادت تصنُّع التظاهر بالضيق من أنها ما إن تلقي بلوزة متسخة على الأرض حتى تجدها نظيفة على ظهرها من جديد، مما جعلها ترتدي نفس الملابس كل يوم.

بعد فترة، لم أعد أعتقد أنها حياة بائسة. لا، ليس حقًّا. فبعد فترة، أصبح الألم شديدًا إلى درجة أنني لم أعد أشعر بأي فرق. ما الذي كان أكثر مدعاة للسعادة من رؤية الجميع يلتهمون الفطر اللامع وبراعم الخيزران التي ساعدت على إعدادها في ذلك اليوم؟ وما الذي كان يدعو إلى الرضا أكثر من إيماءة هوانغ تايتاي برأسها وتربيتها على رأسي عندما أنتهي من تمشيط شعرها مائة مرة؟ وكيف يمكن أن أحس بسعادة أكبر من تلك التي أشعر بها عندما أرى تيان-يو يتناول وعاءً كاملًا من النودلز من دون الشكوى ولو لمرة واحدة من مذاقها أو من مظهري؟ بدا الأمر أشبه بهؤلاء السيدات اللاتي تشاهدينهن على التلفزيون الأمريكي هذه الأيام، هؤلاء اللاتي يشعرن بسعادة بالغة بعد تنظيف الملابس من بقعة، وجعلها تبدو أفضل مما كانت عليه وهي جديدة.

هل ترين كيف كاد آل هوانغ يغرسون فيَّ أفكارهم، حتى يتشبع بها جلدي؟ صرت أرى تيان-يو كإله، شخصًا تفوق آراؤه حياتي كلها قيمة. وصرت أرى هوانغ تايتاي كأمي الحقيقية، شخصًا أرغب في إرضائه، ويجب عليَّ اتباعه وطاعته من دون سؤال.

عندما بلغت السادسة عشرة من عمري في السنة القمرية الجديدة، أخبرتني هوانغ تايتاي بأنها مستعدة لاستقبال حفيد بحلول الربيع المقبل. حتى لو لم أكن أرغب في الزواج، فأين كنت سأذهب للعيش بدلًا من ذلك؟ على الرغم من أنني كنت قوية كالحصان، كيف كان لي أن أتمكن من الهرب؟ كان اليابانيون في كل ركن من أركان الصين.

* * *

قالت جدة تيان-يو:

- لقد حضر اليابانيون كضيوف غير مدعوين، ولهذا لم يحضر أحد آخر.

كانت هوانغ تايتاي قد أعدت خططًا مفصلة، لكن حفل زفافنا كان صغيرًا جدًّا. دعت القرية بأكملها، إلى جانب الأصدقاء والعائلة من مدن أخرى أيضًا.

في تلك الأيام، لم يكن من المعتاد إرسال تأكيد بالحضور، ولم يكن من اللائق عدم الحضور، ولم تظن هوانغ تايتاي أن الحرب ستغير من أدب الناس وحسن سلوكياتهم. لذا أعدت الطاهية ومساعدوها مئات الأطباق، ولُمع الأثاث القديم لعائلتي ليبدو مهرًا فخمًا، ووُضع في غرفة الاستقبال الأمامية. وقد اهتمت هوانغ تايتاي بإزالة جميع آثار الماء والطين، حتى إنها كلفت أحدهم بكتابة عبارات التهنئة على لافتات حمراء، كأن والدَي هما من علقا تلك الزينة ليباركا حظي السعيد. كما رتبت لاستئجار محفة حمراء لتحملني من منزل جيرانها إلى حفل الزفاف.

صادفنا الكثير من الحظ السيئ يوم زفافنا، على الرغم من أن الخاطبة اختارت يومًا ميمونًا، وهو اليوم الخامس عشر من الشهر القمري الثامن، حين يكون القمر مكتمل الاستدارة وأكبر من أي وقت آخر في السنة.

لكن قبل أسبوع من ظهور القمر، جاء اليابانيون. غزوا مقاطعة شانسي، وكذلك المقاطعات المجاورة لنا، فأحس الناس بالتوتر. وفي صباح اليوم الخامس عشر، يوم حفل الزفاف، بدأ المطر يهطل، وكان ذلك فألًا سيئًا للغاية. وعندما بدأ الرعد والبرق، اختلط الأمر على الناس وظنوهما قنابل يابانية، ولم يغادروا منازلهم.

سمعتُ لاحقًا أن هوانغ تايتاي المسكينة انتظرت ساعات طويلة حتى يصل المزيد من الضيوف، وأخيرًا، عندما لم يَعُد في وسعها اجتذاب المزيد من الضيوف، قررت بدء المراسم. ما الذي كان بوسعها أن تفعله؟ لم يكن بمقدورها تغيير مجرى الحرب.

كنت في منزل الجيران، عندما دعوني إلى النزول لركوب المحفة الحمراء. جلست أمام طاولة زينة صغيرة بجانب نافذة مفتوحة، وشرعت أبكي وأفكر بمرارة في الوعد الذي قطعه والداي. تساءلت لماذا قُدِّر مصيري على هذا النحو، ولماذا يجب أن أحظى بحياة تعيسة لكي ينعم شخص آخر بالسعادة. من مقعدي بجانب النافذة، رأيت نهر فين بمياهه البنية الموحلة، وفكرت في إلقاء جسدي في هذا النهر الذي دمر سعادة عائلتي. تراود المرء أفكار غريبة جدًّا عندما يبدو له أن الحياة على وشك الانتهاء.

بدأت السماء تمطر مجددًا، مجرد مطر خفيف، وناداني الناس من الطابق السفلي مرة أخرى كي أسرع، فصارت أفكاري أكثر إلحاحًا، وأكثر غرابة.

سألت نفسي، ما حقيقة الإنسان؟ هل سأتغير بالطريقة نفسها التي يغير بها النهر لونه، ومع ذلك أبقى الشخص نفسه؟ ثم رأيت الستائر تتطاير بعنف، والمطر في الخارج يهطل بغزارة أشد، مما جعل الجميع يهرولون ويصيحون. ابتسمت، ثم أدركت أنها المرة الأولى التي أرى فيها قوة الريح. لم أتمكن من رؤية الريح نفسها، لكنني رأيت أنها تحمل الماء الذي يملأ الأنهار ويشكِّل الريف، ورأيت كيف جعلت الرجال يصيحون ويتقافزون.

مسحت عينَي ونظرت في المرآة، فدهشت مما رأيت. كنت أرتدي فستانًا أحمر جميلًا، لكن ما رأيته كان أثمن من ذلك بكثير. كنت قوية، ونقية، ولديَّ في داخلي أفكار صادقة لا يراها أحد، ولا يستطيع أحد أن يسلبها مني. كنت كالريح.

رفعت رأسي وابتسمت لنفسي بفخر، ثم لففت الوشاح الأحمر الكبير المطرز على وجهي وغطيت هذه الأفكار. لكن تحت الوشاح، كنت لا أزال أعرف من أنا. قطعت وعدًا على نفسي: سأتذكر دائمًا رغبات والدَي، لكنني لن أنسى نفسي أبدًا.

عندما وصلت إلى حفل الزفاف، كان الوشاح الأحمر يغطي وجهي، ولم أستطع رؤية أي شيء أمامي. لكن عندما أحنيت رأسي إلى الأمام، استطعت أن أرى من الجانبين. كان عدد الحضور قليلًا جدًّا. رأيت آل هوانغ، نفس الأقارب المتذمرين القدامى وقد بدت عليهم علامات الإحراج من هذا الحضور الهزيل، والعازفين مع آلاتهم من الكمان والناي. كما كان هناك عدد قليل من أهل القرية الذين تحلوا بالشجاعة الكافية للخروج لتناول وجبة مجانية، حتى إنني رأيت الخدم وأطفالهم الذين لا بد أنهم قد أضيفوا ليبدو الحفل أكثر ازدحامًا.

أخذ أحدهم يدي وقادني عبر الطريق. كنت كشخص أعمى، أسير نحو مصيري، لكنني لم أعد أشعر بالخوف، وباتت بوسعي رؤية ما بداخلي.

أجرى مسؤول رفيع مراسم الزواج، وأسهب طويلًا في الحديث عن الفلاسفة ونماذج الفضيلة، ثم سمعتُ الخاطبة تتحدث عن تاريخَي ميلادنا، والانسجام،

والخصوبة. أملت رأسي المغطى قليلًا إلى الأمام، فرأيت يديها تفردان وشاحًا من الحرير الأحمر، وترفعان شمعة حمراء ليراها الجميع.

كانت الشمعة ذات طرفين يمكن إشعالهما، وقد نُقشت على أحد الطرفين أحرف ذهبية تحمل اسم تيان-يو، بينما حمل الطرف الآخر اسمي. أشعلت الخاطبة طرفَي الشمعة وأعلنت:

- لقد انعقد الزواج.

عندها، نزع تيان-يو الوشاح عن وجهي، وابتسم لأصدقائه وعائلته من دون أن ينظر إليَّ. ذكرني بطاووس صغير رأيته مرة، يتصرف كأنه استحوذ على ساحة الدار بأكملها، وهو يحرك بفخر ذيله الذي كان لا يزال قصيرًا.

رأيت الخاطبة تضع الشمعة الحمراء المشتعلة في حامل ذهبي، ثم تسلمها إلى خادمة بدا عليها التوتر. كان من المفترض أن تراقب هذه الخادمة الشمعة في أثناء المأدبة وطوال الليل للتأكد من عدم انطفاء أيٍّ من الطرفين. وفي الصباح، كان من المفترض أن تُظهر الخاطبة النتيجة، كتلة صغيرة من الرماد الأسود، ثم تعلن: «لقد ظل طرفا هذه الشمعة مشتعلين من دون أن ينطفئا، لذا لا يمكن فسخ هذا الزواج أبدًا».

ما زلت أتذكر. كانت تلك الشمعة بمنزلة رابطة زواج أقوى من الوعد الكاثوليكي بعدم الطلاق. كانت تعني أنه لا يمكنني الطلاق، ولا يمكنني الزواج مرة أخرى، حتى لو مات تيان-يو. كان من المفترض أن تربطني تلك الشمعة الحمراء إلى الأبد بزوجي وعائلته، من دون أي أعذار لاحقًا.

وبالفعل، أعلنت الخاطبة النتيجة صباح اليوم التالي، وأظهرت أنها أنجزت مهمتها. لكنني أعرف ما حدث حقًّا، لأنني بقيت مستيقظة طوال الليل أبكي على زواجي.

* * *

بعد انتهاء المأدبة، دفعنا أفراد الحفل الصغير، وشبه حملونا إلى الطابق الثالث،

إلى غرفة نومنا الصغيرة. أخذ الناس يصيحون بالنكات، ويجرُّون الصبية من تحت الفراش. وساعدت الخاطبة الأطفال الصغار على إخراج البيض الأحمر الذي كان مخبأً بين الأغطية. أما الفتيان الذين كانوا في مثل عمر تيان-يو، فقد أجلسونا جنبًا إلى جنب على الفراش، وجعلنا الجميع نتبادل القبلات كي يتضرج وجهانا من شدة الشغف. دوت المفرقعات النارية على الممشى خارج نافذتنا المفتوحة، وقال أحدهم إن هذه ذريعة جيدة كي أقفز بين ذراعَي زوجي.

بعد أن غادر الجميع، جلسنا هناك جنبًا إلى جنب من دون كلام لعدة دقائق، نستمع إلى الضحكات في الخارج. وعندما ساد الهدوء، قال تيان-يو:

- هذا فراشي، نامي على الأريكة.

ألقى لي وسادة وبطانية خفيفة، فشعرت بسعادة غامرة! انتظرت حتى غلبه النعاس، ثم نهضت بهدوء وخرجت، نازلة الدرج إلى الفناء المظلم.

بدت رائحة الجو في الخارج كأن المطر على وشك الهطول مجددًا. كنت أبكي وأنا أسير حافية القدمين، وأشعر بالحرارة الرطبة التي ما زالت تنبعث من البلاط. عبر الفناء، رأيت خادمة الخاطبة من خلال نافذة مفتوحة مضاءة باللون الأصفر. كانت جالسة إلى طاولة، تبدو شديدة النعاس، بينما الشمعة الحمراء مشتعلة في حاملها الذهبي الخاص. جلستُ بجانب شجرة لأشاهد مصيري وهو يتقرر.

لا بد أنني غفوت، لأنني أتذكر أنني استيقظت مفزوعة على صوت رعد مدوٍّ. حينها رأيت خادمة الخاطبة تركض من الغرفة، مذعورة كدجاجة على وشك فقدان رأسها. فكرتُ في أنها لا بد كانت نائمة هي الأخرى، وتعتقد الآن أن هذا من فعل اليابانيين، فضحكتُ. أضاءت السماء بالكامل، ثم دوى المزيد من الرعد، وركضت الخادمة خارجة من الفناء إلى الطريق بقوة وسرعة، حتى إنني رأيت الحصى يتطاير خلفها. تساءلتُ وأنا أضحك: إلى أين تعتقد أنها ستهرب؟ ثم رأيت شعلة الشمعة الحمراء ترتعش قليلًا مع النسيم.

لم أكن أفكر عندما حملتني ساقاي وركضت بي قدماي عبر الفناء إلى

الغرفة ذات الإضاءة الصفراء. لكني كنت آمل - كنت أصلي لبوذا، ولإلهة الرحمة، وللقمر المكتمل - أن تنطفئ تلك الشمعة. ارتعش ضوء الشمعة قليلًا، وانحنى اللهب إلى الأسفل، لكن طرفيها ظلا مشتعلين بقوة. غص حلقي بقدر هائل من الرجاء، حتى انفجر خارجًا في النهاية، وأطفأ طرف الشمعة الخاص بزوجي.

ارتعدت على الفور من الخوف، وظننت أن سكينًا ستظهر وتمزقني حتى الموت، أو أن السماء ستنشق وتعصف بي بعيدًا. لكن لم يحدث شيء، وعندما تمالكت نفسي مرة أخرى، عدت إلى غرفتي بخطوات سريعة مثقلة بالذنب.

في صباح اليوم التالي، أعلنت الخاطبة بفخر أمام تيان-يو ووالديه وأنا، وهي تسكب الرماد الأسود المتبقي على القماش الأحمر:

- لقد أنجزتُ مهمتي.

ورأيتُ نظرة الخجل والكآبة على وجه خادمتها.

* * *

تعلمت أن أحب تيان-يو، لكن ليس على النحو الذي تعتقدينه. دائمًا ما كنت أشعر بالغثيان في البداية، عندما أفكر في أنه سوف يعتليني يومًا ما وينال غرضه. كلما دخلت غرفة نومنا، كان شعري ينتصب خوفًا، لكنه لم يلمسني قَطُّ خلال تلك الأشهر الأولى. كان ينام في فراشه، بينما أنام على أريكتي.

أمام والديه، كنت زوجة مطيعة، تمامًا كما علماني. طلبت من الطاهية ذبح دجاجة صغيرة طازجة كل صباح وطبخها حتى تخرج منها عصارة نقية. وكنت أصفي هذه العصارة بنفسي في وعاء، ولا أضيف أي ماء أبدًا، ثم أقدمها له على الإفطار، وأتمتم له بالأمنيات الطيبة حول صحته. وفي كل مساء، كنت أعد حساءً منشطًا خاصًّا يُسمَّى توناو، لم يكن لذيذًا جدًّا فحسب، بل كان يحتوي على ثمانية مكونات تضمن طول العمر للأمهات، وقد أسعد هذا حماتي كثيرًا.

لكن ذلك لم يكن كافيًا لإبقائها سعيدة. فذات صباح، كنت أنا وهوانغ تايتاي جالستين في نفس الغرفة، نعمل على التطريز. شردت أتذكر طفولتي، والضفدع الأليف الذي ربيته ذات مرة واسمه «بيج وِيند». بدت هوانغ تايتاي مضطربة، كما لو كانت تعاني حكة في باطن قدمها. سمعتها وهي تتأفف، ثم فجأة نهضت من كرسيها وتقدمت نحوي وصفعتني على وجهي.

صاحت:

- يا لكِ من زوجة سيئة! إذا كنت ترفضين النوم مع ابني، فأنا أرفض إطعامك وكسوتك.

وهكذا عرفت ما الذي قاله زوجي ليتجنب غضب والدته. كنت أنا أيضًا أغلي من الغضب، لكني لم أقل شيئًا، وتذكرت وعدي لوالدَي بأن أكون زوجة مطيعة.

جلست تلك الليلة على فراش تيان-يو وانتظرت أن يلمسني، لكنه لم يفعل، فشعرت بالارتياح. في الليلة التالية، استلقيت على الفراش بجانبه مباشرة، ومع ذلك لم يلمسني. لذا في الليلة التالية، خلعت ثوبي.

حينها، استطعت رؤية ما يخفيه تيان-يو. بدا عليه الخوف، وأدار وجهه. لم تكن لديه أي رغبة فيَّ، لكن خوفه هو ما جعلني أعتقد أنه لا يرغب في أي امرأة على الإطلاق. كان أشبه بصبي صغير لم يكبر قَطُّ. وبعد فترة، لم أعد أشعر بالخوف، حتى إنني بدأت أفكر في تيان-يو بشكل مختلف. لم يكن الأمر أشبه بحب الزوجة لزوجها، بل بدا أشبه بالأخت التي تحمي أخاها الأصغر. أعدت ارتداء ثوبي، واستلقيت بجانبه، وبدأت أفرك ظهره بعد أن أدركت أنه لم يَعُد هناك داعٍ إلى الخوف. صرت أنام بجانب تيان-يو من دون أن يلمسني قَطُّ، وأصبح لديَّ فراش مريح أنام عليه.

بعد مرور أشهر أخرى، وبقاء بطني وثدييَ صغيرة ومسطحة، دخلت هوانغ تايتاي في نوبة غضب من نوع آخر.

- يقول ابني إنه زرع بذورًا تكفي لآلاف الأحفاد. أين هم؟ لا بد أنكِ تفعلين شيئًا خطأً.

وبعد ذلك ألزمتني البقاء في الفراش حتى لا تنسكب بذور أحفادها بسهولة.

آه، أنت تعتقدين أنه من الممتع للغاية الاستلقاء في الفراش طوال اليوم، لكنني أقول لك إن ذلك كان أسوأ من السجن. أعتقد أن هوانغ تايتاي فقدت صوابها بعض الشيء.

أمرَت الخدم بإخراج كل الأدوات الحادة من الغرفة، معتقدة أن المقصات والسكاكين هي السبب في قطع نسلها من الجيل القادم. كما منعتني من الخياطة، وقالت إنه يجب عليَّ التركيز وعدم التفكير في شيء سوى إنجاب الأطفال. وكانت خادمة لطيفة جدًّا تدخل غرفتي أربع مرات يوميًّا، وتظل تعتذر طوال الوقت، بينما تجبرني على شرب دواء كريه الطعم.

حسدتُ تلك الفتاة، لكونها تستطيع الخروج من الباب. أحيانًا، بينما أراقبها من نافذتي، كنت أتخيل أنني هي، أقف في الفناء، أساوم الإسكافي الجائل، وأثرثر مع الخادمات الأخريات، وأوبخ عامل التوصيل الوسيم بصوتها العالي المازح.

في أحد الأيام، وبعد مرور شهرين من دون جدوى، استدعت هوانغ تايتاي الخاطبة العجوز إلى منزلها. فحصتني الخاطبة بدقة، وتحققت من تاريخ ميلادي وساعة ولادتي، ثم سألت هوانغ تايتاي عن طبيعتي. وفي النهاية، أعلنت الخاطبة استنتاجاتها:

- بدا واضحًا ما حدث، فالمرأة لا تستطيع إنجاب الأولاد إلا إذا كانت تفتقر إلى أحد العناصر الخمسة. وقد وُلدت كنتكِ ولديها ما يكفي من الخشب والنار والماء والتراب، بينما كانت تفتقر إلى المعدن، وكان هذا فألًا حسنًا. لكن عقب زواجها، أثقلتِها بالأساور الذهبية والحلي، حتى صار لديها كل العناصر، بما في ذلك المعدن. إنها أكثر توازنًا من أن تتمكن من إنجاب الأطفال.

اتضح أن هذا كان خبرًا سارًّا بالنسبة إلى هوانغ تايتاي، لأنه لم يكن هناك ما هو أحب إليها من استعادة كل ذهبها ومجوهراتها لمساعدتي على الإنجاب. كما

كان خبرًا سارًّا لي أيضًا، فبعد إزالة الذهب من جسدي، شعرتُ بخفة وحرية أكبر. ويقال إن هذا ما يحدث إذا كنت تفتقرين إلى أحد العناصر: تبدئين في التفكير كشخص مستقل. في ذلك اليوم، بدأت أفكر في كيفية الهروب من تلك الزيجة من دون أن أخلف وعدي لعائلتي.

كان الأمر بسيطًا جدًّا. جعلتُ آل هوانغ يعتقدون أن فكرة التخلص مني كانت فكرتهم، ودفعتهم هم إلى إعلان أن عقد الزواج غير صحيح.

فكرت في خطتي لعدة أيام. راقبت كل من حولي، والخواطر التي تظهر على وجوههم، ثم صرت مستعدة. اخترت يومًا ميمونًا، اليوم الثالث من الشهر الثالث القمري. كان ذلك هو يوم مهرجان كنس المقابر. في هذا اليوم، يجب أن تكون أفكارك صافية بينما تستعدين للتفكير في أسلافك. هذا هو اليوم الذي يذهب فيه الجميع إلى قبور العائلة، يحملون المعاول لإزالة الأعشاب الضارة والمكانس لكنس الأحجار، ويقدمون الفطائر والبرتقال كطعام روحي. آه، إنه ليس يومًا كئيبًا، بل هو أقرب إلى نزهة، لكنه يحمل معنى خاصًّا لمن يبحث عن الأحفاد.

في صباح ذلك اليوم، أيقظتُ تيان-يو وكل المنزل بعويلي. استغرق الأمر من هوانغ تايتاي وقتًا طويلًا حتى دخلت غرفتي. صاحت من غرفتها قائلة:

- ما خطبها الآن؟ اجعلوها تصمت!

لكن، في النهاية، عندما لم أتوقف عن العويل، اندفعت إلى غرفتي وهي توبخني بأعلى صوتها.

وضعتُ يدًا على فمي، والأخرى على عينَي، وأخذ جسدي يتلوى كأن ألمًا فظيعًا قد استولى عليَّ. بدوت مقنعة للغاية، حتى إن هوانغ تايتاي تراجعت إلى الوراء وانكمشت كحيوان مذعور.

صاحت:

- ما الخطب يا ابنتي الصغيرة؟ أخبريني بسرعة.

قلت من بين الشهقات ومزيد من العويل:

- آه، إنه أمر أفظع من أن أتحمل حتى التفكير فيه، فضلًا عن قوله.

وبعد قدر كافٍ من العويل، قلت ما لا يمكن تصوره، وأعلنت:

- راودني حلم. جاءني أسلافنا وقالوا لي إنهم يريدون أن يشهدوا زفافنا، لذا أقمت أنا وتيان-يو لهم نفس المراسم. رأينا الخاطبة تشعل الشمعة وتعطيها للخادمة لتراقبها. وكان أسلافنا مسرورين جدًّا، مسرورين للغاية...

بدت هوانغ تايتاي نافدة الصبر بينما بدأت أبكي بهدوء من جديد، وقلت:

- لكن بعد ذلك غادرت الخادمة الغرفة وهي تحمل شمعتنا، وجاءت ريح شديدة وأطفأت الشمعة، وغضب أسلافنا بشدة، وصرخوا بأن هذه الزيجة ملعونة! قالوا إن طرف الشمعة الخاص بتيان-يو قد انطفأ! وأكدوا أن تيان-يو سيموت إذا استمر في هذا الزواج!

شحب وجه تيان-يو، لكن هوانغ تايتاي عبست فحسب.

- يا لها من فتاة حمقاء، تراودها مثل هذه الأحلام المزعجة!

ثم وبخت الجميع وأمرتهم بالعودة إلى الفراش.

ناديتها بصوت هامس أجش:

- أمي، أرجوكِ، لا تتركيني! أنا خائفة! قال أسلافنا إن لم تتم تسوية الأمر، فستبدأ دورة الدمار.

صاحت هوانغ تايتاي وهي تستدير عائدة نحوي:

- ما هذا الهراء!

وتبعها تيان-يو، وقد ارتسم على ملامحه نفس العبوس البادي على وجه أمه، وعندها علمتُ أنهما على وشك الوقوع في الفخ، كزوج من البط يقتربان من القدر.

قلت بنبرة متحسرة:

- كانوا يعلمون أنكما لن تصدقاني، لأنهم يعلمون أنني لا أريد التخلي عن رفاهية زواجي. لذلك قال أسلافنا إنهم سيزرعون العلامات، ليظهروا أن زواجنا قد فسد.

تنهدت هوانغ تايتاي قائلة:

- يا له من هراء من عقلك الغبي!

لكنها لم تستطع المقاومة، وتابعت:

- أي علامات؟

- في حلمي، رأيت رجلًا ذا لحية طويلة وشامة على خده.

سألتني هوانغ تايتاي:

- جد تيان-يو؟

أومأت برأسي، متذكرة اللوحة التي رأيتها معلقة على الجدار.

- قال إن هناك ثلاث علامات. أولًا، لقد رسم بقعة سوداء على ظهر تيان-يو، وهذه البقعة سوف تنمو وتأكل لحم تيان-يو تمامًا كما أكلت وجه جدنا قبل أن يموت.

التفتت هوانغ تايتاي بسرعة إلى تيان-يو ورفعت قميصه إلى أعلى، ثم صاحت:

- آي-ياه!

لأن البقعة كانت هناك بالفعل، نفس الشامة السوداء، بحجم طرف الإصبع، تمامًا كما رأيتها دائمًا خلال الأشهر الخمسة الماضية من نومنا معًا كأخت وأخ.

- ثم لمس جدنا فمي.

ربتُّ على خدي كما لو كان يؤلمني بالفعل، وتابعت:

- قال إن أسناني ستبدأ في التساقط واحدة تلو الأخرى، حتى لا يعود بمقدوري الاحتجاج على ترك هذا الزواج.

فتحت هوانغ تايتاي فمي بالقوة، وشهقت عندما رأت البقعة الخالية في مؤخرة فمي حيث سقطت سنة متعفنة منذ أربع سنوات.

- وأخيرًا، رأيته يزرع بذرة في رحم فتاة خادمة. قال إن هذه الفتاة تتظاهر فقط بأنها من عائلة وضيعة، لكنها في الحقيقة من دم إمبراطوري و...

وضعتُ رأسي على الوسادة، كأنني متعبة أكثر من أن أتمكن من مواصلة الحديث، فدفعت هوانغ تايتاي كتفي وقالت:

- ماذا قال؟

- قال إن هذه الخادمة هي الزوجة الروحية الحقيقية لتيان-يو، وإن البذرة التي زرعها ستنمو وتصبح طفل تيان-يو.

بحلول منتصف الصباح، كانوا قد جرُّوا خادمة الخاطبة إلى منزلنا وانتزعوا منها اعترافها المروع.

وبعد بحث طويل، وجدوا الفتاة الخادمة التي أحببتها كثيرًا، تلك التي اعتدت مراقبتها من نافذتي كل يوم. كنت قد رأيت عينيها تزدادان اتساعًا، وصوتها المازح يخفت كلما وصل عامل التوصيل الوسيم. ولاحقًا، رأيت بطنها ينتفخ، ووجهها يطول بفعل الخوف والقلق.

لذا يمكنك أن تتخيلي مدى سعادتها عندما أجبروها على الاعتراف بحقيقة نسبها الإمبراطوري. سمعتُ لاحقًا أنها تأثرت بمعجزة زواجها بتيان-يو إلى درجة أنها أصبحت شديدة التدين، وأمرت الخدم بكنس قبور الأسلاف ليس مرة في السنة، بل كل يوم.

* * *

لم تَعُد هناك بقية للقصة. لم يلوموني كثيرًا. فازت هوانغ تايتاي بحفيدها، وفزتُ أنا بملابسي، وتذكرة قطار إلى بكين، ومال كافٍ للسفر إلى أمريكا. طلب مني آل هوانغ فقط ألا أخبر أحدًا ذا شأن بقصة زواجي الفاشل.

إنها قصة حقيقية، كيف أوفيت بوعدي، وكيف ضحيت بحياتي. انظري إلى هذا الذهب الذي يمكنني ارتداؤه الآن. لقد أنجبت أخويك، ثم قدم لي والدك هذين السوارين، وبعد ذلك أنجبتك. وكل بضع سنوات، حين يتوافر لديَّ بعض المال الإضافي، أشتري سوارًا آخر. أنا أعرف قيمتي، لذا فهي دائمًا من الذهب الخالص، عيار ٢٤، كلها أصلية.

لكنني لن أنسى أبدًا. في يوم مهرجان كنس المقابر، أخلع كل أساوري. أتذكر اليوم الذي عرفتُ فيه لأول مرة فكرة صادقة، وتمكنت من تتبعها إلى حيث

تقودني. كان ذلك اليوم حين كنت فتاة صغيرة، ووجهي تحت وشاح الزواج الأحمر. وعدتُ ألا أنسى نفسي.

ما أجمل أن أعود تلك الفتاة من جديد، أن أخلع وشاحي، وأرى ما تحته، وأشعر بالخفة تعود إلى جسدي!

ينغ-ينغ سانت كلير

سيدة القمر

طوال هذه السنوات، أبقيت فمي مغلقًا حتى لا تتساقط منه رغباتي الأنانية. ولأنني ظللت صامتة فترة طويلة، لم تَعُد ابنتي تسمعني. تجلس قرب مسبحها الفاخر ولا تسمع سوى جهاز «سوني ووكمان»، وهاتفها اللاسلكي، وزوجها الكبير والمهم يسألها عن سبب وجود الفحم من دون وجود سائل إشعال.

طوال هذه السنوات، أخفيت طبيعتي الحقيقية، وظللت أركض كظل صغير حتى لا يتمكن أحد من الإمساك بي. وبسبب حركتي الخفية، لم تَعُد ابنتي تراني. لا ترى إلا قائمة بالأشياء التي يجب أن تشتريها، ودفتر شيكاتها غير المتوازن، ومنفضة سجائرها التي تقبع معوجة على طاولة مستقيمة.

وأريد أن أقول لها هذا: نحن ضائعتان، أنا وهي، غير مرئيتين، ولا نرى، غير مسموعتين، ولا نسمع، ولا يعرفنا أحد.

لم أفقد نفسي دفعة واحدة. لقد محوت وجهي شيئًا فشيئًا عبر السنين، وأنا أغسل ألمي، تمامًا كما تُمحى النقوش على الصخر بفعل الماء.

ومع ذلك، أستطيع اليوم أن أتذكر وقتًا كنت فيه أركض وأصيح، وقتًا لم أكن أستطيع فيه البقاء ساكنة. إنها أقدم ذكرى عندي: إخبار سيدة القمر بأمنيتي

السرية. ولأنني نسيت ما تمنيت، فقد بقيت تلك الذكرى مخفية عني طوال كل هذه السنوات العديدة.

لكنني أتذكر تلك الأمنية الآن، وأستطيع استعادة تفاصيل ذلك اليوم كاملًا، بنفس الوضوح الذي أرى به ابنتي ومدى عبثية حياتها.

في عام ١٩١٨، حين كنت في الرابعة من عمري، حل مهرجان القمر خلال خريف حار على غير العادة في مدينة ووشي، حار بدرجة فظيعة. حين استيقظتُ ذلك الصباح، في اليوم الخامس عشر من الشهر القمري الثامن، كانت حصيرة القش التي تغطي سريري قد صارت لزجة بالفعل، وكل شيء في الغرفة يعبق برائحة العشب الرطب الذي يغلي على نار هادئة في الحر.

في أوائل الصيف، غطى الخدم جميع النوافذ بستائر من الخيزران لحجب الشمس. وكانت كل الأسِرَّة مغطاة بحصير منسوج، وهو فرشنا الوحيد خلال أشهر الحرارة والرطوبة المستمرة، كما تقاطعت مع الأحجار الساخنة التي تبلط الفناء ممرات مزروعة بالخيزران. حل الخريف، لكن من دون صباحاته وأمسياته الباردة. وهكذا، بقيت الحرارة الراكدة في الظلال خلف الستائر، تُسخِّن الروائح الحادة لقدر التبول في غرفتي، وتتسرب إلى وسادتي، وتثير حكة في مؤخرة عنقي وتسبب الانتفاخ في خدَّي، حتى استيقظتُ ذلك الصباح بشكوى لا تهدأ.

كانت هناك رائحة أخرى في الخارج، رائحة شيء ما يحترق، رائحة نفاذة تجمع بين الحلاوة والمرارة. سألتُ مربيتي:

- ما هذه الرائحة النتنة؟

دائمًا ما كانت تظهر بجانب سريري فور استيقاظي، إذ كانت تنام على سرير في غرفة صغيرة ملاصقة لغرفتي.

قالت وهي ترفعني من سريري وتجلسني على ركبتها:

- إنها نفس الرائحة التي أوضحتها لكِ أمس.

وحاول عقلي الناعس أن يتذكر ما قالته لي عند استيقاظي في صباح اليوم السابق.

قلت بصوت ناعس:

- نحن نحرق الشرور الخمسة.

ثم أفلتُّ من حضنها الدافئ. صعدتُ فوق مقعد صغير ونظرتُ من النافذة إلى الفناء في الأسفل. رأيت لفافة خضراء ملتفة على شكل ثعبان، بذيل ينفث دخانًا أصفر. في اليوم السابق، أرتني مربيتي أن ذلك الثعبان خرج من صندوق ملون مزين بخمسة مخلوقات شريرة: ثعبان يسبح، وعقرب تثب، وحريشة تطير، وعنكبوت تتدلى إلى أسفل، وسحلية تقفز. وأوضحت لي مربيتي أن لدغة أيٍّ من هذه المخلوقات قد تقتل طفلًا. لذا شعرتُ بالارتياح لاعتقادي أننا قبضنا على هذه الشرور الخمسة، ونحرق جثثها. لم أكن أعلم أن تلك اللفافة الخضراء ليست سوى بخور لطرد البعوض والذباب الصغير.

في ذلك اليوم، بدلًا من أن تلبسني سترة قطنية خفيفة وسروالًا فضفاضًا، أخرجت مربيتي سترة صفراء ثقيلة من الحرير، وتنورة مزينة بشرائط سوداء.

قالت مربيتي وهي تفتح السترة المبطنة:

- لا وقت للعب اليوم، لقد خاطت لكِ والدتك ملابس نمر جديدة من أجل مهرجان القمر.

رفعتني لتلبسني السروال، وتابعت:

- إنه يوم مهم جدًّا، وقد أصبحتِ فتاة كبيرة الآن، لذا يمكنكِ الذهاب لحضور المراسم.

سألتُ مربيتي بينما هي تلبسني السترة فوق ملابسي الداخلية القطنية:

- ما المراسم؟

أجابت مربيتي وهي تحكم إغلاق مشابك سترتي التي على شكل ضفادع:

- إنها طريقة لائقة للتصرف. تفعلين هذا الشيء وذاك حتى لا تُعاقبكِ الآلهة.

سألتُ بجرأة:

- أي نوع من العقاب؟

صاحت مربيتي:

- أسئلتكِ كثيرة جدًّا! لا حاجة إليكِ أن تفهمي. تأدبي فحسب، واتبعي مثال والدتك. أشعلي البخور، وقدمي قربانًا للقمر، واحني رأسك. لا تخزيني يا ينغ-ينغ.

أطرقتُ رأسي عابسة، ولاحظت الأشرطة السوداء على كُمَّي، وزهور الفاوانيا الصغيرة المطرزة، وهي تنمو من خيوط ذهبية ملتفة. تذكرت مراقبة والدتي وهي تدفع بإبرة فضية داخل القماش وخارجه، ترشد الأزهار والأوراق والكروم بلطف لتتفتح فوق النسيج.

ثم سمعتُ أصواتًا في الفناء. وقفتُ على مقعدي الصغير وأجهدتُ عينَي لأرى من هناك. كان أحدهم يشكو من الحر:

- تحسس ذراعي، كأنها نضجت على البخار حتى العظم.

كان كثير من الأقارب القادمين من الشمال قد وصلوا من أجل مهرجان القمر، وسيبقون معنا طوال الأسبوع.

حاولت مربيتي أن تمرر مشطًا عريضًا في شعري، فتظاهرتُ بالسقوط من فوق المقعد بمجرد أن وصلَت إلى عقدة في شعري.

صاحت متذمرة كالعادة:

- اثبتي مكانكِ يا ينغ-ينغ!

بينما ضحكتُ وتمايلتُ على المقعد. ثم شدت شعري كله دفعة واحدة، كما لو كانت تشد لجام حصان، وقبل أن أسقط من فوق المقعد مرة أخرى، أسرعَت بلف شعري في ضفيرة واحدة على الجانب، ونسجت فيها خمسة خيوط من الحرير الملون. ثم لفت ضفيرتي على شكل كرة محكمة، ورتبت خيوط الحرير السائبة وقصتها حتى انسدلت في شرابة أنيقة.

أدارتني لتتفحص ما أنجزته بيديها. شعرتُ بالحر الشديد وأنا أرتدي السترة الحريرية المبطنة والسروال اللذين بدا من الواضح أنهما صُنعا ليلائما يومًا أكثر برودة. كما كانت فروة رأسي تحرقني من شدة ما فعلته مربيتي بشعري. أي يوم هذا يمكن أن يستحق كل هذا العناء؟

قالت مربيتي على الرغم من العبوس البادي على وجهي:

- جميلة.

سألتها:

- من سيأتي اليوم؟

قالت بسعادة:

- داجيا، كل العائلة. سنذهب جميعًا إلى بحيرة تاي. لقد استأجرت العائلة قاربًا مع طاهٍ شهير. وفي المساء، في أثناء المراسم، سترين سيدة القمر.

قلت وأنا أتقافز فرحًا:

- سيدة القمر! سيدة القمر!

وبعد أن زال انبهاري بالوقع اللطيف للكلمات الجديدة التي أتفوَّه بها، جذبت كُم مربيتي وسألتها:

- من سيدة القمر؟

- اسمها تشانغ-أو، إنها تعيش على القمر، واليوم هو اليوم الوحيد الذي يمكنكِ أن تريها فيه، وتحققي أمنية سرية.

- ما الأمنية السرية؟

قالت مربيتي:

- إنها ما تريدينه، لكن لا تستطيعين طلبه.

- لماذا لا أستطيع طلبه؟

أجابت مربيتي:

- هذا لأن... لأنكِ إن طلبته... فلن يعود أمنية بعد الآن، بل يصبح رغبة أنانية. ألم أعلمكِ أنه من الخطأ أن تفكري في احتياجاتك الخاصة؟ لا يمكن للفتاة أن تطلب شيئًا، بل عليها أن تنصت فقط.

- إذن كيف ستعرف سيدة القمر أمنيتي؟

- آي! لقد طرحتِ الكثير من الأسئلة بالفعل! يمكنكِ أن تسأليها لأنها ليست شخصًا عاديًّا.

قنعت بردها أخيرًا، وقلت على الفور:

- إذن سأخبرها بأنني لا أريد ارتداء هذه الملابس بعد الآن.

قالت مربيتي:

- آه! ألم أشرح لكِ للتو؟ الآن وقد ذكرتِ لي هذا، لم تَعُد أمنية سرية.

في أثناء وجبة الصباح، لم يبدُ أحد متعجلًا للذهاب إلى البحيرة، وظل هذا الشخص أو ذاك يتناولون شيئًا إضافيًّا. وبعد الإفطار، استمر الجميع في التحدث عن أمور لا أهمية لها. ومع مرور كل دقيقة، ازداد قلقي وتعاستي.

أخذ بابا يتلو قصيدة طويلة فك رموزها من نقوش حجرية قديمة.

- قمر الخريف دافئ. آه! ظلال الإوز تعود.

أوضح بابا قائلًا:

- الكلمة الثالثة في البيت التالي انمحت من اللوح الحجري، وانطمس معناها بفعل قرون من المطر، وكاد يضيع إلى الأبد من ذاكرة الأجيال القادمة.

قال عمي وعيناه تلمعان:

- آه، لكن من حسن الحظ، أنت باحث متخصص في التاريخ القديم والأدب، وأعتقد أنك تمكنت من حل اللغز.

رد والدي بأن أكمل البيت:

- زهور الضباب متألقة، آه!

كانت أمي تخبر عمتي والسيدات المسنات عن كيفية مزج مختلف الأعشاب والحشرات لإنتاج مرهم:

- تفركين هذا هنا، بين هاتين النقطتين. افركيه بقوة حتى يسخن جلدك ويزول الألم.

تذمرت السيدة العجوز:

- آي! لكن كيف يمكنني تدليك قدمي المتورمة؟ أشعر بألم لاذع من الداخل والخارج، إنها حساسة للغاية إلى درجة أنني لا أستطيع لمسها!

اشتكت عمة أخرى مسنة:

- إنها الحرارة، تتسبب في جفاف جسدك كله وتجعله هشًّا.

صاحت عمتي الكبرى:

- وتحرق عينيك!

تنهدتُ مرارًا وتكرارًا كلما بدأوا موضوعًا جديدًا، حتى لاحظتني مربيتي أخيرًا وأعطتني كعكة قمر على شكل أرنب. قالت إنني أستطيع الجلوس في الفناء وتناولها مع أختَي الصغيرتين غير الشقيقتين، رقم اثنين ورقم ثلاثة.

من السهل نسيان أمر القارب عندما تكون بيدك كعكة قمر على شكل أرنب. خرجنا نحن الثلاث بسرعة من الغرفة، وبمجرد أن عبرنا البوابة الدائرية المؤدية إلى الفناء الداخلي، بدأنا نتواثب ونصيح، راكضات لنرى من تصل إلى المقعد الحجري أولًا. كنتُ الأكبر، لذا جلست في الجزء الظليل، حيث كان السطح الحجري باردًا، في حين جلست أختاي غير الشقيقتين في الشمس. كسرتُ أذنَي الأرنب وأعطيت كل واحدة منهما أذنًا. كانت الأذنان مجرد عجين، من دون حشوة حلوة أو صفار بيض بداخلهما، لكن أختَي غير الشقيقتين كانتا أصغر سنًّا من أن تدركا ذلك.

قالت الأخت رقم اثنين لرقم ثلاثة:

- أختنا تحبني أكثر.

فقالت رقم ثلاثة لرقم اثنين:

- بل تحبني أناأكثر.

قلت لهما:

- لا تثيرا المشكلات.

ثم أكلت جسم الأرنب، ومررت لساني على شفتَي لألعق بقايا معجون الفاصوليا اللزج.

نفضنا الفتات عن بعضنا، وبعد أن انتهينا من تناول طعامنا، ساد الصمت مرة أخرى وعاودني الشعور بالتململ. وفجأة رأيت يعسوبًا ذات جسد قرمزي كبير

وأجنحة شفافة، فقفزت عن المقعد وركضت لأطاردها، وتبعتني أختاي غير الشقيقتين، وهما تتقافزان وتمدان أيديهما نحوها بينما هي تطير مبتعدة.

- ينغ-ينغ!

سمعت مربيتي تنادي، فهرعت الأختان رقم اثنين ورقم ثلاثة مبتعدتين. وقفت مربيتي في الفناء، وأمي ومعها السيدات الأخريات في طريقهن للمرور عبر البوابة المستديرة. أسرعت مربيتي نحوي، وانحنت لتسوي سترتي الصفراء. صاحت بانزعاج:

- شين ييفو! يي تا هو تو! ملابسك الجديدة! كلها في حالة من الفوضى!

ابتسمت أمي واقتربت مني، وسوَّت بعض خصلاتي المتناثرة وأعادتها إلى ضفيرتي الملفوفة، وقالت:

- يمكن للصبي الركض ومطاردة اليعاسيب، فهذه طبيعته. أما الفتاة فعليها أن تقف ساكنة. إذا بقيتِ ساكنة فترة طويلة، فلن تراكِ اليعسوب بعد ذلك، وستأتي إليكِ وتختبئ في ظلك حيث تجد الراحة.

وافقتها السيدات المسنات على ذلك، ثم تركنني وحيدة وسط الفناء الحار. حينما وقفت ساكنة تمامًا على ذلك النحو، اكتشفت ظلي. في البداية، بدا مجرد بقعة داكنة على حصير الخيزران الذي يغطي أحجار الفناء. كانت له ساقان قصيرتان وذراعان طويلتان، وضفيرة سوداء ملفوفة تمامًا كضفيرتي. عندما هززتُ رأسي، هز رأسه. رفرفنا بأذرعنا، ورفعنا ساقًا واحدة. ثم استدرت لأبتعد فتبعني، والتفتُّ بسرعة، فواجهني. رفعتُ حصير الخيزران لأرى إن كان بإمكاني نزع ظلي، لكنه كان تحت الحصير، على الحجارة. صحتُ فرحًا ببراعة ظلي. ركضت إلى الظل تحت الشجرة، وشاهدت ظلي وهو يطاردني، ثم اختفى. أحببت ظلي، هذا الجانب المظلم مني الذي يتسم بنفس طبيعتي المضطربة.

ثم سمعت مربيتي تناديني مرة أخرى:

- ينغ-ينغ! حان الوقت. هل أنتِ مستعدة للذهاب إلى البحيرة؟

أومأت برأسي وبدأت أركض نحوها، يسبقني ظلي. قالت مربيتي بنبرة تأنيب:
- بتمهل، سيري بتمهل.

وقف أفراد عائلتنا كلهم في الخارج، يتحدثون بحماسة، وارتدى الجميع ملابس بدت رسمية. ارتدى بابا ثوبًا بنيًّا جديدًا، وعلى الرغم من أنه بدا بسيطًا، فإنه كان من حرير منسوج بجودة وحرفية عالية. وارتدت ماما سترة وتنورة بألوان معاكسة لألوان ملابسي: حرير أسود بأشرطة صفراء. كما ارتدت أختاي غير الشقيقتين سترتين ورديتين، وكذلك والدتاهما، محظيتا أبي. وارتدى أخي الأكبر سترة زرقاء مطرزة بأشكال تشبه صولجانات بوذا التي ترمز إلى طول العمر. وحتى السيدات العجائز ارتدين أفضل ما لديهن احتفالًا بهذه المناسبة: عمة ماما، ووالدة بابا وابنة عمها، وزوجة عمي الأكبر السمينة، التي كانت لا تزال تنتف شعر جبينها حتى الصلع، وتسير دائمًا كأنها تعبر جدولًا زلقًا، تخطو خطوتين صغيرتين، ثم تنظر بخوف.

كان الخدم قد جهزوا عربة الريكشا وحمَّلوها بمؤن اليوم الأساسية: سلة منسوجة ممتلئة بـزونغ زي، كرات الأرز اللزج الملفوف بأوراق اللوتس، بعضها محشو بلحم الخنزير المشوي، وبعضها الآخر ببذور اللوتس الحلوة، وموقد صغير لغلي الماء من أجل الشاي الساخن، وسلة أخرى تحتوي على أكواب وأوعية وعيدان طعام، وكيس قطني مملوء بالتفاح والرمان والكمثرى، وجرار فخارية رطبة تحوي اللحوم والخضراوات المحفوظة، وأكوام من الصناديق الحمراء يحتوي كل صندوق منها على أربع كعكات قمر، وبالطبع، حصائر للنوم لقيلولتنا بعد الظهر.

ثم صعد الجميع إلى عربات الريكشا، وجلس الأطفال الأصغر سنًّا بجانب مربياتهم. في اللحظة الأخيرة، قبل أن ننطلق جميعًا، تملصتُ من قبضة مربيتي وقفزتُ من عربة الريكشا. صعدتُ إلى عربة الريكشا التي ركبت فيها أمي، وهو ما أزعج مربيتي، لأن هذا التصرف كان جريئًا وغير لائق من جانبي، وأيضًا لأنها كانت تحبني أكثر من حبها لابنها. كانت قد تخلت عن طفلها الرضيع عندما توفي

زوجها، وجاءت إلى منزلنا لتعمل مربية لي. لكنني كنت مدللة جدًّا بسببها، ولم تعلمني قَطُّ مراعاة مشاعرها. لذلك اعتبرتُ مربيتي مجرد مصدر للراحة، كما قد يرى المرء المروحة في الصيف أو المدفأة في الشتاء، نعمة لا يقدرها ولا يحبها إلا عندما تختفي.

عندما وصلنا إلى البحيرة، خاب أملي لعدم وجود نسائم منعشة. تصبب العرق من العمال الذين سحبوا عربات الريكشا، وانفتحت أفواههم وهم يلهثون كالخيل. في المرفأ، شاهدت السيدات العجائز والرجال يصعدون على متن قارب كبير استأجرته عائلتنا. بدا القارب كمقهى عائم، به شرفة مفتوحة أكبر من تلك الموجودة في فنائنا. كانت له أعمدة حمراء كثيرة، وسقف من القرميد المدبب، وخلفه ما يشبه بيتًا في الحديقة بنوافذ دائرية.

وعندما جاء دورنا، أمسكَت مربيتي يدي بإحكام، وقفزنا عبر اللوح الخشبي الممتد إلى القارب. لكن ما إن لامست قدماي سطح القارب حتى تحررتُ منها، ومع أختَي غير الشقيقتين رقم اثنين ورقم ثلاثة، اندفعت وسط سيقان الناس المغطاة بطبقات من الملابس الحريرية الداكنة والزاهية، ونحن نتسابق لنرى من منا ستكون أول من تركض بطول القارب.

أحببت ذلك الإحساس بالتمايل، كأنني على وشك السقوط تارة إلى هذا الجانب وتارة إلى ذاك. وتأرجحت الفوانيس الحمراء المعلقة من السقف والدرابزين، كما لو أن نسيمًا يدفعها. مرَّرت أنا وأختاي غير الشقيقتين أصابعنا على المقاعد والطاولات الصغيرة في الشرفة المفتوحة. تتبعنا بأصابعنا نقوش الدرابزينات الخشبية المزخرفة، وأطللنا بوجوهنا من خلال فتحاتها لننظر إلى الماء في الأسفل، ثم وجدنا المزيد لنكتشفه!

فتحت بابًا ثقيلًا يؤدي إلى بيت الحديقة وركضت عبر غرفة بدت كأنها صالة جلوس واسعة، وتبعتني أختاي وهما تضحكان. من خلال باب آخر، رأيت أشخاصًا في المطبخ. التفت رجل يحمل ساطورًا كبيرًا ورآنا، ثم نادانا، لكننا ابتسمنا بخجل وتراجعنا.

في مؤخرة القارب رأينا أشخاصًا يبدو عليهم الفقر: رجل يغذي موقدًا ذا مدخنة طويلة بالعصي الخشبية، وامرأة تقطع الخضراوات، وصبيان خشنا المظهر جلسا بالقرب من حافة القارب، ممسكين بخيط متصل بقفص من شبكة سلكية غاطس تحت سطح الماء مباشرة، لم يلقيا علينا حتى نظرة.

عدنا إلى مقدمة القارب في اللحظة المناسبة تمامًا لرؤية المرفأ يبتعد عنا. كانت ماما والسيدات الأخريات قد جلسن بالفعل على المقاعد حول الشرفة، يلوحن بمراوحهن بشدة، ويضربن جوانب رؤوس بعضهن كلما حطت بعوضة. اتكأ بابا وعمي على درابزين، يتحدثان بصوت منخفض وجاد. كما وجد أخي وبعض أبناء عمي عصا طويلة من الخيزران، أخذوا يغرزونها في الماء كأن بوسعهم جعل القارب يمضي أسرع. وجلس الخدم في مجموعة بالمقدمة، يسخنون الماء للشاي، ويقشرون بذور الجنكة المحمصة، ويفرغون سلال الطعام لتناول وجبة الغداء المكونة من أطباق باردة.

على الرغم من أن بحيرة تاي واحدة من أكبر البحيرات في الصين، فإنها بدت مزدحمة بالقوارب في ذلك اليوم: قوارب تجديف، وقوارب بدواسات، وقوارب شراعية، وقوارب صيد، وشرفات عائمة مثل شرفتنا. لذا كثيرًا ما مررنا بجانب أشخاص يميلون ليلامسوا الماء البارد بأيديهم، بينما انجرف آخرون فوق سطح الماء وهم نائمون تحت مظلة قماشية أو مظلة مزيتة.

فجأة سمعت أشخاصًا يصيحون:

- آه! آه! آه!

فظننت أن اليوم قد بدأ أخيرًا! هرعت إلى الشرفة ووجدت العمات والأعمام يضحكون وهم يستخدمون عيدان الطعام لالتقاط الجمبري الراقص، الذي لا يزال يتلوى في قشرته، وأرجله الصغيرة تتحرك. إذن هذا ما كان يحتويه القفص الشبكي تحت الماء، جمبري المياه العذبة، الذي أخذ والدي يغمسه في صلصة خثارة الفاصوليا الحارة ويضعه في فمه ويأكله في قضمتين قبل ابتلاعه.

لكن سرعان ما خفتت الحماسة، وبدا أن الظهيرة تمر كأي ظهيرة أخرى في المنزل: نفس الخمول الذي يلي تناول الطعام، وبعض الأحاديث المتكاسلة مع الشاي الساخن. طلبت مني مربيتي الاستلقاء على حصيرتي، وساد الهدوء بينما نام الجميع خلال الجزء الأشد حرارة من النهار.

اعتدلتُ جالسة ورأيت أن مربيتي لا تزال نائمة، مستلقية بشكل مائل على حصيرتها. تجولتُ حتى وصلت إلى مؤخرة القارب، ووجدت الصبيين ذوي المظهر الخشن يخرجان طائرًا كبيرًا طويل العنق يصدر صيحات عالية من قفص من الخيزران. أحاطت حلقة معدنية بعنق الطائر، وأمسك به أحد الصبيين، ولف ذراعيه حول جناحَي الطائر، بينما ربط الآخر حبلًا سميكًا بالحلقة المعدنية المحيطة بعنقه. ثم أطلقا سراح الطائر، فانطلق مرفرفًا بجناحيه الأبيضين، وحام فوق حافة القارب، ثم حط على سطح الماء اللامع. مشيت إلى الحافة ونظرت إلى الطائر. نظر إليَّ بحذر بعين واحدة، ثم غاص تحت الماء واختفى.

رمى أحد الصبيين طوفًا مصنوعًا من أعواد القصب المجوفة في الماء، ثم غطس ولم يلبث أن ظهر فوق الطوف. وفي غضون ثوانٍ قليلة، ظهر الطائر أيضًا، ورأسه يصارع للإمساك بسمكة كبيرة. قفز الطائر إلى الطوف وحاول ابتلاع السمكة، لكنه لم يستطع بالطبع، بسبب الحلقة المعدنية المحيطة بعنقه. وفي حركة واحدة، انتزع الصبي الذي على الطوف السمكة من فم الطائر، ورماها إلى الصبي الآخر على القارب. صفقت بيدَي، وغاص الطائر تحت الماء مرة أخرى.

على مدى الساعة التالية، بينما كانت مربيتي والجميع نائمين، جلست أراقب مثل قطة جائعة تنتظر دورها، والسمك يظهر سمكة بعد أخرى في منقار الطائر، لينتهي به المطاف في دلو خشبية على القارب. ثم صاح الصبي الذي في الماء قائلًا للآخر:

- هذا يكفي!

وصاح الصبي على متن القارب مناديًا شخصًا ما في أعلى الجزء الذي لم أستطع رؤيته من القارب. بدأ القارب يتحرك مرة أخرى، فاندلعت أصوات قرقعة وصفير عالية. ثم غطس الصبي القريب مني في الماء، وصعد كلا الصبيين إلى الطوف، وجلسا في المنتصف مثل طائرين جاثمين على غصن شجرة. لوحت لهما بيدي، وأنا أحسدهما على أسلوب حياتهما الخالي من الهموم، وسرعان ما ابتعدا، وأصبحا نقطة صفراء صغيرة تطفو على الماء.

كان يكفي أن أشاهد هذه المغامرة وحدها. لكنني بقيت، كأنني عالقة في حلم جميل. وبالفعل، التفتُّ ورأيت امرأة عابسة تجلس القرفصاء أمام دلو السمك. راقبتها وهي تخرج سكينًا حادة ورفيعة، وبدأت تشق بطون السمك، وتستخرج الأحشاء الزلقة الحمراء وتلقيها خلف ظهرها إلى البحيرة. رأيتها تزيل قشور السمك، التي تطايرت في الهواء كأنها شظايا زجاج. ثم كانت هناك دجاجتان توقفت قرقرتهما بعد قطع رأسيهما، وسلحفاة كبيرة مدت عنقها لتعض عصا، وفجأة - طق! - سقط رأسها، ومجموعات داكنة من ثعابين المياه العذبة الرفيعة، تسبح بعنف في قدر. ثم حملت المرأة كل شيء إلى المطبخ من دون أن تنطق بكلمة، ولم يتبقَّ شيء آخر لأراه.

لم ألحظ ملابسي الجديدة إلا بعد فوات الأوان، ورأيت بقع الدماء، وبقايا قشور السمك، وقطع الريش، والطين. يا لعقلي الغريب! في غمرة ذعري، عندما سمعت أصواتًا تستيقظ في مقدمة القارب، غمست يدَي بسرعة في وعاء دم السلحفاة، ولطخته على كُمَّي، وعلى مقدمة سروالي وسترتي. هذا ما ظننته حقًّا: أنني أستطيع إخفاء تلك البقع بأن أصبغ ملابسي كلها باللون القرمزي، وأنني إذا وقفت ساكنة تمامًا، فلن يلاحظ أحد هذا التغيير.

هكذا وجدتني مربيتي: شبحًا مغطًّى بالدماء. ما زلت أسمع صوتها وهي تصرخ من الرعب، تركض نحوي لترى أي أجزاء من جسدي فُقدت، وأين ظهرت الثقوب النازفة. وعندما لم تجد شيئًا، بعد أن فحصت أذنَي وأنفي

وعدت أصابعي، شتمتني بكلمات لم أسمعها من قبل. لكنها بدت شريرة، بالطريقة التي رمت بها الكلمات وبصقتها. نزعَت عني سترتي، كما نزعَت سروالي، وقالت إن رائحتي تشبه «هذا الشيء الخبيث»، وإنني أبدو مثل «ذاك الشيء الخبيث». ارتجف صوتها بفعل الخوف، أكثر منه بفعل الغضب، وقالت بأسى شديد:

– سوف تسعد أمك الآن بالتخلص منكِ، وستطردنا نحن الاثنتين إلى كونمينغ.

عندها شعرت بالخوف حقًّا، لأنني سمعت أن كونمينغ بعيدة جدًّا ولا أحد يزورها أبدًا، وأنها مكان بري محاط بغابة حجرية تحكمها القرود. تركتني مربيتي أبكي في مؤخرة القارب، واقفة بملابسي الداخلية القطنية البيضاء ونعلَي اللتين على شكل نمر.

توقعتُ قدوم والدتي قريبًا، وتخيلتها وهي ترى ملابسي الملطخة، والزهور الصغيرة التي بذلَت جهدًا كبيرًا في تطريزها. ظننت أنها ستأتي إلى مؤخرة القارب وتوبخني بطريقتها اللطيفة، لكنها لم تأتِ. آه، سمعتُ وقع خطوات في إحدى المرات، لكنني لم أرَ سوى وجهَي أختَي غير الشقيقتين ملتصقين بنافذة الباب. حدقتا إليَّ بأعين متسعة، وأشرن إليَّ، ثم ضحكتا وركضتا مبتعدتين.

تحوَّل لون الماء إلى الذهبي الغامق، ثم إلى الأحمر، فالأرجواني، وأخيرًا إلى الأسود. أظلمت السماء وبدأت أضواء الفوانيس الحمراء تتوهج في جميع أنحاء البحيرة. سمعت الناس يتحدثون ويضحكون، وقد جاءت بعض الأصوات من مقدمة قاربنا، وبعضها من القوارب الأخرى المجاورة لنا. ثم سمعت باب المطبخ الخشبي يُفتح ويُغلق بقوة، وعبق الهواء برائحة طيبة وغنية. صاحت الأصوات القادمة من الشرفة في سعادة ودهشة:

– آي! انظروا إلى هذا! وهذا أيضًا!

وتقت إلى أن أكون موجودة هناك.

استمعت إلى أصوات مأدبتهم بينما كنت أدلي ساقَي من مؤخرة القارب. وعلى

الرغم من أن الوقت كان ليلًا، فإن السماء بدت مضيئة في الخارج، واستطعت رؤية انعكاس صورتي، وساقيَّ، ويديَّ المتكئتين على الحافة، ووجهي. وفوق رأسي، رأيت سبب هذه الإضاءة الشديدة. في المياه المظلمة، كانت بإمكاني رؤية القمر مكتملًا، قمر دافئ وكبير إلى درجة أنه بدا كالشمس. استدرتُ لأجد سيدة القمر وأخبرها بأمنيتي السرية. لكن لا بد أن الجميع قد رأوها أيضًا في تلك اللحظة بالذات، لأن الألعاب النارية انفجرت، وسقطتُ في البحيرة من دون حتى أن أسمع صوت ارتطامي بالماء.

فوجئت ببرودة الماء المريحة، إلى درجة أنني لم أشعر بالخوف في البداية. بدا الأمر أشبه بالاستغراق في النوم وجسدي بلا وزن، وتوقعت أن تأتي مربيتي على الفور وتنتشلني. لكن في اللحظة التي بدأت أختنق فيها، أدركت أنها لن تأتي. ضربت الماء بذراعَي وساقَي، ودخل الماء الحاد إلى أنفي وحلقي وعينَي، مما جعلني أضرب بقوة أكبر. حاولت أن أنادي:

- يا مربيتي!

وغضبت منها بشدة، لأنها تخلت عني، وجعلتني أنتظر وأعاني من دون داعٍ. ثم مر بجانبي ظل غامض، وعرفت أنه أحد الشرور الخمسة، ثعبان مائي.

التف حولي وضغط جسدي كأنني إسفنجة، ثم قذفني في الهواء الخانق، فسقطتُ رأسًا على عقب في شبكة من الحبال ممتلئة بالأسماك المتلوية. واندفع الماء من حلقي، فصرت أختنق وأنتحب في الوقت نفسه.

عندما أدرت رأسي، رأيت أربعة ظلال، والقمر من ورائهم. صعد شخص يقطر منه الماء إلى القارب، وقال لاهثًا:

- هل هي صغيرة جدًّا؟ هل نعيدها إلى الماء؟ أم أنها تساوي بعض المال؟

ضحك الآخرون، بينما صمتُّ. كنت أعرف من يكون هؤلاء الناس. فعندما كنت أمر أنا ومربيتي بأشخاص مثلهم في الشوارع، كانت تغطي عينَي وأذنَي بيديها. وبخته امرأة في القارب:

- توقف الآن! لقد أخفتها. إنها تظن أننا عصابة، سنبيعها كجارية.

ثم قالت بصوت رقيق:

- من أين أنت، أيتها الأخت الصغيرة؟

انحنى الرجل المبتل ونظر إليَّ.

- أوه، إنها فتاة صغيرة. ليست سمكة!

مكتبة
t.me/soramnqraa

تمتم الآخرون ضاحكين:

- ليست سمكة! ليست سمكة!

بدأت أرتجف، وشعرت بالخوف إلى درجة أنني لم أستطع البكاء. بدت رائحة الهواء تنذر بالخطر: خليطًا نفاذًا من البارود والسمك.

قالت المرأة:

- لا تعيريهم اهتمامًا. هل أنتِ من قارب صيد آخر؟ أي واحد؟ لا تخافي. أشيري بيدك.

رأيت في البحيرة قوارب تجديف، وقوارب ببدالات، وقوارب شراعية، وقوارب صيد تشبه هذا، ذات مقدمة طويلة ومقصورة صغيرة في المنتصف. نظرتُ بإمعان، وقلبي يخفق بسرعة.

قلت:

- هناك!

وأشرت إلى شرفة عائمة ممتلئة بالناس الضاحكين والفوانيس.

- هناك! هناك!

وبدأت أبكي، متلهفة للوصول إلى عائلتي والحصول على بعض المواساة. انزلق قارب الصيد بسرعة نحو روائح الطبخ الذكية.

نادت المرأة باتجاه القارب:

- هيه! هل فقدتم طفلة صغيرة؟ طفلة سقطت في الماء؟

صدرت بعض الصيحات من الشرفة العائمة، فأجهدت عينَي لأرى وجوه مربيتي وبابا وماما. تزاحم الناس على أحد جانبَي الشرفة، وانحنوا وهم يشيرون بأصابعهم، وينظرون إلى قاربنا. كان جميعهم غرباء، لهم وجوه حمراء ضاحكة،

وأصوات عالية. أين مربيتي؟ ولماذا لم تأتِ والدتي؟ شقت فتاة صغيرة طريقها بين الأرجل وقالت:

- هذه ليست أنا! أنا هنا، لم أسقط في الماء.

انفجر ركاب القارب ضاحكين، ثم استداروا مبتعدين.

قالت المرأة بينما بدأ قارب الصيد ينزلق بعيدًا:

- أيتها الأخت الصغيرة، لقد أخطأتِ.

لم أقل شيئًا، وبدأت أرتجف مجددًا. لم أرَ أحدًا يهتم بغيابي. نظرتُ عبر صفحة الماء إلى مئات الفوانيس الراقصة. انفجرت الألعاب النارية، وسمعت المزيد من الناس يضحكون. كلما ابتعدنا، بدا العالم أكبر، وشعرت بأنني ضعت إلى الأبد.

واصلت المرأة التحديق إليَّ. كانت ضفيرتي قد انحلت، وملابسي الداخلية مبللة ومتسخة، كما فقدت نعلَي وصرت حافية القدمين.

قال أحد الرجال بهدوء:

- ماذا نفعل؟ لا أحد يطالب بها.

قال رجل آخر:

- ربما كانت فتاة متسولة. انظروا إلى ملابسها. إنها واحدة من أولئك الأطفال الذين يركبون الأطواف الهشة من أجل تسول المال.

غمرني شعور بالرعب. ربما كان هذا صحيحًا. لقد تحولتُ إلى فتاة متسولة، ضائعة من دون عائلتي.

قالت المرأة بغضب:

- آه! ألا ترى؟ انظر إلى بشرتها، إنها شاحبة للغاية، وقدماها ناعمتان من الأسفل.

قال الرجل:

- لننزلها على الشاطئ إذن، وإذا كانت لديها عائلة حقًّا، فسوف يبحثون عنها هناك.

تنهد رجل آخر قائلًا:

- يا لها من ليلة! دائمًا ما يوجد هناك من يسقط في الماء في ليالي الأعياد: شعراء سكارى وأطفال صغار. من حسن حظها أنها لم تغرق.

تبادلوا أطراف الحديث على هذا النحو بالتناوب، متجهين ببطء نحو الشاطئ. دفع أحد الرجال القارب بقضيب طويل من الخيزران، فانزلقنا بين القوارب الأخرى. وعندما وصلنا إلى المرفأ، رفعني الرجل الذي انتشلني من الماء بيديه اللتين تفوح منهما رائحة السمك.

قالت المرأة والقارب يطفو مبتعدًا:

- كوني حذرة في المرة المقبلة، أيتها الأخت الصغيرة.

على رصيف المرفأ، وخلفي القمر الساطع، رأيت ظلي مرة أخرى. بدا أقصر هذه المرة، منكمشًا وجامح المظهر. ركضنا معًا إلى بعض الشجيرات بجانب ممر واختبأنا. في هذا المخبأ، سمعت الناس وهم يتحدثون في أثناء مرورهم، كما سمعت أصوات الضفادع والصراصير، ثم سمعت أصوات الناي، ورنين الصنوج، وقرع طبول وجونج!

نظرت من خلال أغصان الشجيرات، ورأيت أمامي حشدًا من الناس، وفوقهم مسرح يحمل القمر. اندفع شاب من جانب المسرح وقال للحشد:

- والآن ستأتي سيدة القمر لتروي لكم قصتها الحزينة، في عرض ظلٍّ مُغنًّى بالطريقة الكلاسيكية.

فكرتُ: سيدة القمر! وجعلني وقع هذه الكلمات السحرية أنسى كل همومي. سمعت مزيدًا من قرع الطبول ورنين الصنوج، ثم ظهر ظل امرأة أمام القمر. كان شعرها منسدلًا وهي تمشطه، وبدأت تتكلم. يا له من صوت عذب نائح!

بدأت تنوح، وهي تمرر أصابعها الطويلة في شعرها:

- قدري وعقابي أن أعيش هنا على القمر، بينما يعيش زوجي على الشمس. لذا، في كل يوم وكل ليلة، نمر بجانب بعضنا، من دون أن يرى أحدنا الآخر، إلا في هذه الليلة فقط، ليلة قمر منتصف الخريف.

اقترب الجمهور أكثر، فأخذت سيدة القمر تعزف على عودها وبدأت في غناء حكايتها.

على الجانب الآخر من القمر، رأيت ظل رجل يظهر، فمدت سيدة القمر ذراعيها لتحتضنه، وغنت:

- أوه! إنه هوو يي، زوجي، سيد الرماة في السماء!

لكن لم يبدُ أن زوجها لاحظ وجودها، بل كان يحدق إلى السماء. ومع اشتداد سطوع السماء، بدأ فمه ينفتح عن آخره، ولم أستطع الجزم ما إذا كان ذلك من الرعب أم من البهجة.

قَبضَت سيدة القمر على عنقها وانهارت على الأرض، وهي تبكي:

- قَحط عشر شموس في السماء الشرقية!

وما إن أنشدت هذا، حتى رفع سيد الرماة سهامه السحرية وأطلقها، فسقطت تسع شموس وانفجرت بالدم، فغنت بسعادة:

- تغرق في بحر يغلي!

وسمعتُ هذه الشموس تئز وتطقطق في موتها.

ثم ظهرت جنية - الملكة الأم للسماوات الغربية! - تحلق نحو سيد الرماة. فتحَت صندوقًا ورفعت كرة متوهجة، لا، ليست شمسًا صغيرة، بل خوخة سحرية، خوخة الحياة الأبدية! رأيتُ سيدة القمر تتظاهر بالانشغال بالتطريز، لكنها كانت تراقب زوجها. رأت كيف أخفى الخوخة في صندوق. ثم رفع سيد الرماة قوسه وأقسم أن يصوم لمدة عام كامل ليثبت أنه يمتلك الصبر اللازم للعيش إلى الأبد. وبعد أن ابتعد، لم تضيع سيدة القمر لحظة واحدة للعثور على الخوخة وأكلها!

وما إن تذوقتها، حتى بدأت ترتفع، ثم تطير - ليس كالملكة الأم - بل كيعسوب ذات أجنحة محطمة. صاحت:

- طُرِدتُ من هذه الأرض بسبب نزوتي الطائشة!

وفي نفس اللحظة اندفع زوجها إلى المنزل صارخًا:

- لصة! زوجة سارقة للحياة!

التقط قوسه، ووجه سهمًا نحو زوجته، ومع رنين الجونج المدوي، أظلمت السماء.

وياه! وياه! عادت موسيقى العود الحزينة تصدح ثانية، مع إضاءة سماء المسرح، وهناك وقفت السيدة المسكينة أمام قمر ساطع كالشمس. كان شعرها قد طال حتى صار يكنس الأرض، يمسح دموعها. وقد مر دهر منذ أن رأت زوجها آخر مرة، حيث كان هذا هو قدرها: أن تبقى تائهة على القمر، تبحث إلى الأبد عن رغباتها الأنانية.

بكت قائلة بأسى:

- المرأة هي البين، الظلام الداخلي، حيث تكمن العواطف الجامحة، والرجل هو اليانغ، الحقيقة المشرقة التي تنير عقولنا.

في نهاية قصتها الغنائية، كنت أبكي، وأرتجف من اليأس. وعلى الرغم من أنني لم أفهم قصتها بالكامل، فإنني فهمت حزنها. ففي لحظة قصيرة واحدة، فقدت كلتانا العالم، ولم يكن هناك سبيل لاستعادته.

دق الجونج، وأحنت سيدة القمر رأسها ونظرت جانبًا بهدوء، وصفق الجمهور بحماسة. ثم خرج الشاب نفسه الذي كان على المسرح من قبل وأعلن:

- انتظروا جميعًا! وافقت سيدة القمر على تحقيق أمنية سرية واحدة لكل شخص هنا...

دبت الحماسة في الجمهور، وبدأ الناس يتهامسون بأصوات عالية، فتابع الشاب:

- مقابل تبرع مالي صغير...

ضحك الناس وتأوهوا، ثم بدأوا يتفرقون. صاح الشاب:

- إنها فرصة لا تتكرر إلا مرة واحدة في السنة!

لكن لم يكن أحد يصغي إليه، سواي أنا وظلي بين الشجيرات.

صحت، وأنا أركض حافية القدمين:

- لديَّ أمنية! لديَّ واحدة!

لكن الشاب لم يلتفت إليَّ، وغادر المسرح. واصلت الركض نحو القمر لأخبر سيدة القمر بما أريد، لأنني صرت أعرف ما أمنيتي. اندفعتُ بسرعة مثل السحلية خلف المسرح، إلى الجانب الآخر من القمر.

رأيتها واقفة ثابتة للحظة، وبدت جميلة، متوهجة بضوء عشرات المصابيح الكيروسينية. ثم هزت خصلات شعرها الطويلة الداكنة، وبدأت تنزل درجات المسرح.

قلت هامسة:

- لديَّ أمنية.

لكنها لم تسمعني، فاقتربتُ أكثر، حتى تمكنت من رؤية وجه سيدة القمر: وجنتان غائرتان، وأنف عريض دهني، وأسنان بارزة ضخمة، وعينان محمرتان. بدا وجهها متعبًا إلى درجة أنها نزعت شعرها المستعار بإعياء، وسقط ثوبها الطويل من فوق كتفيها. وعندما خرجت أمنيتي السرية من بين شفتَي، نظرتُ إلى سيدة القمر فوجدتها تحوَّلت إلى رجل.

* * *

لسنوات عديدة، لم أستطع تذكر ما كنت أريده في تلك الليلة من سيدة القمر، أو كيف عثرت عليَّ عائلتي مرة أخرى. فقد بدا لي كلا الأمرين كأنهما وهم، أمنية تحققت لكن لا يمكن الوثوق بها. ولذا، على الرغم من أنهم عثروا عليَّ في وقت لاحق من تلك الليلة، بعد أن صاحت مربيتي وبابا وعمي والآخرون باسمي على طول المجرى المائي، فإنني لم أصدق قَطُّ أن عائلتي عثرت على نفس الفتاة.

ومع مرور السنوات، نسيت باقي ما حدث في ذلك اليوم: القصة المؤلمة التي غنتها سيدة القمر، والقارب ذو الشرفة، والطائر الذي تحيط بعنقه حلقة معدنية، والزهور الصغيرة المطرزة على كُمَّي، واحتراق الشرور الخمسة.

لكن الآن بعد أن كبرت في السن، وصرت أقترب كل عام من نهاية حياتي، أشعر أيضًا بأنني أقرب إلى البداية، وأتذكر كل ما حدث في ذلك اليوم لأنه تكرر مرات عديدة خلال حياتي: نفس البراءة والثقة والقلق، والاندهاش والخوف والوحدة، وكيف فقدت نفسي.

أتذكر كل هذه الأشياء. والليلة، في اليوم الخامس عشر من الشهر القمري الثامن، أتذكر أيضًا ما طلبته من سيدة القمر منذ زمن بعيد: تمنيت أن يتم العثور عليَّ.

البوابات الست والعشرون المشؤومة



قالت الأم لابنتها عندما كانت في السابعة من عمرها:

- لا تركبي دراجتكِ حول الزاوية.

احتجت الفتاة قائلة:

- لِمَ لا؟

- لأنني لن أستطيع رؤيتك حينها، وستسقطين وتبكين، ولن أسمعك.

تذمرت الفتاة:

- كيف عرفتِ أنني سأسقط؟

- هذا مذكور في كتاب، اسمه «البوابات الست والعشرون المشؤومة»، يتحدث عن كل الأشياء السيئة التي قد تحدث لك خارج نطاق حماية هذا المنزل.

- لا أصدقك، دعيني أرَ الكتاب.

- إنه مكتوب بالصينية، ولا يمكنكِ فهمه، لذا يجب عليكِ أن تطيعيني.

سألتها الفتاة:

- ما هي إذن؟ أخبريني عن الأشياء الستة والعشرين المشؤومة.

لكن الأم جلست تحيك في صمت.

صاحت الفتاة:

- ماذا تكون هذه الأشياء الستة والعشرون؟

ومع ذلك، لم تُجِبها الأم.

- لا يمكنكِ إخباري لأنك لا تعرفين! أنتِ لا تعرفين شيئًا!

هرعت الفتاة إلى الخارج، وقفزت على دراجتها، وفي عجلتها للابتعاد، وقعت قبل أن تصل حتى إلى الزاوية.

ويفرلي جونغ

قواعد اللعبة

كنت في السادسة من عمري عندما علمتني أمي فن القوة الخفية. كانت هذه استراتيجية للفوز في الجدال، ونيل احترام الآخرين، وفي النهاية، وإن لم نكن نعلم ذلك حينها، الفوز في مباريات الشطرنج.

وبختني أمي عندما بكيت بصوت عالٍ، وأنا أشد يدها نحو المتجر الذي يبيع أكياس البرقوق المملح:

- أمسكي لسانك!

ثم قالت في المنزل:

- الرجل الحكيم لا يسير عكس اتجاه الريح. في اللغة الصينية نقول: تعالَ من الجنوب وهب مع الريح - بوم! - وستتبعك ريح الشمال. فأقوى الرياح لا يمكن رؤيتها.

في الأسبوع التالي، أمسكت لساني عندما دخلنا المتجر الذي يبيع الحلوى المحظورة. وعندما انتهت أمي من التسوق، تناولَت بهدوء كيسًا صغيرًا من البرقوق من الرف ووضعته على الطاولة مع بقية المشتريات.

كانت أمي تنقل إلينا حكمتها اليومية لتساعدني أنا وشقيقَي الأكبر سنًّا على تجاوز

ظروفنا. كنا نعيش في الحي الصيني في سان فرانسيسكو، ومثل معظم الأطفال الصينيين الآخرين الذين اعتادوا اللعب في الأزقة الخلفية للمطاعم ومحال التحف، لم أكن أعتقد أننا فقراء. دائمًا ما كان طبقي ممتلئًا، ثلاث وجبات مؤلفة من خمسة أطباق يوميًّا، تبدأ بحساء مملوء بأشياء غامضة لم أرغب في معرفة أسمائها.

كنا نسكن في ويفرلي بليس، في شقة دافئة ونظيفة من غرفتَي نوم تقع فوق مخبز صيني صغير متخصص في الفطائر المطهوة على البخار وأطباق الديم سوم. وفي الصباح الباكر، بينما الزقاق لا يزال هادئًا، كنت أشم رائحة الفاصوليا الحمراء العطرة وهي تُطهى حتى تصبح معجونًا حلو المذاق. ومع بزوغ الفجر، كانت رائحة كرات السمسم المقلية وشرائح الدجاج الحلوة بالكاري تملأ أرجاء شقتنا. من فراشي، اعتدت سماع والدي وهو يستعد للذهاب إلى العمل، ثم يقفل الباب خلفه بدورة واحدة، اثنتين، ثلاث دورات من المفتاح.

في نهاية زقاقنا الممتد بطول مربعين سكنيين، كان هناك ملعب رملي صغير فيه أراجيح وزلاقات لامعة في المنتصف من كثرة الاستخدام. وقد أحاطت منطقة اللعب مقاعد خشبية يجلس عليها كبار السن القادمون من الوطن الأم، وهم يقشرون بذور البطيخ المحمصة بأسنانهم الذهبية، وينثرون القشور لمجموعة متلهفة من الحمامات الصاخبة. لكن أفضل ملعب كان الزقاق المظلم نفسه، الممتلئ بالألغاز والمغامرات اليومية. اعتدت أنا وشقيقاي التلصص على متجر الأعشاب الطبية، نراقب العجوز لي وهو يوزع على ورقة بيضاء صلبة الكمية المناسبة من قشور الحشرات، والبذور التي بلون الزعفران، والأوراق ذات الرائحة النفاذة لعملائه المرضى. قيل إنه عالج ذات مرة امرأة كانت تحتضر بسبب لعنة أسلافها التي استعصت على أمهر الأطباء الأمريكيين. وبجوار الصيدلية كانت هناك مطبعة متخصصة في بطاقات الزفاف المزخرفة بالذهب، واللافتات الحمراء الاحتفالية.

في نهاية الشارع، كانت هناك سوق بينغ يوان للأسماك، التي عُرض في

واجهتها حوض مزدحم بالأسماك والسلاحف المحكوم عليها بالموت، تتخبط وتحاول أن تجد لنفسها مكانًا عند جوانب الحوض اللزجة المغطاة ببلاط أخضر. وقد كُتبت لافتة بخط اليد لتحذير السياح: «كل ما في هذا المتجر للأكل، وليس للتربية كحيوانات أليفة». في الداخل، كان الجزارون يرتدون مآزر بيضاء ملطخة بالدم، وينظفون الأسماك ببراعة، بينما ينادي الزبائن بطلباتهم ويصيحون: «أعطني أكثر ما لديك طزاجة»، ودائمًا ما كان الجزارون يحتجون قائلين: «كلها طازجة». وفي الأيام الأقل ازدحامًا بالسوق، كنا نتفقد صناديق الضفادع والسلطعون الحية التي حذرونا من لمسها، وكذلك صناديق الحبار المجفف، وصفوفًا متراصة من الجمبري المثلج والسبيط والأسماك الزلقة. وكانت أسماك السانداب تجعلني أرتعد في كل مرة، حيث تستقر عيناها على جانب واحد من جسدها المسطح، وكانت تذكرني بحكاية أمي عن فتاة مهملة ركضت إلى شارع مزدحم وسحقتها سيارة أجرة. «سُحقت وصارت مسطحة تمامًا»، كما روت أمي.

عند ناصية الزقاق كان يقع مقهى هونغ سينغ، وهو مقهى به أربع طاولات، وله سلم غائر في الأمام يؤدي إلى باب كُتب عليه «للعاملين». وقد اعتقدت أنا وشقيقاي أن الأشرار يخرجون من هذا الباب ليلًا. لم يكن السياح يذهبون إلى هونغ سينغ على الإطلاق، لأن قائمة الطعام كُتبت بالصينية فقط. ذات مرة، طلب رجل أبيض يحمل كاميرا كبيرة مني ومن رفاقي أن نقف أمام المطعم لالتقاط صورة لنا، وطلب منا التحرك إلى جانب النافذة الكبيرة حتى تظهر في الصورة البطة المشوية ورأسها متدلٍّ من حبل مغطى بالعصارة. بعد أن التقط الصورة، أخبرته بأن عليه الذهاب إلى مطعم هونغ سينغ لتناول العشاء. عندما ابتسم وسألني عما يقدمونه، صحت: «أحشاء وأقدام البط ومعدة الأخطبوط!»، ثم هربت مع أصدقائي وركضنا عبر الزقاق ضاحكين بصوت عالٍ، واختبأنا في مدخل شركة «تشاينا جيم»، وقلبي ينبض بالأمل أن يطاردنا.

أطلقت عليَّ والدتي اسم الشارع الذي كنا نسكن فيه: ويفرلي بليس جونغ،

وهو اسمي الرسمي في الوثائق الأمريكية المهمة. لكن عائلتي كانت تناديني ماي ماي، أي «الأخت الصغيرة». كنت الأصغر، والابنة الوحيدة. كل صباح قبل الذهاب إلى المدرسة، كانت أمي تلف وتشد شعري الأسود الكثيف حتى تشكِّل ضفيرتين محكمتين. ذات يوم، بينما كانت تجاهد لتمشيط شعري المعقد بمشط ذي أسنان صلبة، خطرت لي فكرة ماكرة.

سألتها:

- أمي، ما التعذيب الصيني؟

هزت أمي رأسها، وبين شفتيها دبوس شعر. بللت كفها وسوت الشعر فوق أذني، ثم غرست الدبوس بحيث خدش فروة رأسي بحدة.

سألَت من دون أن يظهر عليها أدنى علم بنيتي الخبيثة:

- من قال هذه الكلمة؟

هززت كتفَي وقلت:

- أحد الأولاد في صفي قال إن الصينيين يمارسون التعذيب الصيني.

أجابت ببساطة:

- الصينيون يعملون بأشياء كثيرة: الصينيون يعملون في التجارة والطب والرسم، ليسوا كسالى مثل الأمريكيين. كما أننا نمارس التعذيب، أفضل أنواع التعذيب.

كان أخي الأكبر فنسنت هو الذي حصل على لوح الشطرنج، حين ذهبنا إلى حفلة عيد الميلاد السنوية التي أُقيمت في الكنيسة المعمدانية الصينية الأولى في نهاية الزقاق. جمعت السيدات المبشرات كيس هدايا من سانتا كلوز، تبرع بها أعضاء كنيسة أخرى. لم تحمل أيٌّ من الهدايا أسماء، لكن كانت هناك أكياس منفصلة للأولاد والبنات من مختلف الأعمار.

ارتدى أحد أبناء الرعية الصينيين زي سانتا كلوز، كما ارتدى لحية ورقية صلبة ملصقة بها كرات قطنية. أعتقد أن الأطفال الوحيدين الذين ظنوا أنه

حقيقي كانوا أصغر من أن يدركوا أن سانتا كلوز ليس صينيًّا. وعندما جاء دوري، سألني الرجل المتنكر بزي سانتا كم أبلغ من العمر، وظننته سؤالًا خادعًا، إذ كنت في السابعة من عمري حسب التقويم الأمريكي، والثامنة حسب التقويم الصيني. قلت له إنني وُلدت في ١٧ مارس ١٩٥١، وبدا أنه قنع بذلك. ثم سألني بجدية إن كنت فتاة صالحة جدًّا هذا العام، وإن كنت أومن بيسوع المسيح وأطيع والدَي. كنت أعرف ما الجواب الصحيح عن هذا، فأومأت برأسي بجدية مماثلة.

بعد أن شاهدت الأطفال الآخرين يفتحون هداياهم، أدركت أن الهدايا الكبيرة ليست بالضرورة الأجمل. حصلت فتاة في مثل عمري على كتاب تلوين كبير يحتوي على شخصيات من الكتاب المقدس، بينما حصلت فتاة أقل طمعًا اختارت صندوقًا أصغر على زجاجة صغيرة من ماء تواليت برائحة اللافندر. كما كان صوت الصندوق مهمًّا أيضًا، إذ اختار صبي في العاشرة من عمره صندوقًا يصدر رنينًا عند هزه، ووجد بداخله مجسمًا لكرة أرضية مصنوعة من الصفيح بها فتحة لإدخال النقود. لا بد أنه اعتقد أنها مملوءة بالعملات المعدنية من فئة عشرة وخمسة سنتات، لأنه حين اكتشف أنها لا تحتوي إلا على عشرة سنتات فقط، ارتسمت على وجهه خيبة أمل واضحة، إلى درجة أن والدته ضربت جانب رأسه وأخرجته من قاعة الكنيسة، معتذرة للحضور عن ابنها الذي لا يملك من حسن التهذيب ما يكفي ليقدر هدية جميلة كهذه.

عندما نظرت إلى داخل الكيس، تحسست بسرعة الهدايا المتبقية، واختبرت وزنها، وتخيلت ما تحتويه. اخترت هدية ثقيلة وصغيرة الحجم ملفوفة بورق فضي لامع وشريط من الساتان الأحمر. كانت علبة تحتوي على اثنتَي عشرة لفافة من حلوى «لايف سيفرز»، وقضيت بقية الحفلة وأنا أرتبها وأعيد ترتيبها حسب نكهاتي المفضلة. اختار أخي وينستون هديته بحكمة أيضًا، وكانت عبارة عن صندوق يحتوي على قطع بلاستيكية دقيقة، ونصَّت التعليمات المدوَّنة على

الصندوق أنه عند تجميعها بشكل صحيح، سيحصل على نسخة مصغرة أصلية من غواصة من الحرب العالمية الثانية.

أما فنسنت فقد حصل على طقم شطرنج، وكان يمكن أن تكون هذه هدية لائقة جدًّا بالنسبة إلى حفلة عيد ميلاد تقيمها الكنيسة، لولا أنه بدا من الواضح أن الشطرنج كان مستخدمًا، وكما اكتشفنا لاحقًا، كان ينقصه بيدق أسود وحصان أبيض. شكرت أمي المتبرع المجهول بأدب قائلة:

- إنها هدية جيدة جدًّا، تكلفت الكثير.

وعندها، أومأت سيدة مسنة ذات شعر أبيض ناعم وخفيف نحو عائلتنا وهمست:

- عيد ميلاد مجيد، سعيد.

عندما عدنا إلى المنزل، طلبت أمي من فنسنت أن يرمي طقم الشطرنج، وقالت وهي تميل رأسها جانبًا بابتسامة كبرياء صغيرة:

- هي لا تريده، ولا نريده نحن أيضًا.

لكن شقيقَي لم ينصتا إليها، حيث شرعا بالفعل في ترتيب قطع الشطرنج وقراءة التعليمات من الكتيب المهترئ.

راقبتُ فنسنت ووينستون وهما يلعبان خلال أسبوع عيد الميلاد، وبدا أن رقعة الشطرنج تحمل أسرارًا معقدة تنتظر من يفك شفرتها. بدت قطع الشطرنج أقوى من الأعشاب السحرية التي يبيعها لي العجوز لعلاج اللعنات المتوارثة من الأجداد. وارتسمت الجدية الشديدة على ملامح شقيقَي، حتى إنني كنت متأكدة أن هناك شيئًا على المحك أعظم من مجرد تجنُّب باب العاملين في مطعم هونغ سينغ.

توسلت إليهما بين المباريات، عندما كان أحد شقيقَي يتكئ إلى الوراء مطلقًا تنهيدة عميقة من الارتياح والنصر، بينما الآخر منزعج، غير قادر على نسيان النتيجة.

- اسمحا لي باللعب! اسمحا لي باللعب!

رفض فنسنت في البداية السماح لي باللعب، لكنه رضخ عندما عرضت عليه حلوى «لايف سيفرز» كبديل للأزرار المستخدمة لتحل محل القطع المفقودة. اختار النكهات بنفسه: الكرز البري للبيدق الأسود والنعناع للحصان الأبيض، ويمكن للفائز أكلهما.

بينما انشغلت أمنا بنثر الدقيق وفرد دوائر صغيرة من العجين لصنع الفطائر المطهوة على البخار التي ستكون عشاءنا في تلك الليلة، شرح فنسنت القواعد، مشيرًا إلى كل قطعة.

- لديكِ ست عشرة قطعة، وأنا أيضًا: ملك وملكة، وفيلان، وحصانان، وقلعتان، وثمانية بيادق. البيادق تتحرك خطوة واحدة إلى الأمام فقط، إلا في أول حركة، فيمكنها أن تتحرك خطوتين. لكن لا يمكنها أسر القطع إلا بالتحرك بشكل مائل هكذا، باستثناء البداية، حيث يمكنها أن تتقدم وتأسر بيدقًا آخر.

سألت وأنا أُحرك بيدقي:

- لماذا؟ لماذا لا تستطيع التحرك أكثر من خطوة؟

أجاب:

- لأنها بيادق.

- لكن لماذا تتحرك بشكل مائل لتأسر القطع الأخرى؟ ولماذا لا توجد بين القطع نساء وأطفال؟

قال فنسنت:

- لماذا السماء زرقاء؟ ولماذا يجب أن تطرحي دومًا أسئلة غبية؟ إنها لعبة، وهذه هي القواعد. أنا لم أختلقها، انظري هنا، في الكتاب.

نقر الصفحة بإصبعه وهو يمسك بيدقًا في يده، وتابع:

- بيدق. ب-ي-د-ق. بيدق. اقرئي بنفسك.

نفضت أمي الدقيق عن يديها وقالت بهدوء:

- دعني أرَ الكتاب.

مسحت الصفحات بعينيها سريعًا، من دون قراءة الأحرف الإنجليزية الغريبة، كأنها تتعمد البحث عن شيء غير محدد.

قالت أخيرًا:

- هذه قواعد أمريكية. كلما جاء الناس من بلد أجنبي، تعين عليهم تعلم قواعد جديدة. إذا كنتِ لا تعرفين، يقول لكِ القاضي: «هذا مؤسف، عودي من حيث أتيت». وهم لا يخبرونك بالسبب وراء الأمور، كي لا تتمكني من الاستفادة من أساليبهم لإحراز التقدم. بل يقولون: «نحن لا نعرف السبب، عليكِ اكتشاف ذلك بنفسك»، لكنهم يعرفون السبب طوال الوقت. من الأفضل أن تأخذي الكتاب، وتكتشفي بنفسك.

ثم رفعَت رأسها بابتسامة رضا.

اكتشفتُ كل الأسباب لاحقًا. قرأتُ القواعد وبحثت عن معاني الكلمات الصعبة في القاموس. استعرت كتبًا من مكتبة الحي الصيني، ودرست كل قطعة شطرنج، محاولة استيعاب القوة التي تحملها كلٌّ منها.

تعلمتُ عن الحركات الافتتاحية، وسبب أهمية السيطرة على منتصف الرقعة في وقت مبكر، فأقصر مسافة بين نقطتين هي عبر المنتصف مباشرة. تعلمت عن المرحلة الوسطى من المباراة، وكيف تشبه التكتيكات بين الخصمين صراع الأفكار، فالذي يلعب بشكل أفضل هو من يملك أوضح الخطط للهجوم وللخروج من الفخاخ. كما تعلمتُ أهمية امتلاك بُعد النظر في نهاية المباراة، والفهم الرياضي لجميع الحركات الممكنة، والصبر، حيث تتكشف جميع نقاط الضعف والقوة أمام الخصم القوي، وتختفي عن الخصم الذي أنهكه التعب. اكتشفت أن المرء يجب أن يعمل على جمع نقاط القوة الخفية طوال المباراة، وأن يرى نهاية اللعبة قبل أن تبدأ حتى.

كما اكتشفتُ أيضًا لماذا لا يجب عليَّ أبدًا الإفصاح عن «السبب» للآخرين. فالقليل من المعرفة المحجوبة عن الآخرين هو ميزة عظيمة، ينبغي للمرء أن

يحفظها للاستغلال في المستقبل. تلك هي قوة الشطرنج: إنها لعبة أسرار يجب على المرء أن يظهر فيها مهاراته، ولا يفصح عن نياته أبدًا.

أحببت الأسرار التي وجدتها داخل المربعات الأربعة والستين السوداء والبيضاء. رسمت بعناية رقعة شطرنج يدوية الصنع وعلقتها على الجدار بجانب سريري، حيث اعتدت الجلوس لساعات ليلًا، أتأمل معارك متخيلة. سرعان ما توقفت عن خسارة أي مباريات، وأي حلوى «لايف سيفرز»، لكنني فقدت خصمَي. قرر وينستون وفنسنت أنهما مهتمان أكثر بالتجول في الشوارع بعد المدرسة مرتديين قبعتين من قبعات رعاة البقر مثل تلك التي يرتديها هوبالونج كاسيدي(*).

في أحد أيام الربيع الباردة، بينما كنت عائدة من المدرسة إلى المنزل، مررت بالملعب الموجود في نهاية زقاقنا. رأيت مجموعة من الرجال المسنين، وقد جلس اثنان منهم أمام طاولة قابلة للطي يلعبان الشطرنج، بينما الآخرون يدخنون الغليون ويأكلون الفول السوداني ويشاهدون. هرعت إلى المنزل وأحضرت طقم الشطرنج الخاص بفنسنت المربوط في علبة كرتونية بأشرطة مطاطية، كما اخترت بعناية لفافتين ثمينتين من حلوى «لايف سيفرز». عدت إلى الحديقة واقتربت من رجل انشغل بمشاهدة اللعبة.

سألته:

- هل تريد اللعب؟

ارتسمت الدهشة على ملامحه وابتسم ابتسامة عريضة وهو ينظر إلى الصندوق تحت ذراعي.

(*) هوبالونج كاسيدي: اسم شخصية خيالية شهيرة في أفلام الغرب الأمريكي خلال ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين. كانت شخصية هوبالونج كاسيدي تمثل راعي بقر شجاعًا ونبيلًا، يرتدي دائمًا ملابس سوداء وقبعة راعي بقر سوداء مميزة. وقد أصبحت هذه الشخصية رمزًا شعبيًا في الثقافة الأمريكية، خصوصًا بين الأطفال، وانتشرت البضائع المتعلقة بها، ومنها قبعات الكاوبوي. (المترجمة).

قال وهو يبتسم بلطف:

- أيتها الأخت الصغيرة، لقد مر وقت طويل منذ أن لعبتُ بالدمى.

أسرعت بوضع الصندوق بجانبه على المقعد، وأظهرت له ردي.

تبين أن لاو بو، كما سمح لي أن أناديه، لاعب أفضل بكثير من شقيقَي. خسرتُ العديد من المباريات والكثير من حلوى «لايف سيفرز»، لكن مع مرور الأسابيع، ومع كل لفافة حلوى تتناقص، أضفت أسرارًا جديدة إلى معرفتي. علمني لاو بو أسماء المناورات: الهجوم المزدوج من الشاطئين الشرقي والغربي، ورمي الحجارة على الغريق، والاجتماع المفاجئ للعشيرة، والمفاجأة من الحارس النائم، والخادم المتواضع الذي يقتل الملك، والرمال في أعين القوات المتقدمة، والقتل المزدوج من دون دماء.

كانت هناك أيضًا بعض النقاط الدقيقة المتعلقة بآداب لعبة الشطرنج: احتفظ بالقطع المأسورة في صفوف مرتبة، كأسرى يتم الاعتناء بهم جيدًا، ولا تقل أبدًا «كش ملك» بغرور، فلعل هناك من يحمل سيفًا خفيًّا يجز عنقك، ولا تُلقِ القطع في صندوق الرمل بعد خسارتك، لأنك حينها ستضطر إلى البحث عنها بنفسك، بعد أن تعتذر إلى كل من حولك. بحلول نهاية الصيف، كان لاو بو قد علمني كل ما يعرفه، وأصبحت لاعبة شطرنج أفضل.

اعتادت حشود صغيرة من الصينيين والسياح الاجتماع في عطلات نهاية الأسبوع لمشاهدتي وأنا ألعب وأهزم خصومي واحدًا تلو الآخر. وكانت أمي تنضم إلى الحشود خلال هذه المباريات الاستعراضية في الهواء الطلق، تجلس على المقعد بفخر، وتقول لمعجبيَّ بتواضع صيني أصيل:

- إنه مجرد حسن حظ.

وقد اقترح أحد الرجال الذين كانوا يشاهدونني ألعب في الحديقة أن تسمح لي أمي بالمشاركة في بطولات شطرنج محلية، فابتسمت أمي ابتسامة مهذبة، وهي إجابة لا تعني شيئًا. أردت الذهاب بشدة، لكنني كتمت رغبتي. كنت أعلم أنها لن تسمح لي باللعب بين الغرباء. لذا، بينما كنا نسير إلى المنزل، قلت بصوت

خافت إنني لا أريد اللعب في البطولة المحلية. فهناك ستكون القواعد أمريكية، وإذا خسرت، فسأجلب العار إلى عائلتي.

قالت أمي:

- العار هو أن تسقطي من دون أن يدفعكِ أحد.

خلال بطولتي الأولى، جلست أمي معي في الصف الأمامي بينما كنت أنتظر دوري. ظللت أهز ساقَي باستمرار لتحريرهما من الالتصاق بالمقعد المعدني البارد للكرسي القابل للطي، وعندما نادوا اسمي، وثبت من مكاني. فكَّت أمي شيئًا ما في حجرها، كان تشانغ خاصتها، وهو لوح صغير من اليشم الأحمر يحمل نار الشمس. همسَت إليَّ:

- إنه يجلب الحظ.

ووضعته في جيب فستاني. التفتُّ إلى خصمي، وهو فتى في الخامسة عشرة من عمره من أوكلاند، نظر إليَّ، وغضن أنفه.

عندما بدأتُ اللعب، تلاشى الفتى، وتلاشت الألوان من الغرفة، ولم أعد أرى سوى قطعي البيضاء وقطعه السوداء تنتظر على الجانب الآخر. هبت ريح خفيفة قرب أذني، همست بأسرار لا يسمعها سواي.

غمغمت الريح:

- هبي من الجنوب، فالريح لا تترك أثرًا.

رأيت طريقًا واضحًا، والفخاخ التي يجب تجنُّبها. سرت حركة بين الجمهور، فقالت زوايا الغرفة:

- هسسس! هسسس!

هبت الريح بقوة أشد.

- ارمي رمالًا من الشرق لتشتيت انتباهه.

تقدم الحصان مستعدًّا للتضحية. همست الريح بصوت أعلى فأعلى:

- واصلي الهبوب، هبي، هبي، إنه عاجز عن الرؤية، وقد صار أعمى الآن. اجعليه يميل بعيدًا عن الريح ليسهل إسقاطه.

قلت بينما الريح تصفر ضاحكة:

- كش ملك.

ثم هدأت الريح لتصبح مجرد أنفاسي الخفيفة.

وضعت أمي كأسي الأولى بجانب مجموعة شطرنج بلاستيكية جديدة أهدتها إليَّ جمعية الطاويين في الحي. وبينما كانت تمسح كل قطعة بخرقة قماش ناعمة، قالت:

- في المرة المقبلة اربحي أكثر، واخسري أقل.

أجبتها:

- أمي، الأمر لا يتعلق بعدد القطع التي تخسرينها. أحيانًا تحتاجين إلى خسارة بعض القطع كي تتقدمي.

- الأفضل أن تخسري بقدر أقل، وانظري إن كنتِ بحاجة إلى الخسارة حقًّا.

في البطولة التالية، فزت مرة أخرى، لكن أمي هي من ارتسمت على وجهها ابتسامة النصر، وقالت:

- خسرتِ ثماني قطع هذه المرة. المرة الماضية كانت إحدى عشرة. ألم أقل لكِ؟ من الأفضل أن تخسري أقل!

شعرتُ بالضيق، لكنني لم أتمكن من قول شيء.

حضرت المزيد من البطولات، كل واحدة منها أبعد عن المنزل من السابقة، وفزت بجميع المباريات، في كل الفئات. وعرض المخبز الصيني الكائن أسفل شقتنا مجموعتي المتزايدة من الكؤوس في نافذته، وسط الكعك المغطى بالغبار الذي لم يُبَع قَطُّ. وفي اليوم التالي لفوزي ببطولة إقليمية مهمة، عرضت النافذة كعكة طازجة مغطاة بالكريمة المخفوقة كُتب عليها بخط أحمر: «تهانينا، ويفرلي جونغ، بطلة الحي الصيني في الشطرنج». بعد ذلك بوقت قصير، عرض عليَّ متجر زهور، ونحات شواهد قبور، ودار جنازات، رعايتي في البطولات الوطنية. عندها قررت أمي أنني لم أعد مضطرة إلى غسل الأطباق، وأصبح على وينستون وفنسنت القيام بالأعمال المنزلية بدلًا مني.

تذمر فنسنت:

- لماذا تلعب هي، بينما نقوم نحن بكل العمل؟

قالت أمي:

- هذه هي القواعد الأمريكية الجديدة. ماي ماي تلعب، وتعتصر كل ذهنها للفوز في الشطرنج، أما لعبك فلا يستحق إلا عصر المنشفة.

بحلول عيد ميلادي التاسع، أصبحتُ بطلة الشطرنج الوطنية. كنتُ لا أزال على بُعد ٤٢٩ نقطة من لقب «الأستاذ الكبير»، لكنني وُصفت بـ«الأمل الأمريكي الكبير»، طفلة معجزة، وفوق ذلك كنت فتاة أيضًا! نشرت مجلة «لايف» صورتي إلى جانب اقتباس من بوبي فيشر يقول فيه: «لن تكون هناك أبدًا امرأة تحمل لقب أستاذ كبير في الشطرنج»، وجاء التعليق تحت الصورة: «دورك، يا بوبي».

في اليوم الذي التُقطت فيه صورتي للمجلة، كان شعري مصففًا في شكل ضفيرتين مشدودتين بعناية، مزينتين بمشابك بلاستيكية مرصعة بفصوص لامعة. كنت ألعب في قاعة كبيرة في مدرسة ثانوية، ترددت فيها أصداء السعال المصحوب بالبلغم، وصرير الأطراف المطاطية لأرجل الكراسي وهي تنزلق فوق الأرضية الخشبية المُلمَّعة حديثًا. جلس قبالتي رجل أمريكي، في مثل سن لاو بو تقريبًا، ربما في الخمسين من عمره. أذكر أن جبينه المتعرق بدا كأنه يذرف الدمع مع كل حركة أقوم بها. كان يرتدي بدلة داكنة ذات رائحة كريهة، وفي أحد جيوبه منديل أبيض كبير يمسح به كفه قبل أن يمرر يده بحركة مبالغ فيها فوق قطعة الشطرنج التي اختارها.

مرتدية فستاني الوردي والأبيض الناصع المزين بدانتيل خشن عند العنق، وهو أحد فستانين خاطتهما أمي لهذه المناسبات الخاصة، كنت أضم يدَي تحت ذقني، ومرفقاي مرتكزان برقة على الطاولة، تمامًا كما علمتني أمي أن أفعل حين ألتقط صورًا للصحافة. كنت أهز حذائي الجلدي اللامع ذهابًا وإيابًا كطفلة متململة في حافلة المدرسة، ثم أتوقف، وأزم شفتَي، وأدوِّر القطعة التي اخترتها في الهواء

كما لو كنت مترددة، ثم أضعها بثبات في موقعها الهجومي الجديد، مع ابتسامة نصر أرسلها إلى خصمي.

لم أعد ألعب في زقاق ويفرلي بليس، ولم أعد أزور الملعب الذي يجتمع فيه الحمام والرجال المسنون. كنت أذهب إلى المدرسة، ثم أعود مباشرة إلى المنزل لأتعلم أسرار الشطرنج الجديدة، والمزايا المحجوبة بذكاء، والمزيد من أساليب الهروب.

لكنني وجدت صعوبة في التركيز في المنزل. فقد كانت أمي تميل إلى الوقوف فوق رأسي بينما أخطط لتحركاتي في اللعبة. أظن أنها كانت تعتبر نفسها حليفتي الحامية. كانت تزم شفتيها بإحكام، وبعد كل حركة أقوم بها، يخرج من أنفها صوت «هممممف» خافت.

قلت لها ذات يوم:

- أمي، لا أستطيع التدرب وأنتِ واقفة هكذا.

فتراجعَت إلى المطبخ، وأحدثت ضجة عالية بالأواني والمقالي. وحين توقفت الضوضاء، رأيت من طرف عيني أنها تقف عند مدخل الباب.

- هممممف!

لكن هذه المرة خرج الصوت من حلقها المشدود.

قدَّم والداي العديد من التنازلات كي أتمكن من التدريب. ذات مرة شكوت أن غرفة النوم التي أشاركها مع شقيقَي كانت صاخبة للغاية إلى درجة أنني لا أستطيع التفكير. بعد ذلك، نام شقيقاي في سرير بغرفة المعيشة المواجهة للشارع. قلت إنني لا أستطيع إنهاء طبقي من الأرز، لأن ذهني لا يعمل بشكل صحيح عندما تكون معدتي ممتلئة للغاية، فصرت أترك المائدة وأطباقي نصف مملوءة ولم يشتكِ أحد. لكن كان هناك واجب واحد لم أستطع تجنُّبه. كان عليَّ مرافقة أمي في أيام السوق يوم السبت عندما لا تكون لديَّ أي بطولة لألعبها. كانت أمي تسير معي بفخر، وتزور العديد من المتاجر، ولا تشتري إلا القليل جدًّا، وتقول لمن ينظر إليها:

- هذه ابنتي، ويفرلي جونغ.

ذات يوم، وبعد أن خرجنا من أحد المتاجر، تمتمتُ بصوت خافت:

- أتمنى ألا تفعلي ذلك، أن تخبري الجميع بأنني ابنتك.

توقفت أمي عن المشي، واندفعت حشود من الناس يحملون حقائب ثقيلة من جانبنا على الرصيف، واصطدموا بكتفَي، من هذا الجانب أولًا، ثم ذاك.

قبضَت على يدي بقوة أشد وهي تحدق إليَّ بغضب.

- آي-ياه! هل تشعرين بالخجل من أمك؟

خفضتُ عينَي وقلت:

- ليس هذا هو الموضوع، لكن الأمر فاضح للغاية، وهو محرج بشدة.

ارتجف صوتها من الغضب.

- تشعرين بالحرج من كونكِ ابنتي؟

- ليس هذا ما قصدته. لم أقل ذلك.

- وما الذي قلتِه إذن؟

كنت أدرك أنه من الخطأ التفوُّه بالمزيد، لكنني سمعت صوتي يقول:

- لماذا يجب عليكِ استغلالي للتباهي؟ إذا أردتِ التباهي، فلماذا لا تتعلمين لعب الشطرنج بنفسك؟

تحوَّلت عينا أمي إلى شقين أسودين ينذران بالخطر، ولم يكن لديها ما تقوله لي، بل ساد صمت حاد فحسب.

شعرتُ بالرياح تدور حول أذنَي الملتهبتين من الحرارة، ونزعت يدي من قبضة أمي القوية واستدرت، فاصطدمت بامرأة عجوز، وسقطت حقيبتها التي تحتوي على مشترياتها من البقالة على الأرض.

صاحت أمي والمرأة:

- آي-ياه! يا لك من فتاة حمقاء!

تدحرجت حبات البرتقال والمعلبات على الرصيف، وبينما انحنت أمي لمساعدة المرأة العجوز في التقاط الطعام المتناثر، ركضتُ مبتعدة.

ركضت في الشارع مندفعة بين الناس، من دون أن أنظر خلفي، بينما كانت أمي تصرخ بصوت حاد:

- ماي ماي! ماي ماي!

هربت عبر زقاق، مرورًا بمتاجر ذات ستائر داكنة وبائعين ينظفون نوافذهم من الأوساخ. اندفعت إلى ضوء الشمس، إلى شارع كبير يعج بالسياح الذين يتفحصون الحلي والهدايا التذكارية. ثم تسللت إلى زقاق مظلم آخر، يليه شارع آخر، ثم زقاق آخر. ركضت حتى شعرت بالألم، وأدركت أنه لا مكان أهرب إليه، وأنني لم أكن أهرب من شيء، ولم تحمل الأزقة أي سبيل للهرب.

خرجت أنفاسي متصاعدة كدخان غاضب. كان الجو باردًا، فجلست على دلو بلاستيكية مقلوبة بجانب كومة من الصناديق الفارغة، وأسندت ذقني إلى يدَي، وأخذت أفكر بعمق. تخيلت أمي وهي تسير بخطى سريعة في شارع أو آخر بحثًا عني، ثم تستسلم وتعود إلى المنزل لتنتظر عودتي. وبعد ساعتين، وقفت على ساقين متيبستين، وسرت ببطء إلى المنزل.

ساد الهدوء في الزقاق، ورأيت الأضواء الصفراء تتلألأ من شقتنا كعينَي نمر في ظلمة الليل. صعدت الدرجات الست عشرة المؤدية إلى الباب، متسللة بهدوء كي لا أحدث أي صوت ينذر بوصولي. أدرت مقبض الباب، فوجدته مقفلًا. سمعت صوت كرسي يتحرك، وخطوات سريعة، وأقفال تدور - كليك! كليك! كليك! - ثم فُتح الباب.

قال فنسنت:

- لقد تأخرتِ كثيرًا. يا إلهي، أنتِ في ورطة كبيرة.

عاد إلى مائدة العشاء، حيث كانت هناك بقايا سمكة كبيرة على طبق، ورأسها الضخم لا يزال متصلًا بعظامها التي بدت كأنها تسبح عكس التيار محاولة الهرب بلا جدوى. وبينما وقفتُ أنتظر عقابي، سمعتُ أمي تقول بصوت جاف:

- نحن لا نهتم بهذه الفتاة، وهذه الفتاة لا تهتم بنا.

لم ينظر إليَّ أحد، واصطكت عيدان الطعام المصنوعة من العظام بجوانب الأطباق التي تُفرغ في أفواه جائعة.

دخلت غرفتي، وأغلقت الباب، واستلقيت على سريري. كانت الغرفة مظلمة، والسقف تملأه الظلال المنبعثة من أضواء الشقق المجاورة في وقت العشاء.

رأيت في ذهني رقعة شطرنج بها أربعة وستون مربعًا أبيض وأسود، وجلست خصمتي قبالتي، وعيناها شقان أسودان غاضبان، وارتسمت على وجهها ابتسامة نصر وهي تقول:

- أقوى الرياح لا يمكن رؤيتها.

تقدمت قطعها السوداء عبر الرقعة، وتحركت ببطء إلى كل مستوى تالٍ كوحدة واحدة. وصرخت قطعي البيضاء وهي تتدافع وتسقط من الرقعة واحدة تلو الأخرى. ومع اقتراب قطعها من حافتي، شعرتُ بأنني أزداد خفة. ارتفعت في الهواء وطرتُ خارج النافذة، أعلى فأعلى، فوق الزقاق، فوق أسطح المنازل المكسوة بالقرميد، حيث حملتني الريح ودفعتني نحو السماء الليلية حتى اختفى كل شيء تحتي، ووجدت نفسي وحيدة.

أغمضتُ عينَي، وفكرت في خطوتي التالية.

لينا سانت كلير

الصوت القادم عبر الجدار

حين كنت صغيرة، أخبرتني أمي بأن جدي الأكبر حكم على متسول بالإعدام بأبشع وسيلة ممكنة، وأن الرجل الميت عاد لاحقًا وقتل جدي الأكبر. إما ذلك، وإما أنه مات بسبب الإنفلونزا بعد أسبوع.

استرجعت في ذهني مرارًا وتكرارًا اللحظات الأخيرة في حياة ذلك المتسول. في مخيلتي، رأيت الجلاد يخلع قميص الرجل ويقتاده إلى الساحة المفتوحة، قبل أن يقرأ الجلاد:

- هذا الخائن، حُكم عليه بالموت بألف طعنة.

لكن قبل أن يتمكن حتى من رفع السيف الحاد لينهي حياته، وجدوا أن عقل المتسول قد تحطم بالفعل إلى ألف شظية. بعد بضعة أيام، رفع جدي الأكبر رأسه عن كتبه، فرأى نفس الرجل، كأنه مزهرية مكسورة أُعيد تجميعها على عجل. قال الشبح:

- حين كان السيف يمزقني، ظننت أن هذا هو أسوأ ما سأضطر إلى تحمُّله. لكنني كنت مخطئًا، فالأسوأ يقع على الجانب الآخر.

ثم احتضن الرجل الميت جدي الأكبر بشظايا ذراعه المسننة وسحبه عبر الجدار، ليبين له ما يعنيه.

سألتُ أمي ذات مرة كيف مات حقًّا، فقالت:

- مات سريعًا في فراشه، بعد مرض استمر يومين فقط.

- لا، لا، أعني الرجل الآخر. كيف قُتل؟ هل سلخوا جلده أولًا؟ هل استخدموا ساطورًا لتقطيع عظامه؟ هل صرخ وشعر بكل طعنة من الطعنات الألف؟

صاحت أمي بالصينية:

- آه! لماذا لا تشغلكم أيها الأمريكيون سوى هذه الأفكار السوداوية؟ لقد مات ذلك الرجل منذ ما يقرب من سبعين عامًا. ما أهمية كيفية وفاته؟

لطالما اعتقدتُ أنه من المهم معرفة أسوأ شيء يمكن أن يحدث لك، ومعرفة كيفية تجنُّبه، وعدم الانجراف وراء غواية المجهول. لأنه حتى عندما كنت طفلة صغيرة، أحسست بالرعب الخفي الذي كان يحيط بمنزلنا، ذلك الرعب الذي طارد أمي حتى اختبأت في ركن سري مظلم من عقلها. ومع ذلك، فقد وصل إليها. شاهدتُ على مر السنين كيف التهمها، قطعة وراء قطعة، حتى اختفت وأصبحت شبحًا.

حسبما أتذكر، انبثق الجانب المظلم لأمي من قبو منزلنا القديم في أوكلاند. كنت في الخامسة من عمري، وحاولت أمي إخفاء الأمر عني. سدت الباب بكرسي خشبي، وأغلقته بسلسلة ونوعين من الأقفال بمفاتيح مختلفة. بدا الأمر غامضًا إلى درجة أنني بذلت كل طاقتي في محاولة فتح هذا الباب، حتى جاء اليوم الذي تمكنت فيه أخيرًا من فتحه بأصابعي الصغيرة، لأسقط على الفور في الهوة المظلمة. وعندما توقفتُ عن الصراخ - رأيت الدماء النازفة من أنفي على كتف أمي - حينها فقط أخبرتني أمي عن الرجل الشرير الذي يعيش في القبو، ولماذا لا يجب أن أفتح ذلك الباب مرة أخرى. قالت إنه عاش هناك لآلاف السنين، وكان شريرًا وجائعًا إلى درجة أنه لو لم تنقذني أمي بسرعة، لزرع خمسة أطفال في داخلي، ثم التهمنا جميعًا في وجبة مكونة من ستة أطباق، وألقى عظامنا على الأرض القذرة.

بعد ذلك، بدأت أرى أشياء مرعبة. كنت أراها بعينَي الصينيتين، الجزء الذي ورثته من أمي. رأيت الشياطين ترقص بجنون تحت حفرة حفرتها في صندوق الرمل، ورأيت أن للبرق عينين، يبحث بهما عن الأطفال الصغار ليصيبهم، ورأيت خنفساء بوجه طفل، سحقتها بسرعة بعجلة دراجتي ثلاثية العجلات. وعندما كبرت، أصبحت أرى أشياء لم تكن تراها الفتيات البيض في المدرسة: حلقات التأرجح التي تنقسم فجأة إلى نصفين، فتقذف بالطفلة المتأرجحة في الهواء، والكرات التي قد تصطدم برأس فتاة فيتناثر دماغها على أرض الملعب وسط ضحكات الصديقات.

لم أخبر أحدًا بما رأيته، ولا حتى أمي. لم يكن أغلب الناس يعرفون أنني نصف صينية، ربما لأن اسم عائلتي هو سانت كلير. وعندما يراني الناس لأول مرة، يعتقدون أنني أشبه أبي، الإنجليزي-الأيرلندي، ضخم البنية وناعم الملامح في آنٍ واحد. لكن إذا دققوا جيدًا، وإذا عرفوا بوجودها، فسيمكنهم رؤية الملامح الصينية. فبدلًا من أن تكون لي وجنتان مثل وجنتَي أبي الحادتين، بدت وجنتاي ناعمتين مثل الحصى على الشاطئ. كما لم يكن لديَّ شعره الأصفر كالقش أو بشرته البيضاء، لكن لون بشرتي بدا شاحبًا جدًّا، كأنه كان أغمق في السابق ثم بهت تحت أشعة الشمس.

أما عيناي فقد وهبتني أمي عينَي، بلا جفون، كما لو أنهما نُحتتا على وجه مصباح من اليقطين بضربتين سريعتين من سكين قصيرة. كنت أدفع جانبَي عينَي إلى الداخل لأجعلهما مستديرتين، أو أفتحهما على اتساعهما حتى أتمكن من رؤية الأجزاء البيضاء. لكن عندما كنت أمشي في البيت بهذا الشكل، كان أبي يسألني لماذا أبدو خائفة إلى هذا الحد.

لديَّ صورة لأمي وقد بدت عليها نفس تلك النظرة الخائفة. قال أبي إن الصورة التُقطت عندما خرجت أمي لأول مرة من مركز الهجرة في جزيرة أنجيل. مكثت هناك لمدة ثلاثة أسابيع، حتى يتمكنوا من معالجة أوراقها وتحديد ما إذا كانت عروس حرب، أم نازحة، أم طالبة، أم زوجة مواطن أمريكي من أصل

صيني. قال أبي إنه لم تكن لديهم قواعد واضحة للتعامل مع الزوجة الصينية لمواطن قوقازي. وفي النهاية، بطريقة ما، أعلنوا أنها نازحة، ضائعة في بحر من تصنيفات الهجرة.

لم تتحدث أمي قَطُّ عن حياتها في الصين، لكن أبي قال إنه أنقذها من حياة مروعة هناك، من مأساة لم تستطع التحدث عنها. وبكل فخر، أسماها أبي في أوراق الهجرة باسم «بيتي سانت كلير»، بعد أن شطب اسمها الأصلي «غو ينغ-ينغ». ثم كتب سنة ميلادها على نحو خطأ: ١٩١٦ بدلًا من ١٩١٤. وهكذا، بجرة قلم، فقدت أمي اسمها وأصبحت من مواليد برج التنين بدل النمر.

في هذه الصورة، يمكنك أن تفهم لماذا تبدو أمي كأنها لا تنتمي إلى أي مكان. كانت تمسك حقيبة كبيرة على شكل صدفة، كما لو أن أحدًا قد يسرقها منها إذا لم تلتزم بما يكفي من الحذر. كانت ترتدي فستانًا صينيًّا يصل إلى الكاحل، بفتحات جانبية بسيطة، وارتدت فوقه سترة غريبة الطراز، بدت أنيقة بشكل غريب على جسد أمي الضئيل، بكتفين مبطنتين، وياقة عريضة، وأزرار قماشية كبيرة الحجم. كان هذا ثوب زفافها، هدية من أبي. بدت في ذلك الزي كأنها بلا وجهة، لا قادمة من مكان ولا متجهة إلى مكان. كما مال ذقنها نحو الأسفل، بحيث ظهر الفرق الدقيق في شعرها، خط أبيض مرسوم بدقة من فوق حاجبها الأيسر، يعبر الأفق الأسود لرأسها.

وعلى الرغم من أن رأسها بدا محنيًّا، في خضوع وهزيمة، فإن عينيها كانتا تحدقان إلى ما وراء الكاميرا، مفتوحتين عن آخرهما.

سألتُ أبي:

- لماذا تبدو خائفة؟

فأوضح أبي أن السبب الوحيد لذلك هو أنه طلب منها الابتسام، بينما كانت أمي تجاهد لإبقاء عينيها مفتوحتين حتى انطلق وميض الكاميرا بعد عشر ثوانٍ.

كثيرًا ما كانت أمي تبدو هكذا، كأنها تنتظر حدوث شيء ما، وقد ارتسمت

على ملامحها تلك النظرة الخائفة، لكنها خسرت لاحقًا المعركة من أجل إبقاء عينيها مفتوحتين.

* * *

قالت أمي بينما كنا نسير في الحي الصيني في أوكلاند:

- لا تنظري إليها.

أمسكَت يدي وجذبتني إليها، لكنني نظرت بالطبع، فرأيت امرأة جالسة على الرصيف، متكئة على مبنى. بدت عجوزًا وشابة في نفس الوقت، بعينين منطفئتين كأنها لم تنَم منذ سنوات طويلة. وكانت أطراف قدميها ويديها سوداء، كأنها غمستها في حبر هندي، لكنني أدركت أنها مصابة بالغرغرينا.

همست قائلة لأمي:

- ماذا فعلت بنفسها؟

أجابت أمي:

- التقت رجلًا سيئًا، وأنجبت طفلًا لا تريده.

كنت أعلم أن هذا غير صحيح، وأن أمي تختلق أي شيء كي تحذرني، وتساعدني على تجنُّب خطر مجهول. اعتادت أمي رؤية الخطر في كل شيء، حتى في الصينيين الآخرين. كان الجميع في المنطقة التي نعيش فيها يتحدثون الكانتونية أو الإنجليزية، أما أمي فكانت من ووشي، قرب شنغهاي، لذا كانت تتحدث الماندرين وقليلًا من الإنجليزية. وقد أصر أبي، الذي لا يعرف إلا بعض التعبيرات الصينية المحدودة، على أن تتعلم أمي الإنجليزية. لذلك كانت تتواصل معه من خلال تعابير الوجه والإيماءات والنظرات والصمت، وأحيانًا بالإنجليزية التي يمتزج معها التردد والإحباط الصيني: شوو بو تشو لاي، لا أستطيع التعبير. لذا اعتاد أبي وضع الكلمات على لسانها.

كان يهمس إليَّ عندما يصير مزاج أمي متقلبًا:

- أعتقد أن ماما تحاول القول إنها متعبة.

وكان يهتف عندما تطهو لنا وجبة شهية ذكية الرائحة:

- أعتقد أنها تقول إننا أفضل عائلة في البلاد!

لكن معي، عندما نصير وحدنا، اعتادت أمي الحديث بالصينية، قائلة أشياء لم يكن أبي ليتخيلها. كنت أفهم الكلمات تمامًا، لكنني لم أفهم معانيها. كانت فكرة تقود إلى الأخرى، من دون أي رابط بينها.

حذرتني أمي عندما قررَت أنني أصبحت كبيرة بما يكفي للسير بمفردي:

- يجب ألا تمشي في أي اتجاه سوى للذهاب إلى المدرسة والعودة إلى المنزل.

سألتها:

- لماذا؟

قالت:

- لا يمكنكِ فهم هذه الأمور.

- لِمَ لا؟

- لأنني لم أغرسها في ذهنكِ بعد.

- لِمَ لا؟

- آي-ياه! يا لها من أسئلة! لأن الأمر أفظع من أن يفكر المرء فيه. قد يأتي رجل ويختطفكِ من الشارع، ثم يبيعكِ لشخص آخر، ويجبرك على إنجاب طفل. ساعتها ستقتلين الطفل، وعندما يعثرون على هذا الطفل في سلة المهملات، ما الذي يمكن فعله حينها؟ ستدخلين السجن، وتموتين هناك.

كنت أعلم أن هذه ليست إجابة صحيحة، لكنني اعتدت اختلاق الأكاذيب أيضًا لتفادي وقوع أشياء سيئة في المستقبل. كثيرًا ما كنت أكذب عندما يتعين عليَّ الترجمة لها: الاستمارات التي لا تنتهي، والتعليمات، والإشعارات من المدرسة، والمكالمات الهاتفية. سألتني عندما صرخ في وجهها رجل في متجر بقالة لأنها فتحت البرطمانات لتشم ما بداخلها:

- شِمَّا بي سه؟ ماذا يعني؟

شعرتُ بالحرج الشديد إلى درجة أنني أخبرتها بأن الصينيين ممنوعون من التسوق هناك. وعندما أرسلت المدرسة إشعارًا إلى المنزل بشأن التطعيم ضد شلل الأطفال، أخبرتها بالموعد والمكان، وأضفت أن جميع الطلاب مطالبون الآن باستخدام صناديق غداء معدنية، لأنهم اكتشفوا أن الأكياس الورقية القديمة يمكن أن تنقل فيروس شلل الأطفال.

* * *

أعلن والدي بفخر، بمناسبة ترقيته إلى مشرف مبيعات في شركة لصناعة الملابس:

– لقد ارتقينا في الحياة، لذا تشعر أمك بسعادة بالغة.

وقد ارتقينا بالفعل، إذ إننا انتقلنا وعبرنا الخليج إلى سان فرانسيسكو، أعلى تلة في نورث بيتش، إلى حي إيطالي، حيث كان الرصيف شديد الانحدار، إلى درجة أنني اضطررت إلى الانحناء إلى الأمام كل يوم عند العودة من المدرسة إلى المنزل. كنت في العاشرة من عمري، وأملت أن نتمكن من ترك كل المخاوف القديمة وراءنا في أوكلاند.

كان المبنى الذي انتقلنا إليه مكونًا من ثلاثة طوابق، شقتان في كل طابق. وقد جُددت واجهته حديثًا، بطبقة من الجص الأبيض تعلوها صفوف متصلة من السلالم المعدنية للنجاة من الحرائق. لكنه كان قديمًا من الداخل، والباب الأمامي بألواحه الزجاجية الضيقة ينفتح على ردهة عطنة تعبق برائحة حياة الجميع مختلطة معًا، والمقصود بكلمة «الجميع» الأسماء المكتوبة على الباب الأمامي بجانب أزرار الأجراس الصغيرة: أندرسون، وجيوردينو، وهايمان، وريتشي، وسورشي، واسمنا؛ سانت كلير. كنا نسكن في الطابق الأوسط، محصورين بين روائح الطبخ التي تتصاعد إلى الأعلى، ووقع الأقدام التي تهبط إلى الأسفل. وقد أطلت غرفة نومي على الشارع، ووسط الظلام ليلًا، كنت أرى في خيالي حياة أخرى: سيارات تجاهد لصعود التل شديد الانحدار الذي يلفه الضباب، ومحركاتها القوية تعمل بجهد بينما عجلاتها تدور، وأناس صاخبون سعداء،

يضحكون ويلتقطون أنفاسهم بصعوبة ويلهثون قائلين: «هل شارفنا على الوصول بعد؟»، وكلب من فصيلة البيجل ينتفض واقفًا ليبدأ نباحه المزعج، لتجيبه بعد ثوانٍ صافرة سيارة الإطفاء وصوت امرأة غاضبة تهمس: «سامي! يا لك من كلب سيئ! اصمت الآن!»، ومع كل هذه الأمور المتوقعة الباعثة على الارتياح، سرعان ما كنت أغفو.

لم تكن أمي راضية عن الشقة، لكنني لم ألاحظ ذلك في البداية. عندما انتقلنا إلى هناك، انشغلَت بالاستقرار، وترتيب الأثاث، وإخراج الأطباق من الصناديق، وتعليق الصور على الجدار. استغرق الأمر منها أسبوعًا تقريبًا، وبعد ذلك بوقت قصير، عندما كنت أسير أنا وهي إلى محطة الحافلات، قابلت رجلًا أربكها.

كان رجلًا صينيًّا أحمر الوجه، يترنح على الرصيف كأنه تائه. لمحنا بعينيه الدامعتين، ففرد قامته بسرعة ومد ذراعيه صائحًا:

- لقد وجدتك! سوزي وونغ، فتاة أحلامي! هاه!

واندفع نحونا فاتحًا ذراعيه وفاغرًا فمه عن آخره. أفلتت أمي يدي، وغطت جسدها بذراعيها كما لو كانت عارية، عاجزة عن فعل أي شيء آخر. في تلك اللحظة التي أفلتتني فيها، بدأت أصرخ، وأنا أرى هذا الرجل الخطير يقترب أكثر. وكنت لا أزال أصرخ بعد أن أمسك رجلان ضاحكان هذا الرجل، وهزاه قائلين:

- جو، توقف، بحق السماء. أنت تخيف تلك الفتاة المسكينة وخادمتها.

لبقية ذلك اليوم، في أثناء ركوب الحافلة، والدخول والخروج من المتاجر، والتسوق لشراء طعام العشاء، ظلت أمي ترتجف. أمسكت يدي بقوة حتى آلمتني، وفي إحدى المرات، عندما تركت يدي لتخرج محفظتها من حقيبتها عند صندوق الدفع، بدأتُ أنسل بعيدًا لألقي نظرة على الحلوى، فأمسكَت يدي مجددًا بسرعة شديدة، إلى درجة أنني أدركت في تلك اللحظة مدى أسفها لأنها لم تحمِني بشكل أفضل.

بمجرد عودتنا إلى المنزل بعد التسوق، بدأَت ترتب المعلبات والخضراوات. ثم أنزلت المعلبات من أحد الرفوف، ووضعت مكانها المعلبات الموجودة فوق

رف آخر، كأن شيئًا ما ليس على ما يرام. بعد ذلك، توجهَت بخطى سريعة إلى غرفة المعيشة ونقلت مرآة كبيرة مستديرة من الجدار المواجه للباب الأمامي إلى جدار بجانب الأريكة.

سألتها:

- ماذا تفعلين؟

همست شيئًا بالصينية عن «اختلال توازن الأشياء»، فظننتها تعني مظهر الأشياء، وليس شعورها تجاهها. ثم بدأت تحرك القطع الأكبر: الأريكة، والكراسي، والطاولات الجانبية، ولوحة صينية مرسومة عليها أسماك ذهبية.

سأل والدي عندما عاد من العمل:

- ما الذي يجري هنا؟

قلت:

- إنها تُجمل مظهر المكان.

وفي اليوم التالي، عندما عدت من المدرسة، رأيت أنها أعادت ترتيب كل شيء مرة أخرى، حيث كان كل شيء في مكان مختلف، فأدركتُ أن خطرًا رهيبًا يقترب.

سألتها وأنا أخشى أن تعطيني إجابة صادقة:

- لماذا تفعلين هذا؟

لكن بدلًا من ذلك، همسَت ببعض الهراء بالصينية فحسب:

- عندما يتعارض شيء ما مع طبيعتك، فإنك لا تكونين في حالة توازن. بُني هذا المنزل على منحدر شديد للغاية، وتتسبب الرياح السيئة التي تهب من الأعلى في دفع كل قوتك إلى سفح التل، لذا لا يمكنك التقدم أبدًا، بل دائمًا ما تتراجعين إلى الوراء.

ثم بدأت تشير إلى جدران وأبواب الشقة، وتابعت:

- انظري إلى مدى ضيق هذا المدخل، كأنه عنق تعرض للاختناق. كما أن المطبخ يواجه هذا المرحاض، لذا فإن كل قيمتك تنجرف وتذهب هباءً.

سألتُ أمي:

- لكن ماذا يعني ذلك؟ ماذا سيحدث إن لم يتحقق التوازن؟

أوضح لي أبي الأمر لاحقًا:

- أمك تمارس غريزة الأمومة التي تدفعها إلى إعادة ترتيب المنزل فحسب. جميع الأمهات يفعلن ذلك. ستفهمين ذلك عندما تكبرين.

تساءلتُ لماذا لم يشعر أبي بالقلق قَطُّ؟ هل كان أعمى؟ لماذا رأيتُ أنا وأمي شيئًا أكثر؟

بعد بضعة أيام، اكتشفتُ أن أبي كان محقًّا منذ البداية. عدت من المدرسة ودخلت غرفة نومي، ورأيت ذلك. أعادت أمي ترتيب غرفتي، فلم يَعُد فراشي بجانب النافذة، بل أصبح ملتصقًا بالجدار. وفي المكان الذي كان فيه فراشي سابقًا، صار هناك مهد مستعمل. لذا كان الخطر الخفي هو تضخم البطن، مصدر عدم التوازن الذي عانته أمي. كانت أمي حاملًا.

قال أبي ونحن ننظر إلى المهد:

- أرأيتِ؟ إنها غريزة الأمومة. هذا هو العش الذي سيحتوي الطفل.

بدا سعيدًا للغاية بذلك الطفل المتخيل في مهده، حتى إنه لم يرَ ما رأيته أنا لاحقًا: بدأت أمي تصطدم بالأشياء، وبحواف الطاولات، كأنها نسيت أن بطنها يحمل طفلًا، كأنها تتجه نحو المتاعب بدلًا من ذلك. لم تتحدث عن فرحة ولادة طفل جديد، بل تحدثت عن الثقل الذي يحيط بها، وعن اختلال توازن الأشياء وعدم انسجامها. فبدأت أقلق بشأن ذلك الطفل، وبكونه عالقًا في مكان ما بين بطن أمي وهذا المهد في غرفتي.

مع انتقال فراشي إلى جانب الجدار، تغير نمط الحياة الليلية التي أتخيلها. بدلًا من أصوات الشارع، بدأت أسمع أصواتًا قادمة عبر الجدار، من الشقة المجاورة. وفقًا لجرس الباب الأمامي، كانت العائلة القاطنة هناك تدعى آل سورشي.

في تلك الليلة الأولى سمعت صوت صراخ مكتوم. امرأة؟ فتاة؟ ألصقت أذني بالجدار فسمعت صوت امرأة غاضبة، ثم صوتًا آخر، صوتًا أعلى لفتاة تصرخ ردًّا

عليها. ثم بدأت الأصوات تتجه نحوي، كأنها صافرات سيارات إطفاء تتجه إلى شارعنا، وسمعت الاتهامات المتبادلة وهي تتلاشى ثم تعود مجددًا: من أكون حتى أنتقد الأمر!... لماذا تزعجينني باستمرار؟... ارحلي إذن، وابقي بعيدًا!... أُفضِّل الموت، أفضل لو أنني مت!... لِمَ لا تموتين إذن!

بعد ذلك سمعت أصوات احتكاك، وارتطام، ودفع وصيحات، ثم طاخ! طاخ! طاخ! كان هناك من يرتكب جريمة قتل، وشخص ما يتعرض للقتل. سمعت صراخًا وصيحات: أُمٌّ ترفع سيفًا فوق رأس فتاة، وتشرع في تمزيق حياتها قطعة وراء أخرى، جديلتها أولًا، ثم فروة رأسها، ثم حاجبها، وإصبع قدمها، وإبهامها، وجانب وجنتها، وانحناءة أنفها، حتى لم يتبقَّ أي شيء، ولا أي صوت.

استلقيت على وسادتي، وقلبي ينبض بقوة مما شهدته بأذني وخيالي. لقد قُتلت فتاة للتو. لم أستطع منع نفسي من الاستماع، ولم أستطع منع ما حدث. يا له من رعب!

لكن في الليلة التالية، عادت الفتاة إلى الحياة مع مزيد من الصراخ، ومزيد من الضرب، وحياتها في خطر مرة أخرى. وهكذا استمر الأمر، ليلة بعد ليلة، وصوت يضغط على جداري ويخبرني بأن هذا هو أسوأ ما يمكن حدوثه: الرعب من عدم معرفة متى سينتهي الأمر.

أحيانًا كنت أسمع تلك العائلة الصاخبة عبر الممر الفاصل بين بابَي شقتينا. كانت شقتهم بجوار الدرج المؤدي إلى الطابق الثالث، أما شقتنا فكانت بجوار الدرج المؤدي إلى الردهة.

صاحت امرأة:

- إذا كسرتِ ساقيك وأنت تنزلقين على الدرابزين، فسأكسر عنقك!

تبع تحذيراتها وقع أقدام تطأ الدرج بقوة، بينما واصلت قائلة:

- ولا تنسي استلام بدلات أبيكِ!

كنت أعرف حياتهم المروعة بشكل وثيق، إلى درجة أنني فوجئت عند رؤيتها

شخصيًّا لأول مرة. انشغلتُ بغلق الباب الأمامي بينما أحمل كومة من الكتب بين ذراعَي، وعندما استدرت، رأيتها قادمة نحوي على بُعد خطوات قليلة، فصرختُ وأسقطت كل شيء. ضحكَت بسخرية، وعندها عرفت من تكون، تلك الفتاة الطويلة التي خمنتُ أنها في الثانية عشرة من عمرها، أكبر مني بسنتين. ثم اندفعَت مسرعة إلى أسفل الدرج، فسارعتُ بجمع كتبي وتبعتها، وحرصتُ على السير على الجانب الآخر من الطريق.

لم تبدُ كفتاة قُتلت مائة مرة: لم أرَ آثار دماء على ملابسها. كانت ترتدي بلوزة بيضاء ناصعة، وسترة زرقاء، وتنورة ذات طيات لونها أخضر مائل إلى الزرقة. في الواقع، بينما كنت أراقبها، بدت سعيدة للغاية، وجديلتاها البنيتان تتمايلان بخفة مع خطواتها. ثم أدارت رأسها ورمقتني بنظرة غاضبة، كأنها شعرت بأنني أفكر فيها، واختفت بسرعة في شارع جانبي وابتعدت عن نظري.

كلما رأيتها بعد ذلك، كنت أتظاهر بأنني أنظر إلى الأسفل، مشغولة بإعادة ترتيب كتبي أو بأزرار سترتي، وأنا أشعر بالذنب لأنني أعرف كل شيء عنها.

* * *

ذات يوم، اصطحبني صديقا والدَي عمتي سو وعمي كانينغ من المدرسة، وأخذاني إلى المستشفى لرؤية أمي. أدركت أن الأمر خطير، لأن كل ما قالاه بدا غير ضروري، لكنهما نطقاه بنبرة من الجدية والأهمية.

قال عمي كانينغ وهو ينظر إلى ساعته:

- الساعة الآن الرابعة.

فقالت عمتي سو:

- الحافلة لا تصل في موعدها أبدًا.

عندما زرت أمي في المستشفى، بدت نصف نائمة، تتقلب من جانب إلى آخر، ثم فتحت عينيها عن آخرهما، وحدقت إلى السقف.

أخذت تهذي قائلة:

- هذا خطئي، خطئي، كنت أعرف هذا قبل وقوعه، ولم أفعل شيئًا لمنعه.

قال أبي بنبرة محمومة:

- بيتي يا حبيبتي، بيتي يا حبيبتي!

لكن أمي ظلت تردد هذه الاتهامات التي وجهتها إلى نفسها. ثم أمسكَت يدي، وأدركتُ أن جسدها بأكمله يرتجف. رمقتني بنظرة غريبة، كأنها تتوسل إليَّ كي أرحمها، كأنني أستطيع العفو عنها، وأخذَت تهمهم بالصينية.

صاح أبي:

- ماذا تقول يا لينا؟

ولأول مرة، لم تكن لديه كلمات ليضعها على لسان أمي.

ولأول مرة، لم تكن لديَّ إجابة جاهزة. خطر لي أن أسوأ شيء يمكن حدوثه قد وقع بالفعل، وأن ما كانت تخشاه قد تحقق، ولم يَعُد مجرد تحذيرات، لذا استمعتُ إليها.

غمغمَت قائلة:

- عندما أصبح الطفل على وشك الولادة، سمعت صراخه داخل رحمي. تشبثت بي أصابعه الصغيرة كي يبقى بالداخل، لكن الممرضات والطبيب طلبوا مني دفعه إلى الخارج، وإجباره على الخروج. وعندما ظهر رأسه، صاحت الممرضات: «عيناه مفتوحتان على اتساعهما! إنه يرى كل شيء!»، ثم انزلق جسده، واستلقى على الطاولة، ينبض بالحياة.

وعندما نظرت إليه، رأيت الأمر على الفور: ساقاه الصغيرتان، وذراعاه الصغيرتان، وعنقه النحيل، ثم رأسه الكبير المرعب الذي لم أستطع التوقف عن النظر إليه. كانت عينا هذا الطفل مفتوحتين، ورأسه... كان مفتوحًا أيضًا! كانت بإمكاني رؤية الجزء الخلفي من رأسه، حيث من المفترض أن تكون أفكاره، ولم يكن هناك أي شيء. صاح الطبيب: «لا يوجد دماغ!». كان رأسه مجرد قشرة بيضة فارغة!

بعد ذلك، ربما سمعنا هذا الطفل، حيث بدا أن رأسه الكبير امتلأ بالهواء

الساخن وارتفع عن الطاولة. استدار الرأس إلى جانب، ثم إلى الجانب الآخر، ونظر خلالي مباشرة. أدركت أنه يستطيع رؤية كل ما بداخلي: كيف أنني لم أكترث لقتل ابني الآخر، وكيف لم أعبأ بإنجاب هذا الطفل!

لم أستطع إخبار أبي بما قالته، فقد غلبه الحزن الشديد بالفعل، وهو يحمل في ذهنه صورة ذلك المهد الفارغ. كيف لي أن أخبره بأنها فقدت عقلها؟

لذا، كان هذا ما ترجمته له:

- تقول إنه يجب علينا جميعًا أن نفكر جيدًا قبل إنجاب طفل آخر، وتقول إنها تأمل أن يكون هذا الطفل سعيدًا في العالم الآخر، وتعتقد أننا يجب أن نغادر الآن ونذهب لتناول العشاء.

بعد وفاة الطفل، انهارت أمي، ليس دفعة واحدة، بل جزءًا تلو الآخر، كأطباق تتساقط من فوق الرف واحدًا وراء واحد. لم أكن أعرف متى سيحدث ذلك، لذا شعرتُ بالتوتر طوال الوقت، في انتظار حدوثه.

أحيانًا كانت تبدأ في إعداد العشاء، لكنها تتوقف في منتصفه، والماء يتدفق بقوة في الحوض، وسكينها مرفوعة في الهواء فوق الخضراوات نصف المقطعة، صامتة، ودموعها تنهمر. وأحيانًا نكون قد بدأنا في تناول الطعام، لكننا نضطر إلى التوقف ووضع الشوك جانبًا، لأنها تضع وجهها بين كفيها وتقول:

- ميي غوان شي. لا يهم.

وكان أبي يجلس وهو يحاول استيعاب ما الذي لم يكن مهمًّا إلى هذه الدرجة. أما أنا فكنت أغادر الطاولة، وأنا أدرك أن هذا سيحدث مجددًا، وأنه دائمًا ما ستكون هناك مرة قادمة.

بدا والدي كأنه ينهار بطريقة مختلفة. حاول تحسين الوضع، لكن الأمر بدا كأنه يهرع محاولًا التقاط الأشياء قبل سقوطها، إلا أنه هو نفسه كان يسقط قبل أن يتمكن من التقاط أي شيء.

بينما كنا نتناول العشاء في مطعم «جولد سبايك»، نحن الاثنين فقط، لأن أمي كانت مستلقية كتمثال على فراشها، أوضح لي قائلًا:

- إنها متعبة فحسب.

أدركت أنه منشغل بالتفكير فيها، لأن القلق بدا على وجهه، وهو يحدق إلى طبق عشائه كما لو كان ممتلئًا بالديدان بدلًا من السباجيتي.

في المنزل، كانت أمي تنظر إلى كل شيء من حولها بعينين خاويتين. كان أبي يعود من العمل، ويربت على رأسي قائلًا:

- كيف حال فتاتي الكبيرة؟

لكنه دائمًا ما كان ينظر ورائي، تجاه أمي. وقد سكنت بداخلي مخاوف كبيرة، ليس في رأسي بل في معدتي. لم أعد أرى ما يخيفني، لكنني شعرت به. شعرت بكل حركة صغيرة في منزلنا الصامت، وفي الليل سمعت الشجارات الصاخبة على الجانب الآخر من جدار غرفتي، تلك الفتاة التي تُضرب حتى الموت. تساءلت وأنا ممددة في فراشي وحافة البطانية تغطي عنقي: أيهما أسوأ، جانبنا أم جانبهم؟ وعقب التفكير في الأمر لفترة، وبعد الشعور بالشفقة على ذاتي، شعرت بالعزاء نوعًا ما عندما فكرت في أن تلك الفتاة في الشقة المجاورة تعيش حياة أكثر بؤسًا.

لكن ذات ليلة بعد العشاء، رن جرس بابنا. بدا هذا غريبًا، لأن الناس عادة ما كانوا يدقون الجرس في الطابق السفلي أولًا.

نادى أبي من المطبخ:

- لينا، هل يمكنكِ أن تري من الطارق؟

كان يغسل الأطباق، بينما أمي مستلقية في الفراش. صارت أمي «ترتاح» على الدوام، كأنها ماتت وتحوَّلت إلى شبح حي.

فتحت الباب بحذر، ثم فتحته على مصراعيه بدهشة. كانت الفتاة التي تسكن في الشقة المجاورة. حدقت إليها بدهشة واضحة، فابتسمت إليَّ، وبدت هيئتها مشعثة، كما لو أنها سقطت من الفراش وهي مرتدية ملابسها.

نادى أبي:

- من هناك؟

صحت ردًّا عليه:

- إنها جارتنا! إنها...

قالت بسرعة:

- تيريزا.

صحت قائلة لأبي:

- إنها تيريزا!

قال أبي:

- ادعيها للدخول.

وفي نفس اللحظة تقريبًا تجاوزتني تيريزا ودخلت شقتنا. من دون أن تنتظر الدعوة، توجهت نحو غرفتي، فأغلقتُ الباب الأمامي وتبعتُ جديلتيها البنيتين اللتين كانتا تتأرجحان مثل سوطين يجلدان ظهر حصان.

توجهَت نحو نافذتي مباشرة، وبدأت تفتحها، فصحتُ:

- ما الذي تفعلينه؟

جلسَت على حافة النافذة، ونظرَت إلى الشارع، ثم نظرت إليَّ وبدأت تضحك. جلستُ على فراشي أراقبها، أنتظر أن تتوقف، بينما الهواء البارد يتسلل من الفتحة المظلمة.

أخيرًا، قلت:

- ما الذي يضحكك؟

خطر لي أنها ربما كانت تضحك عليَّ، وعلى حياتي. ربما كانت تستمع من خلال الجدار ولم تسمع شيئًا، سوى الصمت الرتيب في منزلنا التعيس.

سألتها بإلحاح:

- لماذا تضحكين؟

أخيرًا قالت:

- لقد طردتني أمي.

تحدثت بتباهٍ، كأنها فخور بهذا الأمر، ثم ضحكت قليلًا وقالت:

- لقد تشاجرنا، فدفعتني خارج الباب وأقفلته. والآن تعتقد أنني سأنتظر خارج الباب حتى أشعر بالندم وأعتذر، لكنني لن أفعل.

سألتها لاهثة، وأنا واثقة بأن والدتها ستقتلها بالفعل هذه المرة:

- إذن ما الذي ستفعلينه؟

أجابت هامسة:

- سأستخدم سلم الحريق الخاص بكِ لأعود إلى غرفة نومي، وستظل هي تنتظر. وعندما تشعر بالقلق، ستفتح الباب الأمامي، لكنني لن أكون هناك! سأكون في غرفة نومي، في الفراش.

ضحكَت مرة أخرى.

- ألن تغضب عندما تجدك؟

- نعم، ستشعر بالسعادة فحسب لأنني لم أمت، أو شيء من هذا القبيل. أوه، ستتظاهر بالغضب، نوعًا ما. دائمًا ما نتصرف على هذا النحو.

بعد ذلك، تسللت عبر نافذتي وعادت إلى بيتها في صمت.

حدقتُ طويلًا إلى النافذة المفتوحة، متسائلة بشأنها. كيف يمكنها العودة؟ ألم ترَ مدى فظاعة حياتها؟ ألم تدرك أن هذا لن يتوقف أبدًا؟

استلقيت على فراشي في انتظار سماع الصراخ والصياح. وفي وقت متأخر من الليل، كنت لا أزال مستيقظة عندما سمعت الأصوات العالية من الشقة المجاورة. كانت السيدة سورشي تصرخ وتبكي: «أيتها الفتاة الغبية، كدت تتسببين في إصابتي بنوبة قلبية!»، بينما ردت عليها تيريزا صارخة: «كان من الممكن أن أُقتل. كدت أسقط وأكسر عنقي». ثم سمعتهما تضحكان وتبكيان، وتبكيان وتضحكان، وتتبادلان الصياح بمحبة.

أصابني الذهول، وكدت أراهما تتعانقان وتتبادلان القبلات، وبكيت فرحًا معهما، لأنني كنت مخطئة.

ما زلت أحمل ذكرى ذلك الأمل الذي خفق في داخلي تلك الليلة. تمسكت بهذا

الأمل، يومًا بعد يوم، ليلة بعد ليلة، سنة بعد سنة. كنتُ أراقب أمي وهي مستلقية في فراشها، أو وهي تهذي بكلمات غير مفهومة وهي جالسة على الأريكة. ومع ذلك كنت أعلم أن هذا، وهو أسوأ شيء ممكن، سوف ينتهي يومًا ما. كانت الأمور السيئة لا تزال تتراءى لي في ذهني، لكنني وجدت طرقًا لتغييرها. وكانت الشجارات العنيفة بين السيدة سورشي وتيريزا لا تزال تصل إلى مسامعي، لكنني صرت أرى شيئًا آخر.

رأيت فتاة تشكو أن ألم كونها غير مرئية لا يُحتمل، ورأيت الأم مستلقية على فراشها بثوبها الطويل الفضفاض. ثم سحبت الفتاة سيفًا حادًّا وقالت لأمها:

- يجب إذن أن تموتي ميتة الألف طعنة، هذا هو الطريق الوحيد لإنقاذك.

تقبلت الأم هذا وأغمضت عينيها. نزل السيف وبدأ يقطع ذهابًا وإيابًا، صعودًا وهبوطًا، ووش! ووش! ووش! صاحت الأم وولولت، وصرخت رعبًا وألمًا، لكن عندما فتحت عينيها، لم ترَ أي دماء ولا أشلاء ممزقة.

قالت الفتاة:

- هل تفهمين الآن؟

أومأت الأم برأسها:

- صرت أفهم تمامًا الآن، لقد مررتُ بالفعل بأسوأ ما يمكن. بعد هذا، لا يوجد ما هو أسوأ.

قالت الابنة:

- يجب أن تعودي الآن إلى الجانب الآخر. عندها ستدركين لماذا كنتِ مخطئة.

وأمسكت الفتاة يد أمها، وجذبتها عبر الجدار.

روز شو جوردان

نصف ونصف

كدليل على إيمانها، اعتادت أمي حمل إنجيل صغير له غلاف من الجلد الصناعي عند ذهابها إلى الكنيسة المعمدانية الصينية الأولى كل أحد. لكن لاحقًا، بعد أن فقدت أمي إيمانها بالرب، انتهى الأمر بذلك الإنجيل محشورًا تحت رجل طاولة أقصر من اللازم، كوسيلة من جانبها لتصحيح اختلالات الحياة. وقد بقي هناك لأكثر من عشرين عامًا.

تتظاهر أمي بأن ذلك الإنجيل ليس موجودًا، وكلما سألها أحدهم عن سبب وجوده هناك، قالت، بصوت أعلى قليلًا من اللازم:

- آه، هذا؟ لقد نسيت أمره.

لكنني أعلم أنها تراه. فأمي ليست أفضل ربة منزل في العالم، ومع ذلك، بعد كل هذه السنين، لا يزال ذلك الإنجيل أبيضَ ناصعًا.

هذه الليلة، راقبت والدتي وهي تكنس تحت نفس الطاولة في المطبخ، وهو شيء تفعله كل ليلة بعد العشاء. دفعَت المكنسة برفق حول رجل الطاولة المرتكزة على الإنجيل، وراقبتها حركة بعد حركة، أنتظر اللحظة المناسبة لأخبرها عني وعن تيد، وأننا سوف نُطلِّق. عندما أخبرها، أعلم أنها ستقول: «هذا مستحيل».

وعندما أؤكد لها أن الأمر صحيح، وأن زواجنا قد انتهى بالفعل، أعلم ما الذي ستقوله أيضًا: «إذن يجب عليكِ إنقاذه».

وعلى الرغم من أنني أعلم أن الأمر ميؤوس منه - إذ لم يتبقَّ أي شيء على الإطلاق يمكن إنقاذه - فإنني أخشى أنها ستظل تقنعني بمحاولة الإصلاح إن أخبرتها بذلك.

* * *

أجد أنه من المفارقة أن أمي تريد مني مقاومة الطلاق. قبل سبعة عشر عامًا، شعرَت بالاستياء عندما بدأتُ مواعدة تيد. ولم تواعد شقيقتاي الأكبر سنًّا سوى فتيان صينيين من الكنيسة قبل زواجهما.

التقيت تيد في فصل دراسي عن سياسة البيئة، عندما انحنى نحوي وعرض عليَّ دفع دولارين مقابل مذكرات دروس الأسبوع الماضي. رفضتُ المال، وقبلت كوبًا من القهوة بدلًا من ذلك. كان ذلك خلال الفصل الدراسي الثاني لي في جامعة كاليفورنيا في بيركلي، حيث التحقت لدراسة الآداب، ثم حوَّلت تخصصي لاحقًا إلى الفنون الجميلة. أما تيد، فكان في سنته الثالثة في تخصص ما قبل الطب، وهو اختيار قال لي إنه اتخذه منذ أن شرَّح جنين خنزير في الصف السادس.

عليَّ الاعتراف أن ما جذبني إلى تيد في البداية هو تحديدًا تلك الأشياء التي جعلته مختلفًا عن أشقائي والأولاد الصينيين الذين واعدتهم من قبل: جرأته، وثقته بنفسه عند طلب الأشياء وتوقع الحصول عليها، وأسلوبه القاطع في التعبير عن آرائه، ووجهه الحاد وجسده النحيل، وقوة ذراعيه، وحقيقة أن والديه قد جاءا من تاريتاون في نيويورك، وليس من تيانجين في الصين.

لا بد أن أمي لاحظت هذه الاختلافات نفسها بعد أن جاء تيد ذات مساء لاصطحابي من منزل والدَي. وعندما عدت إلى المنزل، كانت أمي لا تزال مستيقظة تشاهد التلفزيون.

حذرتني أمي، كأنني عمياء بدرجة أكبر من أن ألاحظ الأمر:

- إنه أمريكي. واي غورن.

قلت:

- وأنا أيضًا أمريكية. وليس الأمر كأنني سأتزوجه أو شيء من هذا القبيل.

كانت لدى السيدة جوردان أيضًا بضع ملاحظات لتقولها. دعاني تيد عَرَضًا إلى نزهة عائلية، وهو اللقاء السنوي للعائلة الذي يُعقد في ملاعب البولو في حديقة «جولدن جيت». وعلى الرغم من أننا لم نتواعد إلا بضع مرات خلال الشهر الماضي - ولم يسبق أن نمنا معًا بالطبع، حيث كان كلانا يعيش في بيت أسرته - فقد قدمني تيد إلى جميع أقاربه بوصفي حبيبته، وهو الأمر الذي لم أكن أدركه حتى تلك اللحظة.

في وقت لاحق، عندما ذهب تيد ووالده للعب الكرة الطائرة مع الآخرين، أمسكت والدته يدي، وبدأنا نسير على العشب بعيدًا عن الحشد. ضغطَت على كفي بحرارة، لكنها لم تنظر إليَّ على الإطلاق.

قالت السيدة جوردان:

- أنا سعيدة جدًّا بلقائك أخيرًا.

أردت إخبارها بأنني لم أكن حبيبة تيد حقًّا، لكنها تابعت:

- أعتقد أنه من الجميل أنكِ وتيد تستمتعان بوقتكما معًا، لذا آمل ألا تسيئي فهم ما سأقوله.

ثم بدأت تتحدث بهدوء عن مستقبل تيد، وعن حاجته إلى التركيز على دراسته في الطب، وأنه سيمضي سنوات قبل أن يستطيع حتى التفكير في الزواج. وأكدت لي أنه ليس لديها أي تحامل على الأقليات، فهي وزوجها، الذي يملك سلسلة من متاجر المستلزمات المكتبية، يعرفان شخصيًّا العديد من الناس الطيبين من ذوي الأصول الشرقية والإسبانية وحتى السود. لكن تيد سيعمل في واحدة من تلك المهن حيث سيُحكم عليه وفقًا لمعايير مختلفة، من قِبل المرضى والأطباء الآخرين الذين قد لا يكونون متفهمين مثل آل جوردان.

قالت إنه من المؤسف جدًّا كيف أن بقية العالم على هذه الحال، خصوصًا في ظل عدم شعبية حرب فيتنام.

قلت بهدوء، على الرغم من أنني كنت على وشك الصراخ:

- سيدة جوردان، أنا لست فيتنامية. وليست لديَّ أي نية للزواج بابنك.

عندما أوصلني تيد إلى منزلي في ذلك اليوم، أخبرته بأنني لا أستطيع رؤيته مجددًا. حين سألني عن السبب، اكتفيت بهز كتفَي. وعندما ألح عليَّ، رويت له ما قالته والدته بالحرف، من دون تعليق.

صرخ، كأنني خائنة شاركت في المؤامرة ضده:

- هل ستكتفين بالجلوس هكذا، وتدعين أمي تقرر ما هو صائب؟

تأثرت لاستياء تيد الشديد.

شعرت بألم ظننته بداية الحب، وسألته:

- ماذا علينا أن نفعل؟

في تلك الأشهر الأولى، تمسكنا ببعضنا بشكل عبثي يبعث على السخرية، لأنه على الرغم من كل ما قالته أمي أو السيدة جوردان، لم يكن هناك في الحقيقة ما يمنعنا من رؤية بعضنا. وتحت وطأة مأساة متخيلة تحوم فوق رأسينا، أصبحنا لا نفترق، نصفان يشكّلان كيانًا واحدًا: اليين واليانغ. كنت الضحية، وهو البطل. دائمًا ما كنت في خطر، ودائمًا ما كان ينقذني. كنت أسقط، فيرفعني. بدا الأمر مزيجًا من النشوة والإرهاق، وكان التأثير العاطفي لفكرة الإنقاذ والخلاص إدمانًا لكلينا. وكانت هذه العلاقة، مثل أي شيء آخر مارسناه في الفراش، هي الطريقة التي نظهر بها الحميمية لبعضنا: اتحدنا معًا حيث كانت نقاط ضعفي بحاجة إلى الحماية.

ظللت أسأله:

- ماذا علينا أن نفعل؟

في غضون عام من لقائنا الأول، انتقلنا للعيش معًا. وقبل شهر من التحاق تيد بكلية الطب في جامعة كاليفورنيا في سان فرانسيسكو، تزوجنا في الكنيسة

الأسقفية، وجلست السيدة جوردان في المقعد الأمامي باكية كما هو متوقع من والدة العريس. وعندما أنهى تيد فترة تدريبه في تخصص الأمراض الجلدية، اشترينا منزلًا فيكتوريًّا متهالكًا مكونًا من ثلاثة طوابق، وله حديقة واسعة في منطقة آشبري هايتس. وساعدني تيد على إنشاء استوديو في الطابق السفلي، لأتمكن من العمل مساعدةَ إنتاجٍ مستقلة لدى فناني الجرافيك.

على مر السنين، كان تيد هو من يقرر إلى أين نذهب في العطلات، وهو من يقرر أي أثاث جديد ينبغي لنا شراؤه، وهو من قرر أننا ينبغي لنا تأجيل فكرة الإنجاب حتى ننتقل إلى حي أفضل. كنا نتناقش أحيانًا حول بعض هذه الأمور، لكننا كنا نعلم أن الأمر سينتهي دائمًا بقولي: «تيد، قرر أنت». بعد فترة، توقفت النقاشات، وصار تيد ببساطة هو من يقرر، ولم أفكر قَطُّ في الاعتراض. فضلت تجاهل العالم من حولي، منشغلة فقط بما هو أمامي: مسطرة T، وسكين الرسم الدقيقة، وقلم الرصاص الأزرق.

لكن في العام الماضي، تغيرت مشاعر تيد بشأن ما أسماه «اتخاذ القرار والمسؤولية». جاءت إليه مريضة جديدة تسأله عما يمكنها فعله حيال تلك الشعيرات الحمراء التي انتشرت على خديها. وعندما أخبرها بأنه يستطيع شفط الشعيرات الحمراء ليعيد إليها جمالها، صدقته. لكن بدلًا من ذلك، شفط عصبًا بطريق الخطأ، وسقط الجانب الأيسر من ابتسامتها، فرفعت عليه دعوى قضائية.

بعد أن خسر دعوى الإهمال الطبي - وهي الأولى له، والتي أدرك الآن أنها مثَّلت صدمة كبيرة له - بدأ يضغط عليَّ لاتخاذ القرارات. هل أظن أننا ينبغي أن نشتري سيارة أمريكية أم يابانية؟ هل علينا أن نغير التأمين مدى الحياة إلى التأمين المؤقت؟ ما رأيي في ذلك المرشح الذي يدعم الكونترا؟ وماذا عن فكرة الإنجاب؟

كنت أفكر مليًّا في الأمور، في الإيجابيات والسلبيات، لكن في النهاية يغلبني الارتباك الشديد، لعدم إيماني بوجود إجابة صحيحة واحدة، في حين أن هناك

العديد من الإجابات الخطأ. لذا كلما قلت: «قرر أنت»، أو «لا يهمني الأمر»، أو «الأمر سيان عندي»، كان تيد يجيبني بنبرته نافدة الصبر: «لا، قرري أنتِ. لا يمكنك أن تحظي بكلا الأمرين: عدم تحمُّل أي مسؤولية، ولا أي لوم».

شعرتُ بتغير الأمور بيننا. رُفع الحجاب الواقي، وبدأ تيد يضغط عليَّ في كل صغيرة وكبيرة. طلب مني اتخاذ القرار حتى في أتفه الأمور، كأنه يستفزني: طعام إيطالي أم تايلاندي؟ طبق واحد من المقبلات أم طبقان؟ أي نوع من المقبلات؟ هل ندفع ببطاقة ائتمان أم نقدًا؟ فيزا أم ماستر كارد؟

في الشهر الماضي، حين كان يستعد للسفر إلى لوس أنجلوس لحضور دورة في الأمراض الجلدية لمدة يومين، سألني إن كنت أرغب في مرافقته، ثم أضاف بسرعة، قبل أن أتمكن من قول أي شيء:

- لا بأس، أُفضل الذهاب وحدي.

وافقته قائلة:

- سيتيح لك هذا مزيدًا من الوقت للدراسة.

أجاب:

- لا، بل لأنكِ لا تستطيعين حسم أمرك أبدًا بخصوص أي شيء.

فاحتججت قائلة:

- لكن هذا فقط في الأمور التي لا أهمية لها.

قال بنبرة اشمئزاز:

- لا شيء مهمًّا بالنسبة إليكِ إذن.

- تيد، إذا أردتني أن أذهب، فسأذهب.

بدا الأمر كأن شيئًا ما انكسر بداخله.

- كيف تزوجنا في الأساس، بحق الجحيم؟ هل قلتِ «أقبل الزواج به» لمجرد أن القس قال لكِ «رددي بعدي؟». ماذا كنتِ ستفعلين بحياتك لو أنني لم أتزوجك؟ هل فكرتِ في ذلك يومًا؟

بدت هذه فجوة كبيرة في المنطق، بين ما قلته أنا وما قاله، حتى شعرتُ بأننا

مثل شخصين يقفان على قمتَي جبلين منفصلين، ينحنيان بتهور ليرمي أحدهما الآخر بالحجارة، غير مدركين للهوة الخطيرة التي تفصل بينهما.

لكنني أدرك الآن أن تيد كان يعرف تمامًا ما يقوله، وأراد أن يُريني الصدع، لأنه اتصل بي لاحقًا في ذلك المساء من لوس أنجلوس وقال إنه يريد الطلاق.

منذ رحيل تيد، وأنا أفكر: حتى لو توقعت ذلك، وحتى لو كنت أعلم تمامًا ما سأفعله بحياتي، كان ذلك الخبر سيجعلني أفقد توازني.

عندما يصيبك أمر بهذه القسوة، لا يسعك إلا أن تفقدي توازنك وتسقطي. وبعد أن تنهضي مجددًا، تدركين أنك لا تستطيعين الثقة بأحد كي ينقذك: لا زوجك، ولا أمك، ولا حتى الرب. ما الذي يمكنك فعله إذن، لمنع نفسك من الميل والسقوط مرة أخرى؟

* * *

ظلت أمي تؤمن بمشيئة الرب لسنوات طويلة، وبدا الأمر كما لو أنها فتحت صنبورًا سماويًّا تتدفق منه الخيرات بلا انقطاع. قالت إن الإيمان هو ما جعل كل هذه الأشياء الجيدة تتدفق في طريقنا، لكنني ظننت أنها تعني القدر.

لاحقًا، اكتشفتُ أن ذلك ربما كان قدرًا منذ البداية، وأن الإيمان ما هو إلا وهم يعطيك إحساسًا زائفًا بالسيطرة على مقاليد الأمور بطريقة ما. اكتشفتُ أن أقصى ما يمكنني أن أنعم به هو الأمل، ومع هذا لم أنكر أي احتمال، سواء كان جيدًا أم سيئًا. كنت فقط أقول: إن كان هناك خيار، يا إلهي أو أيًّا كنت، فينبغي أن ترجح الكفة هنا.

أتذكر اليوم الذي بدأت فيه أفكر بهذه الطريقة: بدا ذلك أمرًا كاشفًا بدرجة كبيرة بالنسبة إليَّ. كان ذلك اليوم الذي فقدت فيه أمي إيمانها بالرب، ووجدَت أن الأمور اليقينية التي لا تقبل الشك لم يَعُد من الممكن الوثوق بها مرة أخرى.

ذهبنا إلى الشاطئ في ذلك اليوم، إلى بقعة منعزلة جنوب المدينة بالقرب من «ديفلز سلايد». كان أبي قد قرأ في مجلة «صن ست» أن هذا المكان مناسب

لصيد سمك القاروص البحري، وعلى الرغم من أن أبي لم يكن صيادًا بل مساعد صيدلي، وكان فيما مضى طبيبًا في الصين، فإنه كان يؤمن بفكرة نينغ كان، قدرته على فعل أي شيء إذا عزم عليه. كما كانت أمي تؤمن بأنها تتسم بـنينغ كان، بحيث تتمكن من طهو أي شيء يفكر أبي في اصطياده. كان إيمانهما بفكرة نينغ كان هو ما جاء بوالدَي إلى أمريكا، وهو الذي مكنهما من إنجاب سبعة أطفال وشراء منزل في حي صن ست مقابل مبلغ زهيد من المال. وقد منحهما ذلك الثقة بأن حظهما لن ينفد أبدًا، وأن الرب في صفهما، وأن آلهة البيت لا تحمل لهما إلا الخير، وأسلافنا راضون، وأن الضمانات مدى الحياة تعني أن سلسلة الحظ لن تنكسر أبدًا، وأن جميع العناصر متوازنة، الرياح والمياه بالكم المناسب.

وهكذا كنا هناك، نحن التسعة: أبي، وأمي، وشقيقتاي، وأشقائي الأربعة، وأنا، ممتلئين بالثقة ونحن نسير على شاطئ البحر لأول مرة في حياتنا. سرنا في صف واحد فوق الرمال الرمادية الباردة، من الأكبر إلى الأصغر. كنت في المنتصف، في الرابعة عشرة من عمري. كنا سنشكِّل مشهدًا فريدًا لو كان ثمة أحد يراقبنا: تسعة أزواج من الأقدام الحافية تخوض الرمال، وتسعة أزواج من الأحذية محمولة في الأيدي، وتسعة رؤوس سوداء الشعر متجهة نحو الماء لمشاهدة الأمواج المتلاطمة.

عصفت الريح ببنطالي القطني ولفته حول ساقَي، وبحثت عن مكان لا تتطاير فيه الرمال إلى عينَي. أدركت أننا نقف في منخفض خليج صغير، يشبه وعاءً عملاقًا انشق إلى نصفين، والنصف الآخر جرفته المياه إلى البحر. سارت أمي نحو اليمين، حيث كانت الرمال نظيفة، وتبعناها جميعًا. على هذا الجانب، التف الجدار الصخري للخليج حول الشاطئ، حاميًا إياه من الأمواج العنيفة والرياح. وعلى امتداد هذا الجدار، في ظله، كان هناك حاجز من الشعاب المرجانية يبدأ من طرف الشاطئ، ويمتد إلى ما وراء الخليج، حيث تصبح المياه هائجة. وقد بدا كأن بإمكان المرء المشي في البحر على هذه الشعاب المرجانية، على الرغم من أنها بدت صخرية وزلقة للغاية. أما الجهة الأخرى من الخليج، فكان جدارها

أكثر وعورة، وقد تآكل بفعل الماء، وامتلأ بالشقوق. لذلك عندما كانت الأمواج تتلاطم على الجدار، كان الماء يتدفق من هذه الشقوق كأنها أخاديد بيضاء.

عندما أعود بذاكرتي إلى الوراء، أتذكر أن هذا الخليج الصغير على الشاطئ كان مكانًا رهيبًا، ممتلئًا بظلال رطبة بعثت القشعريرة في أجسادنا، وجزيئات غير مرئية تطايرت في أعيننا وجعلت من الصعب علينا رؤية المخاطر. أعمتنا جميعًا حداثة التجربة: عائلة صينية تحاول أن تتصرف كعائلة أمريكية تقليدية على الشاطئ.

فرشت أمي بطانية قديمة مخططة، رفرفت في الريح حتى ثبتناها بتسعة أزواج من الأحذية. جمع والدي صنارة الصيد الطويلة المصنوعة من الخيزران، وهي صنارة صنعها بيديه، متذكرًا تصميمها من طفولته في الصين، بينما جلسنا نحن الأطفال متزاحمين كتفًا إلى كتف فوق البطانية، ومددنا أيدينا إلى كيس البقالة الممتلئ بشطائر البولونيا، التي أكلناها بشراهة وقد تناثرت عليها الرمال من أصابعنا.

ثم نهض أبي واقفًا وتأمل صنارته، معجبًا برشاقتها وقوتها. وعندما شعر بالرضا، حمل حذاءه وسار إلى حافة الشاطئ، ثم إلى الشعاب المرجانية، حتى وصل إلى النقطة التي تسبق المنطقة الرطبة منها. نهضت شقيقتاي الأكبر سنًّا، جانيس وروث، من فوق البطانية، وضربتا فخذيهما لنفض الرمال، ثم ضربت كلٌّ منهما ظهر الأخرى، وانطلقتا مسرعتين على الشاطئ وهما تتصايحان. كنت على وشك النهوض ومطاردتهما، لكن أمي أومأت برأسها نحو أشقائي الأربعة وذكرتني: دانغشين تامن ده شنتي، أي «اعتني بهم»، وتعني حرفيًّا: «انتبهي لأجسادهم». كانت هذه الأجساد بمنزلة ركائز حياتي: ماثيو، ومارك، ولوك، وبينغ. ارتميت ثانية على الرمال، وتأوهت وأنا أشعر بانقباض في حلقي، بينما أردد نفس الشكوى المألوفة:

- لماذا؟

لماذا يجب عليَّ أنا الاعتناء بهم؟

فأجابتني بنفس الإجابة:

- بيدينغ.

لا بد لي من ذلك، لأنهم أشقائي، وقد اعتنت بي شقيقتاي من قبل. وإلا كيف يمكنني أن أتعلم المسؤولية؟ وكيف يمكنني أن أقدر ما فعله والداي من أجلي؟

كان ماثيو ومارك ولوك في الثانية عشرة والعاشرة والتاسعة من أعمارهم، كبارًا بما يكفي لتسلية أنفسهم في صخب. كانوا قد دفنوا لوك بالفعل في حفرة رملية ضحلة، بحيث لم يبرز منه سوى رأسه، وبدأوا يشكّلون حدود جدار لقلعة من الرمال فوق جسده.

لكن بينغ كان في الرابعة من عمره فقط، سريع الانفعال والضجر والانزعاج. لم يرغب في اللعب مع أشقائه الآخرين، لأنهم دفعوه جانبًا ووبخوه قائلين:

- لا يا بينغ، سوف تخربها فحسب.

لذا تجول بينغ على الشاطئ، سائرًا بخطى متيبسة كإمبراطور مخلوع، والتقط شظايا الصخور وقطع الأخشاب الطافية، وألقاها بكل قوته نحو الأمواج. تبعته وأنا أتخيل أمواج المد، وتساءلتُ كيف سأتصرف لو ظهرت. ناديت على بينغ بين حين وآخر:

- لا تقترب كثيرًا من الماء، ستبلل قدميك.

وفكرت حينها كم أشبه أمي، قلقة في أعماقي على الدوام إلى أبعد الحدود، لكن في الوقت نفسه أتحدث عن الخطر كأنه أقل مما هو عليه في الواقع. أحاطني القلق، كما يطوق الجدار الصخري الخليج، وأشعرني ذلك بأن كل شيء قد وُضع في الاعتبار، وصار كل شيء آمنًا.

في الواقع، كانت أمي تؤمن بخرافة مفادها أن الأطفال معرضون لمخاطر محددة في أيام محددة، وكل ذلك يعتمد على تاريخ ميلادهم الصيني. كان ذلك موضحًا في كتاب صيني صغير اسمه «البوابات الست والعشرون المشؤومة». في كل صفحة من هذا الكتاب، كان هناك رسم توضيحي لخطر فادح يتربص بالأطفال الصغار الأبرياء. وفي زوايا الصفحات، كان هناك وصف مكتوب باللغة الصينية، ولأنني لم أكن أجيد قراءة تلك الرموز، اعتمدت فقط على الصور لفهم المعنى.

ظهر الصبي الصغير نفسه في كل صورة: وهو يتسلق غصن شجرة مكسورًا، وهو يقف بجانب بوابة آيلة للسقوط، وهو ينزلق في حوض خشبي، وهو محمول بعيدًا من قِبل كلب مفترس، وهو يهرب من صاعقة برق. وفي كل صورة من هذه الصور، وقف رجل بدا كما لو كان يرتدي زي سحلية، وعلى جبينه تجاعيد غائرة، أو ربما كان لديه في الواقع قرنان مستديران. في إحدى الصور، وقف الرجل الشبيه بالسحلية على جسر منحنٍ وهو يضحك، بينما يراقب الصبي الصغير يسقط من فوق سور الجسر، وقد ارتفعت في الهواء قدماه المغطيتان بنعلين.

كان يكفي التفكير في أن خطرًا واحدًا حتى من بين هذه المخاطر قد يصيب طفلًا. وعلى الرغم من أن تواريخ الميلاد لم تكن تشير إلا إلى خطر واحد، فإن أمي أحست بالقلق بشأنها جميعًا، وذلك لأنها لم تكن تعرف كيف تترجم التواريخ الصينية، المبنية على التقويم القمري، إلى التواريخ الأمريكية. لذا، بعد أخذها جميعًا في الحسبان، بات لديها يقين مطلق بقدرتها على درء كل خطر منها.

تحركت الشمس وانتقلت إلى الجانب الآخر من جدار الخليج الصغير، واستقر كل شيء في مكانه. انشغلت أمي بمنع الرمال من التساقط على البطانية، ونفض الرمال من الأحذية، ثم إعادة تثبيت أركان البطانية بالأحذية التي صارت نظيفة. أما أبي فظل واقفًا عند طرف الشعاب المرجانية، يرمي الصنارة بصبر، في انتظار أن يتجلى ينغ كان متجسدًا في صورة سمكة. رأيت هيئتين صغيرتين في نقطة أبعد من الشاطئ، وعرفت أنهما شقيقتاي من خلال رأسيهما الداكنين وسروالهما الأصفرين. امتزجت صيحات أشقائي مع صيحات النوارس، بينما وجد بينغ زجاجة صودا فارغة، استخدمها ليحفر الرمال بجانب جدار الخليج المظلم، وجلست أنا على الرمال، حيث تنتهي الظلال وتبدأ المنطقة المشمسة.

أخذ بينغ يضرب زجاجة الصودا بالصخر، فناديته قائلة:

- لا تحفر بقوة. ستحدث ثقبًا في الجدار وتسقط إلى الصين.

وضحكتُ عندما نظر إليَّ كأنه يعتقد أن ما قلته صحيح. وقف وبدأ يمشي نحو الماء، ووضع قدمه بحذر على الشعاب المرجانية، فحذرته:

- بينغ.

احتج قائلًا:

- سأذهب لرؤية أبي.

قلت:

- ابقَ قريبًا من الجدار إذن، بعيدًا عن الماء، وابتعد عن الأسماك اللئيمة.

راقبته وهو يتقدم ببطء على طول الشعاب المرجانية، وظهره ملتصق بجدار الخليج الخشن. ما زلت أراه، بوضوح شديد، حتى إنني أكاد أشعر بأنني أستطيع إبقاءه هناك إلى الأبد.

أراه واقفًا بجانب الجدار، آمنًا، ينادي على أبي، الذي نظر فوق كتفه باتجاه بينغ. يا لسعادتي أن أبي سيتولى مراقبته لبعض الوقت! بدأ بينغ في التقدم، ثم فجأة، جذب شيء ما خيط الصنارة، فبدأ أبي في لف الخيط بأقصى سرعته.

تعالت الصيحات، حيث ألقى أحدهم الرمال على وجه لوك، فوثب خارجًا من حفرته ورمى نفسه على مارك، وهو يضربه ويركله. صاحت أمي طالبة مني أن أوقفهما، وما إن أبعدتُ لوك عن مارك، حتى رفعت رأسي ورأيت بينغ يمشي وحده نحو حافة الشعاب المرجانية. في خضم الفوضى التي أحدثتها المشاجرة، لم يلاحظ أحد ما يحدث، وكنت الوحيدة التي رأت ما يفعله بينغ.

تقدم بينغ خطوة، اثنتين، ثلاثًا، وتحرك جسده الصغير بسرعة، كما لو أنه رأى شيئًا رائعًا على حافة الماء. وفكرتُ: سيسقط في البحر، وتوقعت حدوث ذلك. وما إن خطرت لي هذه الفكرة حتى ارتفعت قدماه في الهواء بالفعل، في لحظة توازن، قبل أن يهوي في البحر ويختفي من دون أن يترك حتى تموجًا صغيرًا على سطح الماء.

جثوتُ على ركبتَي، أراقب المكان الذي اختفى فيه، من دون أن أتحرك أو أنطق بكلمة. لم أستطع استيعاب ما حدث، وفكرت: هل أركض إلى الماء وأحاول إخراجه؟ هل أصرخ لأنادي أبي؟ هل أستطيع النهوض بسرعة كافية؟ هل يمكنني تغيير كل ما حدث، ومنع بينغ من الانضمام إلى والدي عند الحافة؟

ثم عادت شقيقتاي، وقالت إحداهما:

- أين بينغ؟

ساد الصمت لبضع ثوانٍ، ثم تعالت الصيحات وتطاير الرمل بينما اندفع الجميع متجاوزيَّ نحو حافة الماء. وقفت هناك عاجزة عن الحركة، بينما بحثت شقيقتاي بجانب جدار الخليج، واندفع أشقائي ليروا ما وراء قطع الخشب الطافية، أما أمي وأبي فحاولا شق الموج بأيديهما.

بقينا هناك لساعات طويلة. ما زلت أتذكر قوارب البحث وغروب الشمس عند حلول الغسق. لم أرَ غروبًا كهذا من قبل: لهب برتقالي ساطع يلامس حافة الماء ثم ينتشر، مُدفئًا البحر. وعندما حل الظلام، أضاءت القوارب مصابيحها الصفراء، وهي تتمايل صعودًا وهبوطًا فوق سطح الماء اللامع المظلم.

عندما أسترجع تلك اللحظات، يبدو غريبًا أن أفكر في ألوان الغروب والقوارب في وقت كهذا، لكن الأفكار الغريبة راودتنا جميعًا. أخذ أبي يحسب الدقائق، ويقدر درجة حرارة الماء، ويعيد حساب الوقت الذي سقط فيه بينغ. كما نادت شقيقتاي: «بينغ! بينغ!»، كأنه مختبئ بين الشجيرات أعلى منحدرات الشاطئ. أما أشقائي فجلسوا في السيارة، يقرأون القصص المصورة بهدوء. وعندما أطفأت القوارب مصابيحها الصفراء، ذهبت أمي للسباحة. لم يسبق لها السباحة في حياتها من قبل، لكن ثقتها بقدرتها الخاصة، نينغ كان، أقنعتها بأنها تستطيع القيام بما عجز عنه هؤلاء الأمريكيون: ستتمكن من العثور على بينغ.

وعندما انتشلها رجال الإنقاذ أخيرًا من الماء، كانت أمي لا تزال تحتفظ بإيمانها بقدرتها الخاصة، نينغ كان. كان شعرها وملابسها مثقلين بالماء البارد، لكنها وقفت بهدوء، ساكنة ومهيبة كملكة حوريات البحر التي خرجت للتو

من أعماق البحر. أوقف رجال الشرطة البحث، وأعادونا جميعًا إلى السيارة، وأرسلونا إلى المنزل لنعيش حزننا.

توقعتُ أن أُضرب حتى الموت، من أبي، وأمي، وشقيقتَي وأشقائي. كنت أعلم أن الذنب ذنبي، حيث لم أراقبه كما يجب، ومع ذلك رأيته. لكن بينما كنا جالسين في غرفة المعيشة المظلمة، سمعتهم، واحدًا تلو الآخر، يهمسون بندمهم.

قال أبي:

- كنت أنانيًّا لرغبتي في الذهاب للصيد.

قالت جانيس:

- ما كان يجب أن نذهب للتمشية.

بينما مسحت روث أنفها مرة أخرى.

وتأوه لوك قائلًا:

- لماذا رميت الرمل في وجهي؟ لماذا اضطررتني إلى بدء شجار؟

ثم اعترفت لي أمي بهدوء:

- أنا التي طلبت منكِ إيقاف شجارهما. أنا التي طلبت منك إبعاد نظرك عنه.

لو سنح لي أي وقت للشعور بالارتياح، لكان قد تبخر سريعًا، لأن أمي أضافت:

- لذا هأنذا أقول لك الآن، يجب أن نذهب ونبحث عنه، بسرعة، صباح الغد.

خفض الجميع أنظارهم، لكنني رأيت ذلك كعقاب لي: أن أذهب مع أمي، عائدة إلى الشاطئ، لأساعدها في العثور على جثة بينغ.

لم أكن مستعدة لما فعلته أمي في اليوم التالي. عندما استيقظتُ، كان الظلام لا يزال يخيم، لكنها ارتدت ملابسها بالفعل. وعلى طاولة المطبخ كان هناك ترمس، وكوب شاي، والإنجيل ذو الغلاف الجلدي الأبيض، ومفاتيح السيارة.

سألتها:

- هل أبي جاهز؟

قالت:

- أبوك لن يأتي.

- إذن كيف سنصل إلى هناك؟ من سيوصلنا؟

التقطَت المفاتيح، وتبعتها خارج الباب إلى السيارة. ظللت أتساءل طوال الطريق إلى الشاطئ كيف تعلمت القيادة بين عشية وضحاها. لم تستخدم أي خريطة، وقادت بثبات، وانعطفت في شارع جيري، ثم الطريق السريع الكبير، وأعطت إشارات الانعطاف في الأوقات المناسبة، ثم دخلت الطريق الساحلي، ودارت بالسيارة بسلاسة حول المنحنيات الحادة التي غالبًا ما تؤدي بالسائقين عديمي الخبرة إلى السقوط من المنحدرات.

وعندما وصلنا إلى الشاطئ، نزلَت مباشرة عبر الطريق الترابي إلى نهاية حافة الشعاب المرجانية، حيث رأيت بينغ يختفي. حملَت الإنجيل الأبيض في يدها، ونظرت إلى الماء، ونادت الرب بصوتها الخافت الذي حملته النوارس إلى السماء. بدأت بعبارة «يا رب» وانتهت بـ«آمين»، وفيما بينهما تحدثَت باللغة الصينية.

قالت وهي تمجد الرب بنفس النبرة التي اعتادت استخدامها في المجاملات الصينية المبالغ فيها:

- لطالما آمنتُ ببركاتك. كنا نعلم أنها ستأتي، ولم نشكك فيها. كانت خياراتك هي خياراتنا، وقد كافأتنا على إيماننا.

وفي المقابل، حاولنا دائمًا إظهار أعمق درجات الاحترام. زرنا بيتك، وتبرعنا بالمال من أجلك، ورتلنا أناشيدك، فوهبتنا مزيدًا من النعم. والآن، أضعنا إحداها، كنا مهملين، هذا صحيح. تمتعنا بالكثير من الخيرات، حتى إننا لم نكن قادرين على تذكرها جميعًا طوال الوقت.

لذا ربما أخفيته عنا لتعلمنا درسًا، أن نكون أكثر حرصًا مع نعمك في المستقبل. لقد تعلمتُ هذا الدرس، ونقشته في ذاكرتي. والآن جئتُ لأستعيد بينغ.

استمعتُ بهدوء بينما أمي تنطق بهذه الكلمات، وقد انتابني الفزع. ثم بدأتُ أبكي عندما أضافت:

- اغفر لنا سوء سلوكه. سوف تتولى ابنتي هذه، الواقفة هنا، تعليمه الطاعة على نحو أفضل، قبل أن يزورك مجددًا.

بعد انتهائها من الدعاء، بات إيمانها عظيمًا، إلى درجة أنها رأته، ثلاث مرات، يلوِّح لها من خلف الموجة الأولى مباشرة: ناله! هناك! وقفَت منتصبة كحارس مرابط، حتى خانها نظرها ثلاث مرات، وتحول بينغ إلى بقعة داكنة من أعشاب البحر المتلاطمة.

ومع ذلك، لم تستسلم أمي، عادت إلى الشاطئ، ووضعت الإنجيل جانبًا، ثم التقطت الترمس وكوب الشاي، وسارت إلى حافة الماء. أخبرتني بأنها في الليلة الماضية، عادت بذاكرتها إلى حياتها الماضية إبان صباها في الصين، وهذا ما وجدته.

قالت:

- أتذكر صبيًّا فقد يده في حادث ناتج عن الألعاب النارية. رأيت أشلاء ذراع هذا الصبي، ودموعه، ثم سمعتُ أمه تدَّعي أنه ستنمو له يد أخرى، أفضل من سابقتها. قالت تلك الأم إنها ستسدد دَينًا قديمًا للأسلاف مضاعفًا عشر مرات، وستستخدم علاجًا مائيًّا لتهدئة غضب تشو جونغ، إله النار ذي الأعين الثلاث. وبالفعل، في الأسبوع التالي كان هذا الصبي يركب دراجته، ويقودها بكلتا يديه في مسار مستقيم أمام عينَي المذهولتين!

ثم صمتت أمي تمامًا، قبل أن تعاود الحديث على نحو ممتلئ بالتأمل والتوقير.

- ذات مرة، سرق أحد أسلافنا ماءً من بئر مقدسة، والآن يحاول الماء استرداد ما سُرق منه. علينا أن نلطف حدة مزاج التنين الملتف الذي يعيش في البحر، وبعدها علينا أن نجعله يرخي لفائفه عن بينغ بإعطائه كنزًا آخر يمكنه إخفاؤه.

صبت أمي الشاي المحلى بالسكر في كوب الشاي، وألقته في البحر، ثم فتحت قبضتها، وكان هناك في راحة يدها خاتم من الياقوت باللون الأزرق

المائي، هدية من أمها التي توفيت منذ سنوات طويلة. أخبرتني بأن هذا الخاتم كان يجذب نظرات الطمع من النساء، ويجعلهن يغفلن عن مراقبة أطفالهن الذين يحرسنهم بعناية بالغة. سيجعل هذا الخاتم التنين ينسى أمر بينغ، لذا ألقت الخاتم في الماء.

لكن حتى مع ذلك، لم يظهر بينغ على الفور. لما يقرب من ساعة، لم نرَ إلا الأعشاب البحرية المنجرفة على سطح الماء. ثم رأيت أمي تضم يديها إلى صدرها، وقالت بصوت مفعم بالدهشة:

- أرأيت؟ كنا ننظر في الاتجاه الخطأ.

ورأيت أنا أيضًا بينغ، يسير مرهقًا عند الطرف البعيد من الشاطئ، حاملًا حذاءه في يده، ورأسه الداكن منحنٍ من التعب. شعرتُ بما شعرت به أمي، وامتلأ قلبانا الخاويان فجأة، لكن قبل أن نتمكن حتى من النهوض، رأيناه يشعل سيجارة، وقامته تطول، حتى تحوَّل إلى شخص غريب.

قلت بأقصى ما استطعت من الهدوء:

- أمي، هيَّا بنا.

لكنها ردت بحزم:

- إنه هناك.

مكتبة
t.me/soramnqraa

أشارت إلى الجدار المتعرج عبر الماء، وتابعت:

- يمكنني رؤيته، إنه في كهف، جالس على درجة صغيرة فوق الماء. إنه جائع ويشعر بالبرد بعض الشيء، لكنه تعلم الآن ألا يتذمر كثيرًا.

ثم وقفَت وبدأت تمشي عبر الشاطئ الرملي كما لو كان طريقًا مرصوفًا صلبًا، وحاولتُ أن أتبعها، وأنا أتخبط وأتعثر فوق التلال الرملية الناعمة. صعدَت الطريق المنحدر إلى حيث كانت السيارة متوقفة، ولم تكن تلهث حتى وهي تسحب من صندوق السيارة إطارًا داخليًّا كبيرًا. أخذَت خيط الصيد من صنارة أبي المصنوعة من الخيزران وربطته بهذه العوامة المطاطية، ثم عادت وألقت الإطار في البحر، بينما أمسكت عصا الصنارة.

قالت بعزم شديد:

- سوف يصل هذا إلى حيث يوجد بينغ، وسأعيده.

لم يسبق أن سمعتُ مثل هذا القدر من نينغ كان في صوت أمي من قبل.

تبع الإطار رغبتها، وانجرف بعيدًا، نحو الجانب الآخر من الخليج حيث اصطدمت به أمواج أقوى. صار الخيط مشدودًا، وجاهدَت كي تتمسك به بقوة، لكن الخيط انقطع، ثم بدأ يدور في الماء.

تسلقنا معًا نحو حافة الشعاب المرجانية لمشاهدة ما يحدث، فوجدنا الإطار قد وصل إلى الجانب الآخر من الخليج. جاءت موجة عاتية وضربته بقوة نحو الجدار، فوثب الإطار المنتفخ إلى الأعلى، ثم انجذب تحت الجدار، إلى داخل كهف، وخرج ثانية. مرة تلو الأخرى، ظل يختفي، ثم يظهر، متلألئًا باللون الأسود، كأنه يبلغنا بأمانة أنه رأى بينغ وأنه سيعود ليحاول انتشاله من ذلك الكهف. مرارًا وتكرارًا، غاص ثم عاود الظهور، فارغًا لكنه لا يزال مفعمًا بالأمل. ثم، بعد نحو اثنتَي عشرة محاولة، انجذب الإطار إلى الأعماق المظلمة، وعندما خرج، كان ممزقًا، بلا حياة.

في تلك اللحظة، وليس قبلها، استسلمت أمي. ارتسمت على وجهها نظرة لن أنساها أبدًا: كانت نظرة يأس ورعب شديدين، لفقدانها بينغ، ولحماقتها الشديدة التي دفعتها للاعتقاد بأنها تستطيع استغلال الإيمان لتغيير القدر. وقد أغضبني ذلك - أغضبني بشدة - أن كل شيء قد خذلنا.

* * *

أدرك الآن أنني لم أتوقع العثور على بينغ قَطُّ، تمامًا كما أدرك الآن أنني لن أجد أبدًا طريقة لإنقاذ زواجي. مع ذلك، تقول لي أمي إن عليَّ المحاولة.

قلت:

- ما الفائدة؟ لا يوجد أمل. لا يوجد سبب يدفعني للاستمرار في المحاولة.

فأجابت:

- لأنكِ يجب أن تفعلي ذلك. هذا ليس أملًا، ولا هو منطق، بل هو قدرك، وهذه حياتك، وما يجب عليك فعله.

- إذن ماذا يمكنني أن أفعل؟

قالت أمي:

- عليكِ أن تفكري بنفسك فيما يجب أن تفعليه. إذا أخبرك أحدهم، فهذا يعني أنك لا تحاولين.

ثم خرجَت من المطبخ لتتركني كي أفكر في ذلك.

فكرت في بينغ، كيف أدركت أنه في خطر، وكيف تركت الأمر يحدث. فكرت في زواجي، وكيف رأيت العلامات، رأيتها بالفعل، لكنني تركت الأمر يحدث فحسب. وأعتقد الآن أن القدر يتشكَّل نصفه من توقعاتنا، ونصفه الآخر من غفلتنا. لكن بطريقة ما، حين نفقد شيئًا نحبه، يتولى الإيمان زمام الأمور. عليك الانتباه لما فقدته، وعليك التخلي عن التوقعات.

ما زالت أمي توليه الانتباه، ذلك الإنجيل الموجود تحت الطاولة، وأعرف أنها تراه. أذكر كيف رأيتها تكتب فيه شيئًا قبل أن تحشره هناك.

رفعتُ الطاولة، وأخرجت الإنجيل. وضعته على الطاولة، وقلبت صفحاته بسرعة، لأنني أعرف أنه موجود هناك. في الصفحة التي تسبق بداية العهد الجديد، كان هناك قسم بعنوان «وفيات»، وهناك كتبَت «بينغ شو» بخط خفيف، بقلم رصاص قابل للمسح.

جينغ-ماي وو

نوعان

كانت أمي تؤمن بأنك تستطيع أن تصبح أي شيء تريده في أمريكا. يمكنك فتح مطعم، أو يمكنك العمل في الحكومة والحصول على معاش جيد، ويمكنك شراء منزل من دون دفع أي مقدم يذكر تقريبًا، ويمكنك أن تصير ثريًّا، كما يمكنك أن تصبح مشهورًا في لحظة.

قالت لي أمي عندما كنت في التاسعة من عمري:

- بالطبع يمكنكِ أن تتمتعي بموهبة استثنائية أيضًا. يمكنك أن تصيري الأفضل في أي مجال. ماذا أدرى عمتك ليندو؟ ابنتها ليست بارعة سوى في المكر فقط.

كانت أمريكا هي المكان الذي تعلق عليه أمي كل آمالها. جاءت إلى هنا عام ١٩٤٩ بعد أن فقدت كل شيء في الصين: أمها وأباها، وبيت عائلتها، وزوجها الأول، وابنتيها التوأمتين الرضيعتين. لكنها لم تنظر إلى الوراء بندم، إذ كانت هناك طرق عديدة لتحسين الأمور.

لم نتمكن من اختيار الموهبة الاستثنائية المناسبة منذ البداية، حيث اعتقدت أمي

أنني يمكن أن أصبح شيرلي تمبل الصينية. اعتدنا مشاهدة أفلام شيرلي القديمة على التلفزيون كما لو كانت أفلامًا تدريبية. كانت أمي تلكز ذراعي وتقول: ني كان. شاهدي، فكنت أرى شيرلي تنقر الأرض بقدميها، أو تغني أغنية للبحارة، أو تزم شفتيها في شكل كامل الاستدارة وهي تقول: «أوه، يا إلهي!».

قالت أمي بينما غمرت الدموع عينَي شيرلي:

- ني كان، أنتِ تعرفين كيف تفعلين هذا بالفعل. لا تحتاجين إلى موهبة كي تبكي!

بعد أن خطرت لأمي فكرة شيرلي تمبل، اصطحبتني إلى مدرسة لتعليم التجميل في حي ميشن، ووضعتني بين يدَي طالبة بالكاد تستطيع الإمساك بالمقص من دون أن ترتجف. لكن بدلًا من الحصول على خصلات مجعدة كبيرة كثيفة، خرجتُ بكتلة غير متساوية من الشعر الأسود المشعث المجعد. سحبتني أمي إلى الحمام وحاولت أن تبلل شعري لتعدله.

قالت بحسرة، كما لو أنني فعلت ذلك عن قصد:

- تبدين كفتاة زنجية صينية.

اضطرت مدربة مدرسة التجميل إلى قص هذه الخصلات المبللة لتجعل شعري متساويًا مرة أخرى، وطمأنت أمي قائلة:

- قَصَّة شعر بيتر بان رائجة جدًّا هذه الأيام.

أصبح شعري بطول شعر الأولاد، مع غرة مستقيمة تتدلى على نحو مائل على بُعد بوصتين فوق حاجبي. أعجبتني قصة الشعر هذه، وجعلتني أتشوق فعلًا إلى الشهرة التي تنتظرني.

في الواقع، كنت متحمسة مثل أمي في البداية، بل ربما أكثر منها. تصورتُ هذا الجزء الموهوب مني في صور عديدة مختلفة، وجربت كل واحدة منها لأرى أيها تناسبني. تخيلت نفسي راقصة باليه رقيقة أقف عند الستار، أنتظر سماع الموسيقى المناسبة التي ستجعلني أطفو على أطراف أصابعي. ورأيت نفسي كالمسيح الطفل وهو يُرفع من مذود القش، باكيًا بغضب مقدس. كما

رأيتني مثل سندريلا، وهي تنزل من عربتها المصنوعة من اليقطين وسط موسيقى كرتونية متألقة تملأ الأجواء.

في كل تخيلاتي هذه، ملأني إحساس بأنني سرعان ما سأصبح مثالية، وسيحبني والداي. سأصبح بريئة من كل لوم، ولن أشعر أبدًا بالحاجة إلى التذمر من أي شيء.

لكن أحيانًا، كانت الموهبة الاستثنائية الدفينة بداخلي تفقد صبرها، وتحذرني قائلة: «إذا لم تسرعي في إخراجي من هنا، فسأختفي إلى الأبد. وحينها، ستبقين نكرة إلى الأبد».

كل ليلة بعد العشاء، كنت أجلس مع أمي عند طاولة المطبخ المغطاة بالفورميكا، وكانت تقدم لي اختبارات جديدة، مستوحاة من قصص الأطفال الاستثنائيين التي قرأتها في مجلة «صدِّق أو لا تصدِّق لريبلي»، أو «جود هاوس كيبنج»، أو «ريدرز دايجست»، أو عشرات المجلات الأخرى التي كانت تحتفظ بها في كومة في حمامنا. حصلت أمي على هذه المجلات من الأشخاص الذين تنظف منازلهم، وبما أنها كانت تنظف العديد من المنازل كل أسبوع، صارت لدينا مجموعة كبيرة ومتنوعة منها. وكانت تتصفحها جميعًا، باحثة عن قصص تخص أطفالًا مميزين.

في الليلة الأولى، ذكرت قصة عن صبي يبلغ من العمر ثلاث سنوات يعرف عواصم جميع الولايات وحتى معظم الدول الأوروبية. ونقلت عن أحد المعلمين قوله إن الصبي الصغير يستطيع أيضًا نطق أسماء المدن الأجنبية بشكل صحيح.

سألتني أمي وهي تنظر إلى القصة في المجلة:

- ما عاصمة فنلندا؟

كل ما كنت أعرفه هو عاصمة كاليفورنيا، لأن ساكرامنتو كان اسم الشارع الذي نسكن فيه في الحي الصيني. حاولتُ اختيار أكثر كلمة غريبة خطرت ببالي، وقلت:

- نيروبي!

فتحققت أمي لترى ما إذا كان ذلك أحد طرق نطق «هلسنكي»، قبل أن تريني الإجابة.

ازدادت الاختبارات صعوبة: ضرب الأرقام في ذهني، والعثور على ملكة القلوب بين مجموعة أوراق اللعب، ومحاولة الوقوف على رأسي من دون استخدام يدي، وتوقع درجات الحرارة اليومية في لوس أنجلوس ونيويورك ولندن.

ذات ليلة، تعين عليَّ مطالعة صفحة من الإنجيل لمدة ثلاث دقائق، ثم سرد كل ما أستطيع تذكره. قلت:

- «وكان ليهوشافاط غنى وكرامة بكثرة، و...»، هذا كل ما أتذكره يا أمي.

بعد رؤية خيبة الأمل على وجه أمي مجددًا، بدأ شيء ما بداخلي يموت. كرهتُ الاختبارات، والآمال العالية، والتوقعات الخائبة. قبل أن أخلد إلى النوم تلك الليلة، نظرت إلى المرآة المعلقة فوق حوض الحمام، وعندما لم أرَ سوى وجهي يحدق إليَّ - وأدركت أنه سيظل دائمًا هذا الوجه العادي فحسب - شرعت في البكاء. يا لي من فتاة حزينة قبيحة! أصدرت أصواتًا حادة كحيوان مسعور، محاولة خدش وجهي في المرآة.

ثم رأيت ما بدا أنه الجانب الاستثنائي من شخصيتي، لأنني لم أرَ هذا الوجه من قبل. نظرت إلى انعكاس صورتي، ورمشت بعيني حتى أرى بوضوح أكثر. بدت الفتاة التي تحدق إليَّ غاضبة وقوية. كنت أنا وهذه الفتاة واحدًا. راودتني أفكار جديدة، أفكار عنيدة، أو بالأحرى أفكار ممتلئة بالكثير من الرفض. وعدت نفسي بأنني لن أدعها تغيرني. لن أكون ما لست عليه.

منذ ذلك الحين، صرت أؤدي الاختبارات التي تقدمها لي أمي بفتور ورأسي مستند إلى ذراعي. تظاهرتُ بالملل، وقد شعرت بالضجر بالفعل. أحسست بالسأم إلى درجة أنني بدأت أعد أصوات أبواق الضباب القادمة من الخليج بينما كانت أمي تلقنني موضوعات أخرى. كان الصوت مُريحًا، وذكرني بالبقرة التي تقفز

فوق القمر(*). وفي اليوم التالي، بدأت أمارس لعبة مع نفسي، لأرى ما إذا كانت أمي ستستسلم قبيل سماع ثمانية أبواق. مع مرور الوقت، صرت عادة لا أعد سوى واحد أو اثنين على الأكثر. أخيرًا، بدأت تفقد الأمل.

* * *

مر شهران أو ثلاثة أشهر من دون أن يذكر أحد شيئًا مرة أخرى عن كوني طفلة ذات موهبة استثنائية. وفي أحد الأيام، كانت أمي تشاهد برنامج «إد سوليفان شو» على التلفزيون. كان جهاز التلفزيون قديمًا، والصوت يتقطع باستمرار. وكلما همت أمي بالنهوض من فوق الأريكة لتضبط التلفزيون، كان الصوت يعود وإد يتحدث، وما إن تجلس، حتى يصمت إد من جديد. نهضَت، فانطلقت موسيقى البيانو بصوت عالٍ من التلفزيون. جلست، فساد الصمت. نهوضًا وجلوسًا، ذهابًا وإيابًا، هدوءًا وصخبًا: بدا الأمر أشبه برقصة جامدة بلا عناق بينها وبين التلفزيون. وأخيرًا، وقفت بجانب الجهاز، ويدها على مفتاح الصوت.

بدت مفتونة بالموسيقى، مقطوعة بيانو قصيرة سريعة ذات طابع آسر: تمر بمقاطع سريعة، ثم مقاطع رنانة مثيرة، قبل أن تعود إلى المقاطع السريعة المرحة.

قالت أمي وهي تناديني بإشارات عاجلة من يدها:

- ني كان، انظري هنا.

أدركت سبب انبهار أمي بهذه الموسيقى، فقد كانت تعزفها فتاة صينية صغيرة، في التاسعة من عمرها تقريبًا، بقصة شعر على طريقة بيتر بان. اتسمت الفتاة بالجرأة مثل شيرلي تمبل، لكنها في نفس الوقت كانت متواضعة بفخر، كما يجب أن تكون الطفلة الصينية المهذبة. كما انحنت على نحو أنيق، بحيث انسدلت تنورة فستانها الأبيض المنفوش على الأرض ببطء، مثل بتلات زهرة قرنفل كبيرة.

(*) إشارة إلى نشيد شهير للأطفال. (المترجمة).

على الرغم من هذه العلامات التحذيرية، لم يساورني القلق، فلم يكن لدى عائلتنا بيانو ولم نكن قادرين على شراء واحد، فضلًا عن كومة من النوتات الموسيقية ودروس العزف. لذا كان بوسعي أن أتسم بالكرم في تعليقاتي عندما أخذت أمي تنتقد الفتاة الصغيرة على شاشة التلفزيون.

تذمرت أمي قائلة:

- إنها تعزف النغمات بشكل صحيح، لكن الصوت ليس جميلًا، يفتقر إلى العذوبة.

فقلت لها بلامبالاة:

- لماذا تنتقدينها؟ إنها تعزف جيدًا. ربما ليست الأفضل، لكنها تحاول بجد.

ثم أدركت على الفور أنني سأندم على ما قلت.

قالت:

- مثلك تمامًا. لستِ الأفضل، لأنك لا تحاولين.

أطلقَت زفرة صغيرة بينما رفعت يدها عن مفتاح الصوت وجلسَت على الأريكة.

جلست الفتاة الصينية الصغيرة أيضًا لتعزف إعادة لمقطوعة «رقصة أنيترا» لجريج. ما زلت أتذكر تلك الأغنية، لأنني اضطررت لاحقًا إلى تعلم عزفها.

بعد ثلاثة أيام من مشاهدة برنامج «إد سوليفان شو»، أخبرتني أمي عن جدولي لدروس البيانو والتدريب على العزف، حيث إنها تحدثت إلى السيد تشونغ، الذي يسكن في الطابق الأول من بنايتنا، وكان السيد تشونغ مدرس بيانو متقاعدًا، وقد عقدت أمي صفقة معه لمبادلة خدماتها لتنظيف المنزل مقابل دروس أسبوعية، وبيانو لأتمرن عليه يوميًّا لساعتين في اليوم، من الرابعة حتى السادسة.

عندما أخبرتني أمي بذلك، شعرت كأنني قد أُرسلت إلى الجحيم. بدأت أتذمر ثم ركلتُ الأرض بقدمي قليلًا عندما لم أعد أستطيع تحمُّل الأمر.

صحت قائلة:

- لماذا لا تحبينني كما أنا؟ لستُ عبقرية! لا أستطيع العزف على البيانو، وحتى لو استطعت، لما ظهرت على التلفزيون حتى لو دفعت لي مليون دولار!

صفعتني أمي وصرخت في وجهي:

- من طلب منكِ أن تكوني عبقرية؟ لا أطلب منك سوى بذل أفضل ما لديك، من أجلك أنت. هل تظنين أنني أريدك أن تكوني عبقرية؟ هاه! لماذا؟ من طلب منك ذلك؟

سمعتها تتمتم بالصينية:

- يا لها من ناكرة للجميل. لو أن موهبتها تضاهي حدة طبعها، لكانت مشهورة الآن.

كان السيد تشونغ، الذي أطلقتُ عليه سرًّا لقب «العجوز تشونغ»، غريب الأطوار للغاية، دائمًا ما ينقر بأصابعه على أنغام موسيقى صامتة لأوركسترا غير مرئية. بدا لي عجوزًا، حيث فقد معظم شعر رأسه، وكان يرتدي نظارة سميكة، وبدت عيناه متعبتين وناعستين على الدوام. لكنه كان على الأرجح أصغر سنًّا مما ظننت، إذ كان لا يزال يعيش مع والدته ولم يتزوج بعد.

التقيتُ السيدةَ تشونغ العجوز مرة واحدة، وكان ذلك كافيًا. وقد فاحت منها رائحة غريبة، مثل طفل لوث سرواله، وبدا ملمس أصابعها كأصابع شخص ميت، أشبه بخوخة قديمة وجدتها ذات مرة في الجزء الخلفي من الثلاجة، وما إن التقطتها حتى انسلخت قشرتها عن اللب.

سرعان ما اكتشفت سبب تقاعد العجوز تشونغ عن تعليم البيانو: كان أصمَّ. كان يصيح قائلًا لي:

- مثل بيتهوفن! كلانا نسمع في أذهاننا فقط!

ثم يبدأ بعزف سوناتاته الصامتة المحمومة.

سارت دروسنا على هذا النحو: كان يفتح الكتاب، ويشير إلى أشياء مختلفة، موضحًا الغرض منها.

- مفتاح! النغمات العالية! النغمات المنخفضة! لا توجد علامات دييز ولا بيمول، إذن هذا هو سلم دو الكبير! استمعي الآن، ثم اعزفي بعدي!

كان يعزف سلم دو عدة مرات، مجرد وتر بسيط، وبعدها، كأنه يستمد الإلهام من رغبة قديمة لا يمكن تحقيقها، يبدأ تدريجيًّا بإضافة مزيد من النغمات، والزخارف الموسيقية المتلاحقة، والنغمات القوية، حتى يغدو اللحن شيئًا بالغ العظمة.

كنت أعزف بعده السلم الموسيقي البسيط، والوتر البسيط، ثم أكتفي بعزف بعض النغمات العشوائية التي تبدو كأن قطة تجري صعودًا وهبوطًا فوق صناديق القمامة. كان العجوز تشونغ يبتسم ويصفق، ثم يقول:

- جيد جدًّا! لكن الآن عليكِ أن تتعلمي ضبط الإيقاع!

وهكذا اكتشفت أن عينَي العجوز تشونغ كانتا أبطأ من مواكبة النغمات الخطأ التي أعزفها. كان يؤدي الحركات على مهل، ولمساعدتي على ضبط الإيقاع، كان يقف خلفي، ويضغط على كتفي اليمنى مع كل ضربة من الإيقاع. وكان يوازن قطعًا نقدية فوق معصمَي حتى أبقيهما ثابتين في أثناء تمرني على السلالم الموسيقية والآربيجيوهات ببطء. كما جعلني أحني يدي حول تفاحة وأحافظ على هذا الشكل حين أعزف الأوتار، وسار أمامي بخطى ثابتة ليُريني كيف أجعل كل إصبع ترقص صعودًا وهبوطًا، بشكل متقطع مثل جندي صغير مطيع.

علمني كل هذه الأشياء، وهكذا تعلمت أيضًا أنني يمكن أن أكون كسولًا للغاية، وأفلت من العقاب على الرغم من الأخطاء، الكثير من الأخطاء. فإذا أخطأتُ في النغمات بسبب قلة التدريب، فلم أكن أصحح خطئي على الإطلاق، بل أتابع العزف محافظة على الإيقاع فحسب، بينما العجوز تشونغ غارق في تأملاته الخاصة.

ربما لم أمنح نفسي فرصة حقيقية منذ البداية. فقد تعلمت الأساسيات بسرعة كبيرة، وربما كنت سأصبح عازفة بيانو جيدة في تلك السن الصغيرة. لكني عزمت على ألا أحاول، على ألا أكون شخصًا مختلفًا، حتى إنني تعلمت فقط عزف المقدمات الموسيقية الأكثر إزعاجًا، والترانيم الأكثر نشازًا.

على مدى العام التالي، واصلت التمرن على هذا النحو، ملتزمة بطريقتي الخاصة. وفي أحد الأيام سمعت أمي وصديقتها ليندو جونغ تتحدثان بصوت عالٍ وبنبرة تفاخر حتى يسمعهما الآخرون. كان ذلك بعد انتهاء مراسم الكنيسة، وقد استندتُ إلى جدار من الطوب مرتدية فستانًا مزينًا بتنانير داخلية بيضاء قاسية. كما وقفَت عند الجدار على بُعد نحو خمس أقدام مني ابنة عمتي ليندو، ويفرلي، والتي كانت تقريبًا في مثل عمري. كنا قد نشأنا معًا، وجمعتنا ألفة أشبه بتلك القائمة بين شقيقتين تتشاجران على الأقلام الملونة والدمى. بعبارة أخرى، كنا نكره بعضنا في الغالب. ظننتها متغطرسة، حيث اكتسبت ويفرلي جونغ قدرًا من الشهرة بوصفها «أصغر بطلة شطرنج صينية في الحي الصيني».

تذمرت عمتي ليندو في يوم الأحد ذاك، قائلة:

- إنها تجلب الكثير من الجوائز إلى المنزل. تظل تلعب الشطرنج طوال اليوم، بينما لا يسنح لي وقت طوال اليوم كي أفعل أي شيء سوى نفض الغبار عن جوائزها.

ثم ألقت نظرة غاضبة نحو ويفرلي، التي تظاهرت بعدم رؤيتها.

تنهدت عمتي ليندو وهي تتابع قائلة لأمي:

- أنتِ محظوظة لأنك لا تعانين هذه المشكلة.

فردت أمي كتفيها وقالت متباهية:

- مشكلتنا أسوأ من مشكلتكم. إذا طلبنا من جينغ-ماي غسل الأطباق، فلا تسمع شيئًا سوى الموسيقى، كما لو أن لا أحد يمكنه إيقاف هذه الموهبة الطبيعية.

في تلك اللحظة، قررتُ أن أضع حدًّا لغرورها السخيف.

بعد بضعة أسابيع، تآمر العجوز تشونغ وأمي على إشراكي في عرض مواهب كان من المقرر إقامته في قاعة الكنيسة. وبحلول ذلك الوقت، ادخر والداي

ما يكفي من المال لشراء بيانو مستعمل لي، بيانو صغير أسود من ماركة «وورلتزر»، مع مقعد ممتلئ بالخدوش. وكان هذا البيانو بمنزلة قطعة فنية في غرفة معيشتنا.

تقرر أن أعزف في عرض المواهب مقطوعة بعنوان «الطفل المتوسل»، من سلسلة مقطوعات البيانو «مشاهد من الطفولة» لشومان. كانت مقطوعة بسيطة، حالمة، تبدو أصعب مما هي عليه في الواقع. كان من المفترض أن أحفظها بالكامل، وأعزف الأجزاء المتكررة مرتين لجعل المقطوعة تبدو أطول. لكنني تباطأت في الأمر، وكنت أعزف بضع نغمات ثم ألجأ إلى الغش، وأرفع نظري كي أرى النغمات التالية. ولم أُصغِ حقًّا إلى ما أعزفه، بل كنت أشرد وأنا أحلم بالوجود في مكان آخر، وأن أكون شخصًا آخر.

كان أكثر ما أحببت التدرب عليه هو الانحناءة الأنيقة: مد القدم اليمنى إلى الأمام ولمس الوردة المنقوشة على السجادة بالقدم الممدودة، ثم الاتجاه جانبًا مع ثني الساق اليسرى، ورفع الرأس والابتسام.

دعا والداي جميع الأزواج من نادي بهجة الحظ لحضور أول عرض علني لي. وقد حضرت عمتي ليندو وعمي تين، كما أتت أيضًا ويفرلي وشقيقاها الأكبر. امتلأ أول صفين من المقاعد بأطفال أكبر وأصغر سنًّا مني، وكان الأصغر هم من بدأوا أولًا بترديد أناشيد أطفال بسيطة، وعزف ألحان صاخبة على آلات كمان صغيرة، والدوران بأطواق الهولا هوب، والتواثب مرتدين تنانير الباليه الوردية. وعندما كانوا ينحنون أو يؤدون التحية، كان الجمهور يتنهد بصوت واحد قائلًا: «آآآه»، ثم يصفق بحماسة.

عندما حان دوري، كنت مفعمة بالثقة. ما زلت أتذكر حماستي الطفولية. بدا الأمر كما لو أنني أعلم، من دون أدنى شك، أن الجانب العبقري من شخصيتي موجود بالفعل. لم أشعر بأي رهبة أو توتر، وأذكر أنني فكرت في قرارة نفسي: «ها قد حانت اللحظة! ها قد حانت اللحظة!». نظرت إلى الحضور، وإلى وجه أمي الخالي من التعبير، وإلى تثاؤب أبي، وإلى ابتسامة عمتي ليندو المتكلفة،

وإلى نظرة ويفرلي العابسة. كنت أرتدي فستانًا أبيض مزينًا بطبقات من الدانتيل، وشريطًا ورديًّا في شعري المقصوص على طريقة بيتر بان. وعندما جلست أمام البيانو، تخيلت الناس يقفزون من أماكنهم، وإد سوليفان يهرع لتقديمي للعالم على شاشة التلفزيون.

عندما بدأت العزف، بدا الأمر جميلًا للغاية. انشغلت بشدة بمدى جمال مظهري، إلى درجة أنني لم أقلق في البداية بشأن صوت العزف. لذا كانت مفاجأة لي عندما عزفت النغمة الأولى الخطأ، وأدركت أن شيئًا ما لم يكن على ما يرام. ثم أخطأت في نغمة ثانية، وتبعتها ثالثة. انتابتني قشعريرة من قمة رأسي، وبدأت تسري إلى باقي جسدي، ومع ذلك لم أستطع التوقف عن العزف، كما لو أن يدَي واقعتان تحت تأثير تعويذة. ظللت أفكر في أن أصابعي ستعدل وضعها، مثل قطار ينتقل إلى المسار الصحيح، لكنني عزفت هذا المزيج الغريب من النغمات مرتين، وظلت النغمات المزعجة تلاحقني حتى النهاية.

عندما نهضتُ، اكتشفت أن ساقَي ترتجفان. ربما كنت متوترة فحسب، وربما كان الجمهور، مثل العجوز تشونغ، قد رآني أؤدي الحركات الصحيحة ولم يسمع أي خطأ على الإطلاق. مددت قدمي اليمنى إلى الأمام، وثنيت ركبتي، ورفعت رأسي وابتسمت. ساد الصمت في الغرفة، باستثناء العجوز تشونغ، الذي ابتسم وهو يصيح:

- برافو! برافو! أحسنتِ!

لكن حينها رأيت وجه أمي، وتعبيرها المصدوم، وصفق الجمهور تصفيقًا باهتًا. وبينما كنت أعود إلى مقعدي، ووجهي يرتجف وأنا أحاول ألا أبكي، سمعت صبيًّا صغيرًا يهمس بصوت عالٍ لأمه:

- كان ذلك فظيعًا.

فهمست إليه أمه:

- حسنًا، لقد بذلت ما في وسعها بكل تأكيد.

ثم أدركت عدد الأشخاص الموجودين في الجمهور، وبدا كأنهم العالم بأسره.

شعرت بنظرات حارقة تخترق ظهري، وأحسست بخزي أمي وأبي اللذين جلسا متيبسين لما تبقى من العرض.

كان بإمكاننا الهروب في أثناء الاستراحة، لكن لا بد أن الكبرياء ونوعًا غريبًا من الشعور بالشرف قد جعلا والدَي ملتصقين بمقعديهما. وهكذا شاهدنا العرض كله: الفتى البالغ من العمر ثمانية عشر عامًا الذي ارتدى شاربًا مزيفًا وأدى عرضًا سحريًّا، وتلاعب بأطواق مشتعلة بينما كان يركب دراجة أحادية العجلة، والفتاة ذات الصدر البارز التي غطت وجهها بمساحيق بيضاء وغنت مقطعًا من «مدام بترفلاي»، ونالت إشادة خاصة، والفتى البالغ من العمر أحد عشر عامًا الذي فاز بالجائزة الأولى بعد أن عزف مقطوعة صعبة على الكمان بدت كأنها طنين نحلة نشيطة.

بعد العرض، تقدم نحو أمي وأبي آل شو، وآل جونغ، وآل سانت كلير، أعضاء نادي بهجة الحظ.

قالت عمتي ليندو بغموض، وهي تبتسم ابتسامة عريضة:

- هناك الكثير من الأطفال الموهوبين.

قال أبي:

- كان عرضًا مميزًا.

تساءلتُ عما إذا كان يشير إليَّ على نحو مازح، أو ما إذا كان يتذكر ما فعلته أصلًا.

نظرت إليَّ ويفرلي وهزت كتفيها قائلة كأنها تصرح بحقيقة مُسلَّم بها:

- أنتِ لست عبقرية مثلي.

ولولا شعوري بذلك القدر من السوء، لكنت قد جذبت ضفائرها ولكمتها في بطنها.

لكن ما حطمني هو تعبير وجه أمي: نظرة هادئة خاوية، كأنها فقدت كل شيء. شعرتُ بنفس الشعور، وبدا كأن الجميع يتجمعون الآن، كمن يراقبون موقع الحادث، ليروا مقدار الخسائر بالفعل. عندما ركبنا الحافلة للعودة إلى المنزل،

أخذ أبي يدندن لحن النحلة النشيطة، بينما بقيت أمي صامتة. ظللت أفكر في أنها تريد الانتظار حتى نصل إلى المنزل قبل أن تصرخ في وجهي. لكن عندما فتح أبي باب شقتنا، دخلت أمي ثم توجهت إلى الخلف، نحو غرفة النوم. لم توجه إليَّ أي اتهامات، ولم تلقِ عليَّ أي لوم. وبطريقة ما، شعرتُ بخيبة أمل. كنت أنتظر أن تبدأ في الصراخ، حتى أصرخ أنا أيضًا، وأبكي، وألقي عليها اللوم في كل ما أعانيه من تعاسة. مكتبة سر من قرأ

اعتقدت أن فشلي في عرض المواهب يعني أنني لن أضطر إلى العزف على البيانو مرة أخرى. لكن بعد يومين، عقب انتهاء اليوم الدراسي، خرجت أمي من المطبخ ورأتني أشاهد التلفزيون.

ذكرتني، كما لو أننا في أي يوم عادي آخر:

- الساعة الرابعة.

صُدمت، كأنها تطلب مني أن أعيش عذاب عرض المواهب مرة أخرى، فالتصقت أكثر في جلستي أمام التلفزيون.

نادتني من المطبخ بعد خمس دقائق:

- أطفئي التلفزيون.

لم أتحرك من مكاني، ثم قررت: لم أعد مضطرة إلى فعل ما تقوله أمي. لم أكن جاريتها، ولم نكن في الصين. فقد سبق أن أطعتها من قبل، وها هي ذي النتيجة. كانت هي التي تتسم بالحماقة.

خرجت من المطبخ ووقفت عند المدخل المقوس لغرفة المعيشة، وكررت ثانية بصوت أعلى:

- الساعة الرابعة.

قلت بلامبالاة:

- لن أعزف بعد الآن. لماذا أفعل؟ لست عبقرية.

اقتربَت ووقفت أمام التلفزيون، ورأيت صدرها يعلو ويهبط في غضب.

قلت:

- لا!

وأحسست بقوة أكبر، كما لو أن شخصيتي الحقيقية قد ظهرت أخيرًا. هذا هو ما كان بداخلي طوال الوقت إذن.

صرختُ:

- لا! لن أفعل!

جذبتني من ذراعي، ورفعتني عن الأرض، وأطفأت التلفزيون. كانت قوية بدرجة مخيفة، حتى إنها شبه سحبتني وحملتني نحو البيانو، بينما ركلتُ السجاد تحت قدمي. رفعتني وأجلستني على المقعد الصلب، وبكيت بحرقة، وأنا أحدق إليها بمرارة. أخذ صدرها يعلو ويهبط أكثر، وفمها مفتوح في ابتسامة مجنونة، كأنها سعيدة برؤيتي أبكي.

قلت باكية:

- تريدينني أن أكون خلاف ما أنا عليه! لن أكون أبدًا الابنة التي تريدينني أن أكونها!

صاحت بالصينية:

- هناك نوعان فقط من البنات! البنات المطيعات، والبنات اللواتي يتبعن رغباتهن! ولا يمكن أن يعيش في هذا البيت سوى نوع واحد فقط من البنات: البنت المطيعة!

صرختُ قائلة:

- أتمنى لو لم أكن ابنتكِ إذن، أتمنى لو لم تكوني أمي.

ما إن تفوَّهت بهذه الكلمات حتى اعتراني الخوف، وشعرتُ كأن ديدانًا وضفادع وأشياء لزجة تزحف خارجة من صدري، لكنني شعرت بالارتياح أيضًا، كأن هذا الجانب البشع مني قد خرج أخيرًا إلى السطح.

قالت أمي بحدة:

- فات الأوان لتغيير ذلك.

شعرتُ بغضبها يتصاعد إلى ذروته، فأردتُ رؤيته وهو ينفجر، وعندها تذكرتُ الرضيعتين اللتين فقدتهما في الصين، اللتين لم نكن نتحدث عنهما قَطُّ، فصرختُ:

- إذن أتمنى لو أنني لم أُولد قَطُّ! ليتني مت، مثلهما!

بدا الأمر كأنني نطقت بالكلمة السحرية: «ألاكازام!». باتت ملامحها خالية من التعبير، وانغلق فمها، وتراخت ذراعاها، وتراجعت خارج الغرفة، مذهولة، كأنها تتطاير كورقة صغيرة بنية اللون، رقيقة، هشة، بلا حياة.

* * *

لم تكن تلك هي خيبة الأمل الوحيدة التي شعرت بها أمي تجاهي. ففي السنوات التي تلت ذلك، خذلتها مرات عديدة، في كل مرة أصررت فيها على إرادتي الخاصة، وحقي في عدم تلبية التوقعات. لم أحصل على درجات ممتازة، ولم أصبح رئيسة الصف، ولم ألتحق بجامعة ستانفورد، وتركت الجامعة.

فعلى عكس أمي، لم أعتقد أنني أستطيع أن أكون أي شيء أريده. لم أستطع أن أكون سوى نفسي.

على مدى تلك السنوات كلها، لم نتحدث يومًا عن تلك الكارثة التي وقعت في الحفل الموسيقي، ولا عن الاتهامات القاسية التي وجهتها إليها وأنا جالسة على مقعد البيانو. بقي كل ذلك معلقًا من دون التطرق إليه، مثل خيانة أصبح الحديث عنها محرمًا. لذلك لم أجد قَطُّ طريقة لأسألها لماذا كانت تأمل في شيء عظيم إلى هذا الحد، حتى بدا الفشل محتومًا؟

لكن الأسوأ من ذلك، هو أنني لم أطرح عليها السؤال الذي كان يخيفني أكثر من غيره: لماذا فقدَت الأمل؟

فبعد معركتنا عند البيانو، لم تثر مسألة عزفي مرة أخرى. توقفت الدروس، وأُغلق غطاء البيانو، ليحجب الغبار، وبؤسي، وأحلامها.

لذا فاجأتني قبل بضع سنوات، عندما عرضت عليَّ أن تهدي إليَّ البيانو بمناسبة

عيد ميلادي الثلاثين. لم أكن قد عزفت عليه طوال تلك السنوات، ورأيت في عرضها هذا علامة على الغفران، كأن عبئًا ثقيلًا قد أُزيح عن كاهلي.

سألتها بخجل:

- هل أنتِ متأكدة؟ أعني، ألن تفتقديه أنتِ وأبي؟

قالت بحزم:

- نعم، هذا البيانو خاص بك. لطالما كان خاصًّا بك، وأنتِ الوحيدة التي تستطيعين العزف عليه.

أجبتها:

- حسنًا، لكنني لم أعد أستطيع العزف على الأرجح، فقد مرت سنوات.

قالت أمي، كأنها متيقنة من الأمر:

- أنت تتعلمين بسرعة، ولديك موهبة فطرية. يمكنك أن تكوني عبقرية إن شئت.

- لا، لا يمكنني ذلك.

أجابت أمي:

- أنت لا تحاولين فحسب.

ولم تكن غاضبة ولا حزينة، بل قالت ذلك كأنها تعلن حقيقة لا يمكن دحضها، ثم تابعت:

- خذيه.

لكنني لم أفعل في البداية، وكان يكفيني أنها عرضته عليَّ. ومنذ ذلك الحين، كلما رأيته في غرفة معيشة والدَي، قابعًا أمام النوافذ الكبيرة، ملأني شعور بالفخر، كأنه كأس لامعة استعدتها بعد خسارتها.

الأسبوع الماضي، أرسلت مصلح آلات موسيقية إلى شقة والدَي ليعيد ضبط البيانو، لأسباب عاطفية بحتة. كانت أمي قد توفيت قبل بضعة أشهر، وشرعتُ أرتب أمور أبي شيئًا فشيئًا. وضعت مجوهراتها في أكياس حريرية خاصة. أما

السترات الصوفية التي حاكتها بيديها باللون الأصفر والوردي والبرتقالي الزاهي - جميع الألوان التي كنت أكرهها - فقد وضعتها في صناديق مقاومة للعث. كما وجدت بعض الفساتين الصينية القديمة المصنوعة من الحرير، من ذلك النوع الذي له فتحات صغيرة على الجانبين. فركت الحرير القديم على بشرتي، ثم لففته بأوراق ناعمة، وقررت أن آخذه معي إلى منزلي.

بعد أن أعاد المصلح ضبط البيانو، فتحت الغطاء ولمست المفاتيح. بدا صوته أغنى مما كنت أتذكر. كان بيانو جيدًا للغاية بالفعل. وداخل المقعد، وجدت نفس دفاتر التمارين القديمة، مكتوبة عليها السلالم الموسيقية بخط اليد، ونفس كتب الموسيقى المستعملة، بأغلفتها المثبتة بشريط لاصق أصفر.

فتحت كتاب شومان على المقطوعة الصغيرة الحزينة التي عزفتها في ذاك الحفل. كانت في الصفحة اليسرى، بعنوان «الطفل المتوسل»، وبدت أصعب مما أتذكر. عزفت بضع نغمات، وفوجئت بمدى السهولة التي تذكرتها بها أصابعي.

ولأول مرة، أو هكذا بدا لي، لاحظت المقطوعة الواقعة على الجانب الأيمن، والتي كان عنوانها «راضٍ تمامًا». حاولت عزفها أيضًا، وكانت ذات لحن أكثر خفة لكن بنفس الإيقاع السلس، واتضح أنها سهلة للغاية. كانت مقطوعة «الطفل المتوسل» أقصر لكنها أبطأ، أما مقطوعة «راضٍ تمامًا» فكانت أطول لكنها أسرع. وبعد أن عزفتهما عدة مرات، أدركت أنهما تشكِّلان نصفين لنفس الأغنية.

ترجمة
أمريكية



صاحت الأم عند رؤية الخزانة ذات المرايا في غرفة النوم الرئيسية في شقة ابنتها الجديدة:

- واه! لا يمكنك وضع المرايا عند قدم السرير، حيث سترتد كل سعادتك الزوجية وتتلاشى في الاتجاه المعاكس.

قالت الابنة، منزعجة من أن والدتها ترى نذير شؤم في كل شيء:

- حسنًا، هذا هو المكان الوحيد الذي يناسبها، لذا ستبقى هنا.

اضطرت إلى الاستماع لمثل هذه التحذيرات طوال حياتها.

عبست الأم، ومدت يدها إلى حقيبة تسوق متجر «ميسيز» التي أعادت استخدامها للمرة الثانية.

- هاه، من حسن الحظ إذن أنني أستطيع إصلاح الأمر من أجلك.

أخرجَت مرآة ذات إطار مذهب، اشترتها من متجر «ذا برايس كلوب» الأسبوع الماضي. كانت هدية منها للتهنئة على الانتقال إلى المنزل الجديد. أسندتها إلى رأس السرير، فوق وسادتين.

قالت الأم مشيرة إلى الجدار في الأعلى:

- علقيها هنا، بحيث تواجه هذه المرآة تلك المرآة الأخرى - هاولي(*)! - وبهذا يتضاعف حظك في زهور الخوخ(**).

- ما حظ زهور الخوخ؟

ابتسمت الأم، وبدت في عينيها لمعة من المكر، وأشارت إلى المرآة قائلة:

(*) «هاولي»: تعني «حسنًا» في اللغة الصينية. (المترجمة).

(**) «زهور الخوخ»: ترمز في الثقافة الصينية إلى الجمال والحب والرومانسية والخصوبة، لذا عندما يقال إن شخصًا ما لديه حظ زهور الخوخ، فهذا يعني أن لديه حظًا جيدًا في العلاقات العاطفية، كما يُستخدم التعبير أحيانًا للإشارة إلى فرص الزواج وإنجاب الأطفال. (المترجمة).

- إنه هنا، انظري داخل المرآة. أخبريني، ألستُ على حق؟ في هذه المرآة يظهر حفيدي المستقبلي، جالسًا بالفعل على حجري في الربيع المقبل.

نظرت الابنة - هاولي! - رأته هناك: انعكاسها يطالعها من داخل المرآة.

لينا سانت كلير

زوج الأرز

حتى يومنا هذا، ما زلت أعتقد أن أمي تمتلك قدرة غامضة على رؤية الأشياء قبل حدوثها، ولديها مقولة صينية تعبر عما تعرفه. تشون وانغ تشي هان: إذا اختفت الشفتان، فستبرد الأسنان. ويعني ذلك، على ما أظن، أن كل شيء هو نتيجة لشيء آخر.

لكنها لا تتنبأ بموعد حدوث الزلازل، أو أداء سوق الأوراق المالية، بل ترى فقط الأمور السيئة التي تمس عائلتنا. وهي تعرف أسبابها، لكنها باتت تشعر بالندم على أنها لم تفعل شيئًا قَطُّ لمنعها.

ذات مرة إبان نشأتي في سان فرانسيسكو، نظرَت إلى شقتنا الجديدة التي كانت قائمة على تل شديد الانحدار، وقالت إن الطفل الذي تحمله في رحمها سيسقط ميتًا، وقد حدث ذلك بالفعل.

وعندما افتُتح متجر لبيع الأدوات الصحية ومستلزمات السباكة مقابل البنك الذي كنا نتعامل معه، قالت أمي إن البنك سيتعرض قريبًا لخسارة جميع أمواله. وبعد شهر واحد، قُبض على أحد موظفي البنك بتهمة الاختلاس.

عقب وفاة أبي العام الماضي، قالت إنها كانت تعرف أن هذا سيحدث، لأن نبتة الفيلودندرون التي أهداها إياها أبي قد ذبلت وماتت، على الرغم من أنها

كانت تسقيها بانتظام. قالت إن جذور النبات قد تضررت، ولم يَعُد بإمكان الماء الوصول إليها. أظهر تقرير التشريح الذي تلقته لاحقًا أن أبي كان يعاني انسدادًا بنسبة تسعين بالمائة في شرايينه قبل أن يموت بنوبة قلبية عن عمر يناهز الرابعة والسبعين. لم يكن أبي صينيًّا مثل أمي، بل كان أمريكيًّا من أصول إنجليزية وأيرلندية، وكان يستمتع بتناول خمس شرائح من لحم الخنزير المقدد وثلاث بيضات مقلية كل صباح.

أتذكر هذه القدرة لدى أمي الآن، لأنها تزورني أنا وزوجي في المنزل الجديد الذي اشتريناه في وودسايد، وأتساءل عما ستراه.

كنت أنا وهارولد محظوظين، لأننا وجدنا هذا المكان، الذي يقع بالقرب من قمة الطريق السريع رقم ٩، تلي ذلك انعطافة إلى اليسار، ثم إلى اليمين، ثم إلى اليسار مرة أخرى عبر ثلاثة تفرعات من طرق ترابية غير محددة، والسبب في كونها غير محددة هو أن السكان دائمًا ما يزيلون اللافتات لمنع دخول الباعة والمطورين ومفتشي البلدية. كنا نبعد أربعين دقيقة فقط بالسيارة من شقة والدتي في سان فرانسيسكو، لكن رحلة العودة من سان فرانسيسكو صارت محنة استغرقت ستين دقيقة عندما كانت أمي معنا في السيارة. فعندما وصلنا إلى الطريق المتعرج ذي المسارين المؤدي إلى القمة، وضعت يدها برفق على كتف هارولد وقالت بهدوء:

- آي، الإطارات تصدر صريرًا.

ثم أضافت بعد قليل:

- هذا يتسبب في كثير من التلف والاستهلاك للسيارة.

ابتسم هارولد وأبطأ سرعته، لكنني رأيت يديه مطبقتين على مقود السيارة الجاجوار، وهو ينظر بتوتر في مرآة الرؤية الخلفية إلى صف السيارات نافدة الصبر الذي يزداد طولًا كل دقيقة. وقد شعرت بالشماتة في أعماقي لرؤية انزعاجه، حيث كان هو دائمًا من يلاحق السيدات المسنات في سياراتهن من طراز بويك،

ويضغط على بوق السيارة ويزيد من دوران المحرك كما لو كان سيصدمهن إن لم يتنحين عن الطريق.

في الوقت نفسه، كرهت نفسي لكوني دنيئة، لاعتقادي أن هارولد يستحق هذا العذاب. ومع ذلك، لم أستطع منع نفسي. كنت غاضبة من هارولد، كما كان هو غاضبًا مني. في ذلك الصباح، قبل أن نذهب لاصطحاب أمي، قال:

- يجب أن تدفعي تكلفة خدمات شركة مكافحة الحشرات، لأن ميروجاي قطتك، ومن ثَمَّ فهي براغيثك أنت. هذا هو العدل.

لم يكن أيٌّ من أصدقائنا ليصدق أننا نتشاجر بسبب شيء تافه مثل البراغيث، لكنهم أيضًا لم يكونوا ليصدقوا أن مشكلاتنا أعمق من ذلك بكثير، عميقة حتى إنني لا أعرف أين ينتهي قرارها.

والآن بعد أن جاءت أمي - وستقيم لمدة أسبوع، أو حتى ينتهي الكهربائيون من إعادة تمديد الأسلاك في بنايتها في سان فرانسيسكو - علينا التظاهر بأن كل شيء على ما يرام.

في هذه الأثناء، ظلت تسأل مرارًا وتكرارًا لماذا تعين علينا دفع كل هذا المبلغ مقابل حظيرة مجددة وحوض سباحة مبطن بالعفن على مساحة أربعة أفدنة، اثنان منها مغطيان بأشجار الخشب الأحمر واللبلاب السام. في الواقع، لم تكن تسأل حقًّا، بل تقول فقط:

- آه، هذا كثير من المال، كثير جدًّا.

بينما كنا نريها أجزاء مختلفة من المنزل والأرض. ودفع تحسرها الدائم هارولد كي يشرح لأمي بعبارات بسيطة:

- حسنًا، كما ترين، فإن التفاصيل هي التي تكلف الكثير، مثل هذه الأرضية الخشبية، التي تم تبييضها يدويًّا، وهذه الجدران هنا بالتأثير الرخامي المرسوم يدويًّا باستخدام الإسفنج. إنه حقًّا يستحق الثمن.

وأومأت أمي برأسها موافقة:

- المبيض والإسفنج يكلفان الكثير.

خلال جولتنا القصيرة في المنزل، اكتشفَت العيوب بالفعل. قالت إن ميل الأرضية يجعلها تشعر كأنها «تركض نزولًا»، كما اعتقدَت أن غرفة الضيوف التي ستقيم فيها - التي كانت في الواقع حظيرة قش سابقًا ذات سقف مائل - لها «جانبان مائلان». ورأت عناكب في الزوايا العالية، وحتى براغيث تقفز في الهواء - باه! باه! باه! - مثل رذاذ الزيت الساخن. أدركت أمي، أنه تحت كل التفاصيل الجميلة التي كلفت كثيرًا، ظل هذا المكان مجرد حظيرة قديمة.

أمكنها رؤية كل ذلك، وأزعجني أنها لا ترى إلا الجوانب السيئة. لكن حين نظرتُ حولي، وجدت أن كل ما قالته صحيح. وجعلني هذا أتيقن أنها تستطيع أيضًا رؤية ما يجري بيني وبين هارولد، وأنها تعرف ما سيحدث لنا، لأنني أتذكر شيئًا آخر رأته عندما كنت في الثامنة من عمري.

نظرت أمي في وعاء الأرز الخاص بي، وأخبرتني بأنني سأتزوج رجلًا سيئًا.

قالت بعد ذلك العشاء منذ سنوات عديدة:

- آي، يا لينا، ستكون لدى زوجك المستقبلي ندبة في وجهه مقابل كل حبة أرز لم تنتهِ من تناولها.

وضعَت وعائي جانبًا وتابعت:

- عرفتُ ذات مرة رجلًا له وجه ممتلئ بالندوب. كان رجلًا لئيمًا، سيئًا.

فكرتُ في ابن الجيران الشرير الذي لديه ندوب صغيرة على وجنتيه، وكان صحيحًا أن تلك العلامات بدت بحجم حبات الأرز. كان هذا الصبي في الثانية عشرة من عمره تقريبًا، واسمه أرنولد.

اعتاد أرنولد إطلاق الأربطة المطاطية على ساقَي كلما مررت بجوار بنايته في طريقي من المدرسة إلى المنزل، وفي إحدى المرات دهس دميتي بدراجته، وحطم ساقيها من تحت الركبتين. لم أرغب في أن يصبح هذا الصبي القاسي زوجي في المستقبل، لذا أمسكت ذلك الوعاء البارد من الأرز، وجمعت الحبات المتبقية ووضعتها في فمي، ثم ابتسمت لأمي، واثقة بأن زوجي المستقبلي لن

يكون أرنولد، بل سيكون شخصًا له وجه أملس كنعومة الخزف في وعائي النظيف الآن.

لكن أمي تنهدت:

- لم تُنهِ الأرز أمس أيضًا.

فكرتُ في حبات الأرز التي لم أتناولها تلك، ثم في حبات الأرز التي ملأت طبقي في اليوم السابق، واليوم الذي قبله أيضًا. ومع مرور كل دقيقة، أخذ قلبي الصغير، الذي لم يتجاوز الثامنة من عمره، يزداد ذعرًا أكثر فأكثر من احتمال أن يكون زوجي المستقبلي هو هذا الصبي الشرير أرنولد. وبفضل عاداتي السيئة في تناول الطعام، سيصبح وجهه البشع في النهاية شبيهًا بالتجاويف الموجودة على القمر.

كان من الممكن أن تكون هذه حادثة طريفة أتذكرها من طفولتي، لكنها في الحقيقة ذكرى أسترجعها بين الحين والآخر بمزيج من الغثيان والندم. لقد بلغ كرهي لأرنولد حدًّا جعلني في النهاية أجد طريقة لأتسبب في موته. تركت الأمور تتوالى، شيء يجر الآخر، وبالطبع، كان من الممكن أن تكون مجرد سلسلة من المصادفات غير المترابطة. وسواء كان الأمر كذلك أم لا، فأنا أعلم أن النية كانت موجودة. لأنني عندما أرغب في حدوث أمر - أو عدم حدوثه - أبدأ بالنظر إلى جميع الأحداث والأشياء بوصفها ذات صلة، كفرصة يجب اغتنامها أو تجنُّبها.

وقد وجدت تلك الفرصة. ففي نفس الأسبوع الذي أخبرتني فيه أمي بشأن وعاء الأرز وزوجي المستقبلي، شاهدت فيلمًا صادمًا في مدرسة الأحد. أذكر أن المعلمة خفضت الأضواء حتى لم نَعُد نرى سوى ظلال بعضنا، ثم نظرت إلينا، غرفة ممتلئة بأطفال صينيين أمريكيين، متململين ومتخمين بالطعام، وقالت:

- هذا الفيلم سيوضح لكم لماذا يجب تقديم العشور للرب، من أجل القيام بعمل الرب.

تابعت حديثها:

- أريد منكم أن تفكروا في ثمن الحلوى التي تشترونها بقيمة خمسة

سنتات، أو أيًّا كانت الكمية التي تتناولونها أسبوعيًّا - من حلوى «جود آند بلينتي»، ورقائق حلوى «نيكو»، وحلوى «جوجوبز» - وقارنوا ذلك بما ستشاهدونه الآن. كما أريدكم أيضًا أن تفكروا في ماهية النعم الحقيقية في حياتكم.

ثم شغلت جهاز العرض، الذي أصدر صوتًا عاليًا. أظهر الفيلم مبشرين في أفريقيا والهند، وقد عمل أصحاب تلك النفوس الطيبة مع أشخاص تورمت سيقانهم حتى أصبحت بحجم جذوع الأشجار، والتوت أطرافهم الخدرة مثل النباتات المتشابكة في الأدغال. لكن أشد هذه المصائب فظاعة كان الرجال والنساء المصابين بالجذام، وقد غطت وجوههم جميع أشكال البؤس التي يمكن تخيُّلها: حفر وبثور، وتشققات ونتوءات، وجروح غائرة كنت على يقين أنها تنفجر بنفس العنف الذي تتلوى به الحلزونات في فراش من الملح. لو كانت أمي في الغرفة، لقالت لي إن هؤلاء المساكين كانوا ضحايا أزواج وزوجات مستقبليين لم يأكلوا أطباقًا كاملة من الطعام.

بعد مشاهدة هذا الفيلم، قمت بفعلة شنيعة. أدركت ما يجب أن أفعله حتى لا أضطر إلى الزواج بأرنولد. بدأت أترك المزيد من الأرز في طبقي، ثم توسعت في هذا التبذير إلى ما هو أبعد من الطعام الصيني. لم أنتهِ من تناول الذرة بالكريمة، والبروكلي، ورقائق ذرة «رايس كريسبيز»، وشطائر زبدة الفول السوداني. ومرة، عندما قضمت قطعة من الحلوى ورأيت كم بدت ممتلئة بالتكتلات، والبقع الداكنة الخفية، واللزوجة الكريمية، ضحيت بها أيضًا.

فكرت في أنه لن يحدث شيء لأرنولد على الأرجح، وأنه قد لا يصاب بالجذام، وينتقل إلى أفريقيا ويموت. وقد وازن هذا بطريقة ما الاحتمال المظلم بأن ذلك قد يحدث بالفعل.

لم يمُت على الفور. في الواقع، حدث ذلك بعد نحو خمس سنوات، وقد أصبحت نحيفة جدًّا بحلول ذلك الوقت. توقفت عن الأكل، ليس بسبب أرنولد، الذي نسيته منذ زمن طويل، بل لأصبح نحيلة وفقًا للموضة وأكون مثل بقية الفتيات

في الثالثة عشرة من أعمارهن، اللواتي كن يتبعن حمية غذائية ويبحثن عن طرق أخرى للمعاناة في مرحلة المراهقة. جلست إلى مائدة الإفطار، أنتظر أمي حتى تنتهي من تحضير كيس غدائي الذي كنت أرميه دائمًا بمجرد انعطافي بعيدًا عن المنزل. كان أبي يأكل بأصابعه، يغمس أطراف شرائح اللحم المقدد في صفار البيض بإحدى يديه، بينما يمسك الصحيفة بالأخرى.

قال وهو لا يزال يغمس اللحم المقدد في الصفار:

- يا إلهي، اسمعي هذا.

وعندها أعلن الخبر: أن أرنولد رايزمان، ذلك الفتى الذي كان يسكن في حينا القديم في أوكلاند، قد توفي بسبب مضاعفات الحصبة. كان قد قُبِل حديثًا في جامعة ولاية كاليفورنيا في هايوارد، وكان يخطط ليصبح طبيب أقدام.

قرأ والدي من الصحيفة:

- تحيَّر الأطباء في بادئ الأمر من هذا المرض، الذي وصفوه بأنه نادر للغاية ويصيب عادة الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين ١٠ و٢٠ عامًا، بعد أشهر أو سنوات من إصابتهم بفيروس الحصبة. وأفادت والدة الفتى بأنه أُصيب بحالة خفيفة من الحصبة عندما كان في الثانية عشرة من عمره. وقد بدأت المشكلات هذا العام عندما أُصيب بمشكلات في التناسق الحركي وخمول عقلي، وتفاقمت الأعراض حتى دخل في غيبوبة، ولم يستعِد الفتى، البالغ من العمر سبعة عشر عامًا، وعيه قَطُّ.

سألني أبي:

- ألم تكوني تعرفين ذلك الفتى؟

وقفتُ صامتة.

قالت أمي وهي تنظر إليَّ:

- هذا مؤسف، هذا مؤسف للغاية.

ظننت أنها تستطيع رؤية ما بداخلي، وأنها تعرف أنني السبب في وفاة أرنولد، وغمرني الرعب.

التهمت الطعام بنهم في غرفتي تلك الليلة. سرقت نصف جالون من آيس كريم الفراولة من الثلاجة، وابتلعت ملعقة تلو الأخرى. بعد ذلك، جلست منحنية لعدة ساعات على سلم الطوارئ خارج غرفتي، أتقيأ في علبة الآيس كريم. وأذكر أنني تساءلت لماذا يجعلني أكل شيء لذيذ أشعر بالسوء الشديد، في حين أن تقيؤ شيء سيئ يجعلني أشعر بالراحة الشديدة.

* * *

فكرة أنني قد أكون السبب في وفاة أرنولد ليست سخيفة إلى هذا الحد. ربما كان مقدرًا له أن يصبح زوجي، لأني أفكر، حتى اليوم، كيف يمكن للعالم بكل فوضاه أن ينسج هذا الكم من المصادفات، وهذا الكم من التشابهات والتناقضات التامة؟ لماذا اختارني أرنولد دون غيري ليعذبني بالأربطة المطاطية؟ وكيف أُصيب بالحصبة في نفس العام الذي بدأت أكرهه فيه بشكل واعٍ؟ ولماذا خطر أرنولد ببالي أصلًا - حين نظرت أمي في وعاء الأرز خاصتي - ثم أصبحت أكرهه إلى هذا الحد؟ أليست الكراهية مجرد نتيجة حب جريح؟

وحتى عندما أتمكن في النهاية من اعتبار كل ذلك ضربًا من السخف، يظل هناك شعور داخلي يخبرني بأن الإنسان غالبًا ينال ما يستحق. لم أنَل أرنولد، بل نلت هارولد.

أعمل أنا وهارولد في نفس شركة الهندسة المعمارية، «ليفوتني وشركاؤه»، إلا أن هارولد ليفوتني شريك في المكتب، بينما أنا مجرد موظفة. تعرفنا إلى بعضنا قبل ثماني سنوات، قبل أن يؤسس شركة «ليفوتني وشركاؤه». كنت في الثامنة والعشرين من عمري، أعمل مساعدة مشروعات، بينما كان هو في الرابعة والثلاثين. كنا نعمل معًا في قسم تصميم وتطوير المطاعم في شركة «هارنيد كيلي آند ديفيس». بدأنا نلتقي على غداءات عمل، للحديث عن المشروعات، واعتدنا دائمًا أن

نقسم الفاتورة مناصفةً، على الرغم من أنني عادة ما كنت أطلب سلطة فقط، لأن وزني يزداد بسهولة. لاحقًا، حين بدأنا نلتقي سرًّا على العشاء، واصلنا تقسيم الفاتورة بنفس الطريقة.

استمررنا على ذلك المنوال فحسب، وقسمنا كل شيء مناصفةً. بل إنني كنت أشجع ذلك، وأحيانًا كنت أصر على دفع كامل الفاتورة: الطعام، والمشروبات، والبقشيش، ولم يزعجني ذلك على الإطلاق.

قال هارولد بعد ستة أشهر من وجبات العشاء التي تناولناها معًا، وخمسة أشهر من اللقاءات الحميمية بعد العشاء، وأسبوع من الاعترافات الغرامية الخجول والسخيفة:

- لينا، أنتِ حقًّا استثنائية.

كنا مستلقيين في السرير، بين ملاءات أرجوانية جديدة اشتريتها له للتو، حيث كانت ملاءاته القديمة البيضاء ملطخة في مواضع فاضحة، وهو أمر غير رومانسي على الإطلاق.

ثم داعب عنقي وهمس:

- لا أظن أنني قابلت امرأة أخرى بهذا القدر من التماسك...

وأذكر أنني شعرت حينها بوخزة خوف عند سماعي عبارة «امرأة أخرى»، لأنني استطعت تخيُّل عشرات، بل مئات النساء المعجبات به، المستعدات لشراء الإفطار والغداء والعشاء لهارولد، ليشعرن بمتعة أنفاسه على بشرتهن.

ثم عض عنقي وأضاف على عجل:

- ولا أي شخص ناعم ورقيق ومحبوب مثلك.

وعندها شعرت بقلبي يذوب، وقد فاجأني هذا الإعلان الأخير عن الحب، متسائلة كيف يمكن لشخص مدهش مثل هارولد أن يظن أنني استثنائية.

الآن، وأنا غاضبة من هارولد، يصعب عليَّ تذكر ما كان مميزًا فيه. وأنا أعلم أن صفاته الحميدة موجودة، لأنني لم أكن غبية إلى درجة أن أقع في حبه وأتزوجه من دون سبب. كل ما أتذكره هو مدى سعادتي الغامرة، ومن ثَمَّ مدى قلقي من

أن كل هذا الحظ غير المستحق سيتلاشى يومًا ما. عندما تخيلت الانتقال للعيش معه، استرجعت أيضًا أعمق مخاوفي: أن يخبرني بأن رائحتي كريهة، أو أن عاداتي في الحمام مقززة، أو أن ذوقي في الموسيقى والبرامج التلفزيونية مريع. خشيت أن يحصل هارولد يومًا ما على وصفة طبية جديدة لنظارته، فيرتديها ذات صباح، ويطالعني من رأسي حتى قدمي ويقول: «يا إلهي، أنتِ لست الفتاة التي ظننتُها، أليس كذلك؟».

وأظن أن ذلك الشعور بالخوف لم يفارقني قَطُّ، الخوف من أن يُكشف أمري في يوم ما، وأنفضح بوصفي امرأة مخادعة. لكن مؤخرًا، أخبرتني صديقتي روز، التي تخضع حاليًّا للعلاج النفسي بسبب انهيار زواجها، بأن مثل هذه الأفكار شائعة بين النساء أمثالنا.

قالت روز:

- في البداية، ظننت أن السبب هو نشأتي على التواضع الصيني، أو ربما لأنك عندما تكونين صينية يُفترض بك قبول كل شيء، وأن تنسجمي مع التيار وتتبعي طريق التاو ولا تثيري المتاعب. لكن معالجتي النفسية قالت لي: «لماذا تلقين اللوم على ثقافتك أو عرقك؟»، ثم تذكرت أنني قرأت مقالًا عن جيل طفرة المواليد، وكيف أننا نتوقع دائمًا الأفضل، وعندما نحصل عليه نشعر بالقلق من أنه ربما كان ينبغي لنا انتظار المزيد، لأن كل شيء يخضع لمبدأ العائد المتناقص بعد سن معينة.

بعد حديثي مع روز، شعرت بتحسن تجاه نفسي، وفكرت: بالطبع، أنا وهارولد متساويان في كثير من النواحي. فهو ليس وسيمًا بالمعنى التقليدي للكلمة، لكنه صافي البشرة وجذاب بذكائه الحاد. وقد لا أكون فاتنة الجمال، لكن الكثيرات من النساء في صف الأيروبيكس يخبرنني بأنني «غريبة الجمال» بطريقة مميزة، ويشعرن بالغيرة لأن صدري لا يترهل، ولا سيما الآن بعدما أصبح الصدر الصغير هو الرائج. وفوق ذلك، أخبرني أحد عملائي ذات مرة أن لديَّ طاقة وحيوية مذهلتين.

لذا أعتقد أنني أستحق شخصًا مثل هارولد، وأعني ذلك بالمعنى الإيجابي وليس بالمعنى السلبي. نحن متساويان، فأنا أيضًا ذكية، وأتمتع بالحس السليم، كما أنني شديدة الحدس والبديهة. وأنا من أخبرت هارولد بأنه كفء بما يكفي لتأسيس شركته الخاصة.

حين كنا لا نزال نعمل في شركة «هارنيد كيلي آند ديفيس»، قلت له:

- هارولد، هذه الشركة تدرك جيدًا مدى أهمية تعاونك معها، فأنت أشبه بالإوزة التي تبيض ذهبًا. لو بدأت مشروعك الخاص اليوم، لخرجت بأكثر من نصف عملاء الشركة من أصحاب المطاعم.

ضحك قائلًا:

- النصف؟ يا إلهي! هذا هو الحب.

صحت وأنا أشاركه الضحك:

- بل أكثر من النصف! أنت بارع للغاية، وتُعَد الأفضل في مجال تصميم وتطوير المطاعم. أنت تعرف ذلك وأنا أعرفه، كما يعرفه الكثير من مطوري المطاعم أيضًا.

كانت تلك هي الليلة التي قرر فيها «خوض المغامرة»، على حد قوله، وهي عبارة أكرهها شخصيًّا منذ أن تبناها البنك الذي كنت أعمل فيه كشعار لمسابقة لزيادة إنتاجية الموظفين.

لكن مع ذلك، قلت لهارولد:

- هارولد، أريد مساعدتك في خوض هذه المغامرة أيضًا. أعني، ستحتاج إلى المال لتبدأ هذا المشروع.

لكنه رفض تمامًا فكرة أخذ أي مال مني، لا كخدمة، ولا كقرض، ولا كاستثمار، ولا حتى كدفعة أولى لشراكة. قال إنه يقدر علاقتنا كثيرًا ولا يريد أن يلوثها بالمال. وأوضح قائلًا:

- لن أرغب في صدقة، تمامًا كما أنكِ لن ترغبي في ذلك. ما دمنا أبقينا الأمور المالية منفصلة، فسنكون دائمًا على يقين من حبنا لبعضنا.

أردت الاحتجاج قائلة: «لا! أنا لست هكذا حقًّا فيما يتعلق بالمال، على النحو الذي اعتدنا التعامل به. أنا أحب العطاء بحرية. أريد...»، لكنني لم أعرف من أين أبدأ. أردت أن أسأله من هي، من تكون تلك المرأة التي جرحت مشاعره إلى هذا الحد، حتى صار يخشى تقبُّل الحب بكل أشكاله الرائعة. لكن بعد ذلك، سمعت منه ما انتظرت سماعه منذ زمن طويل.

- في الحقيقة، يمكنك مساعدتي إذا انتقلت للعيش معي. أعني، بهذه الطريقة يمكنني الاستفادة من الخمسمائة دولار التي ستدفعينها لي إيجارًا...

قلت على الفور:

- هذه فكرة رائعة.

وأدركت مدى إحراجه من اضطراره إلى طلب الأمر مني بهذه الطريقة. غمرتني سعادة بالغة، إلى درجة أنني لم أكترث حتى بأن إيجار الاستوديو الذي أقيم به يبلغ في الواقع أربعمائة وخمسة وثلاثين دولارًا فقط. إلى جانب ذلك، كانت شقة هارولد أجمل بكثير: شقة بغرفتَي نوم بإطلالة بانورامية على الخليج. كان الأمر يستحق المبلغ الإضافي، بصرف النظر عمن كنت أشاركه السكن.

لذلك، في غضون عام، تركت أنا وهارولد العمل في شركة «هارنيد كيلي آند ديفيس»، وأسس هو شركة «ليفوتني وشركاؤه»، وعملتُ معه هناك منسقة مشروعات. ولا، لم يحصل على نصف عملاء مطاعم شركة «هارنيد كيلي آند ديفيس»، وفي الواقع هددته الشركة بمقاضاته إذا أخذ حتى عميلًا واحدًا خلال العام التالي. كنت أمنحه الدعم والتشجيع في المساء عندما يغلبه الإحباط، وأخبرته بأنه ينبغي له ابتكار تصميمات أكثر جرأة للمطاعم لتمييز نفسه عن الشركات الأخرى.

قلت:

- من عساه يريد بارًا ومطعم شواء آخر مزينًا بالنحاس وخشب البلوط؟ من يريد مطعمًا آخر للمكرونة بتصميم إيطالي عصري أنيق؟ كم عدد الأماكن

التي يمكنك الذهاب إليها وهناك سيارات شرطة تخرج من الجدران؟ هذه المدينة مكتظة بالمطاعم التي كلها مجرد نسخ مكررة من نفس الأفكار القديمة. يمكنك أن تجد لنفسك مساحة خاصة. افعل شيئًا مختلفًا في كل مرة. اجذب مستثمري هونغ كونغ المستعدين لاستثمار أموالهم في الإبداع الأمريكي.

منحني ابتسامته المحبة، تلك التي تقول: «أحبكِ عندما تكونين ساذجة على هذا النحو»، وأحببت نظرته إليَّ بتلك الطريقة.

لذا تلعثمت قائلة بمحبة:

- أنت... أنت... يمكنك إنشاء مطاعم ذات طابع جديد... مثلًا... مثلًا... مطعم باسم «بيت في البراري»! يمكنه تقديم كل أنواع الطعام التي تحضرها الأمهات في المنزل، تقف به أُمٌّ أمام الموقد مرتدية مئزرًا قطنيًّا منقوشًا، ونادلات من الأمهات ينحنين فوق الطاولات ويطلبن منك إنهاء حسائك.

وربما... يمكنك إنشاء مطعم ذي قائمة طعام مستوحاة من الروايات... أطعمة من الروايات... شطائر من روايات لورانس ساندرز البوليسية، أو حلويات من رواية نورا إيفرون «حرقة المعدة». وأيضًا شيء آخر ذو طابع سحري، أو قائم على النكات والمقالب، أو...

أخذ هارولد بنصيحتي بالفعل، وأخذ تلك الأفكار وطبَّقها بطريقة مدروسة ومنهجية، وجعلها تتحقق. لكنني ما زلت أتذكر أن الفكرة كانت فكرتي.

واليوم، أصبحت شركة «ليفوتني وشركاؤه» شركة نامية تضم اثنَي عشر موظفًا بدوام كامل، متخصصة في تصميم المطاعم ذات الطابع الخاص، وهو ما زلت أحب أن أسميه «الطعام المستوحى من موضوع معين». هارولد هو صاحب الأفكار، والمهندس الرئيسي، والمصمم، وهو الشخص الذي يقدم العرض النهائي للعميل الجديد. أما أنا، فأعمل تحت إشراف مصمم الديكور الداخلي، لأن هارولد يرى أنه لن يكون من العدل تجاه الموظفين

الآخرين أن يرقيني لمجرد أننا متزوجان الآن - كان ذلك قبل خمس سنوات، بعد عامين من تأسيسه شركة «ليفوتني وشركاؤه». وعلى الرغم من أنني بارعة جدًّا في عملي، فإنني لم أتلقَّ أي تدريب رسمي في هذا المجال. ففي أثناء دراستي لتخصص الدراسات الأمريكية الآسيوية، التحقت بدورة واحدة فقط ذات صلة، في تصميم ديكور المسرح، وذلك من أجل إنتاج مسرحي جامعي لأوبرا «مدام بترفلاي».

يتضمن عملي في شركة «ليفوتني وشركاؤه» اقتناء عناصر الديكور الخاصة التي تتماشى مع طابع كل مطعم. في أحد المطاعم التي حملت اسم «ذا فيشرمانز تيل»، كان أحد اكتشافاتي الثمينة قاربًا خشبيًّا مطليًّا باللون الأصفر، نُقش عليه اسم «أوفربورد»، وكنت أنا من فكرت في تعليق قوائم الطعام على صنارات صيد مصغرة، وفي طباعة مساطر على المناديل لتحويل البوصات إلى أقدام. وبالنسبة إلى مطعم آخر مستوحى من «لورانس العرب» يحمل اسم «تراي شيخ»، كنت أنا من فكر في أن المكان يجب أن يكون له طابع البازار، ووجدت مجسمات كوبرا ترقد فوق صخور هوليوودية زائفة.

أحب عملي عندما لا أفكر فيه كثيرًا. لكن عندما أفكر فيه: في المبلغ الذي أتقاضاه، ومدى جديتي في العمل، ومدى عدالة هارولد مع الجميع باستثنائي، أشعر بالضيق.

لذا فنحن متساويان في الحقيقة، باستثناء أن هارولد يكسب نحو سبعة أضعاف ما أكسبه أنا. وهو يعلم هذا أيضًا، لأنه هو من يوقع على شيك راتبي الشهري، ثم أودعه أنا في حسابي البنكي المنفصل.

لكن فكرة المساواة هذه بدأت تزعجني مؤخرًا. شغلت بالي من دون أن أدرك ذلك بوضوح، لكنني شعرت ببعض الارتباك بشأن شيء ما. ثم اتضح لي كل شيء فجأة قبل أسبوع تقريبًا. انشغلت بترتيب أطباق الإفطار، بينما هارولد يدير محرك السيارة استعدادًا لذهابنا إلى العمل، ورأيت الصحيفة مفتوحة على طاولة المطبخ، وفوقها نظارة هارولد، وفنجان قهوته المفضل ذو المقبض

المكسور موضوع بجانبها. ولسبب ما، فإن رؤية كل هذه العلامات الصغيرة التي تدل على الألفة المنزلية، وطقوسنا اليومية، جعلتني أذوب من الداخل. بدا الأمر أشبه بشعوري عند رؤيتي لهارولد في المرة الأولى التي مارسنا فيها الحب، ذلك الشعور بالاستسلام الكامل له، من دون تردد، ومن دون الاهتمام بما سأحصل عليه في المقابل.

عندما ركبت السيارة، كان ذلك الشعور لا يزال يغمرني، فلمست يده وقلت:

- أحبك يا هارولد.

فنظر إلى مرآة الرؤية الخلفية وهو يرجع بالسيارة إلى الوراء وقال:

- وأنا أيضًا أحبك. هل أغلقتِ الباب؟

وحينها بدأت أفكر: هذا ليس كافيًا.

لوح هارولد بمفاتيح السيارة وقال:

- سأنزل لشراء بعض الأشياء للعشاء. هل شرائح اللحم مناسبة؟ هل تريدين شيئًا خاصًا؟

قلت وأنا أومئ برأسي خفية نحو أمي، التي أولتني ظهرها:

- لقد نفد الأرز.

كانت تطل من نافذة المطبخ إلى تعريشة الجهنمية. ثم خرج هارولد من الباب، وسمعتُ صوت محرك السيارة العميق وصوت الحصى تحت العجلات وهو يقود سيارته مبتعدًا.

أصبحت أنا وأمي وحدنا في المنزل. بدأتُ أسقي النباتات، بينما وقفت هي على أطراف أصابعها تحدق إلى قائمة معلقة على باب الثلاجة.

كُتب على القائمة «لينا» و«هارولد»، وتحت كل اسم قائمة بالأشياء التي اشتريناها مع أسعارها:

لينا	هارولد
دجاج، خضراوات، خبز، بروكلي، شامبو، بيرة ١٩,٦٣ دولار	أغراض للجراج ٢٥,٣٥ دولار
ماريا (تنظيف + بقشيش) ٦٥ دولارًا	أغراض للحمام ٥,٤١ دولار
بقالة (انظر قائمة التسوق) ٥٥,١٥ دولار	أغراض للسيارة ٦,٥٧ دولار
زهور البيتونيا، تربة زراعية ١٤,١١ دولار	مصابيح للإضاءة ٨٧,٢٦ دولار
تحميض الصور ١٣,٨٣ دولار	حصى لممر السيارات ١٩,٩٩ دولار
	بنزين ٢٢ دولارًا
	فحص عوادم السيارة ٣٥ دولارًا
	سينما وعشاء ٦٥ دولارًا
	آيس كريم ٤,٥٠ دولار

بالنظر إلى سير الأمور هذا الأسبوع، أنفق هارولد بالفعل أكثر مني بمقدار مائة دولار، لذا سأدين له بنحو خمسين دولارًا من حسابي الجاري.

سألتني أمي بالصينية:

- ما هذا المكتوب هنا؟

قلت بأكبر قدر ممكن من اللامبالاة:

- أوه، لا شيء في الحقيقة. مجرد أشياء نتشاركها.

نظرت إليَّ بتجهم، لكنها لم تقل شيئًا. عادت إلى قراءة القائمة، هذه المرة بإمعان أكبر، وهي تمرر إصبعها على كل بند.

غلبني الشعور بالحرج، حيث أدركتُ ما تفكر فيه الآن. لكنني أحسست بالارتياح لأنها لم ترَ النصف الآخر من الموضوع، أي النقاشات التي دارت بشأنه. بعد محادثات لا حصر لها، توصلت أنا وهارولد إلى اتفاق بعدم إدراج الأشياء الشخصية مثل «الماسكارا»، و«كريم الحلاقة»، و«مثبت الشعر»، أو «شفرات الحلاقة»، و«الفوط الصحية»، أو «بودرة علاج فطريات القدم».

عندما تزوجنا في مبنى البلدية، أصر هو على دفع الرسوم، وطلبت من صديقي روبرت التقاط الصور. أقمنا حفلة في شقتنا، وأحضر الجميع الشمبانيا. وعندما اشترينا المنزل، اتفقنا على أن أدفع نسبة مئوية فقط من الرهن العقاري يتناسب مع دخلي مقارنة بدخله، وأن أمتلك نسبة مئوية مكافئة من الممتلكات المشتركة، وقد وُثِّق ذلك في اتفاقية ما قبل الزواج. ونظرًا إلى أن هارولد يدفع أكثر، كان له الحق في اتخاذ القرار النهائي بشأن شكل المنزل، الذي بدا أنيقًا وبسيطًا، و«انسيابيًّا» حسب تعبيره، من دون أي شيء يخل بالترتيب، أي من دون وجود الفوضى التي تميز ذوقي الشخصي. أما بالنسبة إلى الإجازات، فتلك التي نختارها معًا ندفع تكاليفها بالتساوي. أما الإجازات الأخرى فيدفع هارولد تكاليفها، على أساس أنها هدية عيد ميلاد أو هدية ذكرى زواج.

وقد خضنا نقاشات فلسفية حول الأمور التي ليست لها حدود واضحة، مثل حبوب منع الحمل التي أتناولها، أو وجبات العشاء في المنزل عندما نستضيف أشخاصًا هم في الحقيقة عملاء له، أو أصدقائي القدامى من أيام الجامعة، أو مجلات الطهو التي أشترك بها لكنه يقرأها من باب الملل، لا لأنه كان سيختارها بنفسه.

وما زلنا نتجادل حتى الآن بشأن ميروجاي، القطة: ليست قطتنا، أو قطتي، بل القطة التي أهداني إياها في عيد ميلادي العام الماضي.

صاحت أمي بصوت مندهش:

- أنتِ لا تشاركينه هذا!

فتعجبتُ، معتقدة أنها قرأت أفكاري بخصوص ميروجاي، لكنني رأيت أنها تشير إلى «الآيس كريم» في قائمة هارولد. لا بد أن أمي تذكرت الحادثة التي وقعت على سلم الطوارئ حيث وجدتني أرتجف وأنا منهكة، جالسة بجانب علبة الآيس كريم التي تقيأت فيها. ومنذ ذلك الحين، لم أعد أتحمل مجرد فكرة تناوله. ثم صُدمتُ مجددًا عندما أدركت أن هارولد لم يلاحظ قَطُّ أنني لا آكل الآيس كريم الذي يحضره إلى المنزل كل مساء جمعة.

بدت نبرة أمي متألمة، كما لو أنني وضعت القائمة لإيذائها:

- لماذا تفعلين هذا؟

فكرتُ في كيفية تفسير الأمر لها، متذكرة العبارات التي استخدمتها أنا وهارولد مع بعضنا في الماضي: «حتى نتمكن من التخلص من التبعية الزائفة... ونكون متساويين... ونحب من دون التزام...»، لكنها كلمات لن تتمكن أمي من فهمها أبدًا.

لذا قلت لها بدلًا من ذلك:

- لا أعرف حقًّا. إنه شيء بدأناه قبل زواجنا، ولسبب ما، لم نتوقف عنه قَطُّ.

عندما عاد هارولد من المتجر، بدأ في إشعال الفحم، بينما أفرغت أكياس البقالة، وتبَّلت شرائح اللحم، وطهوت الأرز، وجهزت المائدة. جلست أمي على كرسي عند الطاولة الرخامية، تشرب من فنجان القهوة الذي صببته لها، وظلت كل بضع دقائق تمسح أسفل الفنجان بمنديل ورقي تحفظه في كم سترتها.

خلال العشاء، أبقى هارولد الحديث دائرًا، وتكلم عن خططه المتعلقة بالمنزل: نوافذ السقف، وتوسيع الشرفة، وزراعة أحواض زهور التوليب والزعفران، وإزالة اللبلاب السام، وإضافة جناح آخر، وبناء حمام مبلط على الطراز الياباني. بعد ذلك، بدأ يجمع الأطباق ويكدسها في غسالة الأطباق.

قال وهو يفتح باب الفريزر:

- من مستعد لتناول الحلوى؟

أجبته:

- لقد شبعت.

قالت أمي:

- لينا لا تستطيع تناول الآيس كريم.

- هكذا يبدو، فدائمًا ما تحاول اتباع حمية غذائية.

- لا، إنها لا تأكله أبدًا، فهي لا تحبه.

ابتسم هارولد ونظر إليَّ بحيرة، منتظرًا أن أترجم له ما قالته أمي.
قلت بهدوء:
- هذا صحيح، لقد كرهتُ الآيس كريم طوال حياتي تقريبًا.
نظر إليَّ هارولد، كما لو كنت أنا أيضًا أتحدث الصينية ولم يفهمني.
- أعتقد أنني افترضت أنك تحاولين إنقاص وزنك فحسب... حسنًا.
قالت أمي:
- لقد أصبحت نحيفة للغاية إلى درجة أنه لم تَعُد بوسعك رؤيتها. باتت كالشبح، واختفت.
قال هارولد ضاحكًا، معتقدًا أن أمي تحاول إنقاذ الموقف بلطف:
- صحيح! يا إلهي، هذا رائع!
بعد العشاء، وضعتُ مناشف نظيفة على السرير في غرفة الضيوف. جلست أمي على السرير، في الغرفة التي تتميز بديكور هارولد البسيط: سرير مزدوج بملاءات بيضاء وبطانية بيضاء، وأرضية خشبية مصقولة، وكرسي من خشب البلوط المُبيض، ولا شيء يزين الجدران المائلة الرمادية.
تمثل الديكور الوحيد بالغرفة في قطعة أثاث غريبة الشكل بجانب السرير: طاولة جانبية مصنوعة من لوح رخامي غير متساوي الحواف، لها أرجل رفيعة متقاطعة من الخشب المطلي بالورنيش الأسود. وضعت أمي حقيبة يدها على الطاولة، فبدأت المزهرية الأسطوانية السوداء الموجودة فوقها تهتز، واهتزت زهور الفريزيا بداخلها.
قلت:
- حذارِ، هذه الطاولة ليست ثابتة تمامًا، كانت قطعة أثاث سيئة التصميم، صنعها هارولد في أيام دراسته. لطالما تساءلتُ عن سبب فخره بها، فخطوطها غير متقنة، ولا تحمل أيًّا من سمات «الانسيابية» التي يوليها هارولد أهمية كبيرة هذه الأيام.
سألتني أمي وهي تهز الطاولة بيدها:

- ما فائدتها؟ إذا وضعت شيئًا آخر فوقها، فسوف يسقط كل شيء. تشون وانغ تشي هان.

تركت أمي في غرفتها، وعدت إلى الطابق السفلي، حيث فتح هارولد النوافذ ليدخل هواء الليل. اعتاد فعل ذلك كل مساء.

قلت:

- أشعر بالبرد.

- ماذا؟

- هل يمكنك إغلاق النوافذ، من فضلك؟

نظر إليَّ، وتنهد وابتسم، ثم أغلق النوافذ وجلس بعدها على الأرض متربعًا وفتح مجلة. جلستُ على الأريكة، أغلي من الداخل، من دون أن أعلم السبب. ليس الأمر أن هارولد قد أخطأ، بل كان كعهده دائمًا فحسب.

وقبل حتى أن أبدأ في الأمر، أدركتُ أنني أفتعل شجارًا أكبر مما أستطيع التعامل معه، لكنني أقدمت على ذلك على أي حال. ذهبت إلى الثلاجة وشطبت كلمة «آيس كريم» من جانب هارولد في القائمة.

- ما الذي يحدث هنا؟

- لا أعتقد أنك يجب أن تحصل على ثمن الآيس كريم بعد الآن.

هز كتفيه قائلًا بتهكم:

- كما تريدين.

صرختُ فيه:

- لماذا عليك التزام الإنصاف إلى هذا الحد المزعج؟

وضع هارولد مجلته جانبًا، وبدا على وجهه تعبير من الدهشة والغضب.

- ما هذا؟ لماذا لا تقولين ما المشكلة حقًّا؟

- لا أعلم... لا أعلم. كل شيء... طريقة حسابنا لكل شيء. ما نتشاركه، وما

لا نتشاركه. لقد تعبت، تعبت من العد والجمع والطرح، حتى يصبح كل شيء متساويًا. سئمت من هذا كله.

- أنتِ من أردتِ القطة.

- ما الذي تتحدث عنه؟

- حسنًا، إذا كنتِ تعتقدين أني غير عادل بشأن تكلفة خدمات شركة مكافحة الحشرات، فسنتحملها مناصفةً.

- ليس هذا هو الموضوع!

- إذن قولي لي، رجاءً، ما الموضوع؟

بدأت في البكاء، وهو أمر أعرف أن هارولد يكرهه، ودائمًا ما يجعله يشعر بالضيق والغضب، فهو يعتقد أن هذا نوع من التلاعب. لكنني لم أستطع التوقف، لأنني أدركت أنني لا أعرف ما المغزى من هذا الجدال. هل أطلب من هارولد أن يعيلني؟ هل أطلب دفع أقل من النصف؟ هل أعتقد حقًّا أننا يجب أن نتوقف عن حساب كل شيء؟ ألن نستمر في حساب الأشياء في أذهاننا؟ ألن ينتهي الأمر بهارولد بدفع المزيد؟ ألن أشعر بالسوء بدرجة أكبر حينها، وبقدر أقل من المساواة؟ أو ربما ما كان ينبغي لنا أن نتزوج من الأساس. ربما كان هارولد رجلًا سيئًا، أو ربما أكون أنا من جعلته هكذا.

لم يبدُ أي شيء من هذا صحيحًا، ولا شيء منطقيًّا. لم أستطع الاعتراف بأي شيء، وغلبني اليأس التام.

قلت، عندما ظننت أنني قادرة على السيطرة على صوتي:

- أعتقد فقط أننا بحاجة إلى تغيير الأمور.

لكن بقية الكلام خرجت في نبرة أشبه بالنحيب:

- علينا أن نفكر في الأساس الحقيقي لزواجنا... وليس في كشف الحساب هذا، ومن يدين لمن بماذا.

قال هارولد:

- اللعنة!

ثم تنهد واتكأ إلى الخلف، كأنه يفكر في الأمر. أخيرًا، قال بصوت يبدو عليه الألم:

- حسنًا، أعلم أن زواجنا قائم على أكثر من مجرد كشف حساب، أكثر من ذلك بكثير. وإن لم تكوني تعرفين ذلك، فأعتقد أنك بحاجة إلى التفكير فيما تريدينه حقًّا قبل أن تغيري أي شيء.

لم أعد أعلم ما الذي ينبغي أن أفكر فيه. ماذا أقول؟ وماذا يقول هو؟ جلسنا في الغرفة من دون أن ننطق بكلمة، وبدا الهواء خانقًا. نظرت من النافذة، وفي الأفق البعيد رأيت الوادي تحتنا، حيث تلتمع آلاف الأضواء المتلألئة وسط ضباب الصيف. ثم سمعت صوت تحطم زجاج في الطابق العلوي، تلاه صوت كرسي يحتك بالأرضية الخشبية.

همَّ هارولد بالنهوض، لكنني قلت:

- لا، سأذهب أنا.

وجدت الباب مفتوحًا، لكن الغرفة كانت مظلمة، لذا ناديت:

- أمي؟

رأيت المشهد على الفور: انهارت الطاولة الرخامية الجانبية فوق أرجلها السوداء النحيلة. وإلى جانبها سقطت المزهرية السوداء، وقد انكسرت الأسطوانة الناعمة إلى نصفين، وتناثرت زهور الفريزيا وسط بركة من الماء.

ثم رأيت أمي جالسة بجانب النافذة المفتوحة، وظلها الداكن بارز على خلفية السماء الليلية. استدارت في كرسيها، لكنني لم أستطع رؤية وجهها.

قالت ببساطة:

- لقد سقطت.

ولم تقدم اعتذارًا.

بدأتُ ألتقط شظايا الزجاج المكسور، وقلت:

- لا يهم، كنت أعلم أن ذلك سيحدث.

سألتني أمي:

- إذن، لماذا لم تمنعيه من الحدوث؟

وكان سؤالًا بسيطًا جدًّا.

ويفرلي جونغ

أربع جهات

اصطحبت أمي لتناول الغداء في مطعمي الصيني المفضل على أمل تحسين حالتها المزاجية، لكن الأمر كان كارثيًا.

عندما التقينا في مطعم «فور دايركشنز»، رمقتني بنظرة استهجان على الفور، وقالت بالصينية:

- آي-ياه! ما الذي حدث لشعرك؟

أجبتها:

- ماذا تقصدين بقولك «ما الذي حدث»؟ لقد قصصته.

كان السيد روري قد صفف شعري بشكل مختلف هذه المرة، وصمم لي غرة مائلة ذات أطراف حادة، أقصر من الجانب الأيسر. بدت عصرية، لكن بشكل غير مبالغ فيه.

قالت أمي:

- يبدو كأن أحدهم جزه جزًّا. يجب أن تطلبي استرداد نقودك.

تنهدتُ وقلت:

- دعينا نستمتع بغداء لطيف معًا فحسب، حسنًا؟

زمَّت شفتيها وتغضن أنفها وهي تطالع قائمة الطعام، وتمتمت:

- لا يوجد الكثير من الأطباق الشهية في هذه القائمة.

ثم نادت النادل، ومسحت عيدان الطعام بإصبعها، وشمتها قائلة:

- هل تتوقع مني أن أتناول الطعام بهذا الشيء الدهني؟

بعدها تظاهرت بغسل وعاء الأرز خاصتها بالشاي الساخن، ثم حذرت روَّاد المطعم الآخرين الجالسين بالقرب منا وطلبت منهم فعل الشيء نفسه. وطلبَت من النادل التأكد من كون الحساء ساخنًا جدًّا، وبالطبع، وفقًا لتقدير لسانها الخبير «لم يكن فاترًا حتى».

قلتُ لأمي بعد أن اعترضَت على إضافة دولارين لفاتورة الحساب لأنها طلبت شاي زهرة الأقحوان بدلًا من الشاي الأخضر العادي:

- لا ينبغي أن تنفعلي هكذا. علاوة على ذلك، فالتوتر غير الضروري ليس صحيًّا بالنسبة إلى قلبك.

رمت النادل بنظرة ازدراء، وزفرت قائلة:

- لا يشكو قلبي أي علة.

وكانت محقة في ذلك، فعلى الرغم من كل التوتر الذي تفرضه على نفسها - وعلى الآخرين - فقد أعلن الأطباء أن أمي، البالغة من العمر تسعة وستين عامًا، لديها ضغط دم يماثل ضغط دم فتاة في السادسة عشرة من عمرها وتتمتع بقوة حصان. وكانت هكذا بالفعل: حصانًا، وُلدت في عام ١٩١٨، مُقدرًا لها أن تكون عنيدة وصريحة إلى درجة الفظاظة. وأنا وهي لا نتوافق معًا، لأنني من مواليد عام ١٩٥١، أي من برج الأرنب، ويُفترض أنني حساسة بطبيعتي، أميل إلى الحساسية المفرطة والتوتر عند أول بادرة من النقد.

بعد غدائنا البائس، تخليت عن فكرة أنه سيكون هناك وقت مناسب لإبلاغها بالخبر: أنا وريتش شيلدز سنتزوج.

سألتني صديقتي مارلين فيربر عبر الهاتف الليلة الماضية:

- لماذا أنتِ متوترة هكذا؟ ليس الأمر كما لو أن ريتش من حثالة المجتمع، فهو محامي ضرائب مثلكِ بحق السماء. كيف يمكنها انتقاد ذلك؟

قلت:

- أنتِ لا تعرفين أمي. فهي لا تعتقد أبدًا أن أي شخص كفء لأي شيء.

قالت مارلين:

- إذن اهربي معه وتزوجيه.

- هذا ما فعلته مع مارفن.

كان مارفن زوجي الأول، وحبيبي أيام المدرسة الثانوية.

قالت مارلين:

- ها قد فعلتِها إذن من قبل.

قلت:

- عندما اكتشفت أمي الأمر، رمتنا بحذائها. وكان ذلك مجرد البداية.

لم تكن أمي قد التقَت ريتش من قبل. في الواقع، كلما ذكرتُ اسمه - عندما قلت، على سبيل المثال، إن ريتش اصطحبني إلى الحفل السيمفوني، أو إنه أخذ ابنتي البالغة من العمر أربع سنوات، شوشانا، إلى حديقة الحيوان - كانت أمي تجد طريقة لتغيير الموضوع.

قلت بينما كنا ننتظر فاتورة الغداء في مطعم «فور دايركشنز»:

- هل أخبرتك كم استمتعت شوشانا بوقتها مع ريتش في متحف الاستكشاف العلمي؟ إنه...

قاطعتني أمي:

- أوه، لم أخبرك، قال الأطباء إن والدك ربما يحتاج إلى جراحة استكشافية، لكن لا، الآن يقولون إن كل شيء طبيعي، وإنه يعاني فقط إمساكًا شديدًا. عندها استسلمتُ، ثم اتبعنا روتيننا المعتاد.

دفعتُ الفاتورة بورقة مالية من فئة عشرة دولارات، وثلاث ورقات مالية من فئة الدولار، فسحبت أمي الأوراق المالية التي من فئة الدولار، وعدَّت الباقي بالضبط، ثلاثة عشر سنتًا، ووضعته على الصينية، موضحة بحزم:

- لا بقشيش!

وأرجعت رأسها إلى الوراء بابتسامة ظافرة. وعندما ذهبت أمي إلى الحمام، أعطيتُ النادل ورقة نقدية من فئة خمسة دولارات، فأومأ إليَّ بتفهم شديد. في أثناء غيابها، وضعتُ خطة أخرى.

غمغمت أمي عقب عودتها:

- تشوزل! الرائحة كريهة للغاية هناك!

دفعت نحوي عبوة صغيرة من المناديل الورقية، حيث لم تكن تثق بورق المرحاض الخاص بالآخرين، وسألتني:

- هل تحتاجين إلى دخول الحمام؟

هززتُ رأسي، وقلت:

- لكن قبل أن أوصلكِ إلى البيت، دعينا نتوقف عند شقتي سريعًا. هناك شيء أريد أن أريك إياه.

لم تزُر أمي شقتي منذ شهور. عندما تزوجتُ لأول مرة، اعتادت زيارتي من دون سابق إنذار، إلى أن اقترحت عليها ذات يوم الاتصال أولًا قبل المجيء. ومنذ ذلك الحين، رفضت أن تأتي إلا إذا وجهت إليها دعوة رسمية.

لذا راقبتها، وأنا أرى رد فعلها على التغييرات التي طرأت على شقتي - من المسكن النظيف المرتب الذي حافظت عليه بعد الطلاق، عندما أصبح لديَّ فجأة الكثير من الوقت لترتيب حياتي - إلى هذه الفوضى الحالية، منزل ممتلئ بالحياة والحب. امتلأت أرضية الردهة بلعب شوشانا، كلها قطع متناثرة من البلاستيك زاهي الألوان. وكانت هناك مجموعة من أثقال ريتش الحديدية في غرفة المعيشة، وكأسان قذرتان على طاولة القهوة، وبقايا هاتف مفتوح فككته شوشانا وريتش في اليوم السابق لمعرفة من أين تأتي الأصوات.

قلت:

- هنا، في الخلف.

واصلنا السير حتى وصلنا إلى غرفة النوم الخلفية، حيث كان السرير غير مرتب، وأدراج الخزانة مفتوحة وتتدلى منها الجوارب وربطات العنق. خطت أمي فوق الأحذية الرياضية، والمزيد من لعب شوشانا المتناثرة، وحذاء ريتش الأسود، وأوشحتي، وكومة من القمصان البيضاء التي عادت للتو من المغسلة.

بدت في عينيها نظرة إنكار مؤلم، ذكرتني بوقت بعيد عندما اصطحبتني أنا وشقيقَي إلى عيادة لتلقي جرعات منشطة من لقاح شلل الأطفال. عندما انغرست الإبرة في ذراع أخي وصرخ، نظرت إليَّ أمي بوجه يكسوه الألم وطمأنتني قائلة:

- المرة المقبلة لن تؤلم.

لكن الآن، كيف يمكن لأمي ألا تلاحظ أننا نعيش معًا؟ وأن الأمر جدي ولن يزول حتى لو تجاهلته؟ كان لا بد أن تقول شيئًا.

ذهبتُ إلى الخزانة وعدت بسترة من فرو المنك قدمها لي ريتش في عيد الميلاد. كانت أغلى هدية تلقيتها في حياتي.

ارتديت السترة، وقلت بتوتر:

- إنها هدية سخيفة نوعًا ما، فنادرًا ما يكون الجو باردًا في سان فرانسيسكو إلى درجة تسمح بارتداء فرو المنك. لكن يبدو أنها موضة، ما يشتريه الناس لزوجاتهم وحبيباتهم هذه الأيام.

ظلت أمي صامتة، ونظرت إلى خزانتي المفتوحة، الممتلئة برفوف الأحذية، وربطات العنق، وفساتيني، وبدلات ريتش، ثم مررت أصابعها على فرو المنك. قالت أخيرًا:

- هذه ليست جيدة، فهي مصنوعة من بقايا القصاصات فحسب، والفرو قصير جدًّا، لا يوجد به شعر طويل.

احتججت قائلة، وأنا مجروحة بشدة:

- كيف يمكنكِ انتقاد هدية! لقد أهداني إياها من قلبه!

قالت:

- لهذا أشعر بالقلق.

طالعتُ السترة في المرآة، ولم تَعُد بوسعي مقاومة قوة إرادتها، وقدرتها على جعلي أرى الأسود حيث كان الأبيض، والأبيض حيث كان الأسود. بدت السترة رخيصة، تقليدًا للحب الحقيقي.

سألتها بصوت خافت:

- ألن تقولي أي شيء آخر؟

- ماذا عساي أن أقول؟

أشرت إلى كل العلامات المتناثرة التي تدل على وجود ريتش، وقلت:

- عن الشقة، وعن هذا؟

تجولت بنظرها في الغرفة، ونظرت نحو الردهة، ثم قالت أخيرًا:

- لديك مهنة، وأنت منشغلة بعملك، وإذا أردتِ العيش في فوضى، فماذا يمكنني أن أقول؟

تعرف أمي جيدًا كيف تضغط على الجرح، وبدا الألم الذي شعرتُ به أسوأ من أي نوع آخر من المعاناة، لأن ما تفعله دائمًا يأتي كصدمة، تمامًا كصدمة كهربائية، تترسخ في ذاكرتي إلى الأبد. ما زلت أتذكر المرة الأولى التي شعرت فيها بذلك.

* * *

كنت في العاشرة من عمري، وعلى الرغم من صغر سني، أدركت أن موهبتي في لعب الشطرنج هي هبة من الرب. كان الأمر في غاية السهولة، ولم أبذل أي جهد. رأيت على رقعة الشطرنج أشياء عجز الآخرون عن رؤيتها، وتمكنت من إنشاء حواجز لحماية نفسي لا يراها خصومي. وقد منحتني هذه الموهبة ثقة كبيرة بنفسي. كنت أعرف ما سيفعله خصومي، حركة تلو الأخرى. وكنت أعلم بالضبط في أي لحظة ستتغير تعابير وجوههم عندما تكشف استراتيجيتي التي تبدو بسيطة وطفولية عن نفسها كمسار مدمر ولا رجعة فيه. أحببت الفوز.

وقد أحبت أمي التباهي بي، كأنني واحدة من جوائزي الكثيرة التي تلمعها. وكانت تتحدث عن مبارياتي كأنها هي من ابتكرت الاستراتيجيات.

قالت ذات مرة لصاحب متجر:

- قلت لابنتي: «استخدمي خيولكِ لسحق الخصم»، وفازت سريعًا بهذه الطريقة.

وقد قالت هذا بالفعل قبل المباراة، هذا وغيره من مئات الأشياء الأخرى التافهة التي لا علاقة لها بفوزي.

وكانت تسر لأصدقاء الأسرة الذين يأتون للزيارة:

- لا يحتاج المرء إلى الذكاء الشديد كي يفوز في الشطرنج، فالأمر قائم على الحيل فحسب. عليك أن تهب من الشمال والجنوب والشرق والغرب، حتى يغلب الطرف الآخر الارتباك، ولا يعرف في أي اتجاه يهرب.

كرهتُ الطريقة التي حاولَت بها أن تنسب الفضل كله إلى نفسها، وذات يوم أخبرتها بذلك، وصرختُ بها في شارع ستوكتون، وسط حشد من الناس. قلت لها إنها لا تعرف شيئًا، لذا فلا حاجة بها إلى التباهي، وإن عليها التزام الصمت، أو كلمات بهذا المعنى.

لم تتحدث إليَّ في ذلك المساء ولا في اليوم التالي، واكتفت بتوجيه كلمات جافة إلى أبي وشقيقَي، كما لو أنني أصبحت غير مرئية للعيان، وهي تتحدث عن سمكة فاسدة رمتها، لكنها خلفت وراءها رائحة كريهة.

كنت أعرف هذه الاستراتيجية، الطريقة الماكرة لدفع أحدهم للرد بغضب والوقوع في فخ، لذا تجاهلتها. رفضتُ الكلام وانتظرتها لتأتي إليَّ.

بعد مرور عدة أيام في صمت، جلست في غرفتي، أحدق إلى المربعات الأربعة والستين على رقعة الشطرنج، محاولة التفكير في طريقة أخرى. وعندها قررت التوقف عن لعب الشطرنج.

بالطبع لم أقصد التوقف إلى الأبد، بل لبضعة أيام فقط على الأكثر. وتعمدت إظهار الأمر، لذا بدلًا من التدرب في غرفتي كل ليلة، كما اعتدت أن أفعل دائمًا،

دخلت إلى غرفة المعيشة وجلست أمام التلفزيون مع شقيقَي، اللذين حدقا إليَّ، كدخيل غير مرغوب فيه. لجأت إلى استغلال شقيقَي لتنفيذ خطتي، وفرقعت أصابعي لإزعاجهما.

صاحا:

- أمي، اجعليها تتوقف عن ذلك. اجعليها تبتعد عنا.

لكن أمي لم تقل شيئًا.

مع ذلك لم أشعر بالقلق، لكني أدركت أنني سأضطر إلى اتخاذ خطوة أقوى. قررت التضحية ببطولة ستقام بعد أسبوع. سأرفض اللعب فيها، وبالتأكيد ستضطر أمي حينها إلى التحدث معي بذلك الشأن، لأن الرعاة والجمعيات الخيرية سيبدأون في الاتصال بها، يسألونها، يصرخون، يتوسلون، كي تجعلني ألعب مرة أخرى.

ثم جاء موعد البطولة وانقضى، ولم تأتِ إليَّ باكية وهي تقول: «لماذا لا تلعبين الشطرنج؟».

لكنني بكيت في أعماقي لأني علمت أن فتى هزمته بسهولة في مناسبتين سابقتين قد فاز.

أدركت حينها أن أمي تعرف من الحيل أكثر مما ظننت، لكنني سئمت من لعبتها. أردت البدء في التدريب من جديد استعدادًا للبطولة المقبلة، لذا قررت التظاهر بأنني سأدعها تفوز، وسأكون أنا من يبدأ الكلام.

أعلنت قائلة لها:

- أنا مستعدة للعب الشطرنج مجددًا.

تخيلت أنها ستبتسم لي، وتسألني بعد ذلك عن الطبق المميز الذي أرغب في تناوله.

لكن بدلًا من ذلك، تجهمت وحدقت إلى عينَي، كما لو أنها تستطيع انتزاع حقيقة ما مني.

أخيرًا، قالت بنبرة حادة:

- لماذا تخبرينني بهذا؟ تظنين أن الأمر بهذه السهولة، تتوقفين في يوم، وتعاودين اللعب في اليوم التالي. تعتقدين أن كل شيء يسير على هذا النحو: بشدة الذكاء والسهولة والسرعة.

تذمرتُ قائلة:

- قلت إنني سأعاود اللعب.

صرخَت، حتى كدت أقفز خارجة من جلدي:

- لا! لم يَعُد الأمر بهذه السهولة.

أخذت أرتجف، مصدومة مما قالته، ولم أفهم ما تعنيه. ثم عدت إلى غرفتي، وحدقت إلى رقعة الشطرنج، ومربعاتها الأربعة والستين، لأحاول إيجاد طريقة لإصلاح هذه الفوضى الرهيبة. وبعد ساعات طويلة من التحديق إلى ذلك النحو، بدأت أصدق بالفعل أنني حوَّلت المربعات البيضاء إلى سوداء والمربعات السوداء إلى بيضاء، وأن كل شيء سيصير على ما يرام.

وبالفعل، تمكنتُ من استعادة اهتمامها، حيث أُصبت بحُمَّى شديدة في تلك الليلة، فجلسَت بجانب سريري ووبختني لأنني ذهبت إلى المدرسة من دون ارتداء سترة. وكانت لا تزال هناك في الصباح أيضًا، وأطعمتني عصيدة الأرز الممزوجة بمرق الدجاج الذي صفته بنفسها، وقالت إنها تطعمني هذا لأنني مصابة بحماق الدجاج، وأن الدجاجة ستعرف كيف تحارب الدجاجة الأخرى. ثم جلسَت على كرسي في غرفتي عصرًا، تحيك لي سترة وردية اللون، وحكت لي عن سترة حاكتها عمتي سويوان لابنتها جون، وكيف كانت غير جذابة ومن أسوأ أنواع الخيوط، فسعدتُ للغاية لأنها عادت إلى طبيعتها المعهودة.

لكن بعد أن تعافيت، اكتشفت أن أمي قد تغيرت بالفعل. لم تَعُد تحوم حولي وأنا أتدرب على ألعاب الشطرنج المختلفة، ولم تَعُد تلمع جوائزي كل يوم، ولم تَعُد تقطع المقالات الصغيرة في الصحف التي تذكر اسمي. بدا الأمر كما لو أنها أقامت جدارًا غير مرئي، وكنت أتلمسه سرًّا كل يوم لأرى مدى ارتفاعه وعرضه.

في البطولة التالية، وعلى الرغم من أنني قدمت أداءً جيدًا بشكل عام، فإن النقاط لم تكن كافية في النهاية، وخسرت. والأسوأ من ذلك، هو أن أمي لم تقل شيئًا. بدت كأنها تشعر بالرضا، كما لو أن ما حدث كان بسبب استراتيجيتها.

شعرتُ بالرعب، وقضيت ساعات طويلة كل يوم أسترجع في ذهني ما خسرته. أدركت أن الأمر لا يقتصر على البطولة الأخيرة فقط. راجعت كل حركة، وكل قطعة، وكل مربع على الرقعة. لم تَعُد بوسعي رؤية الأسلحة السرية لكل قطعة، ولا السحر الكامن في تقاطع كل مربع. لم أعد أرى إلا أخطائي وضعفي. بدا الأمر كأنني فقدت درعي السحرية، ولاحظ الجميع ذلك، ولاحظوا المواطن التي يسهل من خلالها مهاجمتي.

على مدى الأسابيع والأشهر والسنوات التالية، واصلتُ اللعب لكنني لم أشعر قَطُّ بنفس الثقة المطلقة. جاهدت بشدة، بخوف ويأس. شعرت بالامتنان والراحة عند الفوز، أما عند الخسارة فكان الخوف يتزايد بداخلي، والرعب من أنني لم أعد ذات موهبة استثنائية، وأنني فقدت موهبتي وتحوَّلت إلى شخص عادي تمامًا.

وعندما خسرت مرتين أمام ذلك الفتى الذي هزمته بسهولة قبل بضع سنوات، توقفت عن لعب الشطرنج كليًّا، ولم يعترض أحد. كنت حينها في الرابعة عشرة من عمري.

* * *

قالت مارلين عندما اتصلت بها في الليلة التالية لعرضي السترة المصنوعة من فرو المنك على أمي:

- أتعلمين، أنا حقًّا لا أفهمك. يمكنكِ أن تطلبي من مسؤولي مصلحة الضرائب الذهاب إلى الجحيم، لكنك لا تستطيعين الوقوف في وجه والدتك.
- دائمًا ما أنوي ذلك، لكنها تبدأ في إلقاء تلك العبارات الماكرة الصغيرة، وتلقي القنابل الدخانية والانتقادات اللاذعة، و...

قالت مارلين:

- لماذا لا تطلبين منها التوقف عن تعذيبك؟ قولي لها أن تتوقف عن تدمير حياتك، وأن تخرس تمامًا.

أطلقت ضحكة خفيفة، وقلت:

- هذا مضحك للغاية. تريدينني أن أقول لأمي أن تخرس؟

- بالتأكيد، لِمَ لا؟

- حسنًا، لا أعلم إن كان هناك نصٌّ صريح في القانون، لكن لا يمكنك أبدًا أن تطلبي من أُمٍّ صينية أن تخرس. قد يُوجَّه إليكِ اتهام بالمشاركة في جريمة قتلك.

لم أكن خائفة من أمي بقدر ما شعرت بالخوف على ريتش. كنت أعرف بالفعل ما ستفعله، وكيف ستهاجمه، وكيف ستنتقده. ستظل صامتة في البداية، ثم تلقي كلمة عن أمر تافه، شيء لاحظته، ثم كلمة ثانية، وثالثة، كل واحدة تقذف بها كأنها حبة رمل صغيرة، واحدة من هذا الاتجاه، وأخرى من الخلف، حتى تتآكل ملامحه، وشخصيته، وروحه. وحتى لو أدركتُ استراتيجيتها، وهجومها الخفي، فإنني خشيت أن تتسلل ذرة من الحقيقة إلى عينَي، فتشوش ما أراه، وتحوله من الرجل الرائع الذي ظننته عليه إلى شخص عادي للغاية، يعاني عيوبًا بشرية قاتلة ما بين العادات المرهقة والنقائص المزعجة.

حدث هذا في زواجي الأول من مارفن تشين، الذي هربت معه عندما كنت في الثامنة عشرة من عمري وهو في التاسعة عشرة. حين كنت واقعة في حب مارفن، كاد يبدو مثاليًّا. تخرج الثالث على دفعته في مدرسة لويل، وحصل على منحة دراسية كاملة في جامعة ستانفورد. وكان يلعب التنس، وعضلات ربلتيه بارزة، ولديه مائة وست وأربعون شعرة سوداء مستقيمة على صدره. كما كان يدفع الجميع إلى الضحك، وبدت ضحكته عميقة، ورنانة، وذات جاذبية ذكورية. كان يفاخر بأن له أوضاعًا مفضلة لممارسة الحب وفقًا لأيام وساعات الأسبوع المختلفة. لم يكن عليه إلا أن يهمس «عصر الأربعاء» حتى تسري في جسدي القشعريرة.

لكن عندما انتهت أمي من حديثها عنه، رأيتُ أن عقله قد انكمش بفعل الكسل، فلم يَعُد صالحًا إلا لاختلاق الأعذار. كان يطارد كرات الجولف والتنس هربًا من مسؤولياته العائلية، ويتجول بنظراته صعودًا ونزولًا على سيقان الفتيات الأخريات، حتى لم يَعُد يعرف كيف يقود سيارته مباشرة إلى المنزل. وكان يحب إلقاء النكات الثقيلة ليُشعر الآخرين بالدونية. وقد اعتاد التفاخر بترك إكراميات بعشرة دولارات للغرباء لكنه كان بخيلًا في تقديم الهدايا لعائلته. كما ظن أن تلميع سيارته الرياضية الحمراء طوال فترة ما بعد الظهيرة أهم من اصطحاب زوجته في رحلة بها.

لم تصل مشاعري تجاه مارفن قَطُّ إلى حد الكراهية. لا، بل كان الأمر أسوأ من ذلك بطريقة ما، فقد تحوَّلت من خيبة الأمل إلى الازدراء إلى ملل بارد خالٍ من المشاعر. لم أفكر في أن أمي ربما تكون قد أفسدت زواجي إلا بعد انفصالنا، في الليالي التي كانت شوشانا تنام خلالها بينما أنا أشعر بالوحدة.

لكن حمدًا للرب، لم يمتد سُمها إلى ابنتي، شوشانا، على الرغم من أنني كدت أجهضها. عندما علمتُ بحملي، شعرتُ بالغضب الشديد، وأطلقتُ على حملي سرًّا اسم «استيائي المتزايد». اصطحبت مارفن إلى العيادة حتى يتشارك معي هذا العذاب، لكن اتضح أننا ذهبنا إلى العيادة الخطأ، حيث جعلونا نشاهد فيلمًا، فيلمًا رهيبًا عبارة عن نوع من غسيل الدماغ المشحون بالأفكار الأخلاقية الصارمة. رأيت تلك الكائنات الصغيرة، التي أطلقوا عليها اسم أطفال، حتى في عمر السبعة أسابيع، وكانت أصابعهم صغيرة جدًّا. وذكر الفيلم أن أصابع الطفل الشفافة قادرة على الحركة، وأن علينا أن نتخيلها تتشبث بالحياة، تتعلق بفرصة، بهذه المعجزة الحية. لو أنهم عرضوا أي شيء آخر غير الأصابع الصغيرة... لذا حمدًا للرب أنهم فعلوا ذلك، لأن شوشانا كانت حقًّا معجزة. بدت مثالية، ووجدت كل تفصيلة من تفاصيلها مدهشة، ولا سيما طريقة تحريكها وثنيها لأصابعها. منذ اللحظة التي أبعدت فيها قبضتها عن فمها لتبكي، عرفت أن مشاعري تجاهها لا يمكن المساس بها.

لكنني شعرت بالقلق بشأن ريتش، حيث كنت أعلم أن مشاعري تجاهه عرضة

للتأثر بشكوك أمي وتعليقاتها العابرة وتلميحاتها. وخشيت مما سأخسره حينها، لأن ريتش شيلدز كان يحبني كما أُحب شوشانا: حبًّا جليًّا لا لبس فيه، لا يمكن أن يغيره شيء. لم يتوقع مني شيئًا، بل كان مجرد وجودي كافيًا. وفي الوقت نفسه، قال إنه تغير - للأفضل - بسببي. كما كان رومانسيًّا بدرجة محرجة، وأصر أنه لم يكن كذلك على الإطلاق حتى التقى بي، وقد زاد هذا الاعتراف من نبل لفتاته الرومانسية. في العمل، على سبيل المثال، عندما كان يثبت ملاحظات «للإحاطة» على المذكرات القانونية وإقرارات الشركات التي أراجعها، كان يوقع أسفلها: «للإحاطة: سأحيطك بحبي إلى الأبد». ولم تكن الشركة على علم بعلاقتنا، لذا كان هذا السلوك المتهور من جانبه يملأني بالإثارة.

لكن ما أدهشني حقًّا هو التوافق الجسدي بيننا. ظننت أنه سيكون من النوع الهادئ الذي يتصرف برقة وحرج، من ذلك النوع من الرجال ذوي الطباع اللطيفة الذين يقولون: «هل آلمتكِ؟»، في حين أنني لا أشعر بأي شيء. لكنه بدا متناغمًا جدًّا مع كل حركة من حركاتي إلى درجة أنني كنت متأكدة من أنه يقرأ أفكاري. لم يكن لديه أي نوع من التحفظات، كما انتزع مني أي تحفظ اكتشفه لديَّ، كأنما عثر على كنز صغير. رأى كل جوانبي الخاصة - ولا أعني فقط خصوصياتي الجسدية، بل الجوانب الأعمق: قسوتي، وتفاهتي، وكراهيتي لذاتي - كل الأشياء التي أخفيتها بعناية. لذلك كنت عارية تمامًا أمامه، وعندما كنت أشعر بأنني في أشد حالاتي ضعفًا - عندما كانت كلمة واحدة خطأ كفيلة بأن تدفعني إلى الهروب إلى الأبد - دائمًا ما كان يقول الشيء الصحيح في اللحظة المناسبة. لم يسمح لي بالاختباء، بل كان يمسك يدَي، وينظر في عينَي مباشرة، ويبوح لي بشيء جديد عن سبب حبه لي.

لم أعرف حبًّا بهذا الصفاء من قبل، وخشيت أن تلوثه أمي. لذا حاولت أن أخزن في ذاكرتي كل هذه المشاعر الحميمية تجاه ريتش، وخططت لاسترجاعها عندما يحين الوقت اللازم.

بعد تفكير طويل، توصلت إلى خطة رائعة. دبرت طريقة لكي يلتقي ريتش بأمي ويكسب ودها. في الواقع، رتبت الأمر بحيث ترغب أمي في طهو وجبة خاصة من أجله، وحصلت على بعض المساعدة من عمتي سويوان. كانت عمتي سو صديقة أمي منذ زمن بعيد، وكانتا مقربتين للغاية، وهذا يعني أنهما لا تتوقفان عن مضايقة بعضهما بالتباهي والأسرار. وقد أعطيت عمتي سو سرًّا لتتباهى به.

بعد أن تجولنا في منطقة نورث بيتش في يوم الأحد، اقترحت على ريتش أن نمر في زيارة مفاجئة على عمتي سو وعمي كانينغ، حيث يعيشان في شارع ليفنوورث، على بعد بضعة مبانٍ غرب شقة والدتي. كان الوقت متأخرًا بعد الظهيرة، تمامًا في موعد إعداد عمتي سو لعشاء الأحد.

أصرت قائلة:

- ابقيا! ابقيا!

قلت:

- لا، لا، كنا نمر بالجوار فحسب.

- لقد طهوت ما يكفي لكما بالفعل، أرأيت؟ حساء واحد وأربعة أطباق. إن لم تأكلاه، فسأضطر إلى رميه. خسارة!

كيف كنا سنرفض؟ بعد ثلاثة أيام، تلقت عمتي سويوان رسالة شكر من ريتش ومني، كتبت فيها: «قال ريتش إنه أفضل طعام صيني تذوقه في حياته».

وفي اليوم التالي، اتصلت بي أمي لتدعوني إلى عشاء متأخر بمناسبة عيد ميلاد أبي. كان أخي فنسنت سيحضر صديقته ليزا لوم، ويمكنني أن أحضر صديقًا أيضًا.

عرفت أنها ستفعل ذلك، لأن الطهو كان وسيلة أمي للتعبير عن حبها، وفخرها، وقوتها، ودليلها على أنها تعرف أكثر من عمتي سو. قلت لريتش:

- تأكد فقط من إخبارها لاحقًا بأن طعامها كان الأفضل على الإطلاق، وأنه كان أفضل بكثير من طعام عمتي سو، صدقني.

في ليلة العشاء، جلست في المطبخ أراقبها تطهو، منتظرة اللحظة المناسبة لأخبرها عن خطط زواجنا، وأننا قررنا الزواج في يوليو المقبل، أي بعد نحو سبعة أشهر. انشغلَت بتقطيع الباذنجان إلى شرائح، وهي تتحدث في الوقت نفسه عن عمتي سويوان قائلة:

- إنها لا تستطيع الطهو إلا بالاطلاع على الوصفة، أما أنا فأعرف الطريقة من أصابعي. أعرف المكونات السرية التي يجب إضافتها من خلال أنفي فحسب!

أخذت تقطع بشراسة، من دون الانتباه لسكينها الحادة، إلى درجة أنني خشيت أن تصبح أطراف أصابعها أحد مكونات طبق الباذنجان المطهو بصلصة الصويا الحمراء ولحم الخنزير المقطع.

كنت آمل أن تقول شيئًا عن ريتش أولًا. رأيت تعبير وجهها عندما فتحت الباب، وابتسامتها المصطنعة وهي تتمعن فيه من رأسه إلى أخمصَي قدميه، وتقارن تقييمها له بما قالته لها عمتي سويوان، وحاولتُ أن أتوقع الانتقادات التي قد توجهها إليه.

لم يكن الأمر أن ريتش ليس صينيًّا فحسب، بل كان يصغرني ببضع سنوات. ومن سوء الحظ، بدا أصغر بكثير بسبب شعره الأحمر المجعد وبشرته الناعمة الشاحبة والنمش البرتقالي المنتشر على أنفه. كان قصير القامة بعض الشيء، ذا بنية قوية، وفي بدلته السوداء الرسمية، كان يبدو لطيفًا، لكنه سهل النسيان، مثل ابن أخي أحدهم في جنازة. ولهذا السبب لم ألاحظه في السنة الأولى التي عملنا فيها معًا في الشركة. لكن أمي لاحظت كل شيء.

سألتها أخيرًا، وأنا أحبس أنفاسي:

- ما رأيكِ في ريتش إذن؟

ألقت الباذنجان في الزيت الساخن فأصدر صوت هسهسة غاضبة عالية، وقالت:

- لديه الكثير من البقع على وجهه.

شعرت بوخز في ظهري، وقلت بانفعال شديد في محاولة لرفع صوتي فوق ضجيج المطبخ:

- إنه نمش. النمش يجلب الحظ السعيد، كما تعلمين.

قالت ببراءة:

- حقًّا؟

- نعم، كلما زادت البقع كان ذلك أفضل. الجميع يعلم ذلك.

فكرَت في الأمر للحظة ثم ابتسمَت وتحدثَت بالصينية:

- ربما كان هذا صحيحًا. عندما كنتِ صغيرة، أُصبتِ بحماق الدجاج، وكان لديك كثير من البقع، إلى درجة أنك اضطررت إلى البقاء في المنزل لمدة عشرة أيام، وظننتِ نفسك محظوظة للغاية.

لم أستطع إنقاذ ريتش في المطبخ، كما لم أستطع إنقاذه لاحقًا على مائدة العشاء.

كان قد أحضر زجاجة من النبيذ الفرنسي، من دون أن يدرك أن والدَي لا يمكنهما تقدير ذلك، حتى إنهما لم يكونا يمتلكان كؤوسًا للنبيذ. ثم ارتكب خطأً آخر، إذ شرب ليس كوبًا واحدًا بل كوبين من الزجاج المصنفر ممتلئين تمامًا بالنبيذ، بينما شرب الجميع كمية صغيرة لا تتجاوز نصف إنش، «لمجرد التذوق».

عندما قدمت لريتش شوكة، أصر على استخدام عيدان الطعام الزلقة المصنوعة من العاج. أمسك العودين متباعدين كأنهما ساقا نعامة متقوستان وهو يلتقط قطعة كبيرة من الباذنجان المغطى بالصلصة. وفي منتصف الطريق بين طبقه وفمه المفتوح، سقطت القطعة على قميصه الأبيض النظيف ثم انزلقت إلى فخذه، واستغرق الأمر عدة دقائق حتى توقفت شوشانا عن الضحك بصوت عالٍ.

بعد ذلك، تناول كمية كبيرة من طبق الجمبري والبازلاء، من دون أن يدرك أنه كان ينبغي له أخذ ملعقة صغيرة فقط من باب التهذيب، حتى يتذوق الجميع القليل منه أولًا.

كما رفض تناول الخضراوات الطازجة المقلية، وهي أوراق نبات الفاصوليا الغضة، باهظة الثمن، التي تُقطف قبل أن تتحول البراعم إلى حبوب الفاصوليا. ورفضت شوشانا تناولها أيضًا، وأشارت إلى ريتش قائلة:

- لم يأكلها! لم يأكلها!

ظن أنه يتصرف بأدب عندما رفض تناول حصص إضافية، بينما كان عليه الاقتداء بأبي، الذي تظاهر دائمًا بأخذ حصص صغيرة ثانية وثالثة بل حتى رابعة، قائلًا إنه لا يستطيع مقاومة تناول قضمة أخرى من هذا أو ذاك، ثم تأوَّه بعدها مدعيًا أنه شبع حتى كاد ينفجر.

لكن الأسوأ من ذلك كله، هو أن ريتش انتقد طبخ أمي، من دون أن يدرك حتى ما فعله. فكما هي عادة الطهاة الصينيين، دائمًا ما كانت أمي تطلق تعليقات تقلل من شأن طبخها. وفي تلك الليلة، قررت توجيه انتقاداتها نحو طبقها الشهير من لحم الخنزير المطهو على البخار مع الخضراوات المخللة، وهو طبق كانت تقدمه دومًا بكثير من الفخر.

تذمرَت بعد أن تذوقَت قضمة صغيرة:

- آي! هذا الطبق ليس مالحًا بما يكفي، لا نكهة له. إنه سيئ جدًّا ولا يصلح للأكل.

وكانت هذه إشارة العائلة المعتادة لتناول بعض منه والثناء عليه بأنه أفضل ما صنعت على الإطلاق. لكن قبل أن نتمكن من قول ذلك، قال ريتش:

- أتعلمين، كل ما يحتاج إليه هو القليل من صلصة الصويا.

ثم بدأ بصب كمية كبيرة من تلك الصلصة السوداء المالحة على الطبق، أمام عينَي أمي المذعورتين.

وعلى الرغم من أنني ظللت آمل طوال العشاء أن ترى أمي بطريقة ما مدى لطف ريتش وروح الدعابة التي يتمتع بها وسحره الصبياني، فإنني أدركت أنه فشل فشلًا ذريعًا في نظرها.

بدا من الواضح أن ريتش كان له رأي مختلف تمامًا عن مجريات الأمسية.

فعندما وصلنا إلى المنزل في تلك الليلة، بعد أن وضعنا شوشانا في السرير، قال بتواضع:

- حسنًا، أعتقد أننا انسجمنا تمامًا.

بدا أشبه بكلب دلماسي يلهث بإخلاص، منتظرًا أن يداعبه أحد.

قلت:

- هممم...

ارتديت قميص نوم قديمًا، كإشارة إلى أنني لا أشعر بأي ميل إلى الحميمية. كنت لا أزال أرتجف، متذكرة كيف صافح ريتش والدَي بنفس الألفة والعفوية التي يستخدمها مع العملاء المتوترين الجدد، وقال:

- ليندا، تيم، سنراكما قريبًا، بكل تأكيد.

اسما والدَي هما ليندو وتين جونغ، ولا أحد، باستثناء بعض الأصدقاء القدامى للعائلة، يناديهما بأسمائهما الأولى.

قال ريتش:

- ماذا قالت لكِ عندما أخبرتها؟

وأدركت أنه يشير إلى زواجنا. كنت قد أخبرت ريتش في وقت سابق بأنني سأبلغ أمي أولًا، وأدعها هي تنقل الخبر إلى أبي.

قلت:

- لم تسنح لي الفرصة قَطُّ.

وكان ذلك صحيحًا، فكيف لي أن أخبر أمي بأنني سأتزوج، في حين أنها في كل لحظة كنا فيها وحدنا، أشارت إلى مدى غلاء النبيذ الذي يحب ريتش شربه، أو إلى شحوب بشرته وكم يبدو مريضًا، أو إلى مدى الحزن الذي يبدو على شوشانا.

ابتسم ريتش.

- كم تحتاجين من الوقت كي تقولي: «أمي، أبي، سوف أتزوج»؟

- أنت لا تفهم. أنت لا تفهم أمي.

هز ريتش رأسه.

- يا إلهي! هذا مؤكد، فلغتها الإنجليزية سيئة للغاية. أتعلمين، عندما كانت تتحدث عن ذلك الرجل الميت الذي ظهر في مسلسل «داينستي»، ظننتُ أنها تتحدث عن شيء حدث في الصين قبل زمن بعيد.

* * *

في تلك الليلة، بعد العشاء، استلقيت على السرير وأنا متوترة. غمرني اليأس بسبب هذا الفشل الأخير، الذي زاده سوءًا كون ريتش غافلًا عن كل شيء. بدا مثيرًا للشفقة. مثيرًا للشفقة، يا لهذه الكلمات! ها هي ذي أمي عادت إلى أفعالها مرة أخرى، تجعلني أرى السواد حيث كنت أرى البياض من قبل. دائمًا ما أصبح بيدقًا بين يديها، ولا يسعني سوى الهروب، بينما هي الملكة، قادرة على التحرك في جميع الاتجاهات، لا تكل في مطاردتها، وقادرة دائمًا على إيجاد نقاط ضعفي.

استيقظت في وقت متأخر وأنا أكز على أسناني، وكل أعصابي متوترة. كان ريتش قد استيقظ بالفعل، واستحم، ويقرأ صحيفة الأحد. قال لي وهو يمضغ رقائق الذرة بصوت عالٍ:

- صباح الخير يا عزيزتي.

ارتديت ملابس الجري، وخرجت من المنزل، وركبت السيارة، وانطلقت إلى شقة والدَي.

كانت مارلين على حق: لا بد أن أخبر أمي بأنني أعرف ما تفعله، وأعرف أساليبها الخبيثة لجعلي أشعر بالبؤس. عندما وصلت، كان الغضب بداخلي يكفي لصد ألف ساطور طائر.

فتح أبي الباب وبدا متفاجئًا لرؤيتي. سألته وأنا أحاول الحفاظ على هدوئي:

- أين أمي؟

فأشار إلى غرفة المعيشة في الخلف.

وجدتها نائمة بعمق على الأريكة، ومؤخرة رأسها مستلقية على مفرش أبيض مطرز. كان فمها مفتوحًا واختفت كل التجاعيد عن وجهها. بوجهها الناعم، بدت

كفتاة صغيرة، هشة، بريئة، ساذجة. تدلت إحدى ذراعيها بلا حراك على جانب الأريكة، وبدا صدرها ساكنًا، وقد تلاشت كل قوتها. لم تكن لديها أسلحة، ولا شياطين تحيط بها، وبدت عاجزة ومهزومة.

ثم استبد بي الخوف أنها تبدو هكذا لأنها ماتت. ماتت عندما راودتني أفكار مريعة عنها. تمنيت خروجها من حياتي، ويبدو أنها استجابت، فغادرت جسدها هربًا من كراهيتي الشديدة.

صحت بحدة:

- أمي! أمي!

انتحبتُ وشرعت في البكاء.

فتحَت عينيها ببطء ورمشَت، وتحركت يداها وقد دبت فيهما الحياة.

- شنما؟ ماي ماي؟ آه، أهذه أنت؟

عجزتُ عن الحديث. لم تناديني باسمي في الطفولة، ماي ماي، منذ سنوات طويلة. اعتدلَت جالسة، وعادت التجاعيد إلى وجهها، لكنها بدت أقل حدة هذه المرة، كأنها تجاعيد ناعمة تعبر عن القلق.

- لماذا أنتِ هنا؟ لماذا تبكين؟ هل حدث شيء؟

لم أعرف ماذا أفعل أو أقول. في غضون ثوانٍ معدودة، بدا أنني انتقلت من الغضب من قوتها إلى الدهشة من براءتها، ثم الخوف من ضعفها. والآن شعرت بالخدر، وبضعف غريب، كأن أحدهم فصلني عن التيار الكهربائي وتوقف التيار الذي يسري بداخلي.

قلت بصوت أجش:

- لم يحدث شيء. لا توجد أي مشكلة. لا أعرف لماذا أنا هنا. أردت التحدث معك... أردت أن أخبرك... أنا وريتش سنتزوج.

أغمضت عينَي بشدة، منتظرة سماع احتجاجاتها، وتذمرها، ونبرتها الجافة وهي تصدر حكمًا مؤلمًا من نوع ما.

قالت، كما لو أنها تسألني لماذا أخبرها بهذا مرة أخرى:

- وو زاو جداو لا، أعرف هذا بالفعل.

- تعرفين؟

قالت ببساطة:

- بالطبع. حتى لو لم تخبريني بذلك.

بدا الأمر أسوأ مما تخيلت. كانت تعرف منذ البداية، عندما انتقدت السترة المصنوعة من فرو المنك، وعندما سخرت من نمشه وتذمرت من عاداته في الشرب. لم تكن راضية عنه. قلت بصوت مرتجف:

- أعلم أنكِ تكرهينه، وأعلم أنك تعتقدين أنه ليس جيدًا بما يكفي، لكنني...

- أكرهه؟ لماذا تعتقدين أنني أكره زوجك المستقبلي؟

- أنت لا تريدين الحديث عنه أبدًا. وفي ذلك اليوم، عندما بدأت أخبرك عنه وعن شوشانا في متحف الاستكشاف العلمي... غيرتِ الموضوع... بدأت تتحدثين عن جراحة أبي الاستكشافية ثم...

- ما الأهم، استكشاف المتعة أم استكشاف المرض؟

لم أكن لأدعها تهرب هذه المرة.

- وعندما قابلته، قلتِ إن وجهه مغطى بالبقع.

نظرت إليَّ بحَيرة.

- أليس هذا صحيحًا؟

- بلى، لكنكِ قلت ذلك بدافع القسوة فقط، لتجرحيني، كي...

- آي-ياه، لماذا تظنين فيَّ كل هذا السوء؟

بدا وجهها عجوزًا ممتلئًا بالحزن، وتابعت:

- إذن أنتِ تعتقدين أن أمك سيئة إلى هذا الحد. تعتقدين أنني أقصد معنى خفيًّا. لكنك أنت من يحمل هذه المعاني. آي-ياه! إنها تظنني سيئة إلى هذه الدرجة!

جلسَت منتصبة على الأريكة بكبرياء، فمها مطبق، ويداها متشابكتان، وعيناها تلمعان بدموع الغضب.

يا لقوتها! ويا لضعفها! كلاهما يمزقني إربًا إربًا. كان عقلي يطير في اتجاه، وقلبي في اتجاه آخر. جلستُ على الأريكة بجانبها، وكلتانا تعاني من الأخرى.

شعرت كأنني خسرت معركة، لكنها معركة لم أكن أدرك حتى أنني أخوضها. غمرني الإرهاق، فقلت أخيرًا:

- سأعود إلى المنزل. لا أشعر بأنني على ما يرام الآن.

غمغمت وهي تضع يدها على جبيني:

- هل أُصبتِ بالمرض؟

أردت الرحيل، فقلت:

- لا، أنا... أنا لا أعرف ما بداخلي الآن فحسب.

قالت ببساطة:

- سأخبرك إذن.

حدقتُ إليها، فأوضحَت بالصينية:

- نصف كل شيء بداخلك من جانب والدك، وهذا طبيعي. إنه من عشيرة جونغ، من أهل الكانتون. وهم أناس طيبون وشرفاء، على الرغم من أنهم أحيانًا يكونون سريعي الغضب وبخلاء. أنت تعرفين هذا من والدك، وكيف يمكن أن يكون ما لم أذكره.

فكرت في قرارة نفسي: لماذا تخبرني بهذا؟ ما علاقة هذا بأي شيء؟ لكن أمي واصلت الكلام، مبتسمة ابتسامة عريضة، وهي تلوح بيدها.

- والنصف الآخر لكل ما بداخلك هو مني، من جانب أمك، من عشيرة سون في تاي يوان.

كتبت الكلمات على ظهر ظرف، ناسية أنني لا أستطيع قراءة الصينية.

- نحن شعب ذكي وقوي للغاية ومراوغ ومشهور بانتصاراته في الحروب. هل تعرفين سون يات سين؟

أومأت برأسي.

- إنه من عشيرة سون. لكن عائلته انتقلت إلى الجنوب منذ عدة قرون، لذا

فهو ليس من نفس العشيرة بالضبط. لطالما عاشت عائلتي في تاي يوان، حتى قبل عهد سون وي. هل تعرفين سون وي؟

هززت رأسي، وعلى الرغم من أنني كنت لا أزال لا أعلم إلى أين يتجه هذا الحديث، لكنني شعرت بالارتياح، حيث بدا كأنها المرة الأولى التي نُجري فيها محادثة شبه طبيعية.

- ذهب إلى الحرب ليقاتل جنكيز خان. وعندما أطلق جنود المغول السهام على محاربي سون وي - هيه! - ارتدت سهامهم عن الدروع كالمطر على الحجر. صنع سون وي نوعًا من الدروع القوية إلى درجة أن جنكيز خان ظنها سحرًا!

قلت:

- لا بد أن جنكيز خان اخترع سهامًا سحرية إذن، فقد غزا الصين في نهاية المطاف.

تصرفت أمي كأنها لم تسمعني جيدًا.

- هذا صحيح، فنحن نعرف دائمًا كيف ننتصر. والآن ها قد عرفتِ ما في داخلك. كل الأشياء الطيبة تقريبًا من تاي يوان.

قلت:

- أعتقد أننا تطورنا لننتصر فقط في سوق الألعاب والإلكترونيات.

سألَت باهتمام:

- وكيف عرفتِ هذا؟

- يمكنك رؤية ذلك على كل شيء: «صُنع في تايوان».

صاحت بصوت عالٍ:

- آي! أنا لست من تايوان!

وفجأة، انقطعت الصلة الهشة التي بدأنا بناءها.

قالت:

- لقد وُلدت في الصين، في تاي يوان. تايوان ليست في الصين.

أزعجني استياؤها من هذا الخطأ غير المقصود، فجادلتها قائلة:

- حسنًا، اعتقدت أنك قلت «تايوان» لأن النطق متشابه.

قالت بانزعاج:

- النطق مختلف تمامًا! والبلد مختلف تمامًا! الناس هناك يحلمون فقط بأنها في الصين، لأن المرء إذا كان من أصل صيني، فلن يستطيع التخلي عن الصين في ذهنه أبدًا.

غرقنا في الصمت، كأننا وصلنا إلى طريق مسدود. ثم التمعت عيناها وقالت:

- اسمعي الآن، يمكنك القول أيضًا إن اسم تاي يوان هو «بينغ»، الجميع في تلك المدينة يطلق عليها هذا الاسم، وهو أسهل في النطق بالنسبة إليك. بينغ أشبه بكونه لقبًا للمدينة.

كتبَت الكلمة، فأومأتُ برأسي كأن كل شيء قد أصبح واضحًا تمامًا. ثم أضافت بالإنجليزية:

- كما هي الحال هنا، تطلقون على نيويورك لقب التفاحة، وتقولون فريسكو بدلًا من سان فرانسيسكو.

ضحكتُ قائلة:

- لا أحد يطلق على سان فرانسيسكو هذا الاسم! من يفعل ذلك لا يعرف شيئًا!

قالت أمي بنبرة انتصار:

- الآن فهمتِ ما أعنيه.

فابتسمتُ.

مكتبة
t.me/soramnqraa

وبالفعل، فهمتُ أخيرًا. ليس ما قالته للتو، بل ما كان صحيحًا منذ البداية.

رأيت ما كنت أقاتل من أجله: كان ذلك من أجلي، أنا الطفلة الخائفة التي هربت منذ زمن بعيد إلى ما تخيلته مكانًا أكثر أمانًا. وفي أثناء اختبائي في هذا المكان، خلف حواجز غير مرئية، أدركت ما يوجد على الجانب الآخر: هجماتها الجانبية، وأسلحتها السرية، وقدرتها الخارقة على اكتشاف نقاط ضعفي. لكن في اللحظة القصيرة التي نظرت فيها من فوق الحواجز، تمكنت

أخيرًا من رؤية ما كان موجودًا بالفعل: امرأة عجوز، تحمل مقلاة ووك كدرع لها، وإبرة حياكة كسيف، وقد بدأ يصيبها الضيق بينما تنتظر بصبر أن تدعوها ابنتها للدخول.

* * *

قررت أنا وريتش تأجيل زفافنا. قالت أمي إن شهر يوليو ليس وقتًا مناسبًا للذهاب إلى الصين لقضاء شهر العسل. وهي تعرف ذلك لأنها وأبي عادا لتوهما من رحلة إلى بكين وتاي يوان.

قالت لريتش:

- الجو حار جدًّا في الصيف. ستزداد البقع لديك، وسيصبح وجهك أحمر بالكامل!

ابتسم ريتش وأشار بإبهامه نحو أمي وقال لي:

- هل تصدقين ما تتفوَّه به؟ الآن عرفتُ من أين ورثتِ طبيعتك اللطيفة واللبقة.

قالت بثقة:

- لا بد أن تذهبا في أكتوبر، هذا هو الوقت الأمثل، ليس حارًّا جدًّا ولا باردًا جدًّا. أفكر في العودة في ذلك الوقت أيضًا.

ثم أضافت على عجل:

- ليس معكما بالطبع!

ضحكتُ بتوتر، وقال ريتش مازحًا:

- سيكون ذلك رائعًا يا ليندو. يمكنك ترجمة جميع قوائم الطعام لنا، للتأكد من أننا لا نأكل ثعابين أو كلابًا عن طريق الخطأ.

كدتُ أركله.

قالت أمي بإصرار:

- لا، هذا ليس ما أعنيه. حقًّا، أنا لا أطلب ذلك.

أدركتُ ما تعنيه حقًّا: إنها ترغب في الذهاب إلى الصين معنا، لكنني سأكره

ذلك. ثلاثة أسابيع من تذمرها من عيدان الطعام غير النظيفة، ومن الحساء البارد، ثلاث وجبات في اليوم، حسنًا، سيكون الأمر كارثيًّا.

ومع ذلك، اعتقد جزء مني أن الفكرة برمتها منطقية تمامًا. نحن الثلاثة، نترك خلافاتنا وراءنا، ونصعد إلى الطائرة معًا، ونجلس جنبًا إلى جنب، ونقلع، ونتجه غربًا للوصول إلى الشرق.

روز شو جوردان

من دون خشب

كنت أصدق كل ما تقوله أمي، حتى عندما لا أفهم ما تعنيه. ذات مرة، حين كنت صغيرة، أخبرتني بأنها تعلم أن المطر سيهطل لأن أشباحًا تائهة تحوم قرب نوافذنا، تنادي «وو-وو» كي يُسمح لها بالدخول. وقالت إن الأبواب ستفتح من تلقاء نفسها في منتصف الليل إن لم نتفقدها مرتين. كما قالت إن المرآة لا ترى سوى وجهي، بينما تستطيع هي رؤية ما بداخلي حتى عندما لا أكون في الغرفة.

وبدت كل هذه الأمور حقيقية بالنسبة إليَّ، حيث كان لقوة كلماتها تأثيرٌ كبير.

قالت إنني إذا استمعت إليها، فسأعرف لاحقًا ما تعرفه: من أين تأتي الكلمات الصادقة، دائمًا من الأعلى، من مكان أعلى من كل شيء آخر. وإذا لم أستمع إليها، قالت إن أذني ستصغي بسهولة إلى الآخرين، الذين يتفوه كلٌّ منهم بكلمات بلا معنى ثابت، لأنها تأتي من أعماق قلوبهم، حيث تسكن رغباتهم، وهو مكان لا يمكنني الانتماء إليه.

وقد أتت كلمات أمي من الأعلى، فحسب ما أتذكر، دائمًا ما كنت أنظر إلى وجهها وأنا مستلقية على وسادتي. في تلك الأيام، كنت أنا وشقيقاي ننام جميعًا في نفس السرير المزدوج. كانت جانيس، أختي الكبرى، تعاني حساسية تجعل إحدى فتحتَي أنفها تصدر صوتًا يشبه صوت العصفور في أثناء الليل، لذا أطلقنا

عليها اسم «الأنف الصافر». ولُقبت روث بـ«القدم القبيحة» لأنها تستطيع مباعدة ما بين أصابع قدميها على شكل مخالب ساحرة. أما أنا فكان لقبي «العينان الخائفتان» لأنني اعتدت إغماض عينَي بشدة حتى لا أرى الظلام، وهو ما اعتبرته جانيس وروث تصرفًا غبيًّا. خلال تلك السنوات الأولى، كنت آخر من ينام. اعتدت التشبث بالسرير، رافضة مغادرة هذا العالم إلى عالم الأحلام.

كانت أمي تهمس إليَّ بالصينية:

- لقد ذهبت شقيقتاك بالفعل لرؤية السيد تشو العجوز.

وفقًا لأمي، كان السيد تشو العجوز هو حارس باب يُفتح على الأحلام. كانت تقول:

- هل أنتِ مستعدة للذهاب لرؤية السيد تشو العجوز أيضًا؟

وفي كل ليلة، كنت أهز رأسي بالنفي.

كنت أبكي وأقول:

- السيد تشو العجوز يأخذني إلى أماكن سيئة.

كان السيد تشو العجوز يأخذ شقيقتَي إلى النوم، ولم تكن أيٌّ منهما تتذكر شيئًا مما جرى في الليلة السابقة. لكن السيد تشو العجوز كان يفتح لي الباب على مصراعيه، وعندما أحاول الدخول، يغلقه بسرعة، على أمل أن يسحقني كذبابة. لهذا السبب كنت أعود للاستيقاظ سريعًا على الدوام.

لكن في نهاية المطاف، كان السيد تشو العجوز يشعر بالتعب ويترك الباب من دون مراقبة. عندها، كان السرير يثقل من الأعلى ويميل ببطء، فأنزلق رأسًا على عقب، وأدخل من باب السيد تشو العجوز، وأسقط في منزل بلا أبواب أو نوافذ.

أذكر ذات مرة أنني حلمت بالسقوط من حفرة في أرضية السيد تشو العجوز. وجدت نفسي في حديقة ليلية، وصاح السيد تشو العجوز: «من في حديقتي الخلفية؟»، فهربت. وسرعان ما وجدت نفسي أدوس على نباتات تسري بها عروق يجري بها الدم، وأركض عبر حقول من زهور حنك السبع التي تتغير ألوانها مثل إشارات المرور، حتى وصلت إلى ملعب عملاق ممتلئ بصفوف متتالية من

صناديق الرمل المربعة. في كل صندوق رمل كانت هناك دمية جديدة. ولم تكن أمي هناك، لكنها رأت ما بداخلي، فأخبرت السيد تشو العجوز بأنها تعرف أي دمية سأختار. لذلك قررتُ اختيار واحدة مختلفة تمامًا.

صاحت أمي:

- أوقفوها! أوقفوها!

وعندما حاولت الهرب، طاردني السيد تشو العجوز وهو يصرخ:

- أرأيت ما يحدث حين لا تستمعين إلى والدتك؟

فتجمدت من الشلل، خائفة من التحرك في أي اتجاه.

في صباح اليوم التالي، أخبرت أمي بما حدث، فضحكت وقالت:

- لا تعيري اهتمامًا إلى السيد تشو العجوز، إنه مجرد حلم. ما عليك إلا الاستماع إليَّ.

صحت:

- لكن السيد تشو العجوز يستمع إليك أيضًا.

بعد أكثر من ثلاثين عامًا، كانت أمي لا تزال تحاول إقناعي بالاستماع إليها. بعد شهر من إخبارها بأنني وتيد سنحصل على الطلاق، قابلتها في الكنيسة، في جنازة تشاينا ماري، وهي سيدة رائعة تبلغ من العمر اثنين وتسعين عامًا، لعبت دور العرابة لكل طفل مر عبر أبواب الكنيسة المعمدانية الصينية الأولى.

قالت أمي بصوت متألم عندما جلستُ بجانبها:

- أنت تزدادين نحافة. يجب أن تأكلي أكثر.

فقلت مبتسمة لأثبت لها أنني على ما يرام:

- أنا بخير. ثم ألم تكوني أنت من قالت إن ملابسي ضيقة على الدوام؟

أصرت قائلة:

- تناولي مزيدًا من الطعام.

ثم دفعت إليَّ بكتاب صغير مجلد بسلك حلزوني، يحمل عنوانًا مكتوبًا باليد:

«الطبخ على الطريقة الصينية بقلم تشاينا ماري تشان». كانوا يبيعونه عند الباب، بخمسة دولارات فقط، لجمع التبرعات لصندوق المنح الدراسية للاجئين.

توقفت موسيقى الأرغن، ثم تنحنح القس. لم يكن القس المعتاد، بل عرفت على الفور أنه وينغ، الفتى الذي اعتاد سرقة بطاقات البيسبول مع أخي لوك. لكن وينغ ذهب لاحقًا إلى مدرسة اللاهوت، بفضل تشاينا ماري، بينما ذهب لوك إلى سجن المقاطعة لبيعه مسجلات مسروقة من السيارات.

قال وينغ لحاضري الجنازة:

- ما زلت أسمع صوتها. كانت تقول إن الرب خلقني بكل المكونات الصحيحة، لذا سيكون من العار أن أحترق في الجحيم.

همست أمي بتلقائية، وهي تومئ برأسها نحو المذبح، حيث وُضعت صورة ملونة مؤطرة لتشاينا ماري:

- لقد أُحرقت جثتها بالفعل.

وضعت إصبعي على شفتَي كما يفعل أمناء المكتبات، لكنها لم تفهم الإشارة. أشارت إلى باقة ضخمة من الأقحوان الأصفر والورد الأحمر، وقالت:

- هذه هي التي اشتريناها، مقابل أربعة وثلاثين دولارًا. كلها صناعية، لذا ستدوم إلى الأبد. يمكنك أن تدفعي لي لاحقًا. جانيس وماثيو سيساهمان أيضًا ببعض المال. هل معك نقود؟

- نعم، أرسل إليَّ تيد شيكًا.

طلب القس من الجميع أن يحنوا رؤوسهم للصلاة، فصمتت أمي أخيرًا، ومسحت أنفها بمنديل ورقي بينما قال القس:

- أستطيع أن أتخيلها الآن، وهي تبهر الملائكة بطبخها الصيني وحماستها الشديدة.

وعندما رفع الجميع رؤوسهم، وقفوا لإنشاد الترنيمة رقم ٣٣٥، المفضلة لدى تشاينا ماري: «يمكنك أن تكون ملاكًا، كل يوم على الأرض...».

لكن أمي لم تغنِّ، بل حدقت إليَّ.

- لماذا أرسل إليكِ شيكًا؟

ظللت أحدق إلى كتاب الترانيم، وأنشد:

- ترسل أشعة شمس، مفعمة بالبهجة منذ الولادة.

لذا أجابت عن سؤالها بنفسها بملامح متجهمة:

- إنه يتسلى بممارسة ألاعيب القردة مع أخرى.

ألاعيب القردة؟ تيد؟ أردت الضحك على اختيارها للكلمات، وعلى الفكرة نفسها أيضًا! تيد الهادئ، الصامت، ذو الجسد الخالي من الشعر، الذي لا يتغير إيقاع تنفسه قيد أنملة في ذروة الشغف؟ تخيلته وهو يصيح «أوه-أوه-أوه» بينما يحك إبطيه، ثم يقفز ويصرخ فوق المرتبة محاولًا الإمساك بصدر إحداهن.

قلت:

- لا، لا أعتقد ذلك.

- لِمَ لا؟

- لا أعتقد أنه يجب علينا التحدث عن تيد الآن، ليس هنا.

- لماذا يمكنك التحدث عن هذا مع طبيب نفاسي وليس مع أمك؟

- طبيب نفسي.

صححت نفسها قائلة:

- طبيب نافسي.

ثم رفعت صوتها كي تكون مسموعة فوق صوت المرتلين من حولنا:

- الأم هي الأفضل. الأم تعرف ما بداخلك. الطبيب النافسي سيجعلك هولي هودو فحسب، وسيجعلك ترين هاي مونغ مونغ.

عندما عدت إلى المنزل، فكرت فيما قالته، وكان صحيحًا. شعرت في الآونة الأخيرة بـهولي هودو، وبدا كل ما حولي كأنه هاي مونغ مونغ. لم أفكر قَطُّ في معنى هاتين الكلمتين باللغة الإنجليزية. أعتقد أن أقرب معنى لهما هو «الارتباك» و«الضباب الداكن».

لكن في الحقيقة، تعني الكلمتان أكثر من ذلك بكثير. ربما لا يمكن ترجمتهما

بسهولة لأنهما تشيران إلى إحساس لا يشعر به إلا الصينيون، كما لو كنت تسقط رأسًا على عقب عبر باب السيد تشو العجوز، ثم تحاول العثور على طريق العودة. لكن الخوف يغمرك إلى درجة أنك لا تستطيع فتح عينيك، فتزحف على يديك وركبتيك وتتحسس في الظلام، مستمعًا إلى الأصوات لتدلك على الطريق.

لقد تحدثت مع عدد كبير جدًّا من الناس: مع أصدقائي، ومع الجميع تقريبًا، ما عدا تيد. حكيت لكل شخص قصة مختلفة، ومع ذلك، كنت متأكدة من صدق كل رواية، على الأقل في اللحظة التي رويتها فيها.

قلت لصديقتي ويفرلي إنني لم أدرك مدى حبي لتيد حتى رأيت مدى قدرته على إيذائي. شعرت بألم شديد، ألم جسدي بالمعنى الحرفي، كأن أحدهم قد اقتلع ذراعَي الاثنتين من دون تخدير، ومن دون خياطة الجرح.

قالت ويفرلي:

- هل سبق أن اقتُلعت ذراعاك تحت التخدير؟ يا إلهي! لم أرَك قَطُّ في مثل هذه الحالة من الهستيريا. إذا كنت تريدين رأيي، فأنت أفضل حالًا من دونه. الأمر مؤلم فقط لأنك استغرقت خمسة عشر عامًا لتدركي مدى هشاشته العاطفية. اسمعي، أنا أعرف كيف يكون هذا الشعور.

أما صديقتي لينا فقلت لها إنني أفضل حالًا من دون تيد. بعد الصدمة الأولى، أدركت أنني لا أفتقده على الإطلاق، بل أفتقد فقط الإحساس الذي شعرت به وأنا معه.

فشهقت لينا:

- وأي إحساس هذا؟ كنت مكتئبة، وتلاعب بك ليجعلك تظنين أنك لا شيء مقارنة به. وها أنت ذي الآن تظنين أنك لا شيء من دونه. لو كنتُ مكانك لسعيت للحصول على اسم محامٍ جيد، ولانتزعت كل ما يمكن انتزاعه منه. انتقمي منه.

أخبرت طبيبي النفسي بأنني مهووسة بالانتقام. كنت أحلم بالاتصال بتيد ودعوته للعشاء في أحد تلك المطاعم العصرية التي يرتادها المشاهير، مثل

«كافيه ماجيستيك» أو «روزاليز». وبعد أن يبدأ في تناول الطبق الأول ويسترخي، أقول له: «الأمر ليس بهذه السهولة يا تيد»، ثم أُخرج من حقيبتي دمية فودو كانت لينا قد أعارتني إياها من قسم الديكورات لديها، وأوجه الشوكة المخصصة لتناول الحلزون إلى موضع استراتيجي في الدمية، وأقول بصوت عالٍ، أمام جميع روَّاد المطعم الأنيق: «تيد، أنت مجرد وغد عاجز جنسيًّا، وسأحرص على أن تظل كذلك». طاخ!

بقولي هذا، شعرت بأنني وصلت إلى قمة نقطة تحوُّل كبيرة في حياتي، وأنني أصبحت شخصًا جديدًا بعد أسبوعين فقط من العلاج النفسي. لكن طبيبي النفسي بدا عليه الملل، ويده لا تزال مسندة تحت ذقنه. قال وعيناه ناعستان:

- يبدو أنك تمرين بمشاعر قوية جدًّا. أعتقد أننا يجب أن نفكر فيها أكثر الأسبوع المقبل.

ومن ثَمَّ، لم أعد أعرف ماذا أفكر. وفي الأسابيع التالية، بدأت أُجري جردًا لحياتي، متنقلة من غرفة إلى غرفة، أحاول تذكر تاريخ كل شيء في المنزل: أشياء جمعتها قبل أن ألتقي بتيد (كؤوس الزجاج المنفوخ يدويًّا، والمعلقات الجدارية المصنوعة من المكرمية، والكرسي الهزاز الذي أصلحت قاعدته بنفسي)، وأشياء اشتريناها معًا بعد الزواج مباشرة (معظم قطع الأثاث الكبيرة)، وأشياء أهداها إيانا الآخرون (الساعة ذات القبة الزجاجية التي لم تَعُد تعمل، وثلاث مجموعات من كؤوس الساكي، وأربعة أباريق شاي)، وأشياء اختارها هو (لوحات الطباعة الحجرية المُوقعة، التي لم تكن أيٌّ منها تحمل رقمًا يتجاوز الخمسة والعشرين ضمن سلسلة من مائتين وخمسين لوحة، وحبات الفراولة الكريستالية من إنتاج ستوبن)، وأشياء اخترتها أنا لأني لم أحتمل تركها خلفي (شمعدانات غير متطابقة من أسواق السلع المستعملة، ولحاف عتيق به ثقب، وقوارير صغيرة غريبة الشكل كانت تحتوي يومًا على مراهم وتوابل وعطور).

بدأت بجرد رفوف الكتب عندما وصلت إليَّ رسالة من تيد، أو بالأحرى مذكرة، كُتبت على عجل بقلم جاف على ورقة من دفتر وصفاته الطبية. كتب:

«وقعي أربع مرات في المواضع المحددة»، ثم أضاف بقلم حبر أزرق: «مرفق شيك، لتدبري أمورك حتى التسوية».

أُرفقت المذكرة بأوراق الطلاق، إلى جانب شيك بقيمة عشرة آلاف دولار، موقع بالحبر الأزرق نفسه الذي كُتبت به المذكرة. وبدلًا من أن أشعر بالامتنان، شعرت بالألم.

لماذا أرسل الشيك مع أوراق الطلاق؟ ولماذا اختار قلمين مختلفين؟ هل فكر في الشيك لاحقًا؟ كم من الوقت قضى في مكتبه وهو يحدد المبلغ المناسب؟ ولماذا اختار أن يوقع عليه بذلك القلم تحديدًا؟

ما زلت أذكر ملامح وجهه في العام الماضي عندما فتح الغلاف الذهبي بعناية، والدهشة في عينيه وهو يتفحص كل زاوية من زوايا القلم ببطء تحت ضوء شجرة عيد الميلاد. قبَّل جبيني ووعدني قائلًا:

- سأستخدمه فقط لتوقيع الأشياء المهمة.

تذكرت ذلك وأنا أحمل الشيك، ولم أستطع سوى الجلوس على حافة الأريكة، وشعرت بثقل في رأسي. حدقت إلى علامات «X» على أوراق الطلاق، والكلمات المكتوبة على دفتر الوصفات الطبية، ولونَي الحبر المختلفين، وتاريخ الشيك، والطريقة الدقيقة التي كتب بها: «عشرة آلاف دولار فقط، لا غير».

جلست في هدوء، أحاول الإصغاء إلى قلبي لاتخاذ القرار الصحيح. لكنني أدركت حينها أنني لا أعرف ما الخيارات المتاحة. لذا وضعت الأوراق والشيك في درج حيث أحتفظ بقسائم المتاجر التي لا أتخلص منها، ولا أستخدمها أبدًا.

أخبرتني أمي ذات مرة لماذا أبدو مشوشة دائمًا. قالت إنني أفتقر إلى عنصر الخشب. وُلدتُ من دون عنصر الخشب، وجعلني هذا أستمع إلى عدد كبير من الناس. أدركَت هذا، لأنها كادت تصبح كذلك في يوم من الأيام.

قالت:

- الفتاة مثل الشجرة الصغيرة. يجب أن تقفي شامخة وتستمعي إلى أمك الواقفة بجانبك. تلك هي الطريقة الوحيدة لتكبري قوية ومستقيمة. لكن إن

انحنيتِ للاستماع إلى الآخرين، فستصبحين معوجة وضعيفة، وستسقطين أرضًا مع أول ريح قوية. وحينها ستصبحين مثل عشبة ضارة، تنمو بلا اتجاه، تزحف على الأرض حتى يأتي أحدهم ويقتلعك ويرميك بعيدًا.

لكن عندما أخبرتني بذلك، كان الأوان قد فات، وكنت قد بدأت في الانحناء بالفعل. بدأت الذهاب إلى المدرسة، حيث كانت تدرس لنا معلمة تُدعى السيدة بيري، جعلتنا نقف في صفوف ونسير دخولًا وخروجًا من الغرف، وذهابًا وإيابًا في الممرات، وهي تنادي: «يا أولاد، يا بنات، اتبعوني»، وإن لم تستمع إليها، كانت ترغمك على الانحناء وتضربك بعصا خشبية عشر مرات.

كنت لا أزال أستمع إلى أمي، لكنني تعلمت أيضًا كيف أدع كلماتها تمر من خلالي من دون أن تستقر بداخلي. وأحيانًا كنت أشغل ذهني بأفكار الآخرين - وكلها باللغة الإنجليزية - حتى إذا نظرت أمي إلى ما بداخلي، أصابها الارتباك مما تراه.

على مر السنين، تعلمت الاختيار من بين أفضل الآراء. كانت للصينيين آراء صينية، وللأمريكيين آراء أمريكية، وفي معظم الأحيان، كانت الرؤية الأمريكية أفضل بكثير.

لم أكتشف إلا لاحقًا وجود خلل كبير في الرؤية الأمريكية. بدت الخيارات كثيرة جدًّا، مما جعل من السهل أن يرتبك المرء ويختار الشيء الخطأ. هكذا شعرت حيال وضعي مع تيد: كان لديَّ الكثير للتفكير فيه، والكثير من القرارات لاتخاذها، وكل قرار يعني الانعطاف في اتجاه مختلف.

لنأخذ الشيك، على سبيل المثال. تساءلت إن كان تيد يحاول خداعي فعلًا، ليجعلني أعترف بأنني استسلمت، وأنني لن أقاوم الطلاق. وإذا صرفت الشيك، فقد يدعي لاحقًا أن المبلغ هو كامل التسوية. ثم غمرتني مشاعر عاطفية، وتخيلت للحظة فقط، أنه أرسل إليَّ عشرة آلاف دولار لأنه يحبني حقًّا: كان يخبرني بطريقته الخاصة كم أعني له. إلى أن أدركت أن عشرة آلاف دولار لا تعني له شيئًا، وأنني أنا نفسي لا أعني له شيئًا.

فكرت في إنهاء هذا العذاب وتوقيع أوراق الطلاق، وكنت على وشك إخراج الأوراق من درج القسائم حين تذكرت المنزل.

قلت لنفسي إنني أحب هذا المنزل: الباب البلوط الكبير الذي ينفتح على بهو ممتلئ بنوافذ زجاجية ملونة، وأشعة الشمس في غرفة الإفطار، والإطلالة الجنوبية على المدينة من صالون الاستقبال، وحديقة الأعشاب والزهور التي زرعها تيد. اعتاد العمل في الحديقة كل عطلة نهاية أسبوع، جاثيًا على وسادة مطاطية خضراء، يتفحص كل ورقة نبات بدقة كأنه يقلم أظفار يده. وقد خصص أحواض الزرع لنباتات معينة، بحيث لا يجوز خلط التوليب بالنباتات المعمرة. وظلت نبتة الألوفيرا التي أعطتني إياها لينا من دون مكان مخصص لها، لأننا لم نزرع أي نبات عصاري آخر.

نظرت من النافذة فرأيت زهور الكالا قد ذبلت واصفرت، وسقطت زهور الأقحوان تحت وطأة وزنها، بينما أزهر الخس وأنتج البذور ولم يَعُد صالحًا للأكل. كما انتشرت الأعشاب الضارة الزاحفة بين الممرات الحجرية الممتدة وسط أحواض الزرع. أصبح كل شيء في حالة من الفوضى بعد شهور من الإهمال.

ذكرتني رؤية الحديقة في هذه الحالة المهملة بعبارة قرأتها ذات مرة في كعكة حظ: «حين يتوقف الزوج عن الاعتناء بالحديقة، فهو يفكر في اقتلاع جذوره». متى كانت آخر مرة قلَّم فيها تيد أغصان إكليل الجبل؟ ومتى آخر مرة رشَّ فيها مبيد الحلزون حول أحواض الزهور؟

توجهت بسرعة إلى سقيفة الحديقة بحثًا عن المبيدات الحشرية ومبيد الأعشاب الضارة كأن الكمية المتبقية في الزجاجة أو تاريخ انتهاء الصلاحية أو أي شيء آخر قد يعطيني فكرة عما يحدث في حياتي. ثم وضعت الزجاجة جانبًا. شعرت بأن أحدًا ما يراقبني ويضحك.

عدت إلى المنزل، هذه المرة لأتصل بمحامٍ. لكن ما إن بدأت في الاتصال، حتى شعرت بالارتباك، ووضعت السماعة. ماذا عساي أن أقول؟ ماذا أريد من الطلاق، في حين أنني لم أعرف قَطُّ ما الذي أريده من الزواج؟

في صباح اليوم التالي، كنت لا أزال أفكر في زواجي: خمسة عشر عامًا من العيش في ظل تيد. استلقيت في السرير، وعيناي مغمضتان، عاجزة عن اتخاذ أبسط القرارات.

مكثت في السرير ثلاثة أيام، ولم أنهض إلا للذهاب إلى الحمام أو لتسخين علبة أخرى من حساء الدجاج بالشعرية. لكنني نمت معظم الوقت. تناولت الحبوب المنومة التي تركها تيد في خزانة الأدوية، وللمرة الأولى التي أتذكرها، لم تراودني أي أحلام. كل ما أتذكره هو سقوطي بسلاسة في فضاء مظلم، بلا إحساس بالأبعاد أو الاتجاه. كنت الشخص الوحيد في هذا الظلام. وكلما استيقظت، تناولت حبة أخرى وعدت إلى ذلك المكان.

في اليوم الرابع، راودني كابوس. لم أستطع رؤية السيد تشو العجوز في الظلام، لكنه قال إنه سيجدني، وعندما يفعل، سيسحقني أرضًا. كان يقرع جرسًا، وكلما علا صوت الجرس، اقترب من العثور عليَّ. حبست أنفاسي كي لا أصرخ، لكن صوت الجرس ارتفع أكثر فأكثر حتى استيقظت فجأة.

كان صوت الهاتف: لا بد أنه رن لمدة ساعة من دون توقف. التقطت السماعة.

قالت أمي:

- الآن وقد استيقظتِ، سأحضر إليك بقايا الطعام.

بدا الأمر كأنها كانت تراني في تلك اللحظة. لكن الغرفة كانت مظلمة، والستائر مسدلة بإحكام.

قلت:

- ماما، لا أستطيع... لا أستطيع رؤيتك الآن، أنا مشغولة.

- مشغولة عن أمك؟

- لديَّ موعد... مع طبيبي النفسي.

ظلت صامتة فترة من الوقت، ثم قالت أخيرًا، بصوت مكلوم:

- لماذا لا تدافعين عن نفسك؟ لماذا لا تستطيعين التحدث مع زوجك؟

قلت وأنا أشعر بالإرهاق:

- ماما، أرجوك لا تطلبي مني أن أحاول إنقاذ زواجي مجددًا. الأمر صعب بما فيه الكفاية.

احتجت قائلة:

- أنا لا أطلب منك إنقاذ زواجك، بل أقول فقط إنه عليك أن تعبري عن نفسك.

وعندما أغلقت الهاتف، رن مرة أخرى. كانت موظفة الاستقبال في عيادة الطبيب النفسي. فاتني موعدي ذلك الصباح، كما فعلت قبل يومين. سألتني ما إذا كنت أرغب في تحديد موعد جديد، فقلت إنني سأراجع جدولي وأتصل لاحقًا.

بعد خمس دقائق، رن الهاتف مجددًا.

كان تيد.

- أين كنتِ؟

بدأ جسدي يرتجف، وقلت:

- في الخارج.

- ظللت أحاول الاتصال بكِ طوال الأيام الثلاثة الماضية، حتى إنني اتصلت بشركة الهاتف لأتأكد من أن الخط يعمل.

كنت أعلم أنه قد فعل ذلك، ليس بدافع أي اهتمام بي، بل لأنه عندما يريد شيئًا ما، يصبح فاقدًا للصبر وغير منطقي مع من يجبرونه على الانتظار.

قال بانزعاج واضح:

- لقد مر أسبوعان.

- أسبوعان؟

- لم تصرفي الشيك، ولم تعيدي الأوراق. حاولت أن أكون لطيفًا بهذا الشأن يا روز. لكن يمكنني أن أجعل أحدهم يسلمك الأوراق رسميًّا، كما تعلمين.

- أيمكنك ذلك بالفعل؟

من دون تردد، قال ما كان يريده حقًّا، وكان الأمر أبشع من كل الأمور الفظيعة التي تخيلتها.

أراد استعادة الأوراق موقَّعة، كما أراد المنزل. أراد الانتهاء من كل شيء في أسرع وقت ممكن، لأنه يرغب في الزواج من جديد، بامرأة أخرى.

وقبل أن أتمكن من منع نفسي، شهقت.

- أتعني أنك كنت تعبث مع امرأة أخرى؟

شعرت بالإهانة حتى كدت أبكي.

لكن للمرة الأولى منذ شهور، بعد فترة طويلة من التشوش والتيه، توقف كل شيء: اختفت الأسئلة، ولم تَعُد هناك خيارات. شعرت بفراغ داخلي، لكنه كان فراغًا حرًّا، جامحًا. من أعماق رأسي، سمعتُ أحدهم يضحك.

قال تيد غاضبًا:

- ما المضحك في الأمر؟

قلت:

- آسفة... لكنني فقط...

حاولت جاهدة كتم ضحكاتي، لكن إحداها خرجت من أنفي بصوت عالٍ، مما زاد من ضحكي. ثم زاد صمت تيد من شدة ضحكي.

كنت لا أزال ألهث عندما حاولت أن أبدأ مرة أخرى بصوت أكثر توازنًا:

- اسمع يا تيد، آسفة... أظن أن من الأفضل أن تأتي إلى هنا بعد العمل.

لم أعرف لماذا قلت هذا، لكنني شعرتُ بأنه من الصواب قول ذلك.

قال:

- لا يوجد ما نتحدث عنه يا روز.

فأجبت بصوت هادئ إلى درجة أدهشتني أنا نفسي:

- أعرف، أريد فقط أن أريك شيئًا. ولا تقلق، ستحصل على الأوراق، صدقني.

لم تكن لديَّ خطة، ولم أعرف ما الذي سأقوله له لاحقًا. كل ما كنت أعرفه هو أنني أردت أن يراني تيد مرة أخرى قبل الطلاق.

انتهى بي الأمر أن أريته الحديقة. عندما وصل، كان ضباب الصيف المسائي قد

بدأ يلف المكان، وحملتُ أوراق الطلاق في جيب سترتي الواقية من الرياح. ارتجف تيد في سترته الخفيفة وهو يتفحص الأضرار التي حلت بالحديقة.

سمعته يتمتم لنفسه وهو يحاول تحرير بنطاله من كرمة التوت الأسود التي زحفت على الممشى:

- يا لها من فوضى!

وأدركت أنه يحسب كم من الوقت سيستغرق لإعادة ترتيب المكان.

قلت وأنا أربت على قمم الجزر المتضخمة ورؤوسها البرتقالية التي تبرز من خلال الأرض كما لو كانت على وشك أن تولد:

- أحبها هكذا.

ثم رأيت الأعشاب الضارة: نبت بعضها في شقوق الفناء، والتصق بعضها بجدار المنزل، بينما وجد مزيد منها ملجأً تحت ألواح القرميد المفككة، وكانت في طريقها للصعود إلى السطح. لم يكن ثمة سبيل لاقتلاعها بعد أن تتغلغل في البناء، إذ ستقتلع المبنى بأكمله معها إن حاولت.

أخذ تيد يلتقط حبات البرقوق من الأرض ويرميها فوق السياج في حديقة الجيران، وقال أخيرًا:

- أين الأوراق؟

ناولته إياها فوضعها في الجيب الداخلي لسترته. ثم واجهني، ورأيت في عينيه تلك النظرة التي ظننتها في يوم من الأيام عطفًا وحماية، وقال:

- لستِ مضطرة إلى الانتقال على الفور. أعلم أنك ستحتاجين إلى شهر على الأقل للعثور على مكان جديد.

قلت بسرعة:

- لقد وجدتُ مكانًا بالفعل.

لأنني عرفت تمامًا في تلك اللحظة أين سأعيش. فارتفع حاجباه في دهشة وابتسم للحظة وجيزة إلى أن قلت:

- هنا.

قال بحدة:

- ماذا؟

وكان حاجباه لا يزالان مرفوعين، لكن الابتسامة اختفت.

أعلنت مجددًا:

- قلت إنني سأبقى هنا.

- من قال ذلك؟

عقد ذراعيه أمام صدره، وضيق عينيه وهو يتفحص وجهي، كأنه ينتظر أن أتهاوى تحت الضغط في أي لحظة. كان تعبير وجهه ذاك يخيفني في السابق، ويدفعني إلى التلعثم في الحديث.

لكنني لم أعد أشعر بأي شيء، لا خوف ولا غضب، وقلت:

- قلت إنني سأبقى، وسيخبرك المحامي الخاص بي ذلك أيضًا، حالما نسلمك الأوراق.

أخرج تيد أوراق الطلاق وحدق إليها. كانت علامات «X» التي وضعها لا تزال في مكانها، والفراغات لا تزال خالية.

قال:

- ما الذي تظنين أنك تفعلينه؟ ماذا بالضبط؟

سرت في جسدي الإجابة التي كانت أهم من أي شيء آخر، وسقطت من بين شفتَي:

- لا يمكنك أن تقتلعني من حياتك فحسب، وترميني بعيدًا.

رأيت ما أردت: عيناه، مرتبكتان ثم خائفتان. غمره هولي هودو. كان تأثير كلماتي قويًّا إلى ذلك الحد.

في تلك الليلة، حلمت بأنني أتجول في الحديقة. غطى الضباب الأشجار والشجيرات، ثم لمحت السيد تشو العجوز وأمي من بعيد يتحركان وسط الضباب الكثيف، وقد انحنيا فوق أحد أحواض الزرع.

صاحت أمي:

- ها هي ذي!

ابتسم لي السيد تشو العجوز ولوح نحوي. اقتربت من أمي، فرأيتها تنحني فوق شيء ما، كما لو كانت ترعى طفلًا رضيعًا.

قالت وهي تبتسم:

- انظري، لقد زرعتُها هذا الصباح، بعضها لك، وبعضها لي.

وتحت هاي مونغ مونغ، على امتداد الأرض، أخذت الأعشاب الضارة تنتشر بالفعل على الحواف وتزحف في كل اتجاه.

جينغ-ماي وو

أفضل جودة

منذ خمسة أشهر، وبعد تناول عشاء من السلطعون احتفالًا برأس السنة الصينية، أهدتني أمي «جوهر حياتي»، وهي قلادة من اليشم معلقة بسلسلة ذهبية. لم تكن هذه القلادة من نوع المجوهرات الذي كنت سأختاره لنفسي. قاربت في حجمها إصبعي الخنصر، بلون أخضر مرقش بالأبيض، ومنحوتة بدقة بالغة. بالنسبة إليَّ، بدا مظهرها العام غير مناسب: كبيرة جدًّا، خضراء بدرجة أكثر من اللازم، ومزخرفة بشكل مبالغ فيه. وضعت القلادة في صندوقي المطلي بالورنيش ونسيت أمرها.

لكن في هذه الأيام، أفكر كثيرًا في «جوهر حياتي»، وأتساءل عن معناها، لأن أمي توفيت منذ ثلاثة أشهر، قبل ستة أيام من عيد ميلادي السادس والثلاثين. وهي الشخص الوحيد الذي كان بإمكاني سؤاله، لتخبرني عن جوهر الحياة، وتساعدني على فهم حزني.

أرتدي تلك القلادة يوميًّا الآن. أعتقد أن النقوش تعني شيئًا ما، لأن الأشكال والتفاصيل - التي لا ألاحظها أبدًا إلا بعد أن يلفت انتباهي إليها أحد - دائمًا ما تحمل دلالات لدى الصينيين. أعلم أنني أستطيع سؤال عمتي ليندو، أو عمتي آن-ماي، أو أصدقاء صينيين آخرين، لكنني أعلم أيضًا أنهم سيخبرونني بمعنى مختلف عما قصدته أمي. ماذا لو قالوا إن هذا الخط المنحني المتفرع إلى ثلاثة

أشكال بيضاوية هو رمان، وإن أمي كانت تتمنى لي الخصوبة والذرية؟ وماذا لو كانت أمي تقصد أن النقوش تمثل غصنًا من الكمثرى لتمنحني النقاء والصدق؟ أو قطرات بعمر عشرة آلاف سنة من جبل سحري، تهديني مسار حياتي وتمنحني ألف عام من الشهرة والخلود؟

ولأنني أفكر في هذا الأمر طوال الوقت، بت ألاحظ دائمًا الآخرين وهم يرتدون قلادات اليشم نفسها، ليست الميداليات المستطيلة المسطحة ولا المستديرة البيضاء التي بها ثقوب في المنتصف، بل تلك التي تشبه قلادتي: قطعة بيضاوية بطول بوصتين بلون أخضر تفاحي زاهٍ. يبدو الأمر كأننا جميعًا أقسمنا على ميثاق سري واحد، سري للغاية إلى درجة أننا لا نعرف حتى ما الذي ننتمي إليه. في نهاية الأسبوع الماضي مثلًا، رأيت نادلًا يرتدي واحدة منها. وبينما لامست قلادتي، سألته:

- من أين حصلت على قلادتك؟

قال:

- أمي أعطتني إياها.

سألته عن السبب، وهو سؤال فضولي لا يمكن أن يطرحه سوى صيني على صيني آخر، ففي وسط حشد من البيض، يُعَد الصينيان كأنهما من عائلة واحدة.

- أعطتني إياها بعد طلاقي. أعتقد أن أمي أرادت أن تقول لي إنني ما زلت أساوي شيئًا.

وأدركت من نبرة الدهشة في صوته أنه لا يعرف معنى القلادة الحقيقي.

في عشاء رأس السنة الصينية العام الماضي، أعدت أمي أحد عشر سلطعونًا، واحد لكل شخص، إلى جانب واحد إضافي. اشتريتها أنا وهي من شارع ستوكتون في الحي الصيني. نزلنا عبر التل شديد الانحدار من شقة والدَي، التي كانت في الواقع الطابق الأول من مبنى مكون من ست وحدات سكنية يملكانه في ليفنوورث بالقرب من كاليفورنيا. لم يكن منزلهما يبعد سوى ستة شوارع عن مكان عملي

بوصفي كاتبة إعلانات في وكالة إعلانات صغيرة، لذا اعتدت المرور عليهما بعد العمل مرتين أو ثلاثًا في الأسبوع. ودائمًا ما كانت أمي تطهو ما يكفي لتصر على بقائي لتناول العشاء.

في ذلك العام، وافق رأس السنة الصينية يوم خميس، لذا خرجت من عملي مبكرًا لمساعدة أمي في التسوق. كانت أمي في الحادية والسبعين من عمرها، لكنها كانت لا تزال تمشي بخطى سريعة، وجسدها الضئيل منتصب، تحمل كيسًا بلاستيكيًّا ملونًا ومزينًا بالورد، بينما سحبت أنا عربة التسوق المعدنية.

كلما ذهبتُ معها إلى الحي الصيني، كانت تشير إلى نساء صينيات في مثل عمرها. قالت وهي تنظر إلى امرأتين أنيقتين ترتديان معطفين طويلين داكنين من فرو المنك، وشعراهما الأسودان مصففان بعناية:

- سيدتان من هونغ كونغ.

ثم همسَت ونحن نمر بجانب نساء يرتدين قبعات محبوكة، منحنيات تحت طبقات من الملابس المبطنة والسترات الرجالية:

- كانتونيات، من أهل القرى.

أما أمي، التي ارتدت بنطالًا أزرق فاتحًا من البوليستر، وكنزة حمراء، وسترة خضراء للأطفال، فلم تكن تشبه أي شخص آخر. وصلت إلى هنا في عام ١٩٤٩، بعد رحلة طويلة بدأت في كويلين عام ١٩٤٤: ذهبت شمالًا إلى تشونغكينغ، حيث التقت أبي، ثم توجها نحو الجنوب الشرقي إلى شنغهاي، وهربا أبعد جنوبًا إلى هونغ كونغ، حيث أبحرت السفينة إلى سان فرانسيسكو. جاءت أمي من جهات عديدة مختلفة.

أخذت تتذمر بإيقاع متناغم مع خطواتها وهي تنزل المنحدر، وقالت:

- حتى لو لم نكن نريدهما، فنحن عالقان معهما.

كانت تشكو مجددًا من المستأجرين القاطنين في الطابق الثاني. قبل عامين، حاولت طردهما بحجة أن أقارب من الصين سيأتون للعيش هناك. لكن الزوجين أدركا حيلتها للالتفاف على ضوابط الإيجار، وقالا إنهما لن يغادرا إلا إذا حضر

الأقارب. ومنذ ذلك الحين، صار عليَّ الاستماع إليها وهي تروي كل إجحاف جديد يرتكبه هذان الزوجان بحقها.

قالت أمي إن الرجل ذا الشعر الأشيب يضع الكثير من الأكياس في صناديق القمامة:

- كلفني ذلك مزيدًا من المصاريف.

أما المرأة، وهي فنانة أنيقة للغاية ذات شعر أشقر، فقد زُعِم أنها طلت الشقة بألوان فظيعة من الأحمر والأخضر. تذمرت أمي:

- إنها مريعة. كما أنهما يستحمان مرتين أو ثلاث مرات في اليوم. يفتحان الماء ويتركانه يتدفق ويتدفق ويتدفق، ولا يتوقف أبدًا!

قالت وهي تزداد غضبًا مع كل خطوة:

- الأسبوع الماضي، اتهمني الواي غورن، وقالا إنني وضعت السم في سمكة، وقتلت ذلك القط.

كانت تشير إلى جميع البيض بوصفهم واي غورن، أي أجانب.

سألتها:

- أي قط؟

على الرغم من أنني كنت أعرف بالضبط أي قط تقصد. رأيتُ ذلك القط مرات كثيرة. كان قطًّا ضخمًا بأذن واحدة، مخططًا بالرمادي، تعلم القفز إلى حافة نافذة مطبخ أمي من الخارج. كانت أمي تقف على أطراف أصابعها وتطرق النافذة لتخيفه كي يبتعد، بينما كان القط يثبت مكانه ويهسهس في وجهها ردًّا على صراخها.

اشتكت أمي:

- دائمًا ما يرفع ذلك القط ذيله كي ينشر رائحة كريهة عند بابي.

رأيتها ذات مرة تطارده لإبعاده عن الدرج وهي تحمل قدرًا من الماء المغلي. أردت سؤالها إذا كانت قد وضعت سمًّا في السمكة حقًّا، لكنني تعلمت ألا أنحاز ضد أمي أبدًا.

سألتها:

- إذن ما الذي حدث لذلك القط؟

- لقد غاب ذلك القط! اختفى!

رفعت يديها في الهواء وابتسمت، وبدت سعيدة للحظة قبل أن تعود إلى عبوسها، وتابعت:

- وقد رفع ذلك الرجل يده هكذا، وأظهر لي قبضته القبيحة، وقال إنني أسوأ صاحبة منزل من فوجيان، مع أنني لست من فوجيان(*). هاه! إنه لا يعرف شيئًا!

بدت في صوتها نبرة رضا، كأنها انتصرت عليه.

في شارع ستوكتون، تجولنا من متجر أسماك إلى آخر، بحثًا عن أكثر أنواع السلطعون حيوية.

حذرتني أمي باللغة الصينية:

- لا تشتري سلطعونًا ميتًا، فحتى المتسول لن يأكل سلطعونًا ميتًا.

وخزتُ السلطعونات بقلم رصاص، لأرى مدى حيويتها. إذا أمسك سلطعون بالقلم، كنت أرفعه وأضعه في كيس بلاستيكي. رفعت أحدها بهذه الطريقة، فوجدت سلطعونًا آخر قد علق برجله. وخلال هذه المعركة القصيرة، فقد سلطعوني إحدى أرجله.

همست إليَّ أمي:

- أعيديه مكانه. الرجل المفقودة بمنزلة فأل سيئ في رأس السنة الصينية.

لكن رجلًا يرتدي مئزرًا أبيض اقترب منا، وبدأ يتحدث بصوت عالٍ إلى أمي باللغة الكانتونية. كانت أمي تتحدث الكانتونية بشكل سيئ حتى بدا كلامها أشبه بالماندرين، وردت عليه بصوت عالٍ هي الأخرى، مشيرة إلى السلطعون ورجله المفقودة. وبعد تبادل كلمات حادة، وُضع السلطعون ورجله في كيسنا.

(*) فوجيان: مقاطعة صينية، والعبارة فيها تلاعب لفظي قائم على سوء فهم الأم التي فسرت كلمة «fucking» الإنجليزية بوصفها المقاطعة الصينية. (المترجمة).

قالت أمي:

- لا يهم، هذا رقم أحد عشر، سلطعون إضافي.

في المنزل، فتحت أمي لفافات الصحف التي تغلف السلطعونات، ثم ألقتها في حوض مملوء بالماء البارد. أحضرت لوح التقطيع الخشبي القديم وساطورها، ثم قطعت الزنجبيل والبصل الأخضر، وسكبت صلصة الصويا وزيت السمسم في طبق ضحل. عبق المطبخ برائحة الصحف المبللة والروائح العطرة للطعام الصيني.

ثم أمسكت السلطعونات واحدًا تلو الآخر من ظهورها، ورفعتها من الحوض، وهزتها لتجففها وتوقظها، فحركت السلطعونات أرجلها في الهواء بين الحوض والموقد. كدستها في قدر بخارية متعددة الطبقات وضعتها فوق شعلتين على الموقد، وغطتها بغطاء، وأشعلت الشعلتين. لم أستطع تحمُّل المشهد، فذهبت إلى غرفة الطعام.

حين كنت في الثامنة من عمري، لعبت ذات مرة مع سلطعون أحضرته أمي لعشاء عيد ميلادي. ظللت أنكزه، وأقفز إلى الوراء كلما مد مخالبه ناحيتي. وقررت حينها أننا، أنا والسلطعون، صرنا متفاهمين تمامًا، عندما رفع نفسه أخيرًا وسار عبر الطاولة. لكن قبل أن أقرر حتى اسم حيواني الأليف الجديد، ألقته أمي في قدر من الماء البارد ووضعتها على الموقد العالي. راقبت بخوف متزايد الماء وهو يسخن، وبدأت القدر بالقعقعة بينما السلطعون يحاول النقر للخروج من حسائه الساخن. وحتى اليوم، ما زلت أذكر صراخ السلطعون حين أخرج مخلبًا أحمر لامعًا فوق حافة القدر الفوارة. لا بد أنه كان صوتي أنا، فأنا أعلم الآن بالطبع أن السلطعونات ليست لها أحبال صوتية. وأحاول إقناع نفسي أيضًا بأنها لا تملك من الذكاء ما يكفي لتميِّز بين حمام ساخن وموت بطيء.

في احتفالنا برأس السنة الجديدة، دعت والدتي صديقيها القديمين ليندو وتين جونغ. ومن دون أن تسأل، أدركت أمي أن هذا يعني دعوة أولاد الزوجين جونغ

أيضًا: ابنهما فنسنت، البالغ من العمر ثمانية وثلاثين عامًا ولا يزال يعيش في منزل والديه، وابنتهما ويفرلي، التي تقاربني في السن. اتصل فنسنت ليسأل عما إذا كان بإمكانه إحضار صديقته ليزا لوم. وقالت ويفرلي إنها ستحضر خطيبها الجديد ريتش شيلدز، الذي كان مثل ويفرلي، محامي ضرائب يعمل في شركة «برايس ووترهاوس»، وأضافت أن شوشانا، ابنتها البالغة من العمر أربع سنوات من زواج سابق، تريد معرفة ما إذا كان والداي يملكان جهاز فيديو كي تتمكن من مشاهدة فيلم «بينوكيو»، في حال شعرت بالملل. كما ذكرتني أمي بدعوة السيد تشونغ، معلم البيانو القديم الذي لا يزال يعيش على بعد ثلاث بنايات عند شقتنا القديمة.

كان العدد أحد عشر شخصًا، بمن في ذلك أمي وأبي وأنا، لكن أمي حسبت العدد عشرة فقط، لأنها اعتقدت أن شوشانا مجرد طفلة ولا تحسب، على الأقل فيما يتعلق بالسلطعون. لم يخطر ببالها أن ويفرلي قد لا تفكر بنفس الطريقة.

وعندما دارت صينية السلطعون المطهو على البخار، كانت ويفرلي أول من اختار، فأخذت أفضل سلطعون، الأكثر لمعانًا والأضخم حجمًا، ووضعته في طبق ابنتها. ثم اختارت الأفضل الذي يليه لريتش، وآخر جيدًا لنفسها. وبما أنها تعلمت هذه المهارة - مهارة اختيار الأفضل - من والدتها، فكان من الطبيعي أن تعرف والدتها كيف تختار الأفضل بعد ذلك لزوجها وابنها ولصديقته ولنفسها أيضًا. أما أمي فنظرت إلى السلطعونات الأربعة المتبقية، وأعطت أفضلها للسيد تشونغ، لأنه كان على مشارف التسعين من عمره ويستحق هذا الاحترام، ثم اختارت آخر جيدًا لأبي. وبقي اثنان على الصينية: سلطعون كبير بلون برتقالي باهت، والسلطعون رقم أحد عشر، الذي فقد إحدى أرجله.

هزت أمي الصينية أمامي، وقالت:

- خذيه، لقد برد بالفعل.

لم أكن مولعة بالسلطعون منذ أن شاهدت سلطعوني في عيد ميلادي يُسلق حيًّا، لكنني أدركت أنني لا أستطيع الرفض. فهكذا تظهر الأمهات الصينيات

حبهن لأولادهن، ليس من خلال الأحضان والقبلات، بل بتقديم أطباق من الفطائر المطبوخة على البخار، وقوانص البط، والسلطعون.

ظننت أنني أقوم بالتصرف الصحيح عندما أخذت السلطعون ذا الرجل المفقودة، لكن أمي صاحت قائلة:

- لا! لا! فلتأكلي الكبير، لن أتمكن من الانتهاء منه.

أتذكر الأصوات التي أصدرها الجميع وهم يأكلون بشهية - صوت تكسير القشور، وامتصاص لحم السلطعون، وكشط البقايا بأطراف أعواد الطعام - وطبق أمي الصامت. كنت الوحيدة التي لاحظت أنها فتحت القشرة، وشمت لحم السلطعون، ثم نهضت متجهة نحو المطبخ، حاملة الطبق بيدها. عادت من دون السلطعون، لكنها أحضرت المزيد من أوعية صلصة الصويا، والزنجبيل، والبصل الأخضر.

وبعد أن امتلأت بطونهم، بدأ الجميع يتحدثون في آنٍ واحد.

نادت عمتي ليندو أمي، وهي تشير برجل سلطعون تجاه كنزتها الحمراء، وقالت:

- سويوان! لماذا ترتدين هذا اللون؟

تابعت حديثها وهي توبخها قائلة:

- كيف لكِ ارتداء هذا اللون الآن؟ إنه شبابي للغاية!

تصرفت أمي كما لو كانت هذه مجاملة، وقالت:

- اشتريته من «إمبوريوم كابويل»، مقابل تسعة عشر دولارًا، أرخص مما لو حكته بنفسي.

أومأت عمتي ليندو برأسها، كأن اللون يستحق هذا الثمن، ثم أشارت برجل السلطعون نحو زوج ابنتها المستقبلي، ريتش، وقالت:

- انظروا كيف لا يعرف هذا طريقة تناول الطعام الصيني.

قالت ويفرلي بنبرتها المتذمرة:

- السلطعون ليس طعامًا صينيًّا.

بدا من المدهش كيف كانت ويفرلي لا تزال تتحدث بنفس الطريقة التي اعتادتها قبل خمسة وعشرين عامًا، حين كنا في العاشرة من العمر، وقالت لي حينها بنفس النبرة: «أنتِ لست عبقرية مثلي».

نظرت عمتي ليندو إلى ابنتها بضيق، وقالت:

- كيف تعرفين ما هو صيني وما هو غير صيني؟

ثم التفتت إلى ريتش وقالت بصوت حازم:

- لماذا لا تأكل أفضل جزء؟

رأيت ريتش يبتسم، وقد انعكست على وجهه السخرية، لا التواضع. بدا لونه مثل لون السلطعون الموجود في طبقه: شعره محمر، وبشرته شاحبة كالكريمة، وتناثر عليها نمش برتقالي كثيف. وبينما كان يبتسم باستهزاء، عرضت عمتي ليندو الطريقة الصحيحة، إذ غرزت عيدان الطعام في الجزء الإسفنجي البرتقالي، وقالت:

- يجب أن تحفر هنا، وتخرج هذا. الدماغ هو ألذ جزء، جربه.

تبادلت ويفرلي وريتش نظرات الاشمئزاز، وقد اتحدا في شعورهما بالنفور، وسمعت فنسنت وليزا يهمسان إلى بعضهما:

- هذا مقزز!

ثم ضحكا أيضًا.

بدأ عمي تين يضحك بينه وبين نفسه، ليشعرنا بأن لديه نكتة خاصة أيضًا. وبالنظر إلى مقدمته التي بدأها بالقهقهة والضرب على ساقيه، خمنت أنه تدرب على هذه النكتة عدة مرات. ضحك بصوت عالٍ، ونكز ليزا الجالسة بجانبه وقال:

- قلت لابنتي: «لماذا تكونين فقيرة؟ تزوجي ريتش!»(*)، ألا تفهمين؟ انظري ماذا حدث، سوف تتزوج هذا الرجل هنا، ريتش، لأني قلت لها أن تتزوج ثريًا.

(*) «ريتش» بالإنجليزية تعني «ثري». (المترجمة).

سأل فنسنت:

- متى ستتزوجان بالفعل؟

قالت ويفرلي:

- لا بد أن أطرح عليك نفس السؤال.

بدا الحرج على ليزا عندما تجاهل فنسنت السؤال.

تذمرت شوشانا قائلة:

- أمي، لا أحب السلطعون!

قالت لي ويفرلي من الجانب الآخر من المائدة:

- قَصة شعرك جميلة.

- شكرًا لك، دائمًا ما يقوم ديفيد بعمل رائع.

سألت ويفرلي، وهي ترفع حاجبها:

- أتعنين أنك ما زلت تذهبين إلى ذلك الرجل في شارع هوارد؟ ألا تخافين؟

شعرت بالخطر الكامن في السؤال، لكنني قلت على أي حال:

- ماذا تعنين بالخوف؟ دائمًا ما يجيد عمله.

قالت ويفرلي:

- أعني، له ميول غير طبيعية، وقد يكون مصابًا بالإيدز. وهو يقص شعرك، الأمر الذي يبدو أشبه بقص نسيج حي. ربما أعاني جنون الشك، كوني أمًّا، لا يمكنك أن تكوني حذرة بما يكفي في هذه الأيام...

جلستُ هناك، شاعرة كأن شعري مغطى بالمرض.

قالت ويفرلي:

- يجب أن تذهبي إلى مصففي، السيد روري. إنه يقوم بعمل رائع، على الرغم من أنه ربما يتقاضى أكثر مما اعتدتِه.

شعرت برغبة في الصراخ. كانت بارعة في دس الإهانات بطريقة ماكرة. على سبيل المثال، كلما سألتها سؤالًا بسيطًا عن الضرائب، كانت تقلب الحديث بطريقة تجعلني أبدو أبخل من أن أدفع أتعابها مقابل الاستشارة القانونية.

اعتادت قول أشياء من قبيل:

- أنا حقًّا لا أحب الحديث عن الأمور الضريبية المهمة إلا في مكتبي. أعني، ماذا لو قلتِ شيئًا عابرًا على الغداء، ثم قدمتُ لكِ نصيحة عابرة، فاتبعتِها، ووجدتِ أنها خطأ لأنك لم تعطيني المعلومات الكاملة؟ سأشعر بالسوء، وأنتِ أيضًا، أليس كذلك؟

في ذلك العشاء حيث تناولنا السلطعون، غضبتُ بشدة من كلامها عن شعري إلى درجة أنني أردت إحراجها، وكشف مدى تفاهتها أمام الجميع. لذا قررت مواجهتها بشأن العمل الحر الذي قمت به لصالح شركتها، وهو كتيب دعائي من ثماني صفحات عن الخدمات الضريبية للشركة. وقد تأخرت الشركة في دفع أتعابي لأكثر من ثلاثين يومًا.

قلت بابتسامة ساخرة:

- ربما كنت لأتمكن من تحمُّل أسعار السيد روري لو أن شركة أحدهم دفعت لي في الوقت المحدد.

وسعدتُ برؤية رد فعل ويفرلي، حيث بدت مرتبكة حقًّا، وعاجزة عن الكلام.

لم أستطع مقاومة الإمعان في إحراجها، وتابعت:

- أعتقد أنه من المثير للسخرية أن شركة محاسبة كبيرة لا تستطيع حتى سداد فواتيرها في الوقت المحدد. أعني، حقًّا يا ويفرلي، ما هذا المكان الذي تعملين به؟

تجهمت ملامحها والتزمت الصمت.

قال أبي، كأن ويفرلي وأنا ما زلنا طفلتين نتشاجر على الدراجات ثلاثية العجلات وألوان الشمع:

- مهلًا، مهلًا يا فتيات، لا مزيد من الشجار!

قالت ويفرلي بهدوء:

- هذا صحيح، لا نريد التحدث عن هذا الأمر الآن.

قال فنسنت محاولًا إضفاء بعض المرح:

- في رأيكم، كيف سيكون أداء فريق «الجاينتس»؟

لكن لم يضحك أحد.

لم أكن لأدعها تفلت مني هذه المرة، لذا قلت:

- حسنًا، في كل مرة أتصل بك على الهاتف، لا يمكنك الحديث عن الموضوع أيضًا.

نظرت ويفرلي إلى ريتش، الذي هز كتفيه، ثم التفتت إليَّ وتنهدت.

- اسمعي يا جون، لا أعرف كيف أخبرك بهذا. ما كتبته، حسنًا، قررت الشركة أنه غير مقبول.

- أنت تكذبين. لقد قلتِ إنه رائع.

تنهدت ويفرلي مرة أخرى.

- أعلم أنني قلت ذلك. لم أرغب في جرح مشاعرك. كنت أحاول معرفة ما إذا كان بإمكاننا إصلاحه بطريقة ما، لكن لا جدوى.

وهكذا، بدأت أتخبط بعد أن أُلقيت من دون سابق إنذار في المياه العميقة، وأخذت أغرق وقد غمرني اليأس، وقلت:

- معظم النصوص تحتاج إلى تعديل. من... الطبيعي ألا تكون مثالية من أول مرة. كان يجب أن أشرح العملية بشكل أفضل.

- جون، أنا حقًّا لا أعتقد...

- إعادة الكتابة مجانية. أنا حريصة على جعل العمل مثاليًّا، تمامًا كحرصك.

تصرفت ويفرلي كأنها لم تسمعني أصلًا، وقالت:

- أحاول إقناعهم بأن يدفعوا لكِ على الأقل مقابل بعض الوقت الذي بذلتِه. أعلم أنك بذلت جهدًا كبيرًا في ذلك... أنا مدينة لك بهذا على الأقل، لمجرد أنني اقترحت عليك الأمر.

- أخبريني بما يريدون تغييره فحسب. سأتصل بك الأسبوع المقبل لنراجع العمل سطرًا بسطر.

قالت ويفرلي ببرود وحزم:

- جون، لا يمكنني ذلك. إنه ببساطة ليس... راقيًا. أنا متأكدة أن ما تكتبينه لعملائك الآخرين رائع. لكننا شركة كبيرة، ونحتاج إلى شخص يفهم... ذوقنا.

قالت ذلك وهي تضع يدها على صدرها، كما لو أنها تشير إلى ذوقها الشخصي. ثم ضحكت بخفة وقالت:

- أعني، حقًّا يا جون...

بدأت تتحدث بصوت عميق كمذيع تلفزيوني:

- ثلاث مزايا، ثلاثة احتياجات، ثلاثة أسباب للشراء... رضاؤك مضمون... لتلبية احتياجاتك الضريبية اليوم وغدًا...

قالت هذا بطريقة مضحكة إلى درجة أن الجميع ظنوها مزحة جيدة فضحكوا. ومما زاد الأمور سوءًا أنني سمعت أمي تقول لويفرلي:

- صحيح، لا يمكن تعليم الذوق. جون ليست راقية مثلك. لا بد أن يُولد المرء هكذا.

دهشت من نفسي، ومن مدى شعوري بالإهانة. لقد تفوقت عليَّ ويفرلي مرة أخرى، والآن خانتني أمي نفسها. ابتسمتُ بشدة، إلى درجة أن شفتي السفلى ارتعشت من شدة الإجهاد. حاولت شغل نفسي بشيء آخر، وأتذكر أنني التقطتُ طبقي، ثم طبق السيد تشونغ، كما لو كنتُ أُنظف المائدة، ورأيت بوضوح من خلال دموعي الشقوق على حواف هذه الأطباق القديمة، متسائلة لماذا لم تستخدم أمي المجموعة الجديدة التي اشتريتها لها قبل خمس سنوات.

امتلأت المائدة ببقايا السلطعون، وأشعلت ويفرلي وريتش سجائرهما ووضعا قشرة سلطعون بينهما كمنفضة سجائر. اتجهت شوشانا إلى البيانو، وأخذت تضرب مفاتيحه بمخلب سلطعون في كل يد. وكان السيد تشونغ قد فَقَد سمعه تمامًا على مر السنين، لذا راقب شوشانا وصفق قائلًا:

- برافو! برافو!

وباستثناء صياحه الغريب، لم ينطق أحد بكلمة. ذهبت أمي إلى المطبخ وعادت بطبق من البرتقال المقطع إلى شرائح، بينما عبث أبي ببقايا السلطعون في طبقه، وسعل فنسنت مرتين، ثم ربت على يد ليزا.

كانت عمتي ليندو هي من تكلمت أخيرًا، وقالت:

- ويفرلي، دعيها تحاول مرة أخرى. جعلتِها تعمل بسرعة في المرة الأولى، من الطبيعي ألا تنجح.

سمعت أمي تمضغ شريحة برتقال. كانت الوحيدة التي أعرفها التي تسحق البرتقال بأسنانها، مما يجعلها تبدو كأنها تأكل تفاحًا مقرمشًا، وبدا الصوت أسوأ من صوت صرير الأسنان. تابعت عمتي ليندو، وهي تهز رأسها مؤمِّنة على حديثها:

- العمل الجيد يحتاج إلى وقت.

نصحني عمي تين:

- فلتضعي في الإعلان الكثير من الإثارة، الكثير من الإثارة، هذا ما يعجبني.

نعم، هذا كل ما تحتاجين إليه لتجعليه جيدًا.

فقلت بابتسامة، وأنا أحمل الأطباق نحو الحوض:

- لن أفعل، على الأرجح.

في تلك الليلة في المطبخ، أدركت حقيقتي: كنت كاتبة إعلانات، أعمل في وكالة إعلانات صغيرة، وأعد كل عميل جديد بأننا نستطيع «إضفاء الإثارة على المنتجات». لكن دائمًا ما كانت تلك الإثارة تختزل في «ثلاث مزايا، ثلاثة احتياجات، ثلاثة أسباب للشراء». كما أن المنتج لم يخرج قَطُّ عن كونه كابلات محورية، أو مضاعفات T-1، أو محولات بروتوكولات، وأشياء من هذا القبيل. كنت بارعة للغاية في عملي، ونجحت في أشياء بسيطة كهذه.

فتحت الماء لغسل الأطباق، ولم أعد أشعر بالغضب من ويفرلي. أحسست بالتعب والحماقة، كما لو كنت أركض هربًا من شخص يطاردني، لأنظر خلفي وأكتشف أنه لا يوجد أحد هناك.

التقطت طبق أمي، ذلك الذي أحضرته معها إلى المطبخ في بداية العشاء.

كان السلطعون كما هو، لم يُمس. رفعت قشرته وشممت رائحته. ربما لأنني لم أكن أحب السلطعون أصلًا، لم أستطع تحديد ما الخطب فيه.

بعدما غادر الجميع، انضمت إليَّ أمي في المطبخ. أعدتُ الأطباق إلى أماكنها، بينما وضعت هي الماء لتحضير مزيد من الشاي، وجلسَت إلى الطاولة الصغيرة في المطبخ، وانتظرتُ منها أن تعاتبني.

قلت بأدب:

- كان عشاءً طيبًا يا أمي.

قالت وهي تنظف أسنانها بخلة أسنان:

- لم يكن طيبًا للغاية.

- ماذا حدث لسلطعونك؟ لماذا تخلصت منه؟

كررت مرة أخرى:

- لم يكن طيبًا للغاية. لقد مات ذلك السلطعون، وحتى المتسول لم يكن ليرغب فيه.

- كيف عرفتِ؟ لم أشم فيه شيئًا غريبًا.

- أدركت ذلك حتى من قبل أن أطهوه.

وقفَت تطل إلى الليل بالخارج من نافذة المطبخ، وتابعت:

- لقد هززت ذلك السلطعون قبل طهوه، فبدت أرجله مرتخية، وفمه مفتوح عن آخره، كأنه ميت بالفعل.

- لماذا طهوته وأنت تعلمين أنه ميت بالفعل؟

- ظننت... ربما مات للتو فحسب، وربما لا يكون طعمه سيئًا. لكنني شممت فيه طعم الموت، ولم يكن لحمه متماسكًا.

- ماذا لو اختار شخص آخر ذلك السلطعون؟

نظرت إليَّ أمي وابتسمت.

- أنت فقط من اختار ذلك السلطعون. لا أحد غيرك كان ليأخذه، وقد

عرفتُ هذا سابقًا. الجميع يريد الأفضل جودة، أما أنتِ فتفكرين بشكل مختلف.

قالت ذلك كأنه دليل، دليل على أمر جيد. دائمًا ما كانت تقول أشياء غير منطقية، تبدو جيدة وسيئة في نفس الوقت.

كنت أضع آخر الأطباق ذات الحواف المشققة في مكانها حين تذكرتُ شيئًا آخر.

- أمي، لماذا لا تستخدمين تلك الأطباق الجديدة التي اشتريتها لك؟ إذا لم تعجبك، كان يجب أن تخبريني. كان بوسعي استبدال تصميم آخر بها.

قالت بانزعاج:

- بالطبع تعجبني. أحيانًا أظن أن شيئًا ما جميل جدًّا، فأرغب في الحفاظ عليه، ثم أنسى أنه لديَّ.

ثم، كأنها تذكرت للتو، فكت مشبك عقدها الذهبي، وخلعته، ولفت السلسلة والقلادة المصنوعة من اليشم في راحة يدها. أمسكت يدي، وضعت العقد في كفي، ثم أغلقت أصابعي عليه.

احتججت قائلة:

- لا يا أمي، لا يمكنني أخذ هذا.

قالت كما لو كانت توبخني:

- ناله، ناله. خذيه، خذيه.

ثم تابعت بالصينية:

- أردت أن أهديكِ هذا العقد منذ زمن طويل. انظري، لقد ارتديته على بشرتي، لذلك عندما تضعينه على بشرتك، ستفهمين قصدي. هذا هو جوهر حياتك.

نظرتُ إلى السلسلة، والقلادة المصنوعة من اليشم الأخضر الفاتح. أردتُ إعادتها، ولم أرغب في قبولها، ومع ذلك شعرت كأنني قد ابتلعتها بالفعل.

أخيرًا، قلت:

- أنت تمنحينني هذا بسبب ما حدث الليلة فحسب.

- ماذا حدث؟
- ما قالته ويفرلي، وما قاله الجميع.
- هراء! لماذا تنصتين إليها؟ لماذا تريدين اللحاق بها ومطاردة كلماتها؟ إنها مثل هذا السلطعون.

أشارت أمي إلى قشرة سلطعون في سلة القمامة.

- دائمًا ما تمشي بشكل جانبي، وتتحرك على نحو معوج. أما أنت، فيمكنك أن تسلكي طريقًا مستقيمًا.

ارتديتُ القلادة. وشعرتُ ببرودتها.

قالت أمي بتلقائية وهي تلمس القلادة:

- هذا اليشم ليس جيدًا.

ثم أضافت بالصينية:

- هذا اليشم لا يزال فتيًّا. لونه الآن فاتح جدًّا، لكن إذا ارتديته كل يوم، فسيزداد اخضرارًا.

لم يأكل أبي جيدًا منذ وفاة أمي. ولهذا أنا هنا، في المطبخ، لأعد له العشاء. انشغلت بتقطيع التوفو، حيث قررت أن أعد له طبقًا حارًّا من التوفو. اعتادت أمي أن تخبرني كيف أن الأشياء الحارة تنعش الروح وتمنح الصحة. لكنني أعد هذا الطبق في الأساس لأنني أعلم أن والدي يحبه، ولأنني أعرف كيف أطبخه. أحب رائحته: الزنجبيل، والبصل الأخضر، وصلصة الفلفل الأحمر الحار التي تدغدغ أنفي بمجرد أن أفتح البرطمان.

سمعت اهتزاز الأنابيب القديمة فوقي في الأعلى، مع صوت قرقعة، ثم ضعف تدفق الماء في الحوض حتى أصبح خيطًا رفيعًا. لا بد أن أحد المستأجرين في الطابق العلوي يستحم. تذكرت شكوى أمي: «حتى لو لم نكن نريدهما، فنحن عالقان معهما»، وفهمت الآن ما كانت تقصده.

بينما كنت أغسل التوفو في الحوض، فزعت من كتلة داكنة ظهرت فجأة عند

النافذة. كان القط ذو الأذن الواحدة من الطابق العلوي، متوازنًا على حافة النافذة، يحك خاصرته بالزجاج.

إذن لم تقتل أمي ذلك القط اللعين في نهاية المطاف. شعرت بالارتياح، ثم رأيت القط يفرك النافذة بقوة أكبر، وبدأ يرفع ذيله.

ضربت النافذة بيدي ثلاث مرات، وصحت:

- ابتعد من هنا!

لكن القط ضيق عينيه فحسب، وأرجع أذنه الوحيدة إلى الخلف، وهسهس في وجهي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الملكة الأم
للسماوات الغربية



قالت المرأة مداعبة حفيدتها الصغيرة:

- أوه! هواي دونغسي، أيتها الشقية الصغيرة، هل يعلمك بوذا الضحك بلا سبب؟

وبينما واصلت الرضيعة القرقرة، شعرت المرأة برغبة عميقة تسري في قلبها.

قالت للرضيعة:

- حتى لو كان بإمكاني أن أعيش إلى الأبد، ما زلت لا أعلم أي طريق سأعلمك. كنتُ ذات يوم حرة وبريئة، وكنتُ أضحك أيضًا بلا سبب. لكن فيما بعد تخليت عن براءتي الحمقاء لأحمي نفسي. ثم علمت ابنتي، أمك، أن تتخلى عن براءتها حتى لا تتأذى هي الأخرى.

هواي دونغسي، هل كان هذا التفكير خطأً؟ إذا كنت الآن أدرك الشر في الآخرين، أليس ذلك لأنني أصبحت شريرة أيضًا؟ وإذا رأيت في أحدهم ما يثير الشك، أليس ذلك لأنني أنا نفسي قد اختبرت الأمور السيئة نفسها؟

ضحكت الرضيعة بينما كانت تستمع إلى تذمر جدتها.

- أوه! أوه! تقولين إنك تضحكين لأنك عشتِ بالفعل منذ القدم مرارًا وتكرارًا؟ تقولين إنك سي وانغ مو، الملكة الأم للسماوات الغربية، وقد عدتِ الآن لتعطيني الجواب! حسنًا، حسنًا، هأنذا أنصت...

شكرًا لك، أيتها الملكة الصغيرة. إذن، لا بد أن تعلمي ابنتي هذا الدرس نفسه: كيف تفقد براءتها من دون أن تفقد الأمل، وكيف تضحك إلى الأبد.

آن-ماي شو

طيور العقعق

قالت لي ابنتي أمس:

- زواجي ينهار.

وها هي ذي الآن لا تملك إلا أن تراقب هذا الانهيار. تستلقي على أريكة طبيب نفسي، تعتصر الدموع من عينيها بسبب هذا الهوان. وأعتقد أنها ستظل مستلقية هناك حتى لا يبقى شيء لينهار، ولا يبقى شيء لتبكيه، حتى يجف كل شيء.

بكت قائلة:

- ليس لديَّ خيار! ليس لديَّ خيار!

وهي لا تعلم: إن لم تتكلم، فهي تتخذ خيارًا، وإن لم تحاول، فقد تفقد فرصتها إلى الأبد.

أعرف هذا، لأنني تربيت على الطريقة الصينية: تعلمت ألا أرغب في شيء، أن أتجرع بؤس الآخرين، وأن أتحمل مرارتي في صمت.

وعلى الرغم من أنني علمت ابنتي عكس ذلك، فقد خرجت بنفس الطريقة! ربما لأنها وُلدَت مني، ووُلدَت فتاة. وأنا وُلدتُ من أمي، ووُلدتُ فتاة. كلنا كالسلالم، درجة بعد درجة، نصعد وننزل، لكننا جميعًا نسير في نفس الطريق.

أعرف معنى الصمت، أن تنصت وتشاهد، كما لو كانت حياتك حلمًا. يمكنك

إغماض عينيك عندما لا ترغب في المشاهدة. لكن عندما لا ترغب في الاستماع، ماذا عساك أن تفعل؟ لا يزال بإمكاني سماع ما حدث منذ أكثر من ستين عامًا.

* * *

كانت أمي غريبة عني حين وصلت أول مرة إلى منزل خالي في نينغبو. كنت في التاسعة من عمري، ولم أرَها منذ سنوات طويلة. لكنني عرفت أنها أمي، لأنني شعرت بألمها.

قالت لي زوجة خالي محذرة:

- لا تنظري إلى تلك المرأة. لقد ألقت وجهها في التيار المتدفق شرقًا، وضاعت روح أسلافها إلى الأبد. إن الشخص الذي ترينه الآن ليس إلا لحمًا متحللًا، خبيثًا، متعفنًا حتى النخاع.

مع ذلك، حدقت إلى أمي، ولم تبدُ خبيثة. أردت لمس وجهها، ذلك الوجه الذي يشبه وجهي.

صحيح أنها كانت ترتدي ثيابًا غريبة، أجنبية، لكنها لم ترد حين شتمتها زوجة خالي، وطأطأت رأسها أكثر حين صفعها خالي لأنها نادته «أخي». وبكت من أعماق قلبها حين ماتت بوبو، والدتها، على الرغم من أن بوبو طردتها قبل سنوات طويلة. وبعد جنازة بوبو، أطاعت أوامر خالي، وأعدت نفسها للعودة إلى تيانجين، حيث ألحقت العار بوضعها أرملة عندما أصبحت المحظية الثالثة لرجل غني.

كيف يمكنها أن تغادر من دوني؟ كان هذا سؤالًا لم أستطع طرحه. كنت طفلة، ولم يسعني سوى المشاهدة والاستماع.

في الليلة السابقة لرحيلها، ضمت رأسي إلى صدرها، كأنها تحميني من خطر لا أراه. أخذت أبكي لأستعيدها من قبل أن تغادر أصلًا. وبينما كنت مستلقية في حجرها، بدأت تروي لي حكاية.

همست قائلة:

- آن-ماي، هل رأيتِ السلحفاة الصغيرة التي تعيش في البركة؟

أومأت برأسي. كانت تلك بركة في فناء منزلنا، وغالبًا ما كنتُ أغرز عصا في الماء الساكن لأجعل السلحفاة تخرج من تحت الصخور.

قالت أمي:

- عرفت تلك السلحفاة أيضًا حين كنت طفلة صغيرة. اعتدت الجلوس بجانب البركة ومراقبتها وهي تسبح إلى السطح، وتعض الهواء بمنقارها الصغير. إنها سلحفاة عجوز جدًّا.

رأيت تلك السلحفاة في خيالي، وأدركت أن أمي ترى نفس السلحفاة.

قالت أمي:

- هذه السلحفاة تتغذى على أفكارنا. تعلمت ذلك في أحد الأيام، عندما كنت في مثل سنك، وقالت لي بوبو إنني لم أعد طفلة. قالت إنه لم يَعُد مسموحًا لي أن أصرخ، أو أركض، أو أجلس على الأرض لاصطياد صراصير الليل. لم يكن مسموحًا لي بالبكاء إذا شعرت بخيبة الأمل، وكان عليَّ التزام الصمت والإصغاء إلى الكبار. وإن لم أفعل، قالت بوبو إنها ستقص شعري وترسلني إلى مكان تعيش فيه الراهبات البوذيات.

في تلك الليلة، بعد أن قالت لي بوبو ذلك، جلستُ بجانب البركة، أحدق إلى الماء. ولأنني كنت ضعيفة، بدأت أبكي. ثم رأيت السلحفاة تسبح نحو السطح، ومنقارها يلتهم دموعي بمجرد أن تلمس الماء. ابتلعتها بسرعة، خمس أو ست أو سبع دموع، ثم خرجت من البركة، وزحفت إلى صخرة ملساء، وبدأت تتكلم.

قالت السلحفاة: «لقد أكلتُ دموعك، ولهذا أعرف حزنك. لكن عليَّ أن أحذرك: إذا بكيتِ، فستكون حياتك دائمًا حزينة».

ثم فتحت السلحفاة منقارها، وانسكبت منه خمس، ست، سبع بيضات لؤلؤية. فقس البيض، وخرجت منه سبعة طيور، بدأت مباشرة في الزقزقة والغناء. وعرفت من بطونها البيضاء الناصعة وأصواتها الجميلة أنها طيور العقعق، طيور الفرح. انحنت هذه الطيور بمناقيرها نحو البركة وبدأت

تشرب بنهم. وحين مددت يدي لأمسك واحدة، طارت جميعها، وضربت أجنحتها السوداء في وجهي، ثم حلقت في الهواء ضاحكة.

قالت السلحفاة وهي تعود إلى البركة: «ها أنت ذي ترين الآن، لماذا البكاء بلا جدوى. فدموعك لا تزيل أحزانك، بل تغذي فرحة الآخرين. ولهذا، يجب أن تتعلمي كيف تكبحين دموعك».

لكن بعد أن أنهت أمي قصتها، نظرت إليها ورأيتها تبكي، فبكيت أنا أيضًا من جديد، لأن هذا كان مصيرنا، أن نعيش مثل سلحفاتين، نرى العالم المائي معًا من قاع البركة الصغيرة.

في الصباح، استيقظت لأسمع - ليس طائر الفرح - بل أصواتًا غاضبة من بعيد. قفزت من سريري وهرعت بهدوء إلى نافذتي.

في الفناء الأمامي، رأيت أمي راكعة على الأرض، تنبش الممر الحجري بأصابعها، كما لو أنها فقدت شيئًا وتعلم أنها لن تجده مجددًا. ووقف أمامها خالي، شقيقها، وهو يصيح:

- تريدين أن تأخذي ابنتك وتدمري حياتها أيضًا! من المفترض أن تكوني قد رحلتِ بالفعل.

لم تقل أمي شيئًا. بقيت منحنية على الأرض، وظهرها مقوس كظهر السلحفاة في البركة. كانت تبكي وفمها مغلق، وبدأت أنا أيضًا أبكي بنفس الطريقة، أبتلع تلك الدموع المريرة.

أسرعت لارتداء ملابسي، وحين ركضتُ نزولًا عبر الدرج إلى الغرفة الأمامية، كانت أمي على وشك المغادرة. حمل أحد الخدم صندوق أمتعتها إلى الخارج، بينما أمسكت زوجة خالي يد أخي الصغير. وقبل أن أتذكر أن أغلق فمي، صرختُ:

- أمي!

صاح خالي:

- انظري كيف امتد تأثيرك الخبيث إلى ابنتك أيضًا!

كان رأس أمي لا يزال محنيًّا، فرفعت عينيها ونظرت إليَّ ورأت وجهي. لم أستطع منع دموعي عن الانهمار. وأعتقد أن أمي تغيرت عندما رأت وجهي هكذا. وقفت منتصبة، وظهرها مستقيم، حتى كادت تصبح أطول من خالي، ومدت يدها إليَّ، فركضت نحوها. وقالت بصوت هادئ، رصين:

- آن-ماي، أنا لا أطلب منك، لكنني سأعود إلى تيانجين الآن ويمكنك أن تتبعيني.

سمعت زوجة خالي هذا، فقالت على الفور بنبرة كالفحيح:

- إن الفتاة ليست أفضل من الذي تتبعه! آن-ماي، تظنين أنك سترين شيئًا جديدًا وأنتِ تركبين عربة جديدة، لكن ما أمامك ليس إلا مؤخرة نفس البغل العجوز. حياتكِ هي ما ترينه أمامك.

جعلني سماع هذا أكثر إصرارًا على الرحيل، لأن الحياة التي أمامي كانت منزل خالي الممتلئ بالألغاز المظلمة والمعاناة التي عجزت عن فهمها. لذا أشحت عن كلمات زوجة خالي الغريبة ونظرت إلى أمي.

التقط خالي مزهرية خزفية، وقال:

- أهذا ما تريدين فعله؟ أن ترمي حياتك؟ إذا تبعتِ هذه المرأة، فلن تستطيعي رفع رأسك مرة أخرى.

ألقى تلك المزهرية على الأرض، حيث تحطمت إلى شظايا كثيرة، فجفلت، وأمسكت أمي بيدي.

كانت يدها دافئة، وقالت كما لو كانت تراقب سماءً ممطرة:

- هيَّا يا آن-ماي، يجب أن نسرع.

سمعت زوجة خالي تنادي من خلفي بصوت حزين:

- آن-ماي!

لكن خالي قال:

- سوانله! انتهى! لقد تغيرت بالفعل.

وبينما كنت أمشي مبتعدة عن حياتي القديمة، تساءلتُ إن كان ما قاله خالي

صحيحًا، بأنني قد تغيرت ولن أستطيع رفع رأسي مجددًا. فحاولت، ورفعت رأسي.

رأيت أخي الصغير يبكي بحرقة بينما أمسكت زوجة خالي يده. لم تجرؤ أمي على أخذ أخي، حيث لا يمكن للابن الذهاب إلى منزل شخص آخر ليعيش فيه. وإن فعل، فسيفقد أي أمل في مستقبل له. لكنني كنت أعلم أنه لا يفكر في هذا. كان يبكي غاضبًا وخائفًا، لأن أمي لم تطلب منه أن يتبعها.

كان ما قاله خالي صحيحًا. فبعد أن رأيت أخي هكذا، لم أستطع أن أُبقي رأسي مرفوعًا.

في عربة الريكشا ونحن في طريقنا إلى محطة القطار، تمتمت أمي قائلة:

- مسكينة آن-ماي، أنت وحدك من تعرف. أنت وحدك من تعرف ما عانيته.

وعندما قالت ذلك، شعرتُ بالفخر، لأنني الوحيدة التي يمكنها إدراك هذه الأفكار الحساسة والنادرة.

لكن في القطار، أدركتُ كم كنت أبتعد عن حياتي، وشعرتُ بالخوف. سافرنا سبعة أيام؛ يومًا واحدًا بالقطار، وستة أيام بالباخرة. في البداية، بدت أمي مفعمة بالحيوية، وأخذت تروي لي قصصًا عن تيانجين كلما رأت في وجهي الحنين إلى المكان الذي تركناه لتونا.

حدثتني عن الباعة الأذكياء الذين يقدمون جميع أنواع الطعام البسيط: الفطائر المطهوة على البخار، والفول السوداني المسلوق، والطبق المفضل لدى أمي، فطيرة رقيقة مع بيضة في الوسط، مغطاة بصلصة الفاصوليا السوداء، ثم تُلف وتُقدم - وهي لا تزال ساخنة من المقلاة! - إلى المشتري الجائع.

وصفت الميناء ومأكولاته البحرية، وادعت أنها ألذ حتى مما تناولناه في نينغبو: محار كبير، وجمبري، وسلطعون، وكل أنواع أسماك المياه المالحة والعذبة. كانت الأفضل على الإطلاق، وإلا فلماذا يأتي الكثير من الأجانب إلى هذا الميناء؟

حدثتني عن الشوارع الضيقة والأسواق المزدحمة. وفي الصباح الباكر، كان

الفلاحون يبيعون خضراوات لم أرَها أو أتذوقها من قبل في حياتي، وأكدت لي أمي أنني سأجدها حلوة وغضة وطازجة للغاية. وكانت هناك أحياء في المدينة يسكنها أجانب من جنسيات مختلفة: يابانيون، وروس بيض، وأمريكيون، وألمان، لكنهم لا يجتمعون في مكان أبدًا، ولكلٍّ منهم عاداته الخاصة، بعضها قذرة وبعضها نظيفة. وكانت لهم منازل بأشكال وألوان مختلفة، بعضها مطلي باللون الوردي، وبعضها بغرف بارزة بزوايا غريبة مثل مقدمة وظهر الفساتين الفيكتورية، وبعضها ذات أسقف تشبه القبعات المدببة ومزينة بمنحوتات خشبية مطلية باللون الأبيض لتبدو كالعاج.

كما قالت إنني سأرى الثلج في فصل الشتاء. ذكرت أمي أنه في غضون بضعة أشهر، ستحل فترة الندى البارد، ثم سيبدأ المطر في الهطول، وبعدها سيصبح المطر أنعم وأهدأ، حتى يصير أبيض وجافًّا كبتلات أزهار السفرجل في الربيع. وستلفني بمعاطف وسراويل مبطنة بالفرو، فلا بأس إن كان الجو قارس البرودة!

قصت عليَّ الكثير من الحكايات، حتى التفت وجهي إلى الأمام، نحو منزلي الجديد في تيانجين. لكن عندما حل اليوم الخامس، واقتربنا من خليج تيانجين، تغير لون المياه من الأصفر الموحل إلى الأسود، وبدأت الباخرة تتمايل وتئن. انتابني الخوف والغثيان، وفي الليل، حلمت بالتيار المتدفق شرقًا، الذي حذرتني منه زوجة خالي: المياه المظلمة التي تغير المرء إلى الأبد. وبينما كنت أراقب تلك المياه السوداء من فراش مرضي على متن الباخرة، خشيت أن تكون كلمات زوجة خالي قد تحققت. رأيت كيف بدأت أمي تتغير بالفعل، كيف أصبح وجهها مكفهرًا غاضبًا وهي تحدق إلى البحر، غارقة في أفكارها. كما أصبحت أفكاري أنا أيضًا غائمة ومشوشة.

وفي صباح اليوم الذي كان من المفترض أن نصل فيه إلى تيانجين، دخلت أمي إلى مقصورة نومنا وهي ترتدي ثوب الحداد الأبيض الصيني، وعندما عادت إلى غرفة الجلوس في الطابق العلوي من الباخرة، بدت كأنها غريبة تمامًا. رسمت حاجبيها على نحو سميك من المنتصف، ثم طويل وحاد عند الأطراف. كما

أحاطت عينيها بسواد كثيف، وبدا وجهها أبيض شاحبًا، وشفتاها حمراوين داكنتين. وعلى رأسها، وضعت قبعة صغيرة من اللباد البني، تعلوها ريشة كبيرة مرقطة باللون البني تمتد على الجزء الأمامي. ودست شعرها القصير تحت القبعة، باستثناء خصلتين متموجتين مثاليتين على جبينها، متقابلتين كأنهما نقشان من ورنيش أسود. وارتدت فستانًا بنيًّا طويلًا مع ياقة من الدانتيل الأبيض تنزل حتى خصرها ومثبتة بوردة من الحرير.

بدا هذا المشهد صادمًا. كنا في حالة حداد، لكنني لم أستطع قول شيء. كنت مجرد طفلة، كيف لي أن أوبخ أمي؟ لم أستطع سوى الشعور بالخجل، وأنا أرى أمي تجاهر بخزيها بهذه الوقاحة.

وفي يديها اللتين يغطيهما قفازان، حملت صندوقًا كبيرًا ذا لون كريمي، كُتبت عليه كلمات أجنبية: «ملابس إنجليزية فاخرة، تيانجين». أتذكر أنها وضعت الصندوق بيننا وقالت لي:

- افتحيه! بسرعة!

تسارعت أنفاسها وهي تبتسم، وقد دُهشتُ من تصرفات أمي الغريبة الجديدة، ولم أتساءل إلا بعد سنوات، عندما كنت أستخدم هذا الصندوق لتخزين الرسائل والصور الفوتوغرافية: كيف عرفت أمي بذلك؟ على الرغم من أنها لم ترَني منذ سنوات، فإنها كانت تعلم أنني سأتبَعها يومًا ما، وأنه ينبغي لي أن أرتدي فستانًا جديدًا حين أفعل.

وعندما فتحت ذلك الصندوق، تلاشى كل شعوري بالخزي وكل مخاوفي. كان بداخله فستان جديد أبيض ناصع، مزين بالكشكشة عند الياقة والكُمين، وله تنورة مكونة من ست طبقات من الكشكشة. كما احتوى الصندوق أيضًا على جوربين أبيضين، وحذاء جلدي أبيض، وفيونكة شعر بيضاء ضخمة، جاهزة للتثبيت بشريطين فضفاضين.

كان كل شيء كبيرًا جدًّا. ظلت كتفاي تنزلقان من فتحة العنق الكبيرة، وكان الخصر واسعًا بما يكفي ليحوي اثنتين مثلي، لكن الأمر لم يزعجني، ولم يزعجها

هي أيضًا. رفعتُ ذراعَي ووقفت بلا حراك، بينما أخرجت هي دبابيس وخيوطًا، وأخفت القماش الزائد ببعض الطيات الصغيرة في مواضع متفرقة. ثم ملأَت مقدمة الحذاء بالورق حتى أصبح كل شيء ملائمًا. وما إن ارتديت تلك الملابس، حتى شعرت كأنني نبتت لي يدان وقدمان جديدة، وأنني سأضطر الآن إلى تعلم المشي بطريقة جديدة.

ثم عادت أمي إلى كآبتها مرة أخرى. جلست ويداها متشابكتان في حجرها، تراقب باخرتنا وهي تقترب أكثر فأكثر من رصيف الميناء.

- آن-ماي، أنتِ الآن جاهزة لبدء حياتك الجديدة. ستعيشين في منزل جديد، وسيكون لديكِ أب جديد، والعديد من الأخوات، وأخ صغير آخر، وفساتين وأطعمة لذيذة. هل تعتقدين أن كل هذا يكفي لتكوني سعيدة؟

أومأت برأسي بهدوء، وأنا أفكر في تعاسة أخي في نينغبو. لم تقل أمي شيئًا آخر عن البيت، أو عن عائلتي الجديدة، أو عن سعادتي. ولم أطرح أي سؤال، حيث بدأ جرس يقرع وأعلن أحد العاملين بالباخرة وصولنا إلى تيانجين. أعطت أمي تعليمات سريعة لحمال الأمتعة، وأشارت إلى صندوقينا الصغيرين، وناولته نقودًا، كما لو كانت تفعل ذلك كل يوم في حياتها. ثم فتحت صندوقًا آخر بعناية وأخرجت منه ما بدا كخمسة أو ستة ثعالب ميتة، بأعين صغيرة مفتوحة، وأرجل مرتخية، وذيول كثيفة. وضعت هذا الشيء المخيف حول عنقها وكتفيها، ثم أمسكت بيدي بقوة بينما كنا نسير في الممر مع جموع الناس.

لم يكن هناك أحد في الميناء لاستقبالنا. سارت أمي ببطء على المنحدر، عبر رصيف الأمتعة، تنظر بقلق من جانب إلى آخر.

قالت بصوت ممتلئ بالخوف:

- آن-ماي، تعالي! لماذا أنتِ بطيئة هكذا؟

كنت أجرجر قدمَي، أحاول إبقاءهما داخل ذلك الحذاء الواسع، والأرض من تحتي تهتز. وحينما لم أكن منشغلة بمتابعة خطواتي، رفعت نظري فرأيت الجميع في عجلة من أمرهم، وبدا الجميع تعساء: عائلات مع آباء وأمهات مسنين،

جميعهم يرتدون ملابس داكنة اللون، يدفعون ويجرون حقائب وصناديق تحتوي على ممتلكاتهم، وسيدات أجنبيات شاحبات يرتدين ملابس مثل أمي، ويمشين مع رجال أجانب يعتمرون قبعات، وزوجات ثريات يوبخن الخادمات والخدم الذين يتبعونهن حاملين صناديق وأطفالًا وسلال طعام.

وقفنا قرب الشارع، حيث كانت عربات الريكشا والشاحنات تمر ذهابًا وإيابًا. أمسكنا بأيدي بعضنا، واستغرقت كلٌّ منا في أفكارها الخاصة، نراقب الناس وهم يصلون إلى المحطة، وآخرين يسرعون في المغادرة. كان الوقت متأخرًا من الصباح، وعلى الرغم من أن الجو بدا دافئًا في الخارج، فإن السماء كانت رمادية وملبدة بالغيوم.

وبعد وقت طويل من الانتظار من دون أن يظهر أحد، تنهدت أمي أخيرًا ثم صاحت تطلب عربة ريكشا.

وخلال هذه الرحلة، تشاجرت أمي مع سائق العربة، الذي أراد مبلغًا إضافيًّا من المال لنقلنا نحن الاثنتين وأمتعتنا. ثم بدأت تتذمر من الغبار المتصاعد في أثناء الرحلة، ومن رائحة الشارع، ووعورة الطريق، وتأخر الوقت، وآلام معدتها. وعندما انتهت من هذه الشكاوى، وجهت شكواها إليَّ: بقعة على فستاني الجديد، وتشابك شعري، وجورباي الملتويان. حاولت استمالتها، فأشرت لأسألها عن حديقة صغيرة، أو طائر يحلق فوقنا، أو عربة ترام كهربائية طويلة مرت بنا وهي تطلق بوقَها.

لكنها ازدادت عبوسًا وقالت:

- آن-ماي، اجلسي بهدوء. لا تظهري كل هذا القدر من الحماسة، فنحن ذاهبتان إلى المنزل فحسب.

وحين وصلنا أخيرًا إلى المنزل، كنا منهكتين.

علمت منذ البداية أن منزلنا الجديد لن يكون منزلًا عاديًّا. أخبرتني أمي بأننا سنعيش في منزل وو تسينغ، وهو تاجر ثري جدًّا. قالت إن هذا الرجل يملك

العديد من مصانع السجاد، ويسكن قصرًا يقع في منطقة الامتياز البريطانية في تيانجين، أرقى أحياء المدينة التي يمكن للصينيين العيش فيها. ولم يكن منزلنا بعيدًا عن بايما دي، شارع ريس هورس، حيث لا يسكن إلا الغربيون. وكنا كذلك قريبين من محال صغيرة، يبيع كلٌّ منها صنفًا واحدًا فحسب إما شايًا، وإما قماشًا، وإما صابونًا فقط.

قالت إن المنزل مبني على الطراز الأجنبي، لأن وو تسينغ يحب الأشياء الأجنبية، حيث إن الأجانب جعلوه ثريًّا. واستنتجتُ أن ذلك هو السبب الذي جعل أمي ترتدي ملابس على الطراز الأجنبي، على غرار الصينيين من الأثرياء الجدد الذين يحبون التباهي بثروتهم من خلال المظاهر الخارجية.

وعلى الرغم من أنني كنت أعلم كل هذا قبل وصولي، فإنني اندهشت مع ذلك مما رأيته.

كانت لواجهة المنزل بوابة حجرية صينية، مقوسة من الأعلى، بأبواب كبيرة مطلية باللون الأسود، وكانت هناك عتبة يجب أن تخطو فوقها للدخول. ومن خلال البوابة رأيت الفناء الداخلي، وأصابني الذهول. لم تكن هناك أشجار صفصاف أو أشجار كاسيا ذكية الرائحة، ولا مقصورات في الحديقة، ولا مقاعد بجانب بركة ماء، ولا أحواض أسماك. بدلًا من ذلك، كانت هناك صفوف طويلة من الشجيرات على جانبَي ممر عريض مرصوف بالطوب، وعلى جانبَي هذه الشجيرات مساحات عشبية واسعة بها نافورات ماء. وبينما كنا نسير عبر الممر ونقترب من المنزل، رأيت أنه بُني على الطراز الغربي. كان ارتفاعه ثلاثة طوابق، من الملاط والحجر، بشرفات معدنية طويلة في كل طابق ومداخن في كل زاوية.

وعندما وصلنا، خرجت خادمة شابة مسرعة، واستقبلت والدتي بصيحات الفرح. كان صوتها عاليًا وأجشَّ:

- أوه، تايتاي، لقد وصلتِ بالفعل! كيف حدث هذا؟

كانت هذه يان تشانغ، خادمة والدتي الشخصية، وكانت تعرف تمامًا كيف

تظهر اهتمامها بوالدتي بالمقدار المناسب. نادت والدتي بـ«تايتاي»، وهو لقب شرفي بسيط يعني «الزوجة»، كأن والدتي هي الزوجة الأولى والوحيدة.

نادت يان تشانغ بصوت مرتفع على الخدم الآخرين ليحملوا أمتعتنا، ثم نادت على خادمة أخرى لتحضر الشاي وتعِد حمامًا ساخنًا. بعد ذلك، شرحت على عجل أن الزوجة الثانية قد أخبرت الجميع ألا يتوقعوا وصولنا قبل أسبوع على الأقل.

- يا للعار! لا أحد هنا لاستقبالكما! الزوجة الثانية والباقون ذهبوا إلى بكين لزيارة أقاربها. ابنتك جميلة جدًّا، تشبهك تمامًا. إنها خجول للغاية، أليس كذلك؟ الزوجة الأولى وابنتاها... ذهبن في رحلة حج إلى معبد بوذي آخر... وفي الأسبوع الماضي، جاء عم أحد أبناء العمومة للزيارة، وكان مجنونًا بعض الشيء، وتبين أنه ليس ابن عم، ولا عمًّا، من عساه يدري من كان...

ما إن دخلنا ذلك المنزل الكبير، حتى شعرت بالضياع من كثرة ما كان هناك لأراه: درج منحنٍ يلتف صعودًا بلا نهاية، وسقف تزين الوجوه كل زاوية منه، وممرات تتفرع وتلتف من غرفة إلى أخرى. وعلى يميني كانت هناك غرفة ضخمة، أكبر من أي غرفة رأيتها في حياتي، ممتلئة بأثاث من خشب الساج الصلب: أرائك وطاولات وكراسي. وفي الطرف الآخر من هذه الغرفة الطويلة، رأيت أبوابًا تؤدي إلى غرف أخرى، ومزيدًا من الأثاث، ثم أبوابًا أخرى. وعلى يساري كانت هناك غرفة أكثر عتمة، غرفة جلوس أخرى، ممتلئة بأثاث أجنبي: أرائك من الجلد الأخضر الداكن، ولوحات تصور كلاب الصيد، وكراسي ذات ذراعين، ومكاتب من خشب الماهوجني. وكلما نظرت داخل هذه الغرف، رأيت أشخاصًا مختلفين، فأوضحت لي يان تشانغ قائلة:

- هذه الشابة، خادمة الزوجة الثانية. أما تلك فهي لا شيء، مجرد ابنة مساعد الطباخ. وهذا الرجل يعتني بالحديقة.

ثم صعدنا الدرج. وعندما وصلنا إلى أعلاه، وجدت نفسي في غرفة جلوس

كبيرة أخرى. سرنا يسارًا، وعبرنا ممرًّا متجاوزتين غرفة، ثم دخلنا أخرى. قالت لي يان تشانغ بفخر:

– هذه غرفة والدتك. ستنامين هنا.

كان أول ما رأيته، بل الشيء الوحيد الذي لفت نظري أولًا، سريرًا فخمًا. بدا ثقيلًا وخفيفًا في آنٍ معًا: حرير وردي ناعم وخشب ثقيل داكن لامع منحوت بالكامل بنقوش تنانين. رفعت أربعة أعمدة مظلة من الحرير، وتدلت من كل عمود أربطة حريرية ضخمة تمسك الستائر جانبًا. وارتكز السرير على أربع قوائم قصيرة تشبه أقدام الأسود، كأن وزنه قد سحق الأسد تحته. أرتني يان تشانغ كيف أستخدم سلمًا صغيرًا لأصعد إلى السرير، وحين قفزت فوق الأغطية الحريرية، ضحكت عندما اكتشفت أن المرتبة لينة، يبلغ سمكها عشرة أضعاف سمك سريري في نينغبو.

جلست على هذا السرير، معجبة بكل شيء كما لو كنت أميرة. كان لهذه الغرفة باب زجاجي يؤدي إلى شرفة، وأمام الباب الزجاجي كانت هناك طاولة مستديرة من نفس خشب السرير، ترتكز أيضًا على أرجل منحوتة على شكل أقدام أسود، يحيط بها أربعة كراسي. وضعت خادمة الشاي والكعك الحلو على الطاولة، وراحت تشعل الهولو، وهو موقد صغير لحرق الفحم.

لم يكن منزل خالي في نينغبو فقيرًا، بل كان ميسور الحال في الواقع. لكن هذا المنزل في تيانجين بدا مذهلًا بحق، وقلت في نفسي إن خالي كان مخطئًا، ولا عيب في زواج أمي بوو تسينغ.

وبينما كنت أفكر في ذلك، فزعت من صوت مفاجئ: دق! دق! دق! تلاه صوت موسيقى. على الجدار المقابل للسرير، كانت هناك ساعة خشبية كبيرة منحوتة عليها غابة ودببة. انفتح باب الساعة فجأة، وخرجت منه غرفة صغيرة ممتلئة بشخصيات. كان هناك رجل ملتحٍ يرتدي قبعة مدببة، يجلس إلى طاولة، يحني رأسه مرارًا وتكرارًا ليشرب الحساء، لكن لحيته كانت تغوص في الوعاء أولًا وتمنعه. وكانت هناك فتاة ترتدي وشاحًا أبيض وفستانًا

أزرق تقف بجانب الطاولة، أخذت تنحني هي الأخرى مرارًا لتصب له مزيدًا من الحساء. وبجانب الرجل والفتاة، وقفت فتاة أخرى ترتدي تنورة وسترة قصيرة، تُحرك ذراعها ذهابًا وإيابًا، وتعزف على الكمان. كانت تكرر نفس اللحن الكئيب دائمًا، وما زلت أسمعه في رأسي بعد كل هذه السنين: ني-آه! ناه! ناه! ناه! ناه-ني-ناه!

كانت ساعة رائعة بالفعل، لكن بعد أن سمعتها لأول مرة، ثم في الساعة التالية، واستمرت الحال على هذا النحو، أصبحت هذه الساعة مصدر إزعاج مفرط. عجزت عن النوم لعدة ليالٍ، وبعد ذلك، اكتشفت أنني أمتلك القدرة على عدم الاستماع إلى نداء لا معنى له.

غمرتني السعادة البالغة خلال الليالي الأولى في هذا المنزل الممتع، نائمة على سريري الكبير الناعم مع أمي. كنت أستلقي في هذا السرير المريح وأفكر في منزل خالي في نينغبو، وأدركت كم كنت تعيسة هناك، وشعرت بالأسى على أخي الصغير. لكن أغلب أفكاري اتجهت إلى كل ما هو جديد في هذا المنزل، وكل ما يمكن رؤيته وفعله.

رأيت الماء الساخن يتدفق من المواسير، ليس فقط في المطبخ ولكن أيضًا في أحواض الغسيل وأحواض الاستحمام في جميع طوابق المنزل الثلاثة. ورأيت مراحيض تُغسل بالماء من دون أن يضطر الخدم إلى إفراغها. كما رأيت غرفًا فاخرة كغرفة أمي تمامًا، وأخبرتني يان تشانغ أيها كانت للزوجة الأولى وأيها للمحظيات الأخريات، اللاتي كن يُلقبن بالزوجة الثانية والزوجة الثالثة. بعض الغرف لم تكن تخص أحدًا، وقالت يان تشانغ:

- هذه للضيوف.

وفي الطابق الثالث، كانت هناك غرف مخصصة فقط للخدم من الرجال، بحسب ما قالت يان تشانغ، حتى إن إحدى الغرف كان بها باب يؤدي إلى خزانة كانت في الواقع مخبأً سريًّا من قراصنة البحر.

حين أستعيد الأمر الآن، أجد صعوبة في تذكر كل ما كان في ذلك المنزل، فكثرة الأشياء الجميلة جعلت كل شيء يبدو متشابهًا بعد حين. سئمت من كل ما لم يكن جديدًا. وعندما كانت يان تشانغ تقدم لي نفس الحلوى كما في اليوم السابق، كنت أقول:

– آه، هذا؟ لقد تذوقته من قبل.

بدت أمي كأنها استعادت طبعها اللطيف. ارتدت ملابسها القديمة مجددًا، فساتين صينية طويلة وتنورات مزينة بشرائط حداد بيضاء مخيطة في أسفلها. وفي النهار كانت تشير إلى أشياء غريبة ومضحكة وتسميها لي: «بيديه»، كاميرا براوني، شوكة السلطة، منديل. وفي المساء، حين لا يكون هناك ما نفعله، كنا نتحدث عن الخدم: مَن الأذكياء، ومن المجتهدون، ومن المخلصون. كنا نتبادل أطراف الحديث بينما نطهو بيضًا صغيرًا وبطاطا حلوة فوق الهولو لنستمتع برائحتهما فحسب. وفي الليل، كانت أمي تروي لي الحكايات من جديد بينما أنا مستلقية بين ذراعيها وأنا أغفو.

إذا تأملتُ حياتي بأكملها، لا أستطيع أن أتذكر وقتًا آخر شعرتُ فيه براحة أكبر: عندما لم تكن لديَّ هموم أو مخاوف أو رغبات، عندما بدت حياتي ناعمة وجميلة كالاستلقاء في شرنقة من الحرير الوردي. لكنني أتذكر بوضوح متى اختفت كل تلك الراحة.

ربما كان ذلك بعد أسبوعين من وصولنا. كنت في الحديقة الكبيرة خلف المنزل، أركل كرة وأراقب كلبين يطاردانها، بينما جلست أمي إلى طاولة تراقبني وأنا ألعب. ثم سمعتُ صوت بوق من بعيد، وصيحات، فنسي الكلبان الكرة وركضا ينبحان بصوت عالٍ سعيد.

ارتسم على وجه أمي نفس التعبير الخائف الذي رأيته عليها عند محطة الميناء، ودخلَت بسرعة إلى المنزل. أما أنا فمشيت حول جانب المنزل متجهة نحو الواجهة الأمامية. كانت هناك عربتا ريكشا سوداوان لامعتان، وخلفهما

سيارة سوداء كبيرة. أفرغ خادمٌ الأمتعة من إحدى عربتَي الريكشا، ومن العربة الأخرى قفزت خادمة شابة.

تجمَّع جميع الخدم حول السيارة، ينظرون إلى انعكاسات وجوههم في المعدن المصقول، معجبين بالنوافذ ذات الستائر وبالمقاعد المخملية. ثم فتح السائق الباب الخلفي، ونزلت منه فتاة صغيرة. كان شعرها قصيرًا ومصففًا على شكل تموجات. بدت كأنها تكبرني ببضع سنوات فقط، لكنها كانت ترتدي فستانًا نسائيًّا وجوربين وحذاءً بكعب عالٍ. نظرتُ إلى فستاني الأبيض الملطخ ببقع العشب، وشعرتُ بالخجل.

ثم رأيت الخدم يمدون أيديهم إلى المقعد الخلفي للسيارة، ورجلًا يُرفع ببطء من ذراعيه. كان هذا هو وو تسينغ. كان رجلًا ضخم البنية، ليس طويل القامة، لكنه منتفخ كالعصفور. بدا أكبر سنًّا من أمي بكثير، بجبهة لامعة عالية وعلى إحدى فتحتَي أنفه شامة سوداء كبيرة. كان يرتدي سترة بدلة غربية مع صديري يُغلق بإحكام شديد على بطنه، بينما بدا بنطاله فضفاضًا جدًّا. أخذ يئن ويتأوه بينما يجهد نفسه للخروج من السيارة حتى ظهر للعيان، وما إن لامست قدماه الأرض، حتى بدأ بالسير نحو المنزل، متجاهلًا الحاضرين، على الرغم من أنهم أخذوا يحيونه ويهرعون لفتح الأبواب، وحمل حقائبه، وأخذ معطفه الطويل. دخل المنزل على هذا النحو، تتبعه تلك الفتاة الصغيرة. نظرت إلى الجميع خلفها بابتسامة متصنعة، كأنهم جميعًا هناك إكرامًا لها. وما إن دخلَت بالكاد من الباب، حتى سمعت أحد الخدم يقول لآخر:

- إن الزوجة الخامسة صغيرة جدًّا إلى درجة أنها لم تحضر أيًّا من خدمها، بل أحضرت معها مرضعة فقط.

رفعتُ نظري إلى المنزل، فرأيت أمي تطل من نافذتها، تراقب كل شيء. وهكذا، بهذه الطريقة المحرجة، علمت والدتي أن وو تسينغ قد اتخذ محظيته الرابعة، التي كانت في الواقع مجرد فكرة طارئة عنت له، بمنزلة زينة سخيفة لسيارته الجديدة.

لم تَغَر أمي من هذه الفتاة الصغيرة التي ستُدعى «الزوجة الخامسة». ولماذا تغار؟ لم تكن أمي تحب وو تسينغ. فلم تكن الفتاة في الصين تتزوج من أجل الحب، بل من أجل المكانة، وقد علمتُ لاحقًا أن مكانة أمي كانت الأسوأ.

بعد وصول وو تسينغ والزوجة الخامسة إلى المنزل، صارت أمي تمكث كثيرًا في غرفتها تنشغل بالتطريز. وفي فترة ما بعد الظهيرة، كنا نخرج معًا في جولات صامتة طويلة في المدينة، بحثًا عن قطعة حرير بلون لم تستطع تسميته. وكان حزنها على هذا النحو أيضًا لم تستطع تسميته.

وهكذا، وبينما بدا كل شيء هادئًا، أدركتُ أنه لم يكن كذلك. قد تتساءل كيف لطفلة صغيرة، لا تتجاوز التاسعة من عمرها، أن تعرف مثل هذه الأمور، وأنا نفسي أتساءل الآن. لا أتذكر سوى الشعور بعدم الارتياح، وكيف أحسست بالحقيقة في أعماقي، وأنا أعلم أن شيئًا فظيعًا سيحدث. ويمكنني القول إن هذا الشعور كاد يضاهي ما أحسست به بعد خمسة عشر عامًا، عندما بدأت القنابل اليابانية تتساقط، وسمعت دويها الخافت من بعيد، وأدركت أنه لا يمكن إيقاف ما هو قادم.

بعد بضعة أيام من عودة وو تسينغ إلى المنزل، استيقظت في منتصف الليل، وأمي تهز كتفي برفق.

قالت بصوت متعب:

- آن-ماي، كوني فتاة طيبة، واذهبي إلى غرفة يان تشانغ الآن.

فركت عينَي، وعندما استيقظت رأيت ظلًّا داكنًا، وبدأتُ في البكاء. كان وو تسينغ.

همست أمي:

- اصمتي، لا بأس. اذهبي إلى يان تشانغ.

ثم أنزلتني ببطء إلى الأرض الباردة. سمعتُ رنين الساعة الخشبية، وصوت وو تسينغ العميق يتذمر من البرد. وعندما ذهبتُ إلى يان تشانغ، بدا الأمر كأنها توقعت مجيئي وعرفت أنني سأبكي.

في صباح اليوم التالي، لم أستطع النظر إلى أمي. لكنني لاحظت أن وجه الزوجة الخامسة بدا متورمًا مثل وجهي. وفي أثناء وجبة الإفطار في ذلك الصباح، انفجر غضبها أخيرًا أمام الجميع حين صاحت بوقاحة في وجه إحدى الخادمات لأنها تأخرت في خدمتها. حدق إليها الجميع، حتى أمي، مستنكرين سوء أدبها، لأنها انتقدت الخادمة بهذه الطريقة. رأيت وو تسينغ يحدجها بنظرة صارمة، كأب يوبخ ابنته، فبدأت تبكي. لكن في وقت لاحق من صباح ذلك اليوم، عادت الزوجة الخامسة تبتسم، تتبختر في ثوب وحذاء جديدين.

في فترة ما بعد الظهيرة، تحدثت أمي عن تعاستها لأول مرة. كنا في عربة ريكشا متجهتين إلى متجر لشراء خيوط تطريز. صاحت قائلة:

- أترين كم أن حياتي مخزية؟ هل ترين كيف أنني بلا مكانة؟ لقد جلب إلى البيت زوجة جديدة، فتاة وضيعة، داكنة البشرة، عديمة الأخلاق! اشتراها مقابل بضعة دولارات من عائلة فقيرة تمتهن صناعة طوب اللبن. وفي الليل، عندما لا يَعُد بوسعه استغلالها، يأتي إليَّ، ورائحة طينها تفوح منه.

أخذت تبكي، وتهذي كامرأة مجنونة:

- كما ترين الآن، الزوجة الرابعة أقل شأنًا من الخامسة. يجب ألا تنسي يا آن-ماي، كنت الزوجة الأولى، يي تاي، زوجة لعالِم. لم تكن أمك دائمًا الزوجة الرابعة، سه تاي!

نطقت هذه الكلمة، سه، بكراهية شديدة إلى درجة أنني ارتجفت. بدت كأنها كلمة «سه» التي تعني «الموت». وتذكرت أن بوبو أخبرتني يومًا بأن الرقم أربعة نذير شؤم، لأنه عندما يُقال بغضب، دائمًا ما يخرج بشكل خطأ.

جاء موسم الندى البارد، وأصبح الجو باردًا، فعادت الزوجتان الثانية والثالثة مع أولادهما وخدمهما إلى المنزل في تيانجين، وساد جو من الاضطراب عند وصولهم. سمح وو تسينغ بإرسال السيارة الجديدة إلى محطة القطار، لكنها بالطبع لم تكن كافية لنقل الجميع. لذا، جاءت خلف السيارة نحو اثنتَي عشرة

عربة ريكشا، تتمايل صعودًا وهبوطًا مثل صراصير ليل تتبع خنفساء لامعة كبيرة، ثم بدأت النساء في الخروج من السيارة.

وقفت أمي خلفي، مستعدة لتحية الجميع. اقتربت منا امرأة ترتدي ثوبًا أجنبيًّا بسيطًا وحذاءً كبيرًا قبيح الشكل. وتبعتها ثلاث فتيات، إحداهن كانت في مثل سني.

قالت أمي:

- هذه الزوجة الثالثة وبناتها الثلاث.

كانت الفتيات الثلاث أكثر خجلًا مني، أحطن بأمهن برؤوس محنية ولم ينطقن بكلمة، لكنني واصلت التحديق. كن غير جميلات مثل أمهن، لهن أسنان كبيرة وشفاه غليظة وحواجب كثة كأنها ديدان زاحفة. استقبلتني الزوجة الثالثة بحرارة وسمحت لي بحمل إحدى حقائبها.

شعرتُ بيد أمي تتصلب على كتفي، وهمسَت:

- ها هي ذي الزوجة الثانية. ستريدك أن تناديها بالأم الكبيرة.

رأيت امرأة ترتدي معطفًا طويلًا من الفرو الأسود وملابس غربية داكنة اللون، فاخرة للغاية. حملت بين ذراعيها طفلًا صغيرًا ذا خدين ورديين ممتلئين، بدا أنه في الثانية من عمره.

همست أمي:

- هذا هو سياودي، أخوك الأصغر.

كان يرتدي قبعة من نفس الفرو الداكن، ويلف إصبعه الصغيرة حول عقد طويل من اللؤلؤ ترتديه الزوجة الثانية. تساءلت كيف أمكنها إنجاب طفل بهذا العمر الصغير. كانت الزوجة الثانية جميلة بما فيه الكفاية وبدت بصحة جيدة، لكنها كانت كبيرة في السن، ربما في الخامسة والأربعين. سلمت الطفل إلى إحدى الخادمات، ثم بدأت تعطي تعليماتها للكثيرين الذين كانوا لا يزالون يتزاحمون حولها.

تقدمت الزوجة الثانية نحوي، مبتسمة ومعطفها الفرو يلمع مع كل خطوة

تخطوها. حدقَت إليَّ كأنها تتفحصني، كأنها تعرفني. وأخيرًا ابتسمت وربتت على رأسي. ثم بحركة سريعة ورشيقة من يديها الصغيرتين، نزعت عقدها الطويل من اللؤلؤ ووضعته حول عنقي.

كانت هذه أجمل قطعة حلي لمستها في حياتي، حيث كان العقد مصممًا على الطراز الغربي: خيط طويل، كل حبة لؤلؤ فيه بنفس الحجم وبلون وردي متطابق، وبه مشبك فضي مزخرف لتثبيت الطرفين معًا.

احتجت أمي على الفور:

- هذا كثير على طفلة صغيرة. ستكسره، أو ستفقده.

لكن الزوجة الثانية قالت لي ببساطة:

- إن مثل هذه الفتاة الجميلة تحتاج إلى شيء يضيء وجهها.

أدركتُ من طريقة انكماش أمي وصمتها أنها غاضبة. لم تكن تحب الزوجة الثانية. كان عليَّ التزام الحذر في إظهار مشاعري، حتى لا تعتقد أمي أنني انجذبت إلى الزوجة الثانية. ومع ذلك، انتابني شعور متهور، وشعرت بسعادة غامرة لأن الزوجة الثانية خصتني بهذه اللفتة المميزة.

قلت للزوجة الثانية:

- شكرًا لكِ أيتها الأم الكبيرة.

خفضت نظري لأتجنب إظهار وجهي لها، لكنني لم أستطع منع نفسي من الابتسام.

عندما تناولتُ أنا وأمي الشاي في غرفتها في وقت لاحق من ذلك المساء، عرفتُ أنها غاضبة.

قالت:

- كوني حذرة يا آن-ماي، ما تسمعينه منها ليس صادقًا، فهي تشكِّل غيومًا بيدٍ، وتمطر باليد الأخرى. إنها تحاول خداعك، حتى تفعلي أي شيء من أجلها.

جلستُ بصمت، أحاول ألا أُصغي إلى أمي. فكرت في مدى تذمر أمي،

وأن كل تعاستها ربما كانت نابعة من شكواها. وفكرت في أنه ربما لا ينبغي لي الاستماع إليها.

قالت فجأة:

- أعطيني العقد.

نظرت إليها من دون أن أتحرك.

تابعت:

- أنتِ لا تصدقينني، لذا يجب أن تعطيني العقد. لن أسمح لها بأن تشتريك بمثل هذا الثمن البخس.

وعندما ظللتُ من دون حراك، نهضَت واقتربت مني، ونزعت العقد عن عنقي. وقبل أن أتمكن من الصياح كي أمنعها، وضعت العقد تحت حذائها وداست عليه. وعندما وضعته على الطاولة، رأيت ما فعلته. ذلك العقد الذي كاد يأسر قلبي وعقلي، أصبحت فيه حبة مكسورة من الزجاج المهشم.

في وقت لاحق، أزالت تلك الحبة المكسورة وربطت الخيط الفارغ بين الخرزات حتى بدا العقد كاملًا مرة أخرى. طلبت مني ارتداءه كل يوم لمدة أسبوع، حتى أتذكر كم من السهل أن أخسر نفسي مقابل شيء زائف. وبعد أن ارتديت تلك اللآلئ الزائفة مدة كافية لتعلم هذا الدرس، سمحت لي أن أخلعها. ثم فتحت صندوقًا، والتفتت إليَّ:

- هل يمكنك الآن تمييز ما هو حقيقي؟

فأومأت برأسي بالإيجاب.

وضعت شيئًا في يدي: كان خاتمًا ثقيلًا من ياقوت أزرق مائي، تتوسطه نجمة نقية إلى درجة أنني لم أكف عن النظر إليه بدهشة.

وقبل أن يبدأ الشهر البارد الثاني، عادت الزوجة الأولى من بكين، حيث كانت تملك منزلًا وتعيش مع ابنتيها غير المتزوجتين. أذكر أنني ظننت أن الزوجة الأولى ستجعل الزوجة الثانية تخضع لها، لأن الزوجة الأولى هي الزوجة الرئيسية، بحكم القانون والعرف.

مكتبة
t.me/soramnqraa

لكن تبين أن الزوجة الأولى كانت مجرد شبح حي، لا تشكِّل تهديدًا للزوجة الثانية، التي ظلت محتفظة بروحها القوية. بدت الزوجة الأولى عجوزًا وضعيفة، بجسدها الممتلئ، وقدميها المربوطتين، وسترتها وسروالها المبطنين على الطراز القديم، ووجهها البسيط المغضن. لكن الآن وقد تذكرتها، لا بد أنها لم تكن متقدمة في السن، ربما في عمر وو تسينغ، أي ربما كانت في الخمسين.

عندما التقيتُ الزوجةَ الأولى، ظننت أنها عمياء، إذ تصرفَت كأنها لا تراني. كما لم ترَ وو تسينغ، ولم ترَ أمي، ومع ذلك كانت ترى ابنتيها العانسين اللتين تجاوزتا سن الزواج، وكان عمرهما على الأقل خمسًا وعشرين سنة. ودائمًا ما كانت تستعيد بصرها في الوقت المناسب لتوبخ الكلبين لأنهما يتشممان غرفتها، أو يحفران في الحديقة خارج نافذتها، أو يتبولان على رجل الطاولة.

سألتُ يان تشانغ ذات ليلة بينما كانت تساعدني على الاستحمام:

- لماذا تكون الزوجة الأولى قادرة على الرؤية في بعض الأحيان، وتعجز عن ذلك في أحيان أخرى؟

أجابت يان تشانغ:

- تقول الزوجة الأولى إنها لا ترى إلا كمال بوذا، وتقول إنها عمياء عن معظم العيوب.

قالت يان تشانغ إن الزوجة الأولى اختارت غض الطرف عن تعاسة زواجها. فقد جمعها هي ووو تسينغ رباط تياندي، السماء والأرض، أي إن زواجهما كان زواجًا روحيًّا، رتبته خاطبة، وأمر به والدا وو تسينغ، وتكفلت بحمايته أرواح الأسلاف. لكن بعد السنة الأولى من الزواج، أنجبت الزوجة الأولى فتاة كانت إحدى ساقيها أقصر من الأخرى. وقد دفع هذا الحظ السيئ الزوجة الأولى إلى بدء رحلاتها إلى المعابد البوذية، لتقديم الصدقات، والملابس الحريرية المطرزة تكريمًا لتمثال بوذا، وأحرقت البخور، وصلت كي يطيل بوذا ساق ابنتها. لكن ما حدث هو أن بوذا اختار بدلًا من ذلك أن ينعم على الزوجة الأولى بابنة أخرى، وكانت لهذه الابنة ساقان سليمتان، لكن - يا للأسف! - غطت نصف وجهها

وحمة بنية تشبه لون الشاي. ومع هذه المحنة الثانية، بدأت الزوجة الأولى تُكثر من رحلات الحج إلى مدينة تسينان، التي تبعد مسافة نصف يوم فقط جنوبًا بالقطار، حتى إن وو تسينغ اشترى لها منزلًا بالقرب من منحدر الألف بوذا وبستان الخيزران ذي الينابيع المتدفقة. وفي كل عام، زاد لها مصروفها الذي تحتاج إليه لإدارة شؤون منزلها هناك. لذا صارت تعود إلى تيانجين مرتين في السنة، خلال أشد الأشهر حرًّا وبردًا إكرامًا للتقاليد، حيث تغمض عينيها عن كل المعاناة في منزل زوجها. وفي كل مرة عقب عودتها، كانت تبقى في غرفتها، جالسة طوال اليوم في وضعية بوذا، تدخن الأفيون وتتمتم في نفسها. ولم تكن تنزل لتناول الطعام، بل كانت تصوم أو تأكل وجبات نباتية في غرفتها. واعتاد وو تسينغ زيارتها بغرفتها في منتصف الصباح مرة أسبوعيًّا، يشرب الشاي معها لمدة نصف ساعة، ويسأل عن صحتها. لكنه لم يكن يزعجها ليلًا.

لم يكن من المفترض أن يسبب شبح هذه المرأة أي معاناة لأمي، لكنها في الواقع زرعت في رأسها أفكارًا. ظنت أمي أنها هي الأخرى قد عانت بما فيه الكفاية لتستحق منزلًا خاصًّا بها، ربما ليس في تسينان، بل شرقًا في بيتايهو الصغيرة، وهي منتجع ساحلي جميل ممتلئ بالشرفات والحدائق والأرامل الثريات.

قالت لي بسعادة في اليوم الذي تساقط فيه الثلج وغطى الأرض حول منزلنا:

- سنعيش في منزل خاص بنا.

كانت ترتدي ثوبًا جديدًا من الحرير مبطنًا بالفرو، بلون فيروزي زاهٍ كريش طائر الرفراف.

- لن يكون المنزل كبيرًا مثل هذا، بل سيكون صغيرًا جدًّا. لكن يمكننا أن نعيش بمفردنا، مع يان تشانغ وعدد قليل من الخدم الآخرين. وقد وعد وو تسينغ بذلك بالفعل.

خلال أبرد أشهر الشتاء، شعرنا جميعًا بالملل، كبارًا وصغارًا على حد سواء. لم نجرؤ على الخروج إلى الخارج، وحذرتني يان تشانغ من أن بشرتي ستتجمد

وتتشقق إلى ألف قطعة. وكان الخدم الآخرون يثرثرون دائمًا عن المناظر اليومية التي رأوها في المدينة: عتبات المتاجر الخلفية التي تمتلئ دائمًا بجثث المتسولين المتجمدة، سواء كانوا رجالًا أم نساءً، لم يكن من الممكن التمييز، حيث تغطيهم طبقة سميكة من الثلوج.

لذا، كنا نمكث في المنزل كل يوم، نفكر في طرق لتسلية أنفسنا. اعتادت أمي تصفح المجلات الأجنبية، وقص صور الفساتين التي أعجبتها، ثم النزول إلى الطابق السفلي لتناقش مع الخياط كيف يمكن صنع فستان كهذا باستخدام الأقمشة المتوافرة.

لم أحب اللعب مع بنات الزوجة الثالثة، اللاتي كن خانعات وخاملات مثل والدتهن. اكتفت هؤلاء الفتيات بالنظر من النافذة طوال اليوم، ومراقبة شروق الشمس وغروبها. لذا، كنت أنا ويان تشانغ نشوي الكستناء على موقد الفحم الصغير، وبينما نحرق أصابعنا في أثناء تناول هذا الطعام اللذيذ، كنا نتبادل الضحك والثرثرة بطبيعة الحال. ثم سمعت دقات الساعة وبدأ اللحن المعتاد يعزف، فتظاهرت يان تشانغ بالغناء بشكل سيئ على طريقة الأوبرا الكلاسيكية، وضحكنا بصوت عالٍ، متذكرتين كيف غنت الزوجة الثانية مساء البارحة، وصوتها المرتعش مصحوب بعزفها على عود ثلاثي الأوتار، وكيف ارتكبت كثيرًا من الأخطاء. تسببت في معاناة الجميع خلال هذه الأمسية الترفيهية، حتى أعلن وو تسينغ انتهاء المعاناة عندما غلبه النعاس على كرسيه. وبينما كنا نضحك على هذا الموقف، روت لي يان تشانغ قصة عن الزوجة الثانية.

- قبل عشرين عامًا، كانت مغنية مشهورة من شاندونغ، امرأة تحظى بقدر من الاحترام، ولا سيما بين الرجال المتزوجين الذين اعتادوا التردد على بيوت الشاي. وعلى الرغم من أنها لم تكن جميلة قَطُّ، فإنها كانت ذكية وساحرة، تجيد العزف على عدة آلات موسيقية، وتغني قصصًا قديمة بصفاء يفطر القلب، وتلمس خدها بإصبعها وتعقد قدميها الصغيرتين بأسلوب لا يُقاوم. طلب منها وو تسينغ أن تصبح محظيته، ليس حبًّا لها، بل لما في ذلك من

وجاهة اجتماعية كونه امتلك ما يرغب فيه رجال آخرون. وبعد أن رأت هذه المغنية ثروته الهائلة وزوجته الأولى قليلة الحيلة، وافقت على أن تكون محظيته.

منذ البداية، عرفت الزوجة الثانية كيف تتحكم في أموال وو تسينغ. فقد أدركت من شحوب وجهه عند سماع صوت الريح أنه يخاف الأشباح. والجميع يعرف أن الانتحار هو الوسيلة الوحيدة للمرأة كي تهرب من الزواج وتنتقم، فتعود على هيئة شبح يبعثر أوراق الشاي ويبدد الحظ السعيد. لذا، عندما رفض زيادة مصروفها، تظاهرت بالانتحار. أكلت قطعة من الأفيون الخام، كمية تكفي لإصابتها بالمرض، ثم أرسلت خادمتها لتخبر وو تسينغ بأنها تحتضر. وبعد ثلاثة أيام، حصلت الزوجة الثانية على مصروف يفوق ما طلبته.

تظاهرت بالانتحار مرات عديدة، حتى بدأنا نحن الخدم نعتقد أنها لم تَعُد تكلف نفسها عناء تناول الأفيون، إذ كان تمثيلها بارعًا بما يكفي. وسرعان ما حصلت على غرفة أفضل في المنزل، وعربة ريكشا خاصة بها، ومنزل لوالديها المسنين، ومبلغ للتبرعات في المعابد للحصول على البركات.

لكن شيئًا واحدًا لم يكن بوسعها الحصول عليه: الأطفال. وقد أدركت أن وو تسينغ سرعان ما سيتوق إلى إنجاب ابن له يمكنه أداء طقوس الأسلاف، ومن ثَمَّ يضمن له الخلود الروحي. لذا، وقبل أن يبدأ وو تسينغ بالشكوى من عدم إنجاب الزوجة الثانية للأبناء، قالت له: «لقد وجدتُها بالفعل، محظية مناسبة لإنجاب أبنائك. ومن طبيعتها ذاتها، يمكنك أن ترى أنها عذراء». وكان هذا صحيحًا تمامًا، فكما ترين، الزوجة الثالثة قبيحة جدًّا، وليست لديها حتى قدمان صغيرتان.

كانت الزوجة الثالثة بالطبع مدينة للزوجة الثانية لترتيب هذا الأمر، لذلك لم ينشب أي جدال حول إدارة المنزل. وعلى الرغم من أن الزوجة الثانية لم تكن بحاجة إلى أن تحرك ساكنًا، فإنها تولت الإشراف على شراء الطعام

واللوازم، والموافقة على توظيف الخدم، ودعوة الأقارب في أيام الأعياد. كما وجدت مرضعات لكلٍّ من البنات الثلاث اللواتي أنجبتهن الزوجة الثالثة لوو تسينغ. وفي وقت لاحق، عندما بدأ وو تسينغ يشعر بنفاد الصبر مجددًا لإنجاب ولد، وبدأ ينفق الكثير من المال في بيوت الشاي في مدن أخرى، رتبت الزوجة الثانية الأمور بحيث أصبحت والدتكِ المحظية الثالثة لوو تسينغ، وزوجته الرابعة!

روت يان تشانغ هذه القصة بأسلوب طبيعي وحيوي، إلى درجة أنني صفقت لنهايتها الذكية. وواصلنا تقشير الكستناء حتى لم أعد أستطيع البقاء صامتة.

سألتُ بخجل:

- ماذا فعلت الزوجة الثانية حتى تتزوج أمي بوو تسينغ؟

وبختني قائلة:

- الطفلة الصغيرة لا يمكنها فهم مثل هذه الأمور!

خفضت نظري على الفور والتزمتُ الصمت، حتى بدأت يان تشانغ تضجر ورغبَت مجددًا في كسر الصمت خلال تلك الأمسية الهادئة.

قالت يان تشانغ، كأنها تُحدث نفسها:

- أمك أفضل من هذه العائلة بكثير.

قبل خمس سنوات - كان والدك قد توفي قبل عام واحد فقط - ذهبتُ أنا وهي إلى هانغتشو لزيارة معبد التناغمات الستة على الضفة البعيدة من البحيرة الغربية. كان والدك عالمًا مرموقًا وملتزمًا أيضًا بالفضائل البوذية الست المكرسة في هذا المعبد. لذلك، سجدت والدتك في المعبد، وتعهدت بالتمسك بتناغم الجسد والفكر والكلام، والامتناع عن إبداء الآراء، ونبذ الثروة. وعندما ركبنا القارب لعبور البحيرة من جديد، جلسنا مقابل رجل وامرأة. كانا وو تسينغ والزوجة الثانية.

لا بد أن وو تسينغ قد لاحظ جمالها على الفور. في ذلك الوقت، كانت والدتك تملك شعرًا طويلًا يصل إلى خصرها، وكانت ترفعه وتربطه عاليًا

على رأسها. وكانت بشرتها فريدة، بلون وردي لامع. حتى وهي ترتدي ملابس الأرامل البيضاء، بدت جميلة! لكن لأنها كانت أرملة، فقد كانت بلا قيمة في نواحٍ كثيرة، ولم يكن بوسعها الزواج مرة أخرى.

لكن هذا لم يمنع الزوجة الثانية من التفكير في حيلة، فقد سئمت من مشاهدة أموال منزلها تُهدر في العديد من بيوت الشاي. كان المال الذي أنفقه كافيًا لإعالة خمس زوجات أخريات! كانت حريصة على كبح شهوات وو تسينغ وعلاقاته الخارجية، لذا تآمرت معه لاستدراج والدتك إلى فراشه.

تحدثت مع والدتك، واكتشفَت أنها تخطط للذهاب إلى معبد ملاذ الأرواح في اليوم التالي، فظهرت الزوجة الثانية في نفس المكان أيضًا. وبعد المزيد من الحديث الودي، دعت والدتك إلى العشاء. كانت والدتك تشعر بالوحدة وتشتاق إلى حديث ممتع، فوافقت بسرور. وبعد العشاء، قالت لها الزوجة الثانية: «هل تجيدين لعب الماه جونغ؟ لا بأس إن كنتِ لا تجيدينه. نحن ثلاثة فقط الآن ولن نستطيع اللعب ما لم تنضمي إلينا مساء الغد».

وفي الليلة التالية، وبعد أمسية طويلة من لعب الماه جونغ، تثاءبت الزوجة الثانية وأصرت على أن تقضي والدتك الليلة عندها. قالت: «ابقي! ابقي! لا تكوني مهذبة أكثر من اللازم. لا، أدبكِ هذا مزعج فعلًا. لماذا توقظين سائق العربة؟ انظري، سريري واسع بالتأكيد ويسع شخصين».

وبينما كانت والدتك تغط في نوم عميق في سرير الزوجة الثانية، نهضت الأخيرة في منتصف الليل وغادرت الغرفة المظلمة، فجاء وو تسينغ ليأخذ مكانها. وعندما استيقظت والدتك لتجده يلمسها تحت ملابسها الداخلية، قفزت من السرير. لكنه أمسكها من شعرها وطرحها أرضًا، ثم وضع قدمه على عنقها وأمرها بخلع ملابسها. ولم تصرخ والدتك أو تبكي حين انقض عليها.

في الصباح الباكر، غادرت بعربة ريكشا، وشعرها مبعثر والدموع تنهمر من عينيها. لم تخبر أحدًا سواي بما حدث، لكن الزوجة الثانية راحت تشتكي

للناس من تلك الأرملة الوقحة التي سحرت وو تسينغ وأغوته في فراشها.
كيف يمكن لأرملة ضعيفة أن تتهم امرأة ثرية بالكذب؟
لذا عندما طلب وو تسينغ من والدتك أن تصبح محظيته الثالثة وتنجب له ولدًا، ماذا كان بوسعها أن تفعل؟ فقد أصبحت بالفعل بمنزلة عاهرة. وعندما عادت إلى منزل أخيها وانحنت ثلاث مرات لتودعه، ركلها، وحرمتها أمها من دخول بيت العائلة إلى الأبد. ولهذا السبب لم تري والدتك مرة أخرى حتى ماتت جدتك. ذهبت والدتك للعيش في تيانجين، لتخفي عارها بثروة وو تسينغ. وبعد ثلاث سنوات، أنجبت ولدًا، اتخذته الزوجة الثانية ابنًا لها.
واختتمت يان تشانغ حديثها بفخر قائلة:
- وهكذا جئت أنا لأعيش في بيت وو تسينغ.
وهكذا علمتُ أن الطفل سياودي هو في الحقيقة ابن أمي، أخي الأصغر.

في الحقيقة، جانب يان تشانغ الصواب، حين روت لي قصة أمي. فالأسرار لا تُكشف للأطفال، بل يُكفى فوقها غطاء كقدر حساء، خشية أن تفور الحقائق.
بعد أن حكت لي يان تشانغ تلك القصة، رأيت كل شيء، وسمعت أشياء لم أكن أفهمها من قبل.
رأيت الطبيعة الحقيقية للزوجة الثانية.
رأيت كيف أنها كثيرًا ما كانت تعطي الزوجة الخامسة مالًا لتزور قريتها الفقيرة، وتشجع تلك الفتاة الساذجة على أن «تُري أصدقاءها وعائلتها كم أصبحت غنية!»، وبالطبع، كانت هذه الزيارات تذكر وو تسينغ دائمًا بالخلفية المتواضعة للزوجة الخامسة، وكم كان أحمق عندما انجذب إلى جسدها الذي تفوح منه رائحة الطين.
رأيت الزوجة الثانية تسجد للزوجة الأولى، وتنحني لها بكل احترام وهي تقدم لها المزيد من الأفيون، وعرفت لماذا استُنزفت قوة الزوجة الأولى.
رأيت كيف غلب الخوف الزوجة الثالثة عندما بدأت الزوجة الثانية تروي لها

قصصًا عن المحظيات العجائز اللاتي طُردن إلى الشوارع، وعرفت لماذا سهرت الزوجة الثالثة على صحة الزوجة الثانية وسعادتها.

ورأيت ألم أمي الرهيب، بينما كانت الزوجة الثانية تهز سياودي على ساقيها، وتقبِّل ابن أمي وتقول له:

- ما دمتُ أنا أمك، فلن تكون فقيرًا أبدًا، ولن تكون تعيسًا أبدًا. ستكبر لتملك هذا المنزل وتعتني بي في شيخوختي.

وعرفت سبب بكاء أمي كثيرًا في غرفتها. فقد تبخر وعد وو تسينغ لها بمنزل - لأنها أصبحت أم ابنه الوحيد - في اليوم الذي انهارت فيه الزوجة الثانية إثر محاولة انتحار زائفة أخرى. وأدركت أمي أنها لا تستطيع فعل شيء لاستعادة ذلك الوعد.

تألمتُ كثيرًا بعد أن أخبرتني يان تشانغ بقصة أمي. أردت من أمي أن تصرخ في وجه وو تسينغ، أن تصرخ في وجه الزوجة الثانية، وأن تصرخ حتى في وجه يان تشانغ وتقول إنها كانت مخطئة حين روت لي تلك القصص. لكن أمي لم يكن لها حتى الحق في فعل ذلك. لم يكن لديها خيار آخر.

قبل يومين من رأس السنة القمرية، أيقظتني يان تشانغ بينما كان الظلام لا يزال حالكًا في الخارج.

جذبتني معها قبل أن يتمكن عقلي وعيناي من العمل معًا، وصاحت:

- بسرعة!

أضاءت غرفة أمي إنارة ساطعة، وما إن دخلت حتى رأيتها. ركضت نحو سريرها ووقفتُ على مسند القدمين. كانت ذراعاها وساقاها تتحرك ذهابًا وإيابًا وهي مستلقية على ظهرها. بدت كجندي يسير بلا وجهة، ورأسها يتحرك يمينًا ويسارًا. ثم فجأة، أصبح جسدها كله مشدودًا ومتيبسًا، كما لو أنها تحاول التمدد خارج جسدها. تدلى فكها ورأيت لسانها متورمًا، وأخذت تسعل وهي تحاول إخراجه.

همستُ إليها:

- استيقظي!

ثم التفتُّ ورأيت الجميع واقفين هناك: وو تسينغ، ويان تشانغ، والزوجة الثانية، والزوجة الثالثة، والزوجة الخامسة، والطبيب.

صاحت يان تشانغ:

- لقد تناولت الكثير من الأفيون، ويقول الطبيب إنه لا يستطيع فعل شيء. لقد سممت نفسها.

لذا لم يفعلوا شيئًا، بل انتظروا فقط. وانتظرتُ أنا أيضًا تلك الساعات الطويلة.

لم يكن هناك سوى صوت الفتاة في الساعة تعزف على الكمان. أردت الصراخ في وجه الساعة لإسكات ضجيجها الذي بلا معنى، لكنني لم أفعل.

راقبت أمي وهي تواصل المسير في سريرها. أردت النطق بالكلمات التي من شأنها أن تهدئ جسدها وروحها، لكنني وقفت هناك مثل الآخرين، أنتظر ولا أقول شيئًا.

ثم تذكرت قصتها عن السلحفاة الصغيرة، وتحذيرها من البكاء. أردت أن أصرخ قائلة لها إنه لا فائدة من ذلك، فقد فاضت الدموع بالفعل. وحاولت ابتلاعها واحدة تلو الأخرى، لكنها تدفقت بسرعة، حتى انفتحت شفتاي المغلقتان أخيرًا، وبكيت وبكيت، ثم بكيت من جديد، تاركة الجميع في الغرفة يتغذون على دموعي.

فقدت الوعي من شدة الحزن، وحملوني إلى سرير يان تشانغ. وفي ذلك الصباح، بينما كانت أمي تحتضر، استغرقت أنا في الحلم.

كنت أسقط من السماء نحو الأرض، إلى داخل بركة ماء، وتحوَّلت إلى سلحفاة صغيرة ترقد في قاع هذا المكان المائي. ومن فوقي رأيت مناقير ألف طائر عقعق تشرب من البركة، تشرب وتغني بسعادة، وتملأ بطونها البيضاء كالثلج. بكيت بشدة، وذرفت دموعًا كثيرة، لكنها شربت وشربت، حتى لم تتبقَّ لديَّ أي دموع، وجفت البركة، وصار كل شيء جافًّا كالرمال.

أخبرتني يان تشانغ لاحقًا بأن والدتي قد استمعت إلى الزوجة الثانية وحاولت التظاهر بالانتحار. كلمات كاذبة! أكاذيب! لم تكن لتستمع قَطُّ إلى تلك المرأة التي سببت لها الكثير من المعاناة.

أعلم أن أمي استمعت إلى قلبها فقط، وأنها قررت ألا تتظاهر بعد الآن. أعلم هذا، وإلا فما السبب الذي دفعها للانتحار قبل يومين من رأس السنة القمرية؟ لماذا خططت لموتها بدقة إلى درجة أنه أصبح سلاحًا؟

قبل ثلاثة أيام من رأس السنة، أكلَت يوانشياو، الفطائر اللزجة الحلوة التي يأكلها الجميع للاحتفال. أكلَت واحدة تلو الأخرى، وأتذكر تعليقها الغريب: «أترين كيف هي هذه الحياة؟ لا يمكنك تناول ما يكفي من هذه المرارة». كان ما فعلته هو أنها أكلت يوانشياو محشوة بنوع من السُّم المر، وليس البذور المحلاة بالسكر أو الأفيون الذي يبعث سعادة باهتة كما ظنت يان تشانغ والبقية. وعندما تغلغل السم في جسدها، همست إليَّ بأنها تفضل قتل روحها الضعيفة لتمنحني روحًا أقوى.

تشبثت تلك اللزوجة بجسدها، ولم يتمكنوا من إزالة السم، وهكذا ماتت، قبل يومين من بدء السنة الجديدة. مددوها على لوح خشبي في الردهة، وارتدت ملابس جنائزية أفخم من أي شيء ارتدته في حياتها: ملابس داخلية حريرية لتبقيها دافئة من دون عبء معطف الفرو الثقيل، وفستانًا حريريًّا مطرزًا بخيوط من الذهب، وغطاء رأس من الذهب واللازورد واليشم، ونعلين رقيقتين من الجلد الناعم، وعلى كل إصبع قدم لؤلؤتان ضخمتان تضيئان طريقها إلى النيرفانا.

عندما رأيتها هذه المرة الأخيرة، ألقيت نفسي على جسدها. فتحت عينيها ببطء، ولم أشعر بالخوف. كنت أعلم أنها تستطيع رؤيتي، وما قامت به أخيرًا. لذا أغلقت عينيها بأصابعي، وأخبرتها بقلبي: أنا أيضًا يمكنني رؤية الحقيقة. أنا أيضًا قوية.

كنت أنا وهي نعرف هذا: في اليوم الثالث بعد وفاة أي شخص، تعود روحه لتصفية الحسابات. وفي حالة أمي، سيكون هذا هو اليوم الأول من السنة القمرية

الجديدة. وبما أنه يوم رأس السنة، يجب سداد جميع الديون، وإلا ستحل الكوارث وسوء الحظ.

في ذلك اليوم، ارتدى وو تسينغ أخشن ملابس الحداد القطنية البيضاء، خوفًا من روح أمي المنتقمة. وعد شبحها الزائر بأنه سيربيني أنا وسياودي كأولاده المكرمين. كما وعد بتكريم ذكراها كما لو كانت زوجته الأولى والوحيدة.

في ذلك اليوم، أظهرتُ للزوجة الثانية عقد اللؤلؤ المزيف الذي أعطتني إياه وسحقته تحت قدمي.

في ذلك اليوم، بدأ شعر الزوجة الثانية يشيب.

وفي ذلك اليوم، تعلمتُ الصراخ.

* * *

أعرف كيف يمكن أن تعيشي حياتك كأنها حلم، أن تستمعي وتشاهدي، ثم تستيقظي وتحاولي فهم ما حدث بالفعل.

لستِ بحاجة إلى طبيب نفسي للقيام بذلك، فالطبيب النفسي لا يريدك أن تستيقظي، بل يطلب منك أن تحلمي أكثر، أن تعثري على البركة وتسكبي فيها مزيدًا من الدموع. وفي الحقيقة، هو مجرد طائر آخر يشرب من بؤسك.

لقد عانت أمي. فقدت كرامتها، وحاولت إخفاء الأمر. لكنها لم تجد سوى المزيد من البؤس، ولم تستطع إخفاء ذلك في النهاية. لا شيء آخر يستحق الفهم، هكذا كانت الصين، وكان هذا ما يفعله الناس في ذلك الوقت. لم يكن لديهم خيار، ولم يكن بوسعهم الحديث، كما لم يكن بوسعهم الهرب. كان هذا قدرهم.

لكن الآن يمكنهم أن يفعلوا شيئًا آخر. الآن لم يَعُد عليهم ابتلاع دموعهم أو تحمُّل سخرية طيور العقعق. أعرف هذا لأنني قرأت خبرًا في مجلة من الصين.

قالت المجلة إن الطيور ظلت تعذب الفلاحين لآلاف السنين. كانت تحلق لتراقبهم وهم منحنون في الحقول، يحفرون الأرض الصلبة، ويذرفون الدمع

في الأخاديد لسقي البذور. وعندما يفردون قاماتهم، كانت الطيور تهبط لتشرب الدموع وتلتهم البذور، فكان الأطفال يتضورون جوعًا.

لكن في يوم من الأيام، تجمَّع كل هؤلاء الفلاحين المتعبين - من جميع أنحاء الصين - في الحقول في كل مكان. راقبوا الطيور وهي تأكل وتشرب، ثم قالوا: «كفانا من هذه المعاناة والصمت!»، وبدأوا يصفقون بأيديهم ويضربون بالعصي على القدور والمقالي ويصرخون: سه! سه! سه! «موتي! موتي! موتي!».

وارتفعت كل تلك الطيور في الهواء، مذعورة ومرتبكة من هذا الغضب الجديد، تخفق بأجنحتها السوداء، وتطير على ارتفاع منخفض، تنتظر أن يتوقف هذا الضجيج. لكن صرخات الناس ازدادت قوة، وغضبًا، وأصبحت الطيور أكثر إرهاقًا، غير قادرة على الهبوط، وغير قادرة على تناول الطعام. استمر هذا الأمر ساعات عديدة، وأيامًا عديدة، حتى سقطت كل تلك الطيور - مئات، وآلاف، ثم ملايين! - تتخبط على الأرض، ميتة وساكنة، حتى لم يبقَ طائر واحد في السماء.

ماذا سيقول طبيبك النفسي إذا أخبرته بأنني صحت فرحًا عندما قرأت أن هذا قد حدث؟

ينغ-ينغ سانت كلير

الانتظار بين الأشجار

أسكنتني ابنتي في أصغر غرف منزلها الجديد.

قالت لينا بأسلوبها الأمريكي المتفاخر:

- هذه غرفة نوم الضيوف.

ابتسمتُ، لكن وفقًا لطريقة التفكير الصينية، فإن غرفة نوم الضيوف هي أفضل غرفة نوم، حيث تنام هي وزوجها. لم أخبرها بذلك، فحكمتها مثل بركة لا قاع لها: ترمي الحجارة فيها فتغرق في الظلام وتتلاشى. لم تعكس عيناها اللتان تنظران إليَّ أي شيء.

أفكر بذلك في قرارة نفسي، على الرغم من أنني أحب ابنتي. فأنا وهي تشاركنا نفس الجسد، وهناك جزء من عقلها هو جزء من عقلي. لكنها عندما وُلدت، انزلقت مني مثل سمكة ملساء، ومنذ ذلك الحين وهي تسبح مبتعدة. طيلة حياتها، ظللت أراقبها كما لو كنت على الضفة الأخرى. والآن، يجب أن أخبرها بكل شيء عن ماضيَّ، فهذه هي الطريقة الوحيدة للتغلغل داخل أعماقها وسحبها إلى حيث يمكن إنقاذها.

لهذه الغرفة سقف ينحدر إلى الأسفل باتجاه وسادة سريري، وجدرانها تضيق كأنها تابوت. يجب أن أُذكر ابنتي بعدم وضع أي أطفال في هذه الغرفة، لكني أعلم

أنها لن تستمع. وقد قالت بالفعل إنها لا تريد أطفالًا. هي وزوجها مشغولان جدًّا بتصميم أماكن سيتولى شخص غيرهما بناءها، ويعيش فيها أشخاص آخرون. لا أستطيع نطق الكلمة الأمريكية التي تُطلق على عملها وعمل زوجها. إنها كلمة قبيحة.

حاولتُ نطقها ذات مرة لأخت زوجي:

- هندس-عماري.

ضحكت ابنتي عندما سمعت ذلك. كان ينبغي لي صفعها أكثر عندما كانت طفلة، نظير عدم احترامها، لكن فات أوان ذلك. الآن تعطيني هي وزوجها مالًا لأضيفه إلى معاشي التقاعدي المتواضع. لذا عليَّ أن أكتم في قلبي ذلك الشعور الحارق الذي أحس به في يدي أحيانًا، وأحتفظ به في أعماقي.

ما جدوى تصميم مبانٍ جميلة، ثم العيش في منزل عديم الفائدة؟ تمتلك ابنتي المال، لكن كل شيء في بيتها للعرض فقط، وليس حتى جميل المظهر. هذه الطاولة الجانبية على سبيل المثال، مصنوعة من رخام أبيض ثقيل وترتكز على أرجل سوداء رفيعة. يجب أن يتذكر المرء دومًا ألا يضع حقيبة ثقيلة على هذه الطاولة، وإلا ستنكسر. الشيء الوحيد الذي يمكن وضعه عليها هو مزهرية سوداء طويلة. وتشبه هذه المزهرية ساق عنكبوت، رفيعة جدًّا بحيث لا يمكن وضع أكثر من زهرة واحدة فيها. وإذا اهتزت الطاولة، فستسقط المزهرية والزهرة.

أرى العلامات في كل أرجاء هذا المنزل. ابنتي تنظر، لكنها لا ترى. سيتحطم هذا المنزل إلى شذرات. كيف أعلم؟ لطالما عرفت الشيء قبل حدوثه.

* * *

عندما كنت فتاة صغيرة في ووشي، كنت ليهاي، جامحة وعنيدة، تعلو وجهي ابتسامة ساخرة، ورأيت نفسي أكبر من أن أستمع للآخرين. كنت صغيرة وجميلة، وجعلتني قدماي الصغيرتان مغرورة بنفسي. إذا اتسخ زوج من النعال الحريرية، كنت أرميهما من دون تردد. واعتدت ارتداء أحذية فاخرة من جلد العجل

المستورد، بكعوب صغيرة، كسرت الكثير منها، وأتلفت العديد من الجوارب في أثناء الجري عبر الفناء المرصوف بالأحجار.

كثيرًا ما كنت أفك شعري وأتركه منسدلًا. وكانت أمي تنظر إلى تشابك شعري الجامح وتوبخني قائلة:

- آه-ياه، ينغ-ينغ، أنتِ مثل أشباح النساء في قاع البحيرة.

كانت هؤلاء هن النساء اللاتي أغرقن أنفسهن هربًا من العار، وأشباحهن تطفو في بيوت الأحياء وشعورهن منسدلة كعلامة على يأسهن الأبدي. اعتادت أمي القول إنني سأجلب العار إلى العائلة، لكنني كنت أضحك فحسب بينما تحاول أن ترفع شعري بدبابيس طويلة. أحبتني بدرجة أكبر من أن تغضب مني، حيث كنت أشبهها، ولهذا أطلقت عليَّ اسم ينغ-ينغ، أي الانعكاس الصافي.

كنا من أثرى العائلات في ووشي، وفي منزلنا العديد من الغرف، كلٌّ منها ممتلئة بطاولات ضخمة وثقيلة. وعلى كل طاولة كانت هناك جرة من اليشم، محكمة الإغلاق بغطاء من اليشم أيضًا، تحتوي كل جرة منها على سجائر بريطانية غير مفلترة، دائمًا بالكمية المناسبة، لا أكثر ولا أقل. صُنعت تلك الجرار خصيصًا لهذه السجائر. لم أكن أُعيرها اهتمامًا، ورأيتها مجرد خردة بلا قيمة. وذات مرة، سرقت أنا وإخوتي واحدة من تلك الجرار وسكبنا السجائر في الشارع. ثم هرعنا إلى حفرة كبيرة انفتحت في الأرض، حيث كان الماء يتدفق من تحتها. هناك، جلسنا القرفصاء مع الأطفال الذين يعيشون بجانب المصرف. اغترفنا أكوابًا من الماء العكر، على أمل العثور على سمكة أو كنز مجهول. لم نعثر على شيء، وسرعان ما تلطخت ملابسنا بالطين حتى أصبحنا لا نُميَّز عن أطفال الشوارع.

كان لدينا الكثير من الثروات في ذلك المنزل: سجاد حريري، ومجوهرات، وأوانٍ نادرة، وعاج منحوت. لكن حين أعود بذاكرتي إلى ذلك المنزل، وهو أمر نادر، أتذكر جرة اليشم، ذلك الكنز الموحل الذي لم أدرك أنني أحمله بين يدي.

وهناك شيء آخر ما زلت أتذكره بوضوح عن ذلك المنزل.

كنت في السادسة عشرة من عمري، وكانت تلك ليلة زفاف عمتي الصغرى،

وانصرفت هي وزوجها إلى الغرفة التي سيتشاركانها في المنزل الكبير مع حماتها وبقية أفراد عائلتها الجديدة.

بقي العديد من أفراد العائلة الزائرين في منزلنا، جالسين حول المائدة الكبيرة في الغرفة الرئيسية، والجميع يضحكون ويأكلون الفول السوداني، ويقشرون البرتقال، ويضحكون مجددًا. وجلس معنا رجل من بلدة أخرى، صديق لزوج عمتي الجديد. كان أكبر من أخي الأكبر، ولهذا ناديته بلقب «عمي». وكان وجهه محمرًّا من شرب الويسكي.

قال لي بصوت أجش وهو ينهض من كرسيه:

- ينغ-ينغ، ربما لا تزالين جائعة، أليس كذلك؟

نظرت حولي إلى من يجلسون إلى المائدة، مبتسمة للجميع، بسبب هذا الاهتمام الخاص الذي أولاني إياه. ظننت أنه سيخرج حلوى خاصة من الكيس الكبير الذي مد يده داخله، وتمنيت الحصول على بعض الكعك المحلى. لكنه أخرج بطيخة ووضعها على المائدة فأصدرت صوتًا عاليًا.

قال وهو يرفع سكينًا كبيرة فوق الفاكهة التي بدت مثالية:

- كاي غو!؟ هل أفتح البطيخة؟

ثم غرس السكين بقوة وضحك بصوت عالٍ إلى درجة أنني استطعت رؤية أسنانه الذهبية. ضحك الجميع على المائدة بصوت عالٍ، وتضرج وجهي من الخجل، لأنني لم أفهم ما حدث حينها.

نعم، صحيح أنني كنت فتاة جامحة، لكنني كنت بريئة. لم أدرك كم كان ما فعله شريرًا حين شق تلك البطيخة أمام الجميع. لم أفهم المعنى إلا بعد ستة أشهر، حين تزوجت هذا الرجل، وهمس إليَّ وهو مخمور أنه مستعد لـ كاي غو!.

كان رجلًا سيئًا إلى درجة أنني لا أستطيع النطق باسمه حتى اليوم. لماذا تزوجت هذا الرجل؟ لأنه في الليلة التي تلت زفاف عمتي الصغرى، بدأت أعرف الأشياء قبل وقوعها.

غادر معظم الأقارب في صباح اليوم التالي، وبحلول المساء، شعرت أنا

وأختاي غير الشقيقتين بالملل. جلسنا حول نفس المائدة الكبيرة، نحتسي الشاي ونأكل بذور البطيخ المحمصة. ثرثرت أختاي غير الشقيقتين بصوت عالٍ وهما تتبادلان القيل والقال، بينما جلستُ أقشر البذور وأكوم لبها في كومة صغيرة.

حلمت أختاي غير الشقيقتين بالزواج بشابين عديمَي القيمة من عائلات ليست بنفس مستوى عائلتنا. لم تعرفا كيف تطمحان إلى شيء أسمى. كانتا ابنتَي محظيتَي أبي، أما أنا فكنت ابنة زوجته.

وبخَت إحدى الأختين غير الشقيقتين الأخت الأخرى عندما سمعت خيارها:

- ستعاملك أمه كخادمة...

فردت الأخت غير الشقيقة الأخرى:

- الجنون يسري في العائلة من جهة عمه...

وحين سئمتا من مشاكسة بعضهما، سألتاني عمن أريد الزواج به.

أجبتهما بتعالٍ:

- لا أعرف أحدًا.

لم يكن السبب أن الأولاد لا يثيرون اهتمامي، حيث كنت أعرف جيدًا كيف أجذب الانتباه وأكون محط إعجاب. لكنني كنت أكثر غرورًا من أن أعتقد أن هناك أي فتى جدير بي.

كانت تلك هي الأفكار التي تدور في ذهني، لكن الأفكار نوعان: هناك أفكار تُزرع فيك منذ ولادتك، يضعها فيك أبوك وأمك وأسلافك من قبلهما، وهناك أفكار يزرعها الآخرون فيك. ربما كانت بذور البطيخ التي أتناولها هي التي دفعتني للتفكير في ذلك الرجل الضاحك من الليلة السابقة. وفجأة، هبت ريح قوية من الشمال، فانقطعت زهرة موضوعة على الطاولة عن ساقها، وسقطت عند قدمَي.

هذه هي الحقيقة، كأن سكينًا قطعت رأس الزهرة كعلامة. وفي تلك اللحظة، عرفت أنني سأتزوج ذلك الرجل. لم أفكر في ذلك بفرح، بل بدهشة من قدرتي على معرفة ما سيحدث.

وسرعان ما بدأت أسمع اسم ذلك الرجل يتردد في أحاديث أبي وعمي وزوج

عمتي الجديد، وكان اسمه يُغرف في طبقي مع الحساء في أثناء العشاء. ورأيته يحدق إليَّ من الطرف الآخر لفناء عمي، ويردد بنبرة متفاخرة:

- انظروا، إنها لا تستطيع أن تدير وجهها عني. صارت ملكي بالفعل.

صحيح أنني لم أُشِح بوجهي عنه، بل قاومت نظراته بنظراتي. استمعت إلى كلامه بأنف شامخ، وشممت رائحة كلماته الكريهة وهو يخبرني بأن أبي لن يقدم المهر الذي طلبه على الأرجح. حاولت جاهدة أن أطرده من أفكاري، حتى انتهى بي الأمر في فراش الزوجية معه.

لا تعرف ابنتي أنني تزوجت هذا الرجل منذ زمن بعيد، قبل عشرين عامًا من ولادتها.

لا تعرف كم كنت جميلة عندما تزوجت هذا الرجل. كنت أجمل بكثير من ابنتي، التي لديها قدمان كأقدام القرويين وأنف كبير مثل أنف والدها.

حتى اليوم، لا تزال بشرتي ناعمة، وقوامي كقوام فتاة. لكن هناك تجاعيد عميقة حول فمي، حيث كانت تشرق ابتسامتي من قبل. ويا لقدمَي المسكينتين، اللتين كانتا صغيرتين وجميلتين! أما الآن فهما متورمتان، ومتصلبتان ومتشققتان عند الكعبين. وعيناي، اللتان كانتا مشرقتين وبراقتين في سن السادسة عشرة، أصبحتا الآن مصفرتين، ومعتمتين.

لكنني ما زلت أرى كل شيء تقريبًا بوضوح. حين أرغب في التذكر، يبدو الأمر كأنني أنظر إلى وعاء وأجد آخر حبات الأرز التي لم تنتهِ من تناولها.

كان ذلك في عصر أحد الأيام على بحيرة تاي بعد زواجي بذلك الرجل بوقت قصير: أذكر أن تلك كانت اللحظة التي أحببته فيها. أدار ذلك الرجل وجهي نحو شمس ما بعد الظهيرة، وأمسك بذقني، وربت على خدي وقال:

- ينغ-ينغ، لديكِ عينان كالنمر، تجمعان النار في النهار، وتلمعان كالذهب ليلًا.

لم أضحك، على الرغم من أن ما قاله بدا كقصيدة رديئة، بل بكيت بفرح

صادق. غمر قلبي إحساس مضطرب، كأن شيئًا ما بداخلي يتخبط ليخرج، ويريد البقاء في الوقت نفسه. إلى هذا الحد بلغ حبي لذلك الرجل. هكذا تكون الحال حين يتحد أحدهم بجسدك، وتجد جزءًا من عقلك يسبح للانضمام إلى هذا الشخص رغمًا عنك.

أصبحت غريبة عن نفسي. كنت أتجمل لأجله، وإذا ارتديت نعالًا، كنت أختار زوجًا أعرف أنه سينال إعجابه. وكنت أُمشط شعري تسعًا وتسعين مرة كل ليلة، لأجلب الحظ السعيد إلى فراشنا الزوجي، على أمل أن أحمل بولد.

وفي الليلة التي غرس فيها البذرة في رحمي، عرفت أيضًا ما سيحدث قبل وقوعه. عرفت أنه سيكون ولدًا، واستطعت رؤيته في رحمي. كانت له عينا زوجي، كبيرتان ومتباعدتان، وكانت له أصابع طويلة مستدقة، وشحمة أذن ممتلئة، وشعر ناعم منتصب يكشف عن جبهة عريضة.

وبسبب ما شعرت به من سعادة كبيرة آنذاك، غمرتني الكراهية الشديدة لاحقًا. لكن حتى في لحظات سعادتي القصوى، راودني شعور بالقلق، أعلى جبيني مباشرة، حيث يدرك المرء الأشياء. ثم تسلل هذا القلق لاحقًا إلى قلبي، حيث تشعرين بشيء ما فيصبح حقيقة.

شرع زوجي يسافر كثيرًا في رحلات عمل إلى الشمال. بدأت تلك الرحلات بعد زواجنا بوقت قصير، لكنها طالت أكثر بعد أن حملت بطفلنا. تذكرت أن الرياح الشمالية هي التي جلبت إليَّ الحظ، وجلبت إليَّ زوجي، فكنت أفتح نوافذ غرفة نومي على مصراعيها في الليالي التي يغيب فيها، حتى في ليالي الشتاء الباردة، لأدع روحه وقلبه يعودان إليَّ مع الرياح.

لكن ما لم أكن أعلمه هو أن الرياح الشمالية هي الأبرد، فهي تخترق القلب وتسلب دفئه. وبلغت الرياح من الشدة إلى درجة أنها دفعت زوجي خارج غرفة نومي ومن الباب الخلفي. ثم علمت من عمتي الصغرى أنه هجرني ليعيش مع مغنية أوبرا.

لاحقًا، عندما تغلبت على حزني ولم يَعُد في قلبي سوى اليأس والكراهية،

أخبرتني عمتي الصغرى عن أخريات: راقصات، وسيدات أمريكيات، وبغايا، وابنة عم أصغر مني سنًّا. وقد رحلت هذه الأخيرة فجأة إلى هونغ كونغ بعد وقت قصير من اختفاء زوجي.

لذا سأُخبر لينا عن عاري. سأخبرها بأنني كنت ثرية وجميلة، وأنني رأيت نفسي أرفع من أن أخص أي رجل، ثم أصبحت سلعة مهجورة. سأخبرها بأن جمالي قد تلاشى من وجنتَي عندما بلغت الثامنة عشرة، وأنني فكرت في إلقاء نفسي في البحيرة مثل السيدات الأخريات اللاتي يشعرن بالخزي. وسأخبرها عن الطفل الذي قتلته لأنني كرهت هذا الرجل إلى حد لا يُطاق.

انتزعت هذا الطفل من رحمي قبل أن يُولد. لم يكن ذلك يُعَد فعلًا سيئًا في الصين آنذاك، أن تقتل طفلًا قبل ولادته. لكن مع ذلك، أدركت أن ما فعلته شر، لأن جسدي كان يغلي بالانتقام الرهيب، بينما تسيل مني دماء الابن البكر لذلك الرجل.

وعندما سألتني الممرضات ما يجب أن يفعلنه بالطفل الميت، قذفت صحيفة نحوهن، وطلبت منهن لفه كالسمكة ورميه في البحيرة. تعتقد ابنتي أنني لا أعرف معنى عدم الرغبة في إنجاب طفل.

عندما تنظر إليَّ ابنتي، لا ترى سوى امرأة عجوز ضئيلة، وذلك لأنها لا ترى إلا بعينيها الخارجيتين. لا يوجد لديها أي تشو مينغ، ذلك الإدراك الداخلي العميق للأشياء. لو كان لديها تشو مينغ، لرأت امرأة نمرًا، ولأحست بخوف محسوب.

وُلدتُ في عام النمر. كان عامًا سيئًا جدًّا كي يولد فيه إنسان، لكنه عام عظيم للنمور. في ذلك العام، دخلت روح شريرة العالم، ومات الناس في الريف كما تموت الدجاجات في أيام الصيف الحارة. أما أهل المدن فأصبحوا كالظلال، ودخلوا منازلهم واختفوا. وُلد أطفال ولم يزدادوا وزنًا، حتى سقط لحمهم عن عظامهم في غضون أيام وماتوا.

بقيت الروح الشريرة في العالم لمدة أربع سنوات، لكنني أتيت من روح

أقوى، ولهذا نجوت. هذا ما أخبرتني به أمي عندما كبرت بما يكفي لأفهم سبب شدة طباعي وصلابتي.

ثم شرحت لي لماذا يكون النمر ذهبيًّا وأسود، له جانبان: الجانب الذهبي يقفز بقلبه المتقد الشرس، والجانب الأسود يبقى ساكنًا بدهاء، يخفي ذهبه بين الأشجار، يراقب ولا يُرى، ينتظر بصبر ما سيأتي. لم أتعلم استخدام جانبي الأسود إلا بعد أن رحل ذلك الرجل السيئ.

أصبحت مثل نساء البحيرة. ألقيت ملابس بيضاء على المرايا في غرفة نومي حتى لا أرى حزني، وخارت قواي حتى لم أعد أقدر على رفع يدَي لأضع دبابيس في شعري. ثم طفوت كورقة شجر ميتة على سطح الماء، حتى انجرفت خارج بيت حماتي وعدت إلى منزل عائلتي.

ذهبت إلى الريف خارج شنغهاي لأعيش مع عائلة ابن عم من الدرجة الثانية. مكثت في ذلك المنزل الريفي عشر سنوات. ولو سألتني عما فعلت خلال تلك السنوات الطويلة، لن يسعني القول إلا أنني انتظرت بين الأشجار، إحدى عينَي نائمة، والأخرى مفتوحة وتراقب.

لم أكن أعمل، وأحسنت أسرة ابن عمي معاملتي، لأنني كنت ابنة الأسرة التي تعيلهم. كان المنزل رثًّا، مكتظًّا بثلاث عائلات. لم يكن وجودي هناك مريحًا، وهذا ما أردته. زحف الأطفال على الأرض جنبًا إلى جنب مع الفئران، ودخل الدجاج وخرج مثل ضيوف أقاربي من الفلاحين عديمي الذوق. كنا جميعًا نأكل في المطبخ وسط حرارة دهون القلي. والذباب! إذا تركت وعاءً فيه بضع حبات أرز، فستجدينه مغطى بذباب جائع كثيف إلى درجة أنه يبدو كأنه وعاء حي من حساء الفاصوليا السوداء. هكذا كانت حال الريف، شديدة الفقر.

بعد عشر سنوات، أصبحت مستعدة. لم أعد فتاة، بل امرأة غريبة. امرأة لا تزال متزوجة، لكن من دون زوج. ذهبت إلى المدينة وكلتا عينَي مفتوحتان. بدا الأمر كأن وعاء الذباب الأسود قد أُفرغ في شوارع المدينة: كان هناك أناس يتحركون في كل مكان، رجال غرباء يحتكون بنساء غريبات، ولا أحد يبالي.

بالمال الذي حصلت عليه من عائلتي، اشتريت ملابس جديدة، بدلات عصرية مستقيمة، وقصصت شعري الطويل بطريقة كانت رائجة آنذاك، كأنني صبي صغير. كنت قد سئمت من سنوات الفراغ الطويلة، فقررت العمل، وأصبحت بائعة في متجر.

لم أكن بحاجة إلى تعلم كيفية إطراء النساء، بل كنت أعرف الكلمات التي يرغبن في سماعها. يمكن للنمر أن يصدر خرخرة ناعمة من أعماق صدره تجعل حتى الأرانب تشعر بالأمان والرضا.

وعلى الرغم من أنني صرت امرأة ناضجة، فإنني عدت جميلة من جديد، وكان ذلك بمنزلة هبة. ارتديت ملابس أجمل بكثير، وأغلى من كل ما يُباع في المتجر. ودفع هذا النساء إلى شراء الملابس الرخيصة، لأنهن اعتقدن أنهن يمكن أن يظهرن جميلات مثلي.

في هذا المتجر، وأنا أعمل بائعة بسيطة مثل القرويات، التقيتُ كليفورد سانت كلير. كان رجلًا أمريكيًّا ضخمًا شاحب البشرة، يشتري الملابس الرخيصة من المتجر ويرسلها إلى الخارج. وكان اسمه هو ما جعلني أعرف أنني سأتزوجه.

قال لي بالإنجليزية عندما عرفني بنفسه:

- السيد سانت كلير.

ثم أضاف بلغته الصينية الركيكة الثقيلة:

- مثل ملاك النور.

لم أشعر نحوه بمودة ولا نفور، ولم أرَه جذابًا ولا قبيحًا. لكنني كنت أعلم شيئًا واحدًا: أدركت أنه كان الإشارة إلى أن الجانب الأسود مني سيزول قريبًا.

تودد إليَّ سانت بأسلوبه الغريب لمدة أربع سنوات. وعلى الرغم من أنني لم أكن مالكة المتجر، دائمًا ما كان يحييني، ويصافحني، ويبقي يدي في يده طويلًا. وكانت راحتا يديه تتصببان عرقًا دائمًا، حتى بعد زواجنا. بدا نظيفًا ومهذبًا، لكن رائحته كانت كرائحة الأجانب، رائحة ضأن نتنة، لا تزول أبدًا مهما غُسلت.

لم أكن جافة في التعامل، لكنه كان كيتشي، مبالغًا في التهذيب. قدم لي هدايا

رخيصة: تمثالًا زجاجيًّا صغيرًا، ودبوس زينة شائكًا من الزجاج المصقول، وولاعة سجائر فضية اللون. تصرف سانت كأن هذه الهدايا لا تعني له شيئًا، وكأنه رجل ثري يدلل فتاة ريفية فقيرة بأشياء لم ترَها من قبل في الصين.

لكنني رأيت نظراته وهو يراقبني وأنا أفتح العلب: نظرة قلق ولهفة على أن يرضيني. لم يعرف أن تلك الأغراض لا تعني لي شيئًا، وأنني نشأت في ثراء لا يمكنه حتى تخيُّله.

اعتدت قبول تلك الهدايا بلطف، وإبداء الاعتراض دائمًا بالقدر الكافي، لا أقل ولا أكثر. لم أشجعه، لكن بما أنني كنت أعرف أن هذا الرجل سيصبح زوجي يومًا ما، وضعت تلك الحلي التي لا قيمة لها بعناية في صندوق، ولففت كل واحدة منها بورق ناعم، حيث أدركت أنه سيطلب رؤيتها مرة أخرى يومًا ما.

تعتقد لينا أن سانت أنقذني من القرية الريفية الفقيرة التي قلت إنني جئت منها. وهي محقة، ومخطئة في الوقت نفسه. لا تعرف ابنتي أن سانت اضطر إلى انتظاري بصبر أربع سنوات، مثل كلب جالس أمام محل الجزار.

كيف حدث أنني وافقت أخيرًا على الزواج به؟ كنت أنتظر الإشارة التي علمت أنها ستأتي، واضطررت إلى الانتظار حتى عام ١٩٤٦.

وصل إليَّ خطاب من تيانجين، ليس من عائلتي التي اعتقدت أنني مت، بل من عمتي الصغرى. ومن قبل حتى أن أفتح الرسالة، عرفت: مات زوجي. كان قد هجر مغنية الأوبرا منذ زمن طويل، وصار مع فتاة تافهة، خادمة شابة. لكنها كانت تتمتع بروح قوية ومتهورة، أكثر منه. وعندما حاول هجرها، شحذت أطول سكين مطبخ لديها.

ظننت أن هذا الرجل استنزف كل شيء من قلبي منذ زمن بعيد، لكن شيئًا قويًّا ومريرًا تدفق بداخلي، وجعلني أشعر بفراغ جديد في مكان لم أكن أعلم بوجوده. لعنت ذلك الرجل بصوت عالٍ لعله يسمعني: كانت لك عينا كلب، تقفز وتتبع من يناديك، وها أنت ذا الآن تطارد ذيلك.

لذا حسمت أمري، وقررت السماح لسانت بالزواج بي، وكان الأمر سهلًا

بالنسبة إليَّ. كنت ابنة الزوجة الأولى لأبي، لكنني تحدثت بصوت مرتجف، وصرت شاحبة ومريضة، وازددت نحولًا. تركت نفسي أتحول إلى حيوان جريح، وتركت الصياد يأتي إليَّ ويحولني إلى شبح نمر. تخليت طوعًا عن تشي، الروح التي سببت لي كل هذا الألم.

أصبحت الآن نمرًا لا ينقض ولا ينتظر مترقبًا بين الأشجار. أصبحت روحًا غير مرئية.

اصطحبني سانت إلى أمريكا، حيث عشت في بيوت أصغر من تلك الموجودة في الريف. ارتديت ملابس أمريكية فضفاضة، وقمت بأعمال الخدم، وتعلمت العادات الغريبة. حاولت التحدث بلهجة ثقيلة، وربيت ابنتي وأنا أراقبها من شاطئ آخر، وتقبلت عاداتها الأمريكية.

ومع كل هذا، لم أُبالِ. لم تكن لديَّ روح.

هل أستطيع أن أخبر ابنتي بأنني أحببت أباها؟ كان هذا رجلًا يدلك قدمَي في الليل، ويثني على الطعام الذي أعده، وبكى بصدق عندما أخرجت الحلي التي كنت أحتفظ بها لليوم المناسب، اليوم الذي منحني فيه ابنتي، الفتاة النمرة.

كيف لي ألا أحب هذا الرجل؟ لكنه كان حبًّا كالشبح: أذرع تعانق من دون تلامس، وعاء مملوء بالأرز، لكن شهيتي معدومة، لا جوع، ولا شبع.

أصبح سانت شبحًا، والآن فقط يمكننا أن نحب بعضنا بنفس القدر. عرف كل ما أخفيته طوال هذه السنوات، والآن يجب عليَّ أن أُخبر ابنتي بكل شيء: أنها ابنة شبح، وأنها بلا تشي، بلا روح. وهذا هو أعظم خزي في حياتي. كيف لي أن أغادر هذا العالم من دون أن أترك لها روحي؟

لذا، هذا ما سأفعله: سأجمع ماضيَّ كله وألقي إليه نظرة، وسأرى الشيء الذي حدث بالفعل، الألم الذي اجتث روحي من جسدي. سأمسك هذا الألم بيدي حتى يصبح صلبًا، لامعًا، وأكثر وضوحًا. وحينها، يمكن أن تعود شراستي، جانبي الذهبي، وجانبي الأسود. سأستغل هذا الألم الحاد لاختراق جلد ابنتي

السميك، وتحرير روح النمر التي بداخلها. ستقاومني، لأن هذه طبيعة النمور، لكنني سأنتصر، وسأمنحها روحي، لأن هذه هي الطريقة التي تحب بها الأم ابنتها.

أسمع ابنتي تتحدث مع زوجها في الأسفل، يتبادلان كلمات لا معنى لها، يجلسان في غرفة خالية من الحياة.

أعرف الشيء قبل وقوعه: ستسمع صوت المزهرية والطاولة تتحطمان على الأرض، وستصعد الدرج وتدخل غرفتي. لن ترى عيناها شيئًا في الظلام، حيث أنتظر أنا بين الأشجار.

ليندو جونغ

وجه مزدوج

أرادت ابنتي الذهاب إلى الصين لقضاء شهر عسلها الثاني، لكنها صارت خائفة الآن.

سألتني ويفرلي:

- ماذا لو اندمجت معهم إلى درجة تدفعهم للاعتقاد بأنني واحدة منهم؟ ماذا لو لم يسمحوا لي بالعودة إلى الولايات المتحدة؟

قلت لها:

- عندما تذهبين إلى الصين، لن تحتاجي حتى إلى فتح فمك، فهم يعرفون بالفعل أنكِ غريبة عنهم.

سألتني:

- ما الذي تتحدثين عنه؟

تهوى ابنتي الجدال، وتحب التشكيك فيما أقوله.

قلت:

- آي-ياه! حتى لو ارتديت ملابسهم، وحتى لو أزلت مكياجك وأخفيت مجوهراتك الفاخرة، فهم يعلمون. إنهم يعرفون ذلك بمجرد النظر إلى طريقة مشيتك، وتعبير وجهك، يعرفون أنك لا تنتمين إلى ذلك المكان.

لم تبدُ ابنتي سعيدة عندما أخبرتها بهذا، أنها لا تبدو صينية، وارتسمت على وجهها نظرة أمريكية متجهمة. أوه، ربما كانت لتصفق بيديها فرحًا قبل عشر سنوات - مرحى! - كما لو كانت هذه أخبارًا سارة. لكنها تريد أن تكون صينية الآن، إذ صار ذلك عصريًّا للغاية. لكنني أعلم أن الأوان قد فات. حاولت تعليمها طوال تلك السنوات! اتبعَت عاداتي الصينية فقط إلى أن تعلمَت كيف تخرج من الباب بنفسها وتذهب إلى المدرسة. لذا، فإن الكلمات الصينية الوحيدة التي تستطيع نطقها الآن هي شوشو، هووتشه، تشي فان، غوان دينغ شوي جياو. كيف يمكنها التحدث إلى الناس في الصين بهذه الكلمات: تبولي، قطار، تناولي الطعام، أطفئي النور واذهبي للنوم؟ كيف تتخيل أنها قادرة على الاندماج؟ بشرتها وشعرها فقط صينيان، أما من الداخل فهي أمريكية بالكامل.

إنه خطئي، كونها أصبحت على هذه الحال. أردت لأولادي أن يحظوا بأفضل مزيج: الظروف الأمريكية والطباع الصينية. كيف لي أن أعلم أن هذين الأمرين لا يمتزجان؟

علمتها كيف تسير الأمور في أمريكا. إذا وُلدت فقيرة هنا، فهذه ليست وصمة عار دائمة. بل ستكونين أول المرشحين للحصول على منحة دراسية. وإذا انهار السقف على رأسك، فلا داعي إلى البكاء على هذا الحظ السيئ. يمكنك مقاضاة أي شخص، وإجبار المالك على إصلاحه. لست مضطرة إلى الجلوس مثل بوذا تحت شجرة وترك الحمام يقضي حاجته على رأسك، بل يمكنك شراء مظلة، أو دخول كنيسة كاثوليكية. في أمريكا، لا أحد يقول إن عليك القبول بالظروف التي فرضها عليك الآخرون.

لقد تعلمَت هذه الأمور، لكنني لم أستطع تعليمها الطباع الصينية: كيف تطيع والديها وتنصت إلى رأي أمها، كيف تخفي أفكارها، وتداري مشاعرها خلف ملامح جامدة حتى تستغل الفرص الخفية، ولماذا لا تستحق الأشياء السهلة السعي وراءها، وكيف تعرف قيمتها وتصقلها، ولا تتباهى بها أبدًا كخاتم رخيص، ولماذا العقلية الصينية هي الأفضل.

لا، لم يعلق هذا النوع من التفكير في ذهنها. كانت منشغلة جدًّا بمضغ العلك، ونفخ فقاعات أكبر من خديها. هذا هو نوع التفكير الوحيد الذي علق بذهنها.

قلت لها أمس:

- أكملي قهوتك، لا تهدري النعم التي لديك.

أجابتني وهي تسكب قهوتها في الحوض:

- لا تكوني رجعية إلى هذا الحد يا أمي، أنا شخصية مستقلة.

وفكرت في قرارة نفسي: كيف لها أن تكون شخصية مستقلة؟ متى تخليتُ عنها؟

* * *

ستتزوج ابنتي للمرة الثانية، لذا طلبت مني الذهاب إلى صالون التجميل الخاص بها، صالون السيد روري الشهير. أعرف ما تعنيه: إنها تخجل من مظهري. ماذا سيظن والدا زوجها وأصدقاؤه المحامون المهمون بهذه المرأة الصينية المسنة المتخلفة؟

قلت:

- يمكن أن تتولى عمتكِ آن-ماي قص شعري.

قالت ابنتي، كأنها لا تسمعني:

- روري مشهور، وهو مبدع في عمله.

لذا جلستُ على كرسي السيد روري، وضبط الكرسي ليصل إلى الارتفاع المناسب. ثم بدأت ابنتي في انتقادي كما لو أنني غير موجودة، واستنكرت شعري قائلة:

- انظر كيف يبدو مسطحًا من جانب واحد. إنها بحاجة إلى قص شعرها وتمويجه. وهذه الصبغة البنفسجية في شعرها، تولت عملها بنفسها في المنزل. لم يسبق لها أن صبغت شعرها بشكل احترافي.

نظرَت إلى السيد روري في المرآة، ونظر هو إليَّ في المرآة. لقد رأيت هذه النظرة الاحترافية من قبل. فالأمريكيون لا ينظرون إلى بعضهم حقًّا عند الحديث،

بل يتحدثون إلى انعكاساتهم. لا ينظرون إلى الآخرين أو إلى أنفسهم إلا حين يظنون أن لا أحد يراقبهم، لذلك فهم لا يرون حقيقتهم أبدًا. يرون أنفسهم يبتسمون من دون أن يفتحوا أفواههم، أو يلتفتون إلى الجانب الذي لا يستطيعون فيه رؤية عيوبهم.

سأل السيد روري:

- كيف تريده؟

ظن أنني لا أفهم الإنجليزية. مرر أصابعه بين شعري، مستعرضًا كيف يمكن لسحره أن يجعل شعري أكثر كثافة وطولًا.

- أمي، كيف تريدينه؟

لماذا تعتقد ابنتي أنها تترجم لي من الإنجليزية؟ قبل أن أتمكن من الحديث، تولت هي شرح أفكاري.

- تريد تمويجات ناعمة، وربما لا ينبغي أن نقصه بدرجة أقصر من اللازم، وإلا سيكون مجعدًا بشدة بالنسبة إلى حفل الزفاف، فهي لا تريده أن يبدو غريبًا أو شاذًّا.

ثم خاطبتني بصوت عالٍ، كأنني فقدت سمعي:

- أليس هذا صحيحًا يا أمي؟ لا نريده مجعدًا بشدة.

ابتسمتُ، ورسمت تعبير وجهي الأمريكي، ذلك التعبير الذي يظنه الأمريكيون صينيًّا، التعبير الذي لا يستطيعون فهمه. لكن في داخلي، شعرت بالخجل. خجلتُ لأنها تشعر بالخجل، لأنها ابنتي وأنا فخور بها، وأنا أمها لكنها ليست فخورًا بي.

ربت السيد روري على شعري أكثر، ثم نظر إليَّ، ونظر إلى ابنتي، وقال شيئًا أثار استياءها بشدة:

- من الغريب كم تبدوان متشابهتين!

ابتسمتُ، هذه المرة بتعبير وجهي الصيني، لكن عينَي ابنتي وابتسامتها ضاقت بشدة، كما تنكمش القطة على نفسها قبل الانقضاض. ابتعد السيد روري كي نتمكن من التفكير في الأمر، وسمعته يفرقع بأصابعه وهو يقول:

- الغسيل! السيدة جونغ هي التالية!

لذا صرت أنا وابنتي وحدنا في صالون التجميل المزدحم هذا. عبسَت وهي تطالع نفسها في المرآة، ورأتني أنظر إليها.

قالت:

- لنا نفس الوجنتين.

أشارت إلى وجنتَي، ثم ضغطت على وجنتيها. شفطتهما إلى الداخل حتى بدت كشخص يتضور جوعًا، وضعت وجهها بجوار وجهي، جنبًا إلى جنب، ونظرنا إلى بعضنا في المرآة.

قلت لابنتي من دون تفكير:

- يمكنك رؤية طباعك في ملامحك، كما يمكنك رؤية مستقبلك.

قالت:

- ماذا تعنين؟

صار عليَّ مقاومة مشاعري. هذان الوجهان، في رأيي، متشابهان للغاية! نفس السعادة، ونفس الحزن، ونفس الحظ السعيد، ونفس العيوب.

رأيت نفسي وأمي، في الصين، حين كنت فتاة صغيرة.

* * *

قرأت لي أمي - جدتك - طالعي ذات مرة، وأخبرتني كيف أن طباعي قد تقودني إلى ظروف حسنة أو سيئة. كانت جالسة إلى طاولتها أمام المرآة الكبيرة، بينما وقفتُ خلفها، وذقني مستند إلى كتفها. كان اليوم التالي هو بداية العام الجديد. وكنت سأبلغ العاشرة من عمري وفقًا للتقويم الصيني، لذا كان عيد ميلادي هذا مهمًّا بالنسبة إليَّ. ولعل هذا هو السبب في أنها لم تنتقدني كثيرًا، وهي تنظر إلى وجهي.

لمست أذني وقالت:

- أنتِ محظوظة، لديك أذناي، شحمة الأذن كبيرة سميكة، مكتنزة من الأسفل،

ممتلئة بالبركات. بعض الناس يولدون فقراء جدًّا، آذانهم رقيقة للغاية، قريبة بشدة من رؤوسهم، فلا يسمعون أبدًا نداء الحظ لهم. أما أنتِ فلديك الأذنان المناسبتان، لكن عليك الانتباه للفرص التي تناديك.

مررت إصبعها الرفيعة على أنفي.

- لديك أنفي. الفتحة ليست كبيرة جدًّا، لذا لن تنفد أموالك. الأنف مستقيم وناعم، وهذه علامة جيدة. فالفتاة ذات الأنف المعوج محكوم عليها بسوء الحظ. دائمًا ما تتبع الأشياء الخطأ، والأشخاص الخاطئين، وأسوأ الحظوظ.

ربَّتَت على ذقني، ثم ذقنها.

- ليس قصيرًا جدًّا، ولا طويلًا جدًّا. سيكون طول عمرنا مناسبًا، لن ينتهي مبكرًا، ولن يطول إلى درجة أن نصبح عبئًا.

أزاحت أمي شعري عن جبيني، وقالت:

- نحن متشابهتان، لكن ربما تكون جبهتك أعرض، لذا ستكونين أكثر ذكاءً. وشعرك كثيف، وخط الشعر منخفض على جبهتك. هذا يعني أنك ستواجهين بعض الصعوبات في بداية حياتك. هذا ما حدث لي. لكن انظري إلى خط شعري الآن. إنه مرتفع! يا لها من نعمة في شيخوختي. لاحقًا ستتعلمين القلق وستفقدين شعرك أيضًا.

أمسكت ذقني بيدها، وأدارت وجهي نحوها، وعيناي في عينيها. حركت وجهي إلى جانب، ثم إلى الآخر، وتابعت:

- العينان صادقتان، ومتحمستان، تتبعانني وتظهران الاحترام. لا تنظران إلى الأسفل بخجل، ولا تقاومان ولا تلتفتان في الاتجاه المعاكس. ستكونين زوجة وأمًّا وكنة صالحة.

عندما أخبرتني أمي بهذه الأمور، كنت لا أزال صغيرة جدًّا. وعلى الرغم من أنها قالت إننا متشابهتان، فإنني أردت أن نكون أكثر تشابهًا. إذا رفعت عينيها بدهشة، أردتُ أن تفعل عيناي الشيء نفسه. وإذا تجهم فمها حزنًا، أردت أن أشعر بالحزن أيضًا.

كنت أشبه أمي كثيرًا، لكن ذلك كان قبل أن تفرقنا الظروف: فيضان اضطر عائلتي إلى تركي خلفهم، وزواجي الأول من عائلة لم ترغب فيَّ، وحرب من كل الجهات، ولاحقًا، محيط نقلني إلى بلد جديد. لم ترَ كيف تغير وجهي على مر السنين، كيف بدأ فمي يترهل، كيف بدأت أقلق من دون أن أفقد شعري، وكيف بدأت عيناي تتبعان العادات الأمريكية. لم ترَ كيف التوى أنفي عندما ارتطم ذات مرة في أثناء ركوبي حافلة مزدحمة في سان فرانسيسكو. كنت أنا ووالدك في طريقنا إلى الكنيسة لنشكر الرب على كل النعم التي أنعم بها علينا، لكنني اضطررت إلى تقليل بعض من شكري بسبب أنفي.

من الصعب الحفاظ على هويتك الصينية في أمريكا. في البداية، حتى قبل وصولي إلى هناك، كان عليَّ إخفاء هويتي الحقيقية. دفعت مبلغًا من المال لفتاة صينية في بكين، نشأت في أمريكا، لتعلمني كيف أفعل ذلك.

قالت:

- في أمريكا، لا يمكنكِ القول إنك ترغبين في العيش هناك إلى الأبد. إذا كنت صينية، فعليك أن تعربي عن إعجابك بمدارسهم وأساليب تفكيرهم. يجب أن تقولي إنك ترغبين في أن تصبحي عالمة، وأن تعودي لتعلمي الشعب الصيني ما تعلمته هناك.

سألتها:

- وماذا أقول إنني أريد أن أتعلم؟ إذا وجهوا إليَّ أسئلة، وإذا لم أستطع الإجابة...

فقالت تلك الفتاة الذكية:

- الدين، يجب أن تقولي إنك تريدين دراسة الدين. الأمريكيون جميعهم لديهم أفكار مختلفة عن الدين، لذلك لا توجد إجابات صحيحة أو خطأ. قولي لهم إنك ذاهبة من أجل الرب، وسوف يحترمونك.

مقابل مبلغ إضافي من المال، أعطتني هذه الفتاة استمارة مملوءة بكلمات

إنجليزية. كان عليَّ أن أنسخ هذه الكلمات مرارًا وتكرارًا، كما لو كانت كلمات إنجليزية تشكَّلت في ذهني أنا. بجانب كلمة **الاسم**، كتبت ليندو سون. وبجانب كلمة **تاريخ الميلاد**، كتبت ١١ مايو ١٩١٨، وهو التاريخ الذي أصرت الفتاة على أنه يعادل ثلاثة أشهر بعد رأس السنة القمرية الصينية. وبجانب كلمة **محل الميلاد**، كتبت تاي يوان، الصين، وبجانب كلمة **المهنة**، كتبت طالبة لاهوت.

أعطيت الفتاة مبلغًا أكبر من المال مقابل قائمة عناوين في سان فرانسيسكو لأشخاص لديهم علاقات واسعة. وأخيرًا، أعطتني هذه الفتاة، مجانًا، تعليمات لتغيير ظروفي. قالت:

- أولًا، عليكِ أن تجدي زوجًا. من الأفضل أن يكون مواطنًا أمريكيًّا.

رأت الدهشة على وجهي، فأضافت بسرعة:

- صيني! بالطبع يجب أن يكون صينيًّا. كلمة «مواطن» لا تعني أنه أبيض. لكن إذا لم يكن مواطنًا، فيجب عليك القيام بالخطوة الثانية على الفور. انظري، يجب أن تنجبي طفلًا، صبيًّا أو فتاة، لا يهم في الولايات المتحدة. فلن يعتني بك أيٌّ منهما في شيخوختك، أليس كذلك؟

وضحكنا معًا.

ثم قالت:

- لكن انتبهي، ستسألك السلطات هناك إذا كان لديك أطفال الآن، أو إذا كنت تفكرين في إنجاب أطفال. يجب أن تجيبي بالنفي، وعليك أن تبدي صادقة، وأن تقولي إنك غير متزوجة، وإنك متدينة، وتعلمين أن إنجاب طفل أمر خطأ.

لا بد أنني بدوت في حيرة من أمري، لأنها أوضحت أكثر:

- اسمعي الآن، كيف يمكن لطفل لم يولد بعد أن يعرف ما لا ينبغي له فعله؟ وبمجرد ولادته، يصبح مواطنًا أمريكيًّا، ويمكنه أن يفعل ما يشاء. يمكنه أن يطلب من أمه البقاء. أليس كذلك؟

لكن هذا لم يكن سبب حيرتي. تساءلت لماذا قالت إن عليَّ أن أبدو صادقة. كيف لي أن أبدو بأي شكل آخر وأنا أقول الحقيقة؟

انظري كيف لا يزال وجهي يبدو صادقًا. لماذا لم أورثك هذا المظهر؟ لماذا تخبرين أصدقاءك دائمًا بأنني وصلت إلى الولايات المتحدة على متن قارب بطيء قادم من الصين؟ هذا غير صحيح، لم أكن فقيرة إلى هذا الحد، بل أتيت على متن طائرة. كنت قد ادخرت المال الذي أعطتني إياه عائلة زوجي الأول عندما طردوني، كما ادخرت مالًا من عملي لمدة اثنَي عشر عامًا بوصفي مشغلة هاتف. لكن صحيح أنني لم آخذ أسرع طائرة. استغرقت الرحلة ثلاثة أسابيع، وتوقفت الطائرة في كل مكان: هونغ كونغ، وفيتنام، والفلبين، وهاواي. لذا، عندما وصلت، لم أبدُ سعيدة حقًا بوجودي هنا.

لماذا تخبرين الناس دائمًا بأنني التقيت والدك في مطعم «كاثاي هاوس»، وأنني فتحت كعكة حظ فوجدت فيها ورقة تقول إنني سأتزوج غريبًا وسيمًا داكن البشرة، وعندما رفعت رأسي، كان هناك النادل، والدك؟ لماذا تلقين هذه النكتة؟ هذا ليس أمرًا صادقًا، وليس صحيحًا! لم يكن والدك نادلًا، ولم أتناول الطعام في ذلك المطعم قَطُّ. كان مطعم «كاثاي هاوس» يحمل لافتة كُتب عليها «طعام صيني»، لذا لم يكن يرتاده سوى الأمريكيين قبل هدمه. وقد تحوَّل الآن ليصبح مطعم «ماكدونالدز»، عليه لافتة كبيرة باللغة الصينية تقول ماي دونغ لو، «قمح، شرق، مبنى». كل هذا محض هراء. لماذا تنجذبين فقط إلى الهراء الصيني؟ يجب أن تفهمي ظروفي الحقيقية، كيف وصلت إلى هنا، كيف تزوجت، كيف فقدت هويتي الصينية، ولماذا أنت على ما أنت عليه.

عندما وصلت، لم يطرح عليَّ أحد أي أسئلة. تفحص المختصون أوراقي وختموها فحسب. قررت أن أذهب أولًا إلى عنوان في سان فرانسيسكو أعطتني إياه تلك الفتاة في بكين. أنزلتني الحافلة في شارع واسع تمر فيه عربات الترام. كان هذا شارع كاليفورنيا. صعدت تلًا، ثم رأيت مبنى شاهقًا، كان كنيسة سانت ماري القديمة. تحت لافتة الكنيسة، كتب أحدهم بخط اليد باللغة الصينية: «مراسم

صينية لإنقاذ الأرواح من الاضطراب الروحي الساعة ٧ صباحًا، و ٨:٣٠ صباحًا».
حفظت هذه المعلومات في حال سألتني السلطات عن المكان الذي أمارس فيه شعائري الدينية. ثم رأيت لافتة أخرى عبر الشارع، كُتبت على واجهة مبنى منخفض: «ادخر اليوم من أجل الغد، في بنك أمريكا». وقلت في نفسي: «هذا هو المكان الذي يمارس فيه الأمريكيون شعائرهم الدينية». أرأيت؟ حتى آنذاك لم أكن غبية! اليوم، لا تزال تلك الكنيسة بنفس الحجم، لكن مكان ذلك البنك المنخفض، يوجد الآن مبنى شاهق يبلغ ارتفاعه خمسين طابقًا، حيث تعملين أنتِ وزوجك المستقبلي، وتنظران إلى الجميع من أعلى.

ضحكت ابنتي عندما قلت هذا. تجيد أمها إلقاء النكات.

لذا واصلت صعود هذا التل. رأيت باغودتين، واحدة على كل جانب من الشارع، كأنهما مدخل معبد بوذي عظيم. لكن عندما دققت النظر، رأيت أن الباغودة لم تكن في الواقع سوى مبنى تعلوه أسقف متدرجة مغطاة بالقرميد، بلا جدران، ولا شيء آخر تحت قمته. فاجأني كيف حاولوا أن يجعلوا كل شيء يبدو كمدينة إمبراطورية قديمة أو مقبرة إمبراطور. لكن إذا نظرت إلى جانبَي هاتين الباغودتين المزيفتين، يمكنك رؤية أن الشوارع أصبحت ضيقة ومزدحمة ومظلمة وقذرة. قلت في نفسي: لماذا اختاروا أسوأ العناصر الصينية فقط للتصميم الداخلي؟ لماذا لم يبنوا حدائق وبركًا بدلًا من ذلك؟ نعم، ظهرت هنا وهناك ديكورات تشبه كهفًا قديمًا شهيرًا، أو مشاهد من أوبرا صينية، لكن في الداخل كان هناك دائمًا نفس الأشياء الرخيصة.

لذلك عندما وجدت العنوان الذي أعطتني إياه الفتاة في بكين، أدركت أنه لا يجب عليَّ رفع سقف توقعاتي. كان العنوان مبنى أخضر كبيرًا، صاخبًا للغاية، والأطفال يركضون صعودًا وهبوطًا على الدرج الخارجي وفي الممرات. في الشقة رقم ٤٠٢، وجدت امرأة عجوزًا أخبرتني على الفور بأنها أضاعت وقتها في انتظاري طوال الأسبوع. كتبت لي بعض العناوين على عجل وأعطتني إياها، وظلت يدها ممدودة بعد أن تناولت منها الورقة، فأعطيتها دولارًا أمريكيًّا، نظرت إليه وقالت:

- شياوجيه، يا آنسة، نحن في أمريكا الآن. حتى المتسول يمكن أن يموت جوعًا بهذا الدولار.

أعطيتها دولارًا آخر، فقالت:

- آه، أتعتقدين أن الحصول على هذه المعلومات بهذه السهولة؟

ناولتها دولارًا إضافيًا، فأطبقت يدها وفمها.

بفضل العناوين التي أعطتني إياها تلك المرأة العجوز، وجدت شقة رخيصة في شارع واشنطن. كانت مثل جميع الأماكن الأخرى، تقع فوق متجر صغير. ومن خلال هذه القائمة التي كلفتني ثلاثة دولارات، وجدت وظيفة سيئة للغاية بأجر خمسة وسبعين سنتًا في الساعة. آه، حاولت الحصول على وظيفة كبائعة، لكن كان عليَّ إتقان الإنجليزية لذلك. ثم حاولت العمل نادلةً صينية، لكنهم أرادوا مني أيضًا تدليك أجساد الرجال الأجانب، فعرفت على الفور أن ذلك لا يختلف عن عاهرات الدرجة الرابعة في الصين! لذا شطبت ذلك العنوان بالحبر الأسود. وكانت بعض الوظائف الأخرى تتطلب أن تكون لديك علاقات خاصة: كانت وظائف تشغلها عائلات من كانتون وتويشان والأقاليم الأربعة، وهي عائلات من الجنوب جاءت منذ سنوات عديدة لتكوين ثروتها، وما زالت تحافظ عليها بأيدي أحفاد أحفادها.

وهكذا، كانت أمي على حق بشأن المصاعب التي سأواجهها. بدت هذه الوظيفة في مصنع البسكويت واحدة من أسوأ الوظائف. عملت آلات سوداء ضخمة ليلًا ونهارًا، تصب خليط الكعك الصغير على صوانٍ دائرية متحركة. كنا، أنا وباقي النساء، نجلس على مقاعد عالية، ومع مرور الكعكات الصغيرة أمامنا، تعين علينا التقاطها من الصاج الساخن فور تحولها إلى اللون الذهبي. كنا نضع شريطًا من الورق في المنتصف، ثم نطوي الكعكة إلى نصفين، ونثني طرفيها إلى الخلف قبل أن تتصلب. إذا أمسكت بها مبكرًا، فستحرق أصابعك من العجين الساخن الرطب. لكن إذا تأخرت في الإمساك بها، فستتصلب الكعكة قبل أن تتمكني حتى من إكمال أول ثنية، فتضطري إلى رمي هذه الكعكات التالفة

في برميل، وهو ما كان يُحسب عليك لأن صاحب المصنع لا يمكنه بيعها إلا كنفايات.

بعد اليوم الأول، عانيت احمرار أصابعي العشر. لم تكن هذه وظيفة مناسبة لشخص غبي. كان عليك التعلم بسرعة وإلا ستتحول أصابعك إلى نقانق مقلية. لذا في اليوم التالي، لم تؤلمني سوى عينَي اللتين لم أرفعهما عن الكعكات. وفي اليوم الذي تلاه، آلمتني ذراعاي من جراء مدِّهما باستمرار استعدادًا لالتقاط الكعكات في اللحظة المناسبة. لكن بحلول نهاية أسبوعي الأول، أصبح العمل روتينيًّا، واستطعتُ الاسترخاء بما يكفي لألاحظ من يعمل بجانبي. كانت إحداهما امرأة مسنة لا تبتسم أبدًا، وتكلم نفسها باللغة الكانتونية عندما تغضب، كأنها مجنونة. على جانبي الآخر، كانت امرأة في مثل سني، احتوى برميلها على القليل جدًّا من الكعكات التالفة، لكنني اشتبهت في أنها تأكلها، حيث كانت سمينة للغاية.

نادَتني وسط ضجيج الآلات، قائلة:

- إيه، شياوجيه!

شعرت بالامتنان لسماع صوتها، ولاكتشافي أننا نتحدث الماندرين، على الرغم من أن لهجتها بدت خشنة بعض الشيء. سألتني:

- هل فكرت يومًا أنك ستتمتعين بهذا القدر من القوة، إلى درجة أنك تستطيعين تحديد مصير شخص آخر؟

لم أفهم ما تقصده، فالتقطَت إحدى قصاصات الورق وقرأتها بصوت عالٍ، أولًا بالإنجليزية:

- لا تتشاجر وتنشر غسيلك القذر على الملأ، فحتى المنتصر تتلطخ ثيابه بالوحل.

ثم ترجمتها إلى الصينية:

- لا يجب أن تتشاجري وتغسلي ملابسك في نفس الوقت، فإذا فزت، فستتسخ ملابسك.

لم أفهم ما تقصده بعد، فالتقطَت ورقة أخرى وقرأت بالإنجليزية:

- المال هو أصل كل الشرور. انظر حولك وابحث بعمق.

ثم قالت بالصينية:

- المال له تأثير سيئ، يجعلك مضطربًا، حتى تبدأ في نبش القبور.

سألتها:

- ما هذا الهراء؟

ووضعتُ قصاصات الورق في جيبي، معتقدة أنه يجب عليَّ دراسة هذه الأمثال الأمريكية الكلاسيكية.

أوضحت لي:

- إنها نبوءات حظ. يعتقد الأمريكيون أن الصينيين يكتبون هذه الأمثال.

قلت:

- لكننا لا نقول مثل هذه الأشياء أبدًا! هذه الأشياء بلا معنى، إنها ليست نبوءات حظ، بل تعليمات سيئة.

ضحكَت قائلة:

- لا يا آنسة، من سوء حظنا أننا هنا نصنع هذه الأشياء، ومن سوء حظ الآخرين أن يدفعوا ثمنها.

وهكذا التقيتُ آن-ماي شو. نعم، نعم، عمتك آن-ماي، التي أصبحت الآن رجعية للغاية. ما زلت أنا وآن-ماي نضحك على نبوءات الحظ السيئة تلك، وكيف أصبحت مفيدة جدًّا فيما بعد في مساعدتي على الظفر بزوج.

قالت لي آن-ماي ذات يوم في مكان عملنا:

- إيه، ليندو، تعالي إلى كنيستي هذا الأحد. زوجي لديه صديق يبحث عن زوجة صينية جيدة. إنه ليس مواطنًا، لكني متأكدة أنه يعرف كيف يصبح واحدًا.

هكذا سمعت لأول مرة عن تين جونغ، والدك. لم يكن الأمر مثل زواجي

الأول، حيث كان كل شيء مرتبًا سلفًا. كان لديَّ خيار: كان بإمكاني اختيار الزواج بوالدك، أو اختيار عدم الزواج به والعودة إلى الصين.

عرفتُ أن هناك خطبًا ما عندما رأيته: كان من الكانتون! كيف يمكن لآن-ماي الاعتقاد بأنني يمكنني الزواج بشخص كهذا؟ لكنها قالت:

- لم نَعُد في الصين، ولم تعودي مضطرة إلى الزواج بفتى من قريتك. هنا، أصبح الجميع من نفس القرية حتى وإن أتوا من مناطق مختلفة من الصين. انظري كم تغيرت عمتك آن-ماي عن الأيام الخوالي.

لذلك كنا خجولين في البداية، أنا ووالدك، ولم يستطع أيٌّ منا التحدث إلى الآخر بلهجته الصينية. حضرنا صفوفًا لتعلم الإنجليزية معًا، وتحدثنا باستخدام تلك الكلمات الجديدة، وأحيانًا كنا نُخرج ورقة لكتابة رمز صيني لشرح ما نعنيه. على الأقل كان لدينا ذلك، قطعة من الورق لتربطنا معًا. لكن من الصعب معرفة نيات شخص فيما يتعلق بالزواج، عندما لا يمكنك التحدث بصوت عالٍ. كل تلك الإشارات الصغيرة - المزاح، والأوامر، وكلمات التوبيخ - هي ما يُظهر ما إذا كان الأمر جادًا. لكننا لم نستطع التحدث إلا بأسلوب معلم اللغة الإنجليزية: أرى قطة، أرى فأرًا، أرى قبعة.

إلا أنني سرعان ما لاحظت مدى إعجاب والدك بي. كان يتظاهر بأنه في مسرحية صينية ليوضح لي ما يعنيه. ركض ذهابًا وإيابًا، وتقافز لأعلى ولأسفل، ومرر أصابعه في شعره، حتى فهمت - مانغ جي له!- كم كان المكان الذي يعمل فيه، شركة «باسيفيك تلفون»، مزدحمًا ومثيرًا. هل كنت تعلمين هذا عن والدك، أنه كان ممثلًا بارعًا؟ ألم تعرفي أن والدك كان لديه شعر كثيف إلى هذا الحد؟

آه، اكتشفت لاحقًا أن عمله لم يكن كما وصفه. لم يكن جيدًا إلى هذا الحد. وحتى اليوم، بعد أن أصبحت أستطيع التحدث إليه بالكانتونية، ما زلت دائمًا أسأله لماذا لا يجد وظيفة أفضل. لكنه يتصرف كأننا ما زلنا في تلك الأيام الخوالي، عندما لم يكن يفهم شيئًا مما أقول.

أتساءل أحيانًا لماذا رغبت في الارتباط بوالدك. أعتقد أن آن-ماي هي من أوحت إليَّ بهذه الفكرة. قالت لي:

- في الأفلام، يتبادل الأولاد والبنات دائمًا الرسائل السرية في الصف، وهكذا يبدأون الوقوع في المتاعب. عليكِ أن تثيري المتاعب لتجعلي هذا الرجل يدرك حقيقة نياته، وإلا ستصبحين عجوزًا قبل أن يخطر على باله شيء.

في ذلك المساء، ذهبت أنا وآن-ماي إلى العمل وفتشنا بين قصاصات أوراق كعك الحظ، بحثًا عن التعليمات المناسبة التي يمكننا إعطاؤها لوالدك. قرأتها آن-ماي بصوت عالٍ، ووضعت جانبًا العبارات التي قد تصلح، مثل: «الألماس هو أفضل صديق للفتاة. لا تقبلي أبدًا بمجرد صديق عادي»، «إن راودتك مثل هذه الأفكار، فقد حان وقت الزواج من دون انتظار»، «قال كونفوشيوس إن المرأة تساوي ألف كلمة. أخبر زوجتك بأنها استنفدت رصيدها بالكامل».

ضحكنا على تلك العبارات، لكنني عرفت العبارة المناسبة عندما قرأتها. كانت تقول: «لا يكون البيت سكنًا، إذا خلا من القرين». لم أضحك، ولففت هذه العبارة داخل الكعكة، وطويتها بكل إخلاص.

بعد انتهاء درس الإنجليزية في اليوم التالي، وضعت يدي في حقيبتي ونظرت إليها، كأن فأرًا قد عض يدي، وصحت قائلة:

- ما هذا؟

ثم أخرجت الكعكة وأعطيتها لوالدك.

- آه، يا لكثرة الكعك، مجرد رؤيته تصيبني بالغثيان! فلتأخذ أنت هذه الكعكة.

حتى في ذلك الحين، أدركت أن من طبعه كونه لا يحب إهدار أي شيء. فتح الكعكة ومضغها، ثم قرأ الورقة.

سألته:

- ماذا تقول؟

حاولت أن أبدو كأن الأمر لا يعنيني. وحين لم يُجِب، قلت له:

- ترجم لي، من فضلك.

كنا نسير في ميدان بورتسموث، وبدأ الضباب يغطي المكان، وشعرت بالبرد الشديد في معطفي الخفيف. لذا تمنيت أن يسرع والدك ويطلب مني الزواج، لكن بدلًا من ذلك، حافظ على نظرته الجادة وقال:

- لا أعرف معنى كلمة «القرين». سأبحث عنها في القاموس الليلة، ثم سأخبرك بمعناها غدًا.

في اليوم التالي سألني بالإنجليزية:

- ليندو، هل يمكن أن «تقرنيني»؟

ضحكت منه، وأخبرته بأنه أخطأ استخدام الكلمة. فعاد للرد بنكتة عن كونفوشيوس، مفادها أنه إذا كانت الكلمات خطأ، فلا بد أن تكون نياته خطأ أيضًا. ظللنا نشاكس بعضنا ونتبادل المزاح طوال اليوم بهذه الطريقة، وهكذا قررنا أن نتزوج.

بعد شهر، أقمنا مراسم الزواج في الكنيسة المعمدانية الصينية الأولى، حيث التقينا. وبعد تسعة أشهر، حصلت أنا ووالدك على ما يثبت حقنا في المواطنة: طفل رضيع، أخوك الأكبر وينستون. أسميته وينستون لأنني أحببت معنى هاتين الكلمتين بالإنجليزية «وينس تون»، أي يربح كثيرًا. أردت أن أربي ابنًا يكسب الكثير من الأشياء: الثناء، والمال، وحياة رغيدة. فكرت في قرارة نفسي آنذاك أنني حصلت أخيرًا على كل ما أردته، وشعرت بالسعادة البالغة. غمرتني السعادة، إلى درجة أنني لم أرَ كم كنا فقراء، بل رأيت ما نملكه فقط. كيف لي أن أعرف أن وينستون سيموت لاحقًا في حادث سيارة؟ كم كان صغيرًا! ستة عشر عامًا فقط!

بعد عامين من ولادة وينستون، أنجبت أخاك الآخر، فنسنت. أسميته فنسنت، لأنه يشبه في النطق «وين سنت» بالإنجليزية، أي يربح سنتًا، صوت الربح والمال، لأنني بدأت أشعر بأننا لا نملك ما يكفي. ثم اصطدم أنفي بشدة في أثناء ركوب الحافلة. وبعد ذلك بوقت قصير، وُلدتِ أنت.

لا أعلم ما الذي جعلني أتغير. ربما كان أنفي المعوج هو ما أفسد تفكيري. ربما كان رؤيتك وأنت طفلة، وكيف كنت تشبهينني كثيرًا، وهذا ما جعلني غير

راضية عن حياتي. أردتُ أن يكون كل شيء أفضل من أجلك. أردتُ لك أفضل الظروف، وأفضل شخصية. لم أرغب في أن تندمي على أي شيء، ولهذا السبب أطلقت عليك اسم «ويفرلي». كان هذا اسم الشارع الذي نسكن فيه. أردتك أن تفكري: هذا هو المكان الذي أنتمي إليه. لكنني كنت أعلم أيضًا أنني إذا أطلقت عليك اسم هذا الشارع، فسرعان ما ستكبرين وتغادرين هذا المكان، وتأخذين معك جزءًا مني.

* * *

مشط السيد روري شعري، الذي أصبح كله أسود ناعمًا.

قالت ابنتي:

- تبدين رائعة يا أمي. سيظن الجميع في حفل الزفاف أنكِ أختي.

نظرتُ إلى وجهي في مرآة صالون التجميل، ورأيت انعكاس صورتي. لم أستطع رؤية عيوبي، لكنني أعلم أنها موجودة. لقد ورثت ابنتي هذه العيوب: نفس العينين، نفس الخدين، نفس الذقن. حتى شخصيتها، جاءت نتاج ظروفي. نظرت إلى ابنتي الآن، وكانت هذه هي المرة الأولى التي ألاحظ فيها الأمر.

- آه-ياه! ماذا حدث لأنفك؟

طالعَت المرآة، ولم ترَ أي خطب، فقالت:

- ماذا تعنين؟ لم يحدث شيء، إنه نفس الأنف.

سألتها:

- لكن كيف أصبح معوجًا؟

مال أحد جانبَي أنفها إلى الأسفل، وبدا كأنه يسحب وجنتها معه.

سألتني:

- ماذا تقصدين؟ لقد أورثتني هذا الأنف.

- كيف يمكن ذلك؟ إنه معوج للأسفل، يجب أن تخضعي لعملية تجميل لتصحيحه.

لكن ابنتي لم تعِر كلامي آذانًا مصغية، بل وضعت وجهها المبتسم بجانب وجهي القلِق وقالت:

- لا تكوني سخيفة، لا يبدو أنفانا بهذا السوء، فهما يجعلانا نبدو مراوغتين.

بدا عليها الشعور بالرضا.

سألتها:

- ما معنى هذه الكلمة، «مراوغتين»؟

- هذا يعني أننا ننظر في اتجاه، بينما نتبع اتجاهًا آخر. نحن مع هذا الجانب، ومع ذاك أيضًا. نقول شيئًا، لكن نياتنا مختلفة.

- هل يرى الناس هذا في وجهينا؟

ضحكت ابنتي.

- حسنًا، ليس كل ما نفكر فيه. بل يعرفون فقط أن لنا وجهًا مزدوجًا.

- هل هذا أمر جيد؟

- إنه أمر جيد، إذا تمكنتِ من الحصول على ما تريدينه.

فكرتُ في وجهينا المزدوجين، وفكرت في نياتي. أيهما أمريكي؟ وأيهما صيني؟ وأيهما أفضل؟ إذا أظهرت أحدهما، يجب عليك دائمًا التضحية بالآخر.

يشبه الأمر ما حدث حين عدتُ إلى الصين العام الماضي، بعد أن غبت عنها قرابة الأربعين عامًا. نزعت مجوهراتي الفاخرة، ولم أرتدِ ألوانًا صارخة، وتحدثت بلغتهم، واستخدمت نقودهم المحلية. لكنهم مع ذلك، عرفوا: عرفوا أن وجهي ليس صينيًّا مائة بالمائة، وفرضوا عليَّ أسعار الأجانب المرتفعة.

لذا أفكر الآن: ماذا خسرت؟ وماذا كسبت في المقابل؟ سأسأل ابنتي عن رأيها.

جينغ-ماي وو

زوج من التذاكر

في اللحظة التي غادر فيها قطارنا حدود هونغ كونغ ودخل شينزين في الصين، شعرت باختلاف فوري. أحسست بوخز في جبهتي، ودمي يتدفق في مسار جديد، وعظامي تؤلمني بألم قديم مألوف. قلت لنفسي: كانت أمي على حق، هأنذا أتحوَّل إلى صينية.

قالت أمي عندما كنت في الخامسة عشرة من عمري، بعد أن أنكرتُ بشدة أن يكون لديَّ أي انتماء صيني:

- لا مفر من ذلك.

كنت طالبة في السنة الثانية بمدرسة جاليليو الثانوية في سان فرانسيسكو، واتفق جميع أصدقائي البيض على أنني لا أبدو صينية أكثر مما يبدون هم كذلك. لكن أمي، التي درست في مدرسة تمريض مشهورة في شنغهاي، قالت إنها تعرف كل شيء عن الوراثة. لذلك لم يكن لديها شك، سواء وافقتُ أم لا: بمجرد أن تولد صينيًّا، لا يمكنك إلا أن تشعر وتفكر كصيني.

قالت أمي:

- سترين يومًا ما. هذا الأمر في دمك، ينتظر أن يتحرر.

وعندما قالت هذا، تخيلت نفسي أتحوَّل مثل المستذئبين، وقد نشطت فجأة

طفرة كامنة في حمضي الوراثي، وأخذت تتناسخ خلسة حتى صارت متلازمة، مجموعة من السلوكيات الصينية الفاضحة، كل تلك الأمور التي كانت تفعلها أمي فتحرجني: مساومتها مع أصحاب المحال، وتنظيف أسنانها بخلة أسنان أمام العامة، وتجاهلها التام لحقيقة أن الأصفر الليموني والوردي الشاحب لا يتناسبان مع ملابس الشتاء.

لكنني أدركت اليوم أنني لم أعرف قَطُّ معنى أن تكون صينيًّا حقًّا. أنا في السادسة والثلاثين من عمري، وقد توفيت أمي، وهأنذا على متن قطار، أحمل معي أحلامها بالعودة إلى الوطن. هأنذا ذاهبة إلى الصين.

سنذهب أولًا إلى غوانجو، أنا وأبي البالغ من العمر اثنين وسبعين عامًا، كانينغ وو، حيث سنزور عمته التي لم يرَها منذ أن كان في العاشرة من عمره. ولا أعلم إن كان ذلك بسبب حماسته لرؤية عمته، أم لأنه عائد إلى الصين، لكنه بدا كأنه صبي صغير، بريء وسعيد إلى حد جعلني أرغب في أن أزرر له سترته وأربت على رأسه. جلسنا متقابلين، وبيننا طاولة صغيرة عليها كوبان من الشاي البارد. ولأول مرة في حياتي، رأيت الدموع في عينَي أبي، مع أن كل ما رآه من نافذة القطار هو حقول مقسمة بألوان الأصفر والأخضر والبني، وقناة ضيقة تحاذي السكة الحديدية، وتلال منخفضة، وثلاثة أشخاص يرتدون سترات زرقاء يركبون عربة يجرها ثور في صباح هذا اليوم من أوائل أكتوبر. لم أستطع منع نفسي، وغشيت الدموع عينَي أيضًا، كما لو أنني رأيت هذا المشهد منذ زمن بعيد جدًّا، وكدت أنساه.

في أقل من ثلاث ساعات، سنكون في غوانجو، وهو ما أخبرني دليلي السياحي بأنه الاسم الصحيح الذي يُطلق على كانتون هذه الأيام. يبدو أن جميع المدن التي سمعت عنها، باستثناء شنغهاي، قد غيرت هجاء أسمائها. وأظن أن في ذلك إشارة إلى أن الصين تغيرت بطرق أخرى أيضًا. تشونغكينغ أصبحت تشونغتشينغ، وكويلين أصبحت غويلين. لقد بحثت عن هذين الاسمين، لأننا بعد أن نزور عمة أبي في غوانجو، سنستقل طائرة إلى شنغهاي، حيث سألتقي أختَي غير الشقيقتين لأول مرة.

إنهما ابنتا أمي التوأمتان من زواجها الأول، الطفلتان الصغيرتان اللتان اضطرت إلى التخلي عنهما على الطريق في أثناء فرارها من كويلين إلى تشونغكينغ في عام ١٩٤٤. كان هذا كل ما أخبرتني به أمي عن هاتين الابنتين، لذا ظلتا في ذهني مجرد رضيعتين طوال هذه السنوات، جالستين على جانب الطريق، تستمعان إلى صوت القنابل وهي تصفر في الأفق بينما تمصان إبهاميهما الحمراوين بصبر.

ولم يعثر عليهما أحد إلا هذا العام، وكتب يبلغنا بهذه الأخبار السارة. وصلت رسالة من شنغهاي، موجهة إلى أمي. وحين سمعتُ لأول مرة بهذا، أنهما لا تزالان على قيد الحياة، تخيلت أختَي التوأمتين وقد تحولتا من رضيعتين صغيرتين إلى فتاتين في السادسة من العمر. تخيلتهما جالستين إلى الطاولة جنبًا إلى جنب، تتناوبان على استخدام قلم حبر. كتبت إحداهما صفًّا دقيقًا من الحروف: أمي العزيزة، نحن على قيد الحياة، ثم أبعدت خصلات غرتها الخفيفة عن جبهتها، وسلمت القلم إلى أختها الأخرى، فكتبت: تعالي خذينا. أرجوك أسرعي.

بالطبع، لم تكونا تعلمان أن أمي قد توفيت فجأة قبل ثلاثة أشهر فقط، عندما انفجر وعاء دموي في دماغها. في لحظة كانت تتحدث مع أبي، تشكو من المستأجرين في الطابق العلوي، وتخطط لكيفية طردهما بحجة أن أقارب من الصين قادمون للإقامة. وفي اللحظة التالية، أمسكت برأسها، وأغمضت عينيها بإحكام، وتلمست طريقها إلى الأريكة، ثم انهارت على الأرض بهدوء، ويداها ترتعشان.

لذا كان والدي أول من فتح الرسالة، التي تبين أنها رسالة طويلة. وقد خاطبتاها بلقب «أمي»، وقالتا إنهما لطالما وقَّرتاها بوصفها أمهما الحقيقية، واحتفظتا بصورة لها في إطار. كتبتا إليها عن حياتهما، منذ اللحظة التي فارقتهما فيها على طريق الهروب من كويلين حتى عُثر عليهما أخيرًا.

وقد حطمت تلك الرسالة قلب أبي كثيرًا - هاتان الابنتان اللتان تتصلان بأمي من حياة أخرى لم يعرفها قَطُّ - إلى درجة أنه أعطى الرسالة إلى صديقة أمي القديمة، عمتي ليندو، وطلب منها أن ترد على الرسالة وتخبر شقيقتَي، بألطف طريقة ممكنة، أن أمي قد توفيت.

لكن بدلًا من ذلك، أخذت عمتي ليندو الرسالة إلى نادي بهجة الحظ، وناقشت مع عمتي ينغ وعمتي آن-ماي ما يجب فعله، لأنهن كن يعرفن منذ سنوات طويلة بحث والدتي عن ابنتيها التوأمتين، وأملها الذي لا ينضب. بكت عمتي ليندو والأخريان على هذه المأساة المزدوجة، فقدان أمي قبل ثلاثة أشهر، وفقدانها الآن مرة أخرى. لذا لم يسعهن إلا التفكير في معجزة ما، أو طريقة ما لإحيائها من الموت، حتى تتمكن أمي من تحقيق حلمها.

وهذا ما كتبنه إلى شقيقتَي في شنغهاي: «ابنتاي العزيزتان، لم أنسَكما قَطُّ، لا في ذاكرتي ولا في قلبي. لم أفقد الأمل يومًا في أن يجتمع شملنا مجددًا في لقاء مبهج، يؤسفني فقط أن الوقت طال كثيرًا. أريد أن أحكي لكما عن كل ما جرى في حياتي منذ أن رأيتكما آخر مرة. أريد أن أخبركما بهذا عندما تأتي عائلتنا لرؤيتكما في الصين...»، ثم وقعن الرسالة باسم أمي.

لم يخبرنني عن شقيقتَي، والرسالة التي وصلت إليهن، والرد الذي كتبنه، إلا بعد أن انتهين من كل هذا.

غمغمت:

- سوف تعتقدان أنها قادمة إذن.

وتخيلت شقيقتَي الآن في العاشرة أو الحادية عشرة، تتقافزان فرحًا، تمسكان بأيدي بعضهما، وضفيرتاهما تتأرجحان، متحمستين لأن أمهما - أمهما هما- آتية، بينما أمي قد ماتت.

قالت عمتي ليندو:

- كيف يمكنك إخبارهما في رسالة بأنها لن تأتي؟ إنها أمهما، مثلما هي أمك أيضًا، ولا بد أن تكوني أنت من يخبرهما. لقد ظلتا تحلمان بها طوال هذه السنوات.

واعتقدت أنها محقة.

ثم بدأت أنا أيضًا أحلم بأمي وشقيقتَي وكيف ستكون الحال إذا وصلتُ إلى شنغهاي. طوال هذه السنوات، بينما كانتا تنتظران العثور عليهما، كنت أعيش مع

أمي، ثم فقدتها. تخيلت رؤية شقيقتَي في المطار، واقفتين على أطراف أصابعهما، تتلفتان بقلق، تبحثان بين الرؤوس الداكنة بينما ننزل من الطائرة. وسأتعرف عليهما على الفور، من وجهيهما اللذين تعلوهما نفس النظرة القلقة.

تخيلت نفسي أقول بلهجتي الصينية الركيكة:

- جيييه جيييه، جيييه جيييه. أختي، أختي، نحن هنا.

ستسألان:

- أين أمنا؟

ثم تتلفتان حولهما، والابتسامة لا تزال تعلو وجهيهما المتوردين المتلهفين:

- هل هي مختبئة؟

كان هذا من شيم أمي، أن تقف خلفنا قليلًا، لتمزح بعض الشيء وتختبر صبر الناس على نحو يجعل قلوبهم تزداد لهفة. سأهز رأسي وأقول لشقيقتَي إنها ليست مختبئة.

ستهمس إحدى شقيقتَي بحماسة، وهي تشير إلى امرأة أخرى ضئيلة الحجم، تختفي خلف كومة من الهدايا:

- أوه، لا بد أن هذه أمي، أليس كذلك؟

وكان ذلك أيضًا من شيم أمي، أن تحضر كميات هائلة من الهدايا والطعام والألعاب للأطفال - كلها مشتراة من التخفيضات - وترفض الشكر، قائلة إن الهدايا ليست شيئًا يذكر، ثم تقلب البطاقات لاحقًا لتُري شقيقتَي: «كالفين كلاين، ١٠٠٪ صوف».

تخيلت نفسي أبدأ بالقول:

- أختَي، أنا آسفة، لقد جئت وحدي...

وقبل أن أتمكن من إخبارهما، ستريان ذلك في وجهي، وستنتحبان، وتجذبان شعريهما، وشفاههما ملتوية من الألم بينما تهربان مبتعدتين عني. ثم تخيلت نفسي أركب الطائرة مجددًا وأعود إلى الوطن.

بعد أن راودني هذا المشهد في أحلامي مرات عديدة - وأنا أشاهد يأسهما

يتحول من رعب إلى غضب - توسلت إلى عمتي ليندو أن تكتب إليهما رسالة أخرى، لكنها رفضت في البداية.

قالت عمتي ليندو بنظرة عنيدة:

- كيف يمكنني أن أقول إنها ماتت؟ لا أستطيع كتابة هذا.

قلت:

- لكن من القسوة أن تجعليهما تظنان أنها ستأتي على متن الطائرة. حين تريان أنني بمفردي، سوف تكرهانني.

تجهمَت قائلة:

- تكرهانك؟ مستحيل. أنت أختهما، عائلتهما الوحيدة.

احتججت:

- أنت لا تفهمين.

قالت:

- ما الذي لا أفهمه؟

همست:

- ستعتقدان أنني المسؤولة، وأنها ماتت لأنني لم أقدرها.

نظرت إليَّ عمتي ليندو وفي عينيها مزيج من الرضا والحزن، كما لو كان ذلك صحيحًا، وأدركته أنا أخيرًا. جلسَت ساعة كاملة، ثم وقفَت وسلمتني رسالة من صفحتين، والدموع تملأ عينيها. أدركتُ أنها فعلت ما كنت أخشاه، لذا حتى لو كتبَت خبر وفاة أمي بالإنجليزية، لما تجرأتُ على قراءته.

همستُ:

- شكرًا لك.

مكتبة
t.me/soramnqraa

أصبح المشهد رماديًّا، مكتظًّا بمبانٍ أسمنتية منخفضة ومصانع قديمة، ثم قضبان سكك حديدية كثيرة أخرى ممتلئة بقطارات مثل قطارنا تمر في الاتجاه المعاكس. رأيت أرصفة مزدحمة بأشخاص يرتدون ملابس غريبة باهتة، تتخللها بقع من

الألوان الزاهية: أطفال صغار يرتدون ملابس وردية وصفراء وحمراء وخوخية، كما كان هناك جنود يرتدون الزي الأخضر الزيتوني والأحمر، وسيدات مسنات يرتدين قمصانًا رمادية وسراويل تصل إلى منتصف الساق. وصلنا إلى غوانجو.

قبل أن يتوقف القطار تمامًا، بدأ الناس في إنزال أمتعتهم من الرفوف فوق مقاعدهم. للحظة، انهمر وابل خطير من الحقائب الثقيلة المحملة بالهدايا للأقارب، وصناديق نصف مكسورة ملفوفة بخيوط طويلة كي لا تتناثر محتوياتها، وأكياس بلاستيكية ممتلئة بالخيوط والخضراوات وعبوات الفطر المجفف، وحقائب الكاميرات. ثم علقنا وسط تيار جارف من الناس الذين يتزاحمون ويدفعوننا، حتى وجدنا أنفسنا في واحد من عشرات الطوابير، ننتظر المرور عبر الجمارك. شعرت كأنني أستقل الحافلة رقم ٣٠ في شارع ستوكتون في سان فرانسيسكو. ذكرت نفسي أنني في الصين. وبطريقة ما، لم يزعجني الزحام. شعرت بأن هذا أمر طبيعي، وبدأت أنا أيضًا في الدفع والمزاحمة.

أخرجت نماذج الإقرار وجواز سفري. كُتب في الأعلى «وو»، وتحتها «جون ماي»، المولودة في «كاليفورنيا، الولايات المتحدة الأمريكية»، عام ١٩٥١. تساءلت عما إذا كان موظفو الجمارك سيتشككون في كوني نفس الشخص الذي يظهر في صورة جواز السفر. في تلك الصورة، كان شعري بطول الذقن، مصففًا بعناية إلى الخلف، وكنت أضع رموشًا صناعية، وظل جفون، ومحدد شفاه، كما بدت وجنتاي بارزتين بفعل أحمر الخدود البرونزي. لكنني لم أتوقع هذا الحر في أكتوبر، والآن بدا شعري متدليًا من شدة الرطوبة. ولم أضع أي مكياج، حيث ذابت الماسكارا في هونغ كونغ، وتحوَّلت إلى هالات سوداء، وبدا كل شيء آخر كطبقات دهنية. لذا، كان وجهي اليوم عاريًا تمامًا، خاليًا من أي زينة باستثناء طبقة خفيفة من العرق اللامع على جبيني وأنفي.

حتى من دون مكياج، لا يمكنني أبدًا أن أبدو صينيةً حقيقية، حيث يبلغ طولي خمس أقدام وست بوصات، ورأسي يعلو الجموع، ولم أجد في مستوى نظري سوى السياح الآخرين فقط. أخبرتني أمي ذات مرة بأنني ورثت طولي عن

جدي، الذي كان من الشمال، وربما كان يحمل في عروقه بعض الدم المنغولي.
أوضحت أمي قائلة:

- هذا ما أخبرتني به جدتك ذات مرة، لكن فات الأوان الآن لسؤالها. لقد ماتوا جميعًا، أجدادك وأعمامك وزوجاتهم وأطفالهم، قُتلوا جميعًا في الحرب، عندما سقطت قنبلة على منزلنا. أجيال عديدة انمحت في لحظة واحدة.

قالت ذلك بنبرة واقعية إلى درجة جعلتني أظن أنها قد تجاوزت حزنها منذ زمن بعيد. ثم تساءلتُ كيف عرفَت أن الجميع قد ماتوا.
اقترحتُ:

- ربما غادروا المنزل قبل سقوط القنبلة.

قالت أمي:

- لا، لقد رحلت عائلتنا بأكملها. لم يبقَ سوى أنا وأنت.

- لكن كيف عرفتِ؟ ربما نجا بعضهم.

قالت أمي، بنبرة تكاد تكون غاضبة هذه المرة:

- هذا مستحيل.

ثم تلاشى عبوسها لتحل محله نظرة حائرة خاوية، وبدأت تتحدث كما لو كانت تحاول تذكر مكان شيء أضاعته.

- عدت إلى ذلك المنزل، وظللت أحدق إلى الأعلى حيث كان المنزل، لكنه لم يكن هناك، بل وجدت السماء فقط. وتحت قدمي، كانت هناك أربعة طوابق من الطوب المحترق والخشب، كل الحياة التي كانت في منزلنا. ثم لاحظت أشياء متناثرة جانبًا في الفناء، لا شيء ذا قيمة، مجرد سرير كان ينام فيه أحدهم، لكنه صار في الحقيقة هيكلًا معدنيًّا فحسب، ملتويًا عند أحد أركانه. كما وجدت كتابًا، لا أعرف نوعه، لأن كل صفحاته قد اسودت، ورأيت فنجان شاي لم ينكسر، لكنه امتلأ بالرماد. ثم وجدت دميتي، يداها وساقاها مكسورة، وشعرها قد احترق... حينما كنت طفلة صغيرة، بكيت من أجل تلك الدمية، عندما رأيتها وحيدة في نافذة المتجر، واشترتها لي

أمي. كانت دمية أمريكية ذات شعر أشقر، يمكنها تحريك ذراعيها وساقيها، وكانت عيناها تتحركان لأعلى ولأسفل. وعندما تزوجتُ وغادرتُ بيت العائلة، أعطيت الدمية لأصغر بنات أختي، لأنها كانت تشبهني. اعتادت البكاء إذا لم تكن الدمية معها دائمًا. أتفهمين الآن؟ إذا كانت في المنزل مع تلك الدمية، فهذا يعني أن والديها كانا هناك، ومن ثَمَّ كان الجميع هناك، ينتظرون معًا، لأن هذه هي طبيعة عائلتنا.

حدقت المرأة في كشك الجمارك إلى وثائقي، ثم ألقت عليَّ نظرة خاطفة، وبحركتين سريعتين ختمت كل شيء وأشارت لي بصرامة للمضي قُدمًا. وسرعان ما وجدت نفسي أنا وأبي في منطقة واسعة مكتظة بالآلاف من الناس والحقائب. شعرت بالضياع، وبدا أبي عاجزًا.

قلت لرجل بدا كأنه أمريكي:

- عفوًا، هل يمكنك أن تخبرني أين يمكنني أن أطلب سيارة أجرة؟

غمغم بشيء بدا أنه باللغة السويدية أو الهولندية.

سمعت صوتًا حادًّا ينادي من خلفي:

- شياو ين! شياو ين!

كانت امرأة مسنة ترتدي قبعة صفراء محبوكة، تحمل كيسًا بلاستيكيًّا ورديًّا ممتلئًا بحلي مغلفة. ظننتها تحاول بيع شيء لنا، لكن أبي حدق إلى هذه المرأة الضئيلة، كأنها عصفور دوري، وتفرس في عينيها، ثم اتسعت عيناه، وأشرقت ملامحه، وابتسم كطفل سعيد.

قال بصوت خافت:

- آبي! آبي! عمتي، عمتي!

همست عمتي الكبرى:

- شياو ين!

ظننت أن من الطريف أنها نادت أبي بـ«الإوزة البرية الصغيرة». لا بد أن هذا

هو اسمه عندما كان رضيعًا، وهو الاسم الذي كان يستخدم لردع الأرواح الشريرة عن سرقة الأطفال.

أمسكا بأيدي بعضهما - لم يتعانقا - وظلا على هذا الوضع، يتناوبان على قول:

- انظر إلى نفسك! لقد كبرت كثيرًا! انظر كيف شخت!

أخذا يبكيان بصوت عالٍ، ويضحكان في آنٍ واحد، بينما عضضت شفتي محاولة ألا أبكي. خشيت الشعور بفرحتهما، لأنني فكرت كم سيبدو وصولنا إلى شنغهاي غدًا مختلفًا، وكم سيكون الأمر محرجًا.

ابتسمت آيي، وأشارت إلى صورة بولارويد لأبي. تصرف أبي بحكمة حين أرسل صورًا مع الرسالة التي أبلغهم فيها بقدومنا. بدت كأنها تقول بفخر: «انظروا كم كنت ذكية»، وهي تقارن بين الصورة وأبي. في الرسالة، كتب أبي أننا سنتصل بها من الفندق فور وصولنا، لذا كانت هذه مفاجأة، أنهم جاءوا لاستقبالنا. تساءلتُ ما إذا كانت شقيقتاي ستأتيان إلى المطار أيضًا.

حينها فقط تذكرتُ الكاميرا. كنت أنوي التقاط صورة لأبي وعمته لحظة لقائهما. لم يفُت الأوان بعد.

قلت وأنا أرفع كاميرا البولارويد:

- تعاليا قفا معًا هنا.

أومضت الكاميرا، وناولتهما الصورة. وقف أبي وآيي بالقرب من بعضهما، وأمسك كلٌّ منهما بطرف من الصورة، يشاهدان صورتهما وهي تبدأ في الظهور، وحل عليهما الصمت على نحو يشبه الخشوع. كانت آيي أكبر من أبي بخمس سنوات فقط، ما يجعل عمرها يقارب السابعة والسبعين، لكنها بدت عجوزًا، منكمشة، كبقايا مومياء، شعرها الخفيف أبيض ناصع، وأسنانها بنية من التسوس. فكرت في قرارة نفسي: هذه هي حقيقة تلك الحكايات إذن، عن كون النساء الصينيات يبدون شابات إلى الأبد.

بدأت آيي تهمس إليَّ:

- جانغ دا له. كم كبرتِ!

نظرَت إليَّ، بقامتي الطويلة، ثم نظرت داخل كيسها البلاستيكي الوردي - وقد أدركتُ أنه ممتلئ بهدايا لنا - كأنها تتساءل عما يمكنها أن تعطيني إياه الآن، بعد أن تقدمت في العمر وكبرت. ثم أمسكت مرفقي بقبضتها الحادة الشبيهة بالكماشة وأدارتني. كان رجل وامرأة في الخمسين من العمر يصافحان أبي، والجميع يبتسمون ويقولون: «آه! آه!». كانا أكبر أبناء آيي وزوجته، وإلى جوارهما أربعة أشخاص في مثل سني تقريبًا، وطفلة صغيرة عمرها نحو عشر سنوات. تم التعارف بسرعة كبيرة، وكل ما فهمته هو أن أحدهم حفيد آيي مع زوجته، والأخرى حفيدتها مع زوجها. أما الطفلة الصغيرة فهي لي لي، حفيدة ابن آيي.

كان أبي وآيي يتحدثان بلهجة الماندرين التي نشآ عليها، أما بقية العائلة فكانت تتحدث الكانتونية فقط، لهجة قريتهم. كنت أفهم لهجة الماندرين، لكن لا أتحدثها بطلاقة. لذا أخذ أبي وآيي يثرثران من دون قيود بالماندرين، يتبادلان أخبار أهل قريتهما القديمة، ولا يتوقفان إلا من حين إلى حين للتحدث معنا، أحيانًا بالكانتونية، وأحيانًا بالإنجليزية.

قال أبي وهو يلتفت إليَّ:

- أوه، كما توقعت، لقد مات الصيف الماضي.

كنت قد فهمت ما قاله بالفعل، لكنني لم أعرف من هذا الشخص، لي غونغ. شعرت كأنني في الأمم المتحدة وقد انفلت الزمام من المترجمين.

قلت للفتاة الصغيرة:

- مرحبًا، اسمي جينغ-ماي.

لكنها تململت وأشاحت بعيدًا، مما دفع والديها للضحك بحرج. حاولتُ التفكير في كلمات باللغة الكانتونية يمكنني أن أقولها لها، أشياء تعلمتها من أصدقائي في الحي الصيني، لكن كل ما خطر على بالي هو كلمات بذيئة، ومصطلحات تتعلق بوظائف الجسم، وعبارات قصيرة مثل «طعمه جيد»، و«طعمه كريه»، و«إنها قبيحة حقًّا». ثم خطرت لي فكرة أخرى: رفعتُ كاميرا البولارويد، وأشرت إلى لي لي بإصبعي، فقفزت نحوي فورًا، ووضعت يدها على خاصرتها

كعارضة أزياء، ودفعت صدرها إلى الأمام، وابتسمت لي ابتسامة عريضة تكشف أسنانها. ما إن التقطتُ الصورة حتى وقفَت بجانبي، تقفز وتضحك كل بضع ثوانٍ بينما تراقب صورتها تظهر تدريجيًّا على الفيلم المائل إلى الخضرة.

وبحلول الوقت الذي أوقفنا فيه سيارات الأجرة للذهاب إلى الفندق، كانت لي لي تمسك بيدي بقوة، تسحبني معها بحماسة.

في سيارة الأجرة، تحدثت آيي بلا انقطاع، فلم تُتَح لي فرصة لسؤالها عن المعالم المختلفة التي مررنا بها.

قالت آيي لأبي بنبرة منزعجة:

- كتبت إلينا تقول إنك ستأتي ليوم واحد فقط! يوم واحد! كيف يمكن أن ترى عائلتك في يوم واحد! تبعد تايشان ساعات طويلة بالسيارة عن غوانجو! أما فكرة الاتصال بنا عند الوصول فهي غير منطقية، فليس لدينا هاتف.

تسارعت نبضات قلبي قليلًا، وتساءلت عما إذا كانت عمتي ليندو قد أخبرت شقيقتَي بأننا سنتصل من الفندق في شنغهاي.

واصلت آيي توبيخ أبي:

- كنتُ في غاية الاضطراب، اسأل ابني، قلبت الدنيا رأسًا على عقب محاولة التفكير في حل! وأخيرًا قررنا أنه من الأفضل أن نأخذ الحافلة من تايشان إلى غوانجو، لنقابلكما من البداية مباشرة.

حبست أنفاسي بينما يتنقل سائق السيارة الأجرة بين الشاحنات والحافلات، ويطلق بوقه باستمرار. بدا أننا نسير على طريق سريع مرتفع، كأنه جسر يعلو المدينة. رأيت صفًّا تلو الآخر من الشقق، وكل طابق ممتلئ بالغسيل المعلق على الشرفة ليجف. ومررنا بجانب حافلة عمومية مكتظة بالبشر حتى إن وجوههم كادت تلتصق بالنوافذ. ثم رأيت أفق ما بدا أنه وسط مدينة غوانجو. من بعيد، بدت كمدينة أمريكية كبرى، بناطحات السحاب وأعمال البناء جارية في كل مكان. ومع تباطؤ السيارة في الجزء الأكثر ازدحامًا من المدينة، رأيت عشرات المحال الصغيرة، مظلمة من الداخل، تصطف فيها الطاولات والرفوف. ثم ظهر مبنى، تغطي واجهته سقالات

من أعمدة الخيزران المثبتة ببعضها بشرائط بلاستيكية. وقف رجال ونساء على منصات ضيقة، يكشطون الجدران، ويعملون من دون أحزمة أمان أو خوذات. وفكرت: لو رأت إدارة السلامة والصحة المهنية هذا، لجن جنونها.

ارتفع صوت آبي الحاد مرة أخرى:

- من المؤسف أنك لن ترى قريتنا ومنزلنا. لقد حقق أبنائي نجاحًا كبيرًا، في بيع خضراواتنا في السوق الحرة. وقد كسبنا ما يكفي في السنوات الأخيرة لبناء بيت كبير، من ثلاثة طوابق، مشيد بالكامل من الطوب الجديد، يكفي عائلتنا بأكملها، بل أكثر. وكل عام، تزداد الأرباح. أنتم الأمريكيين لستم وحدكم من يعرف طريق الثراء!

توقفت سيارة الأجرة وافترضت أننا وصلنا، ثم نظرت إلى ما بدا كأنه نسخة أكثر فخامة من فندق «حياة ريجنسي»، وتساءلت بصوت عالٍ:

- هل هذه هي الصين الشيوعية؟

ثم أومأت برأسي تجاه أبي وقلت:

- لا بد أنه الفندق الخطأ.

أخرجتُ بسرعة برنامج رحلتنا وتذاكر السفر والحجوزات الخاصة بنا. طلبت صراحة من وكيل السفر اختيار فندق غير مكلف، في حدود ثلاثين إلى أربعين دولارًا. كنت متأكدة من ذلك. وها هو ذا مكتوب على خط سير رحلتنا: «فندق جاردن، هوانشي دونغ لو». حسنًا، على وكيل السفر أن يكون مستعدًّا لتحمُّل التكاليف الإضافية، هذا كل ما في الأمر.

بدا الفندق فخمًا للغاية، واندفع عامل بزي رسمي وقبعة مشدودة، وبدأ في حمل حقائبنا إلى داخل البهو. من الداخل، بدا الفندق كمهرجان من مجمعات التسوق والمطاعم، كلها محاطة بالرخام والزجاج. وبدلًا من الشعور بالإعجاب، أقلقني حجم الإنفاق، كما أقلقني الانطباع الذي قد تخرج به آبي، بأننا نحن الأمريكيين الأثرياء لا نستطيع الاستغناء عن رفاهيتنا ولو لليلة واحدة.

لكن عندما تقدمت إلى مكتب الاستقبال مستعدة للنقاش حول هذا الخطأ في

الحجز، تأكد الأمر. كانت تكلفة غرفتينا مدفوعة سابقًا، أربعة وثلاثون دولارًا للغرفة. شعرت بالحرج، بينما بدا أن آبي والبقية مسرورون بمكان وجودنا المؤقت. أما لي لي فنظرت بذهول إلى صالة ممتلئة بألعاب الفيديو.

تزاحمت عائلتنا بأكملها في مصعد واحد، ولوح لنا حامل الحقائب قائلًا إنه سيقابلنا في الطابق الثامن عشر. بمجرد أن انغلق باب المصعد، صمت الجميع تمامًا، وعندما انفتح الباب أخيرًا، انطلق الجميع بالكلام دفعة واحدة، كأنهم تنفسوا الصعداء. راودني شعور بأن آبي والآخرين لم يسبق لهم أن استقلوا مصعدًا في رحلة طويلة كهذه من قبل.

كانت غرفتانا متجاورتين ومتطابقتين تمامًا: السجاد والستائر وأغطية الأسِرَّة كلها بدرجات اللون الرمادي الداكن. وكان هناك تلفزيون ملون مزود بجهاز تحكم عن بُعد مدمج في منضدة المصباح بين السريرين المفردين، واكتست جدران وأرضية الحمام بالرخام. كما وجدت ركن مشروبات مدمجًا مزودًا بثلاجة صغيرة ممتلئة ببيرة «هاينيكن»، و«كوكاكولا كلاسيك»، و«سفن أب»، وزجاجات صغيرة من ويسكي «جوني ووكر» الأحمر، وروم «باكاردي»، وفودكا «سميرنوف»، بالإضافة إلى أكياس من حلوى «إم آند إمز»، وكاجو محمص بالعسل، وألواح شوكولاتة «كادبوري». كررت مجددًا، متسائلة بصوت عالٍ:

- أهذه هي الصين الشيوعية؟

أتى أبي إلى غرفتي، وقال وهو يهز كتفيه:

- لقد قرروا أن نبقى هنا ونتبادل الزيارة. قالوا إن هذا يقلل المتاعب، ويمنحنا وقتًا أطول للحديث.

سألته:

- وماذا عن العشاء؟

ظللت أتخيل منذ أيام أول وليمة صينية حقيقية لي، مائدة فخمة تتضمن حساءً يتصاعد منه البخار يُقدم في شمام شتوي منحوت، ودجاجًا ملفوفًا في الطين، وبط بكين، وكل ما لذ وطاب.

اقترب أبي والتقط كتيب خدمة الغرف الموضوع بجانب مجلة «ترافل آند ليجر». قلب الصفحات بسرعة ثم أشار إلى قائمة الطعام، وقال:

- هذا ما يريدونه.

وهكذا حُسم الأمر. سنتناول العشاء الليلة في غرفتنا، مع العائلة، ونتشارك الهامبرجر، والبطاطس المقلية، وفطيرة التفاح مع الآيس كريم.

تجولت آبي وعائلتها في المتاجر بينما انشغلنا بالتنظيف. بعد رحلة القطار الحارة، تشوقت للاستحمام وارتداء ملابس أكثر برودة.

وفر الفندق عبوات صغيرة من الشامبو التي اكتشفت عند فتحها أنها بقوام ولون يشبه صلصة الهويسين. فكرت: هذا هو ما كنت أتوقعه، هذه هي الصين. ثم دلكت بعضًا منه في شعري المبلل.

بينما وقفت في الحمام، أدركت أن هذه هي المرة الأولى التي أكون فيها بمفردي منذ أيام على ما يبدو. لكن بدلًا من الشعور بالارتياح، شعرت بالأسى. فكرت فيما قالته أمي، عن تفعيل جيناتي وأنني سأصبح صينية، وتساءلت عما كانت تعنيه بذلك.

بعد وفاة أمي مباشرة، سألت نفسي أسئلة كثيرة، أسئلة لم أجد لها إجابة، لأُجبر نفسي على الحزن أكثر. بدا الأمر كأنني أرغب في إبقاء الحزن حيًّا، لأؤكد لنفسي أنني اهتممت بها بما فيه الكفاية.

لكنني أطرح الأسئلة الآن في الغالب لأنني أريد معرفة الإجابات. ما طبق لحم الخنزير الذي كانت تعده والذي بدا قوامه مثل نشارة الخشب؟ ما أسماء أعمامها الذين ماتوا في شنغهاي؟ ما الذي كانت تحلم به طوال هذه السنوات بشأن ابنتيها الأخريين؟ في كل مرة كانت تغضب مني، هل كانت في الواقع تفكر فيهما؟ هل تمنت لو كنت أنا مكانهما؟ هل ندمت لأني لست كذلك؟

* * *

في الساعة الواحدة صباحًا، استيقظت على أصوات نقر على النافذة. لا بد أنني

غفوت، وشعرت الآن بجسدي يسترخي. جلست على الأرض مستندة إلى أحد السريرين المفردين، واستلقت لي لي بجانبي. كان الآخرون نائمين أيضًا، ممددين على الأسِرَّة والأرض. جلست آيي إلى طاولة صغيرة وبدت عليها علامات النعاس الشديد، بينما وقف أبي يحدق من النافذة وينقر بأصابعه على الزجاج. في آخر ما استمعت إليه من حديثهما، كان أبي يحكي لآيي عن حياته منذ آخر مرة رآها فيها: كيف التحق بجامعة ينغتشينغ، ثم عمل لاحقًا في صحيفة في تشونغتشينغ، وهناك التقى أمي، التي كانت أرملة شابة، وكيف أنهما هربا معًا فيما بعد إلى شنغهاي في محاولة للعثور على منزل عائلة أمي، لكنهما لم يجدا شيئًا. وبعدها توجها إلى كانتون، ثم هونغ كونغ، ثم هايفونغ، وأخيرًا إلى سان فرانسيسكو...

قال الآن بصوت خافت:

- لم تخبرني سويوان بأنها ظلت تحاول العثور على ابنتيها طوال هذه السنوات. بطبيعة الحال، لم أناقش معها أمر ابنتيها. ظننت أنها شعرت بالخزي لأنها تركتهما خلفها.

سألته آيي:

- أين تركتهما؟ وكيف عُثر عليهما؟

صرت متيقظة تمامًا الآن، على الرغم من أنني سمعت أجزاء من هذه القصة من صديقات أمي.

قال أبي:

- حدث ذلك عندما استولى اليابانيون على كويلين.

قالت آيي:

- اليابانيون في كويلين؟ هذا لم يحدث قَطُّ، مستحيل. لم يصل اليابانيون قَطُّ إلى كويلين.

- نعم، هذا ما ذكرته الصحف. أعرف ذلك لأنني كنت أعمل في مكتب الأخبار آنذاك. وكثيرًا ما كان الكومينتانغ يخبروننا بما يمكننا قوله وما لا

يمكننا قوله، لكننا كنا نعلم أن اليابانيين دخلوا مقاطعة كوانغسي. كانت لدينا مصادر أخبرتنا كيف استولوا على سكة حديد ووتشانغ-كانتون، وكيف كانوا يتقدمون برًّا بسرعة مذهلة، زاحفين نحو عاصمة المقاطعة.

بدت آبي مندهشة.

- إذا لم يكن الناس يعرفون ذلك، فكيف عرفت سويوان أن اليابانيين قادمون؟

أوضح أبي:

- حذرها ضابط من الكومينتانغ سرًّا. كان زوج سويوان ضابطًا أيضًا، وعلم الجميع أن الضباط وعائلاتهم سيكونون أول من يُقتل لذا جمعت بعض الأغراض، وفي منتصف الليل، حملت ابنتيها وهربت سيرًا على الأقدام. لم تكن الرضيعتان قد بلغتا عامًا واحدًا حتى.

تنهدت آبي، وقالت:

- كيف أمكنها التخلي عن هاتين الرضيعتين؟ توأمتان! لم نعرف مثل هذا الحظ في عائلتنا من قبل.

ثم تثاءبَت مرة أخرى.

سألَته:

- ماذا كان اسماهما؟

أصغيتُ باهتمام، حيث كنت أنوي استخدام كلمة «أختي» المألوفة فقط لمخاطبتهما، لكنني أردت الآن معرفة كيفية نطق اسميهما.

قال أبي:

- إنهما تحملان لقب عائلة والدهما، وانغ، واسماهما تشون يو وتشون هوا.

سألتُ أبي:

- ماذا يعني الاسمان؟

رسم أبي حروفًا وهمية على زجاج النافذة، وقال:

- آه، أحدهما يعني مطر الربيع، والآخر يعني زهرة الربيع.

ثم أوضح بالإنجليزية:

- لقد وُلدَتا في الربيع، وبالطبع يأتي المطر قبل الزهور، نفس ترتيب ولادة هاتين الفتاتين. كأن أمك كانت شاعرة، أليس كذلك؟

أومأت برأسي، ورأيت آبي تومئ أيضًا، لكن رأسها سقط إلى الأمام وبقي هناك، وأخذت تتنفس بصوت عميق وعالٍ بعد أن ذهبت في النوم.

همستُ:

- وماذا يعني اسم أمي؟

قال وهو يكتب المزيد من الحروف غير المرئية على الزجاج:

- «سويوان»، كانت الطريقة التي تكتب بها اسمها بالصينية تعني «أمنية عزيزة طال أمدها». اسم فخم للغاية، ليس عاديًا كاسم زهرة. انظري إلى هذا الحرف الأول، إنه يعني شيئًا من قبيل «لا تُنسى أبدًا». لكن هناك طريقة أخرى لكتابة «سويوان»، يبدو النطق هو نفسه تمامًا، لكن المعنى معاكس كليًا.

رسم حرفًا آخر بإصبعه.

- يبدو الجزء الأول هو نفسه: «لا تُنسى أبدًا»، لكن إضافة الجزء الأخير إلى الجزء الأول يجعل الكلمة كلها تعني «ضغينة طال أمدها». عندما كانت أمك تغضب مني، كنت أقول لها إن اسمها يجب أن يكون «ضغينة».

نظر إليَّ أبي وعيناه تلمعان بالدموع.

- أترين؟ أنا أيضًا ذكي جدًا، أليس كذلك؟

أومأت برأسي، وتمنيت العثور على طريقة لمواساته، وسألته:

- وماذا عن اسمي، ماذا يعني «جينغ-ماي»؟

قال:

- اسمك مميز أيضًا. أتساءل إن كان هناك في الصينية أي اسم غير مميز. جينغ تعني «ممتاز»، ليس شيئًا جيدًا فحسب، بل هو شيء نقي، وجوهري، أعلى جودة. جينغ هو ما يتبقى بعد إزالة الشوائب من الشيء، مثل الذهب، أو الأرز، أو الملح، فما يتبقى إذن هو الجوهر النقي. أما

ماي فهي من كلمة ماي الشائعة، كما في كلمة ماي ماي، أي الأخت الصغرى.

فكرت في هذا الأمر، أمنية أمي التي لطالما تمنتها. أنا، الأخت الصغرى التي كان من المفترض أن تكون جوهر الابنتين الأخريين. أشبعت نفسي بالحزن القديم، وتساءلت عن مدى خيبة أمل أمي. تحرك جسد آبي الضئيل فجأة، وتمايل رأسها ثم سقط إلى الخلف، وانفتح فمها كأنها تستعد للإجابة عن سؤالي. أصدرَت شخيرًا خلال نومها، وعدلَت جسدها فوق المقعد.

- لماذا تخلت عن هاتين الرضيعتين على الطريق إذن؟

أردت أن أعرف، لأنني بت أشعر الآن بأنني أنا أيضًا تعرضت للهجر.

قال أبي:

- لطالما تساءلت عن ذلك بنفسي. لكن عندما قرأت تلك الرسالة من ابنتيها في شنغهاي، وتحدثت مع عمتك ليندو والآخرين، عرفتُ. لا لوم عليها فيما فعلته، لا لوم على الإطلاق.

- ماذا حدث؟

هم أبي بالحديث:

- كانت أمك تهرب...

لكنني قاطعته:

- لا، حدثني بالصينية، حقًّا، أستطيع أن أفهم.

بدأ بالكلام، وهو لا يزال واقفًا عند النافذة، ينظر إلى الليل.

مكتبة
t.me/soramnqraa

*

بعد الفرار من كويلين، سارت والدتك أيامًا عدة، تحاول العثور على طريق رئيسي. فكرت في أن تستقل شاحنة أو عربة، وأن تركب بضع مرات متتالية حتى تصل إلى تشونغتشينغ، حيث كان زوجها متمركزًا.

كانت قد خاطت المال والمجوهرات في بطانة فستانها، ما يكفي، كما ظنت،

للمقايضة به مقابل وسائل النقل طوال الطريق. وفكرَت: لو حالفني الحظ، فلن أضطر إلى التخلي عن السوار الذهبي الثقيل والخاتم المصنوع من اليشم. كانت هذه أشياء من والدتها، جدتك.

بحلول اليوم الثالث، لم تكن قد قايضت شيئًا. اكتظت الطرق بالناس، والجميع يركضون ويتوسلون من الشاحنات المارة أن تقلهم. لكن الشاحنات مرت مسرعة، خائفة من التوقف. فلم تجد والدتك وسيلة نقل، بل بدأت تشعر بآلام الدوسنتاريا في معدتها.

آلمتها كتفاها من تأرجح الرضيعتين من حمالتيهما المصنوعتين من الأوشحة المربوطة، وامتلأت راحتا يديها بالبثور من الإمساك بحقيبتين جلديتين، ثم انفجرت تلك البثور وبدأت تنزف. بعد فترة، تركت الحقيبتين خلفها، محتفظة فقط بالطعام وبعض الملابس. ولاحقًا تخلت حتى عن أكياس دقيق القمح والأرز، وواصلت السير على هذا النحو لعدة أميال، وهي تغني أغاني لابنتيها الصغيرتين، حتى أصابها الهذيان من الألم والحُمَّى.

وأخيرًا، لم تتبقَّ في جسدها طاقة لخطوة واحدة أخرى. لم تَعُد تملك القوة لحمل هاتين الرضيعتين أكثر من ذلك، فانهارت على الأرض. أدركت أنها ستموت من المرض، أو ربما من العطش، أو الجوع، أو من اليابانيين الذين كانت واثقة بأنهم يسيرون خلفها مباشرة.

أخرجت الرضيعتين من الحمالتين، ووضعتهما على جانب الطريق، ثم استلقت إلى جوارهما. وقالت: «يا لكما من رضيعتين طيبتين جدًّا، وهادئتين للغاية»، فابتسمتا لها، ومدتا أيديهما الممتلئة نحوها، راغبتين في أن تحملهما من جديد. وعندها، أدركت أنها لا تستطيع تحمُّل رؤية رضيعتيها تموتان معها.

رأت عائلة مع ثلاثة أطفال صغار في عربة تمر من أمامها، فصرخت بهم: «خذوا رضيعتَي، أتوسل إليكم»، لكنهم حدقوا إليها بنظرات خاوية ولم يتوقفوا.

ثم رأت شخصًا آخر يمر، فنادت مجددًا. استدار الرجل هذه المرة، وبدا تعبير وجهه رهيبًا - قالت والدتك إنه بدا كأنه الموت نفسه - فارتجفت وأشاحت بنظرها.

عندما هدأ الطريق، مزقت بطانة فستانها، وخبأت المجوهرات تحت قميص إحدى الرضيعتين، والمال تحت قميص الأخرى. أخرجت من جيبها صور عائلتها: صورة والدها ووالدتها، وصورة لها مع زوجها يوم زفافهما، وكتبت على ظهر كلٍّ منها اسم الرضيعتين وهذه الرسالة ذاتها: «أرجو الاعتناء بهاتين الرضيعتين باستخدام المال والمجوهرات المرفقة. عندما يصبح الوضع آمنًا، إذا أوصلتموهما إلى شنغهاي، رقم ٩ شارع ويتشانغ لو، فستسعد عائلة لي بمنحكم مكافأة سخية. لي سويوان ووانغ فوتشي».

ثم لمست خد كل رضيعة وطلبت منها ألا تبكي. قالت إنها ذاهبة للبحث عن طعام لهما، وستعود. ومن دون أن تلتفت وراءها، مشت في الطريق، تتعثر وتبكي، ولا تفكر إلا في هذا الأمل الأخير: أن يجد شخص طيب القلب رضيعتيها ويعتني بهما. لم تسمح لنفسها بتخيُّل أي احتمال آخر.

لم تتذكر كم من المسافة قطعت، ولا في أي اتجاه سارت، ولا متى أغمي عليها، ولا كيف عُثر عليها. وعندما أفاقت، وجدت نفسها في مؤخرة شاحنة تهتز على الطرقات، ومعها عدد من المرضى الآخرين، جميعهم يئنون. بدأت تصرخ، ظنًّا منها أنها في طريقها إلى جحيم بوذي. لكن وجه امرأة مبشرة أمريكية انحنى فوقها وابتسم، وتحدثت إليها بلغة هادئة لم تفهمها. ومع ذلك، استطاعت أن تفهم بطريقة ما. لقد أُنقذت بلا سبب وجيه، والآن فات الأوان للعودة لإنقاذ رضيعتيها.

عندما وصلت إلى تشونغتشينغ، علمت أن زوجها قد توفي قبل أسبوعين. أخبرتني لاحقًا بأنها ضحكت عندما أخبرها الضباط بهذا الخبر، فقد كانت في حالة من الهذيان والجنون والمرض. أتت كل هذه المسافة، وخسرت الكثير، ولم تجد شيئًا في النهاية.

التقيتُها في المستشفى. كانت مستلقية على سرير متنقل، بالكاد قادرة على الحركة، فقد أنهكتها الدوسنتاريا حتى أصبحت هزيلة للغاية. ذهبتُ لعلاج قدمي، إصبعي المفقودة التي بُترت بسبب قطعة من الأنقاض المتساقطة، وكانت تحادث نفسها وتتمتم.

قالت: «انظر إلى هذه الملابس»، ورأيت أنها ترتدي فستانًا غير معتاد في زمن الحرب. كان من الحرير اللامع، متسخًا جدًّا، لكنه مع ذلك كان فستانًا جميلًا من دون شك.

قالت: «انظر إلى هذا الوجه، هل ترى أملي الطائش؟»، ورأيت وجهها المغبر ووجنتيها الغائرتين، وعينيها اللامعتين.

غمغمت: «ظننت أنني فقدت كل شيء، باستثناء هذين الشيئين، وتساءلت، أيهما سأفقد بعد ذلك؟ الملابس أم الأمل؟ الأمل أم الملابس؟».

ثم تابعت ضاحكة، كأن كل دعواتها قد استُجيبت: «لكن انظر الآن، انظر إلى ما يحدث». وأخذت تنتزع خصلات من شعرها بسهولة، كما يُنتزع القمح الغض من تربة رطبة.

عثرت عليهما امرأة قروية عجوز. قالت المرأة القروية لاحقًا لشقيقتيك عندما كبرتا: «كيف كان يمكنني أن أقاوم؟». كانتا لا تزالان جالستين في طاعة تامة قرب المكان الذي تركتهما فيه والدتك، تبدوان كأنهما ملكتان صغيرتان من عالم الخيال، تنتظران قدوم المحفة الملكية.

عاشت المرأة، ماي تشينغ، وزوجها، ماي هان، في كهف حجري. كانت هناك آلاف الكهوف الخفية من هذا النوع في كويلين ومحيطها، مخفية إلى درجة أن سكانها ظلوا متوارين حتى بعد نهاية الحرب. كان الزوجان يخرجان من كهفهما كل بضعة أيام بحثًا عن مؤن غذائية تُركت على الطرقات، وأحيانًا كانا يعثران على شيء يتفقان على أنه من المؤسف تركه وراءهما. في أحد الأيام، عادا إلى كهفهما بمجموعة من أوعية الأرز المزخرفة بدقة، وفي يوم آخر مسند قدم صغير بوسادة مخملية وبطانيتَي زفاف جديدتين. وفي إحدى المرات، وجدا شقيقتيك.

كانا زوجين متدينين، من المسلمين، واعتقدا أن التوأمين علامة على الحظ المضاعف. وقد تأكدا من ذلك حين اكتشفا لاحقًا في المساء قيمة الرضيعتين. لم تكن هي وزوجها قد رأيا خواتم وأساور مثل تلك من قبل. وبينما أُعجبا

بالصور، وقد أدركا أن الرضيعتين من عائلة كريمة، إلا أنهما لم يكونا يعرفان القراءة أو الكتابة. ولم تجد ماي تشينغ شخصًا يستطيع قراءة الكتابة الموجودة على ظهر الصور إلا بعد عدة أشهر. بحلول ذلك الوقت، كانت قد أحبت هاتين الرضيعتين كأنهما ابنتاها.

في عام ١٩٥٢، توفي الزوج ماي هان، وكانت التوأمتان قد بلغتا الثامنة من العمر، فقررت ماي تشينغ أن الوقت قد حان للبحث عن عائلة شقيقتيك الحقيقية.

أرت الفتاتين صورة والدتهما، وأخبرتهما بأنهما وُلدتا في عائلة عظيمة، وأنها ستأخذهما لرؤية أمهما الحقيقية وأجدادهما. أخبرتهما ماي تشينغ عن المكافأة، لكنها أقسمت إنها سترفضها. فقد أحبت هاتين الفتاتين حبًّا جمًّا، وكل ما أرادته لهما هو ما تستحقانه: حياة أفضل، ومنزل فخم، وتعليم راقٍ. وربما تسمح لها العائلة بالبقاء مربيةً لهما. نعم، كانت واثقة بأنهم سيصرون على ذلك.

بالطبع، عندما وصلت إلى المكان في ٩ شارع ويتشانغ لو، في منطقة الامتياز الفرنسي القديمة، كان مختلفًا تمامًا. وجدت المكان عبارة عن مبنى مصنع شُيد مؤخرًا، ولم يكن أيٌّ من العمال على علم بما حل بالعائلة التي احترق منزلها في ذلك المكان.

لم تكن ماي تشينغ لتعرف بالطبع أن والدتك وأنا، زوجها الجديد، عدنا بالفعل إلى ذلك المكان نفسه في عام ١٩٤٥، على أمل العثور على عائلتها وابنتيها.

بقيتُ أنا ووالدتك في الصين حتى عام ١٩٤٧. زرنا مدنًا عديدة: عدنا إلى كويلين، ثم إلى تشانغشا، وذهبنا جنوبًا حتى كونمينغ. ودائمًا ما كانت تبحث بطرف عينها عن توأمتين رضيعتين، ثم لاحقًا عن فتاتين صغيرتين. وبعدها انتقلنا إلى هونغ كونغ، وعندما غادرنا أخيرًا إلى الولايات المتحدة في عام ١٩٤٩، أظن أنها كانت لا تزال تبحث عنهما حتى على متن السفينة. لكن عندما وصلنا، لم تَعُد تتحدث عنهما، فظننتُ حينها أنهما ماتتا في قلبها أخيرًا.

عندما أصبح من الممكن تبادل الرسائل علانية بين الصين والولايات المتحدة، كتبَت على الفور إلى أصدقائها القدامى في شنغهاي وكويلين. لم أكن أعلم أنها

فعلت ذلك، وأخبرتني عمتك ليندو لاحقًا. لكن بحلول ذلك الوقت بالطبع، كانت جميع أسماء الشوارع قد تغيرت، ومات بعض الناس، بينما انتقل آخرون إلى أماكن مختلفة. لذا استغرق الأمر سنوات طويلة حتى عثرت على شخص يمكن الاتصال به. وعندما عثرت على عنوان زميلة قديمة لها في المدرسة وكتبت إليها تطلب منها البحث عن ابنتيها، ردت صديقتها قائلة إن هذا مستحيل، كالبحث عن إبرة في قاع المحيط. كيف لها أن تعرف أن ابنتيها في شنغهاي وليس في مكان آخر في الصين؟ ولم تسألها صديقتها بالطبع: وكيف تعرفين أن ابنتيك لا تزالان على قيد الحياة؟

لذا لم تبحث عنهما صديقتها القديمة من المدرسة، حيث بدا العثور على أطفال فُقدوا في أثناء الحرب ضربًا من الخيال الساذج، ولم يكن لديها وقت لذلك.

لكن والدتك ظلت تراسل أشخاصًا مختلفين كل عام. وفي العام الماضي، أعتقد أنها خطرت لها فكرة جريئة، وهي الذهاب إلى الصين والبحث عنهما بنفسها. أتذكر أنها قالت لي: «كانينغ، يجب أن نذهب، قبل فوات الأوان، قبل أن نصبح كبيرين في السن»، لكنني أخبرتها بأننا كبرنا بالفعل، وفات الأوان.

ظننتها تريد الذهاب كسائحة فحسب! لم أعرف أنها أرادت الذهاب للبحث عن ابنتيها. لذا عندما قلت لها إن الأوان قد فات، لا بد أن ذلك زرع في رأسها فكرة مريعة مفادها أن ابنتيها ربما تكونان قد ماتتا. وأعتقد أن هذه الاحتمالية نمت أكثر فأكثر في رأسها، حتى قضت عليها.

ربما كانت روح والدتك المتوفاة هي التي قادت صديقتها من المدرسة في شنغهاي إلى العثور على ابنتيها. فبعد وفاة والدتك، رأت الصديقة شقيقتيك عن طريق المصادفة، في أثناء تسوقها للأحذية في متجر «نمبر وان» في شارع نانجينغ دونغ. قالت إن الأمر بدا أشبه بالحلم، عندما رأت امرأتين متشابهتين للغاية تنزلان السلم معًا. كان هناك شيء في تعابير وجهيهما ذكَّرها بوالدتك.

تقدمَت منهما بسرعة، ونادتهما باسميهما، اللذين لم تتعرَّفا عليهما في البداية بالطبع، لأن ماي تشينغ كانت قد غيرت اسميهما. لكن صديقة والدتك كانت واثقة للغاية، فأصرت: «ألستما وانغ تشون يو ووانغ تشون هوا؟»، وحينها، شعرت

الأختان المتماثلتان بالحماسة الشديدة، لأنهما تذكرتا الاسمين المكتوبين على ظهر صورة قديمة، صورة لشاب وامرأة كانتا لا تزالان تُجلانهما بوصفهما أول والدين أحباهما بشدة، واللذين ماتا وأصبحا روحين هائمتين لا تزالان تجوبان الأرض بحثًا عنهما.

* * *

شعرت بالإرهاق الشديد في المطار. لم أستطع النوم الليلة الماضية، حيث تبعتني آيي إلى غرفتي في الثالثة صباحًا، ونامت على الفور على أحد السريرين المفردين، وأخذت تشخر بقوة كأنها حطاب. استلقيت مستيقظة، أفكر في قصة أمي، مدركة كم من الأمور لم أكن أعلمها عنها، حزينة لأنني وأختَي قد فقدناها معًا.

والآن، في المطار، بعد أن صافحت الجميع ولوحت مودعة، فكرت في الطرق المختلفة التي نودع بها الناس في هذا العالم. نلوح للبعض في المطارات بابتسامة، مدركين أننا لن نرى بعضنا مرة أخرى، ونترك آخرين على جانب الطريق، راجين أن نلتقيهم مجددًا. وجدت أمي في قصة أبي، وودعتها قبل أن تتاح لي الفرصة للتعرف عليها بشكل أفضل.

ابتسمت لي آيي ونحن ننتظر الإعلان عن بوابتنا. بدت عجوزًا للغاية. أحطتها بذراعي، ثم أحطت لي لي بذراعي الأخرى، وبدا أنهما بالحجم نفسه. ثم حان الوقت، وبينما كنا نلوح مودعين مرة أخرى وندخل صالة الانتظار، شعرت كأنني أنتقل من جنازة إلى أخرى. أمسكت في يدي زوجًا من التذاكر إلى شنغهاي، حيث سنكون في غضون ساعتين.

أقلعت الطائرة، وأغمضت عينَي. كيف لي أن أصف لهما حياة أمنا بلغتي الصينية الركيكة؟ من أين أبدأ؟

قال أبي:

- استيقظي، لقد وصلنا.

استيقظت وقلبي يخفق بشدة. نظرت من النافذة، فإذا بنا على المدرج، والجو غائم في الخارج.

هأنذا الآن، أنزل درجات الطائرة، وأمشي على مدرج المطار متجهة نحو المبنى. فكرت في قرارة نفسي: لو أن أمي عاشت ما يكفي فحسب كي تكون هي من تسير متجهة نحوهما. غلبني التوتر الشديد، إلى درجة أنني لم أشعر بقدمَي، لكنني تحركت بطريقة ما.

صاح أحدهم:

- لقد وصلت!

ثم رأيتها، بشعرها القصير، وجسدها الضئيل، ونفس النظرة على وجهها. ضغطت بظهر يدها بقوة على فمها، وهي تبكي كما لو أنها مرت بمحنة رهيبة وتشعر بالسعادة لأنها انتهت.

كنت أعلم أنها ليست أمي، ومع ذلك، فهي نفس النظرة التي علت وجهها عندما كنت في الخامسة من عمري واختفيت طوال فترة ما بعد الظهيرة، لوقت طويل جدًّا، حتى إنها أيقنت أنني مت. عندما ظهرتُ بأعجوبة، وعيناي ناعستان وخرجت زاحفة من أسفل سريري، بكت وضحكَت، وعضت ظهر يدها لتتأكد من أن ذلك حقيقي.

والآن أراها مرة أخرى، بل اثنتان منها، تلوحان بيديهما، وفي يد إحداهما صورة، صورة البولارويد التي أرسلتها إليهما. بمجرد أن تجاوزت البوابة، ركضنا نحو بعضنا، وتعانقنا نحن الثلاث، وقد نسينا كل تردد وتوقعات.

همسنا جميعًا، «أمي، أمي»، كما لو كانت بيننا.

تأملتني شقيقتاي بفخر، وقالت إحداهما للأخرى باعتزاز:

- ماي ماي جانغ داله. أختنا الصغيرة كبرت.

نظرت إلى وجهيهما مرة أخرى، ولم أرَ فيهما أثرًا لأمي، ومع ذلك بدتا مألوفتين. ورأيت الآن ما الجزء الصيني الكامن بداخلي أيضًا. بدا واضحًا جدًّا: إنه عائلتي، وهو يسري في دمنا. بعد كل هذه السنوات، يمكنه التحرر أخيرًا.

وقفت أنا وشقيقتاي، متعانقات، نضحك ونمسح الدموع من أعين بعضنا. أومضت كاميرا البولارويد، ثم ناولني أبي صورة فوتوغرافية. راقبت أنا وشقيقتاي بهدوء، متحمسات لرؤية ما ستظهره الصورة.

تغير السطح الرمادي المخضر إلى ألوان زاهية لصورنا الثلاث، وازدادت حدة وعمقًا في آنٍ واحد. وعلى الرغم من أننا لم نتفوَّه بكلمة، لكنني أدركت أننا جميعًا رأينا ذلك: بدونا مثل أمنا ونحن معًا. نفس عينيها، ونفس فمها، مفتوحة بدهشة لرؤية أمنيتها العزيزة التي طال أمدها، وقد تحققت أخيرًا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

شكر وتقدير

أُعرب عن امتناني لمجموعة الكُتَّاب الأسبوعية التي أنتمي إليها، للُطفهم ونقدهم البناء في أثناء تأليف هذا الكتاب. وأشكر أيضًا لويس ديماتي وروبرت فوثوراب وجريتشن شيلدز وإيمي همبل وجينيفر بارث وعائلتي في الصين وأمريكا. وأهدي ألف زهرة إلى كلٍّ من الأشخاص الثلاثة الذين حالفني الحظ بمعرفتهم وسعدت بذلك: محررتي فيث سيل، لإيمانها بهذا الكتاب، ووكيلة أعمالي ساندرا ديكسترا، لأنها أنقذت حياتي، ومعلمتي مولي جايلز، التي طلبت مني البدء من جديد ثم أرشدتني بصبر حتى النهاية.

المؤلفة

إيمي تان كاتبة أمريكية من أصل صيني. صدرت لها العديد من الروايات الناجحة، وتُعَد «نادي بهجة الحظ» أشهرها وأنجحها. كما نشرت كتابين للأطفال، وكتاب مذكرات بعنوان «عكس القدر». نُشرت مقالاتها وقصصها في العديد من المجلات والأنطولوجيات، وتُرجمت أعمالها إلى خمس وثلاثين لغة. شاركت إيمي تان في إنتاج النسخة السينمائية من فيلم «نادي بهجة الحظ»، كما شاركت في كتابة السيناريو له. وكتبت أيضًا النص الأوبرالي لروايتها «ابنة مجبر العظام».

وهي عضو في مجلس إدارة الجمعية الأمريكية لحماية الطيور، وتعيش في سوساليتو في كاليفورنيا.

المترجمة

إيناس التركي مترجمة مصرية. تخرجت في قسم اللغة الإنجليزية وآدابها بكلية الآداب، جامعة عين شمس.

ترجمت لدار الكرمة كتاب «عندما تحب النساء أكثر مما ينبغي: أن تعيشي في انتظار أن يتغير» لروبين نورود، والروايات: «خلف هذه الأبواب» لروث وير، و«جمعية جيرنزي للأدب وفطيرة قشر البطاطس» لماري آن شيفر وآني باروز، و«المكتبة المتنقلة» لكريستوفر مورلي، و«أبريل الساحر» لإليزابيث فون أرنيم، و«بدافع القتل» لأنتوني هورويتز، و«لا تكذب أبدًا» لفريدا مكفادن، و«ريبيكا» لدافني دو موريه، و«مكتبة الكلمات المفقودة» لستيفاني باتلاند، و«سقوط جنتلمان» لهربرت كلايد لويس، و«كل هذا غير صحيح» لليسا جويل، و«سطوح طهران» لمهبد سراجي، و«وجدتك» لليسا جويل.

«رائعة... قوية كالأسطورة» — واشنطن بوست بوك وورلد

«مذهلة... الشيء السلبي الوحيد الذي يمكنني قوله عن هذه الرواية هو أنني لن أتمكن من قراءتها مجددًا للمرة الأولى» — لوس أنجلوس تايمز

«صادقة ومؤثرة وشجاعة بشكلٍ غاية في الجمال. تُقدِّم لنا إيمي تان لغز رابطة الأم والابنة بطرق لم نعرفها من قبل» — أليس ووكر

«لا توجد كتب كثيرة تُنهي قراءتها وترغب فورًا في إعادة قراءتها، ولكن هذا الكتاب واحد منها. «نادي بهجة الحظ» أشبه بعلبة أحجية صينية - معقدة وغامضة ومترابطة بطريقة تبدو بسيطة... تكاد تكون أسطورية في بنيتها، مثل حكايات شهرزاد الأسطورية الساحرة، لكنها أيضًا واقعية جدًّا. في الرواية قصص كثيرة، كل تفصيلة فيها أكثر إثارة وتشويقًا من سابقتها، كلٌّ منها يعكس قصة شخص آخر» — كوزموبوليتان

في عام ١٩٤٩، اجتمعت أربع نساء صينيات، هاجرن حديثًا إلى سان فرانسيسكو، للعب الماه جونغ، واسترجاع ذكريات الماضي، وتبادل الأحاديث والثرثرة حتى وقت متأخر من الليل. وقد جمعتهن خسارات لا توصف وأمل جديد، فأطلقن على أنفسهن اسم «نادي بهجة الحظ».

تستعرض إيمي تان، بذكاء وحساسية، الذكريات الموجعة أحيانًا، والرقيقة في أحيان أخرى كثيرة، التي تكشف عن قوة هؤلاء النسوة وهمومهن وعزيمتهن، وهي أمور تراها بناتهن، المولودات في أمريكا، غير ذات صلة بحياتهن. كما تستعيد البنات بدورهن لحظات محورية من ماضيهن، ويعتقدن أن توقعات أمهاتهن أعاقت قدرتهن على مواجهة غموض المستقبل.

رواية مؤثرة وحميمية، نرى من خلالها كيف يمكن أن يؤدي ميراث الألم والأسرار غير المعلنة إلى سوء الفهم، وكيف تكون المحبة قادرة على محو الضرر وتحقيق المصالحة على الرغم من كل شيء.

تُرجمت هذه الرواية إلى أكثر من ٣٥ لغة، وباعت عدة ملايين من النسخ، وتحولت إلى فيلم سينمائي ناجح، وصارت ضمن أجمل روايات العصر الحديث.

الكرمة

مكتبة
t.me/soramnqraa